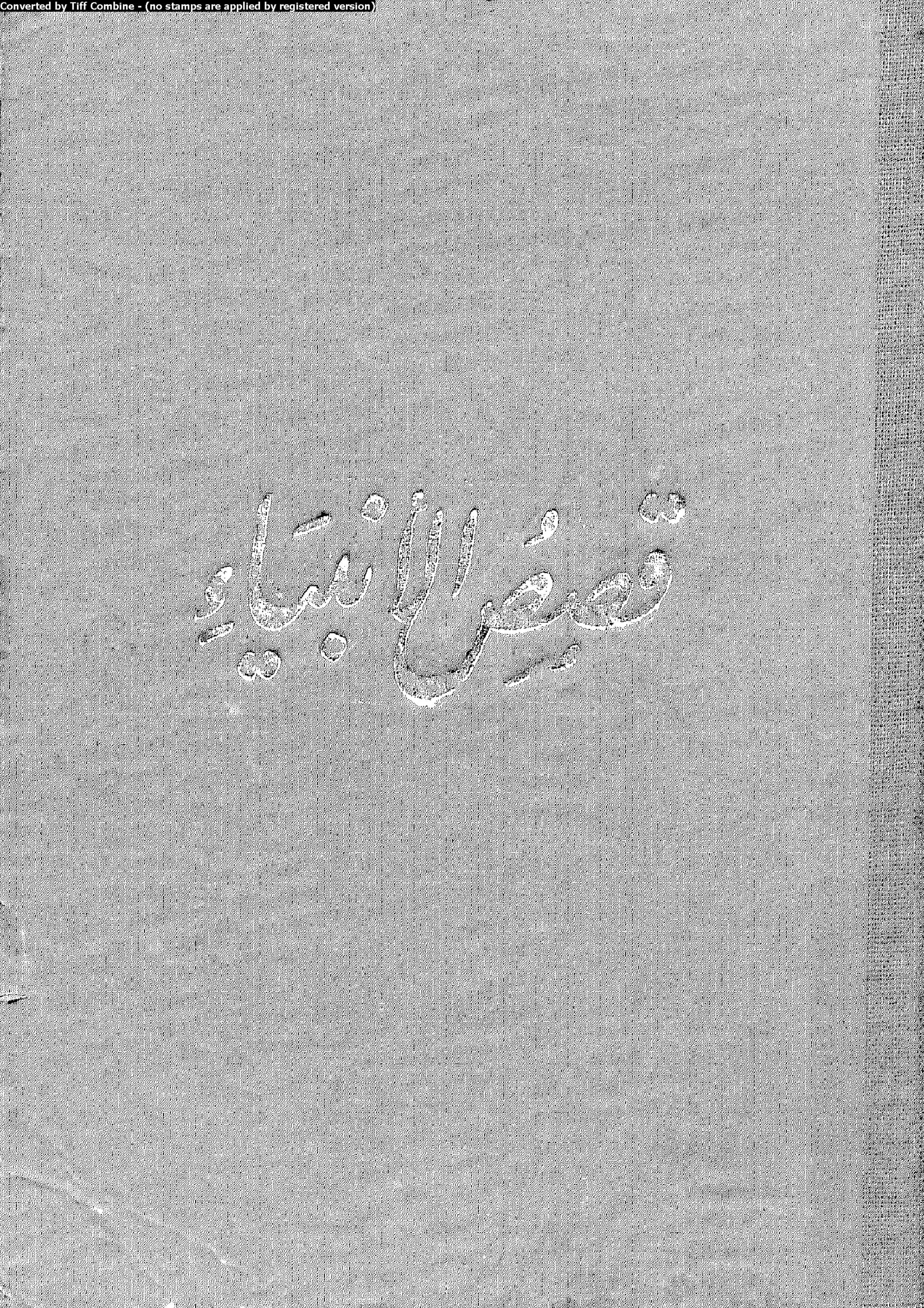
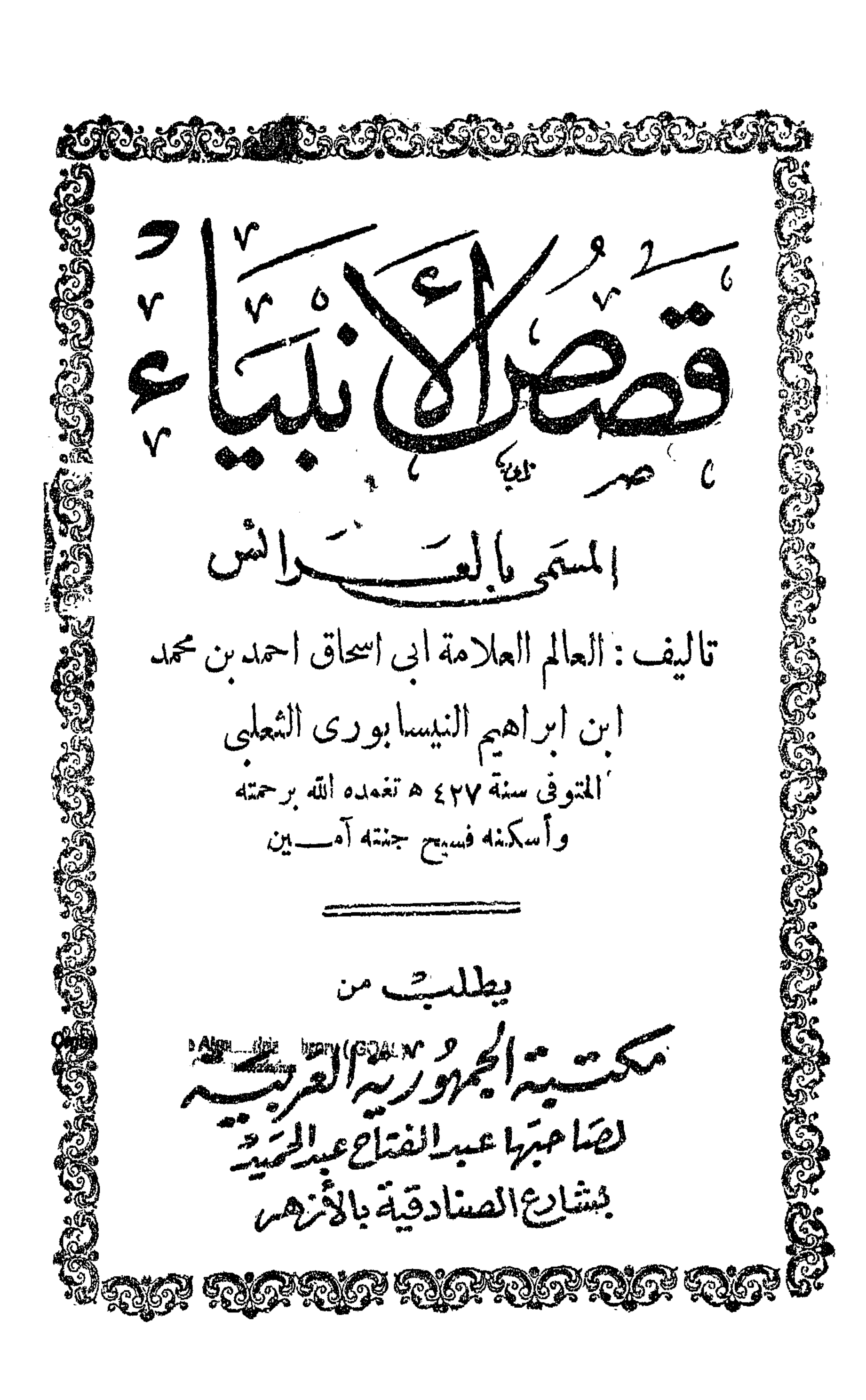

قصص الأنبياء







قصص الأنبياء

المسمى بالعرائس

تاليف : العالم العلامة ابى اسحاق احمد بن محمد

ابن ابراهيم النيسابورى الثعلبى

المتوفى سنة ٤٢٧ هـ تغمده الله برحمته

وأسكنه فسيح جنته آمين

يطلب من

مكتبة الجمهورية العربية

لصاحبها عبد الفتاح عبد الحميد

بشارع الصنادقية بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على محمد وآله (قال) الأستاذ أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى الثعلبي رحمه الله تعالى هذا كتاب يشتمل على قصص الأنبياء المذكورة فى القرآن بالشرح والله المستعان وعليه التكلان .

﴿ باب فى ذكر بعض وجوه الحكمة ﴾
(فى تقصيصه تعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين)

قال الله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) قالت الحكماء إن الله تعالى قص على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الأنبياء والأمم الخالية لخمسة أمور أى حكم :

(الحكمة الأولى) منها أنه إظهار لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته وذلك أن النبى ﷺ كان أمياً لم يختلف إلى مؤدب ولا إلى معلم ولم يفارق وطنه بمدة يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه علم الأخبار ولم يعرف له طلب شىء من العلوم إلى أن كان من أمره ما كان فنزل عليه جبريل عليه السلام ولقنه ذلك فأخذ يحدث الناس بأخبار ما مضى من القرون وسير الأنبياء والملوك المتقدمين فمن كان من قومه عاقلا موفقاً صدق بما يوحى إليه وإخباره إياه بذلك فآمن به وصدقه وكان ذلك معجزة له ودليلا على صحة نبوته ومن كان منهم عدواً معانداً حسده وجحده وأنكر ما جاء به وقال كما أخبر الله تعالى وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قال الله تعالى تكذيباً لهم وتصديقاً للنبى ﷺ (قل نزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) .

(الحكمة الثانية) أنه إنما قص عليه القصص ليكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء الصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم وأثنى عليهم ولتنتهى أمته عن أمور عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها إليها واستوجبوا من الله بذلك العذاب والعقاب فيتمم الله بذلك معالى الأخلاق

فلما امتثل أمر الله تعالى واستعمل أدب الأنبياء أثنى الله عليه فقال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) ولذلك قالت عائشة رضى الله تعالى عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت كان خلقه القرآن .

(الحكمة الثالثة) أنه إنما يقص عليه القصص تثبيتاً له وإعلاماً بشرفه وشرف أمته وعلى أقدارهم وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله علم أنه عوفى هو وأمته من كثير مما امتحن الله به الأنبياء والأولياء وخفف الله عنهم فى الشرائع ورفع عنهم الأثقال والأغلال التى على الأمم الماضية . كما قال بعض المتأولين فى تفسير قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة) أما النعمة الظاهرة فهى تخفيف الشرائع والباطنة تضعيف الصنائع قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (وما جعل الله عليكم فى الدين من حرج) وقال تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) فلما قص الله هذه القصص على نبيه رأى فضل نفسه وفضل أمته وعلم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم يخص بها أحد من الأنبياء والأمم فوصل قيام ليله بنهاره وصيامه بقيامه لا يفتر عن عبادة ربه أداء لشكره حتى تورمت قدماه فقيل يارسول الله أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً ثم افتخر عليه السلام فقال « بعثت بالحنفية السمحة » .

(الحكمة الرابعة) أنه إنما قص عليه القصص تأديباً وتهذيباً لأمته وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم والأعداء وعقابهم ثم ذكر فى غير موضع وتحذيره إياهم عن صنع الأعداء وحثهم على صنع الأولياء فقال تعالى (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) وقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وقال (وهدى وموعظة للمتقين) ونحوها من الآيات وكان الشبلى رحمه الله تعالى يقول فى هذه الآيات اشتغل العام بذكر القصص واشتغل الخاص بالاعتبار من القصص .

(الحكمة الخامسة) أنه قص عليه أخبار الأنبياء والأولياء والماضين إحياء لذكرهم وآثارهم ليكون المحسن منهم فى إبقاء ذكره مثبتاً له تعجيل جزائه

فى الدنيا حتى يبقى لذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام فى إبقاء الثناء الحسن فقال (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) والناس أحاديث يقال ما مات ميت والذكر يحييه وقيل ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر وأنشد ناصر بن محمد المروزى قال أنشدنى الدريدى :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

﴿ مجلس فى صفة خلق الأرض ﴾

قال الله تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء) الآية ونظائرها كثيرة فى القرآن (واعلم) أن الكلام فى نعمة خلق الأرض على سبعة أبواب :

﴿ الباب الأول فى بدء خلق الأرض وكيفيتها ﴾

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والارض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والارض ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع منه زبد ودخان بخار وأرعد من خشية الله فمن ذلك يرعد إلى يوم القيامة وخلق الله من ذلك الدخان السماء فذلك قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى قصد وعمد إلى خلق السماء وهى بخار وخلق من ذلك الزبد الأرض فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء مكة فدحا الله من تحتها فلذلك سميت أم القرى يعنى أصلها وهو قوله (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما خلق الله الارض كانت طبقاً واحداً ففتقها وصيرها سبعاً وذلك قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما) ولذلك قال بعض حكماء الشعراء :

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك فى الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال كعب الاحبار إن الأرض كانت تتكفأ على الماء كما تتكفأ السفينة على الماء فأرساها الله بالجبال وذلك قوله تعالى (والجبال أرساها) وقوله تعالى (والجبال أوتاداً) وقوله تعالى (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) يعنى لكيلا تتحرك بكم .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه أول ما خلق الله الارض عجت وقالت يارب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويلقون على الخبائث فاضطربت فأرساها الله تعالى بالجبال فأقرها وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه يقال له جبل قاف فأحاط بها كلها وهو الذى أقسم به الله فقال (ق والقرآن المجيد) .

وروى يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد فخلق الجبال وألقاها عليها فاستقامت فتعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال قال نعم الحديد فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الحديد قال نعم النار فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من النار قال نعم الماء فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الماء قال نعم الريح فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الريح قال نعم الإنسان يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله .

﴿ الباب الثانى فى حدود الأرض ومسافتها وأطباقها وسكانها ﴾

روى عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال (بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام وهى سبعة أطباق الارض (الاولى) هـذه فيها سكانها والأرض (الثانية) مسكن الريح ومنها تخرج الرياح المختلفة كما قال تعالى وتصريف الرياح وفى الأرض (الثالثة) خلق وجوههم مثل وجوه بنى آدم

لايعصون الله طرفة عين ليلنا نهارهم ونهارهم ليلنا والارض (الرابعة) فيها حجارة الـكبريت التى أعدها الله لأهل النار تسجر بها جهنم .

قال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسلت فيها الجبال الرواسى لانماعت » قال وهب بن منبه الـكبريت الاحمر والصخرة منها مثل الجبل العظيم وهى التى قال الله تعالى فيها (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة)

قال منصور بن عمار دخلت خربة فوجدت شاباً يصلى صلاة الخائفين فقلت لنفسى إن لهذا الفتى لشأناً عظيما لعله من أولياء الله تعالى فوقفت حتى فرغ من صلاته فلما سلم سلمت عليه فرد على فقلت ألم تعلم أن فى جهنم وادياً يسمى لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فاوعى فشهق شهقة فخر مغشياً عليه فلما أفاق قال زدنى فقلت (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) الآية فخر ميتاً فلما كشف ثيابه عن صدره رأيت مكتوباً عليه بقلم القدرة (فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية) » .

عن أبى الزرقاء عن عبد الله قال الجنـــة اليوم فى السماء السابعة فإذا كان غداً جعلها الله حيث يشاء والنار اليوم فى الارض السفلى فإذا كان غداً جعلها الله حيث يشاء وأما بعد قعر الارض فيكفيك به حديث قارون حيث خسف به الارض وبداره وبأمواله فنى الخبر أنه يخسف به كل يوم مقدار قامة فلا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة وقال النبى ﷺ بينما رجل يتبختر فى بردته وينظر فى عطفيه وقد أعجبته نفسه خسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

﴿ الباب الثالث فى ذكر الأيام التى خلق الله تعالى فيها الأرض ﴾

قال الله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) الآية قال أبو إسحق شبك بيدى أبو بكر محمد بن أحمد القحطان قال شبك بيدى أحمد بن

الحسين بن شاذان قال شبك بيدى إبراهيم بن يحي قال شبك بيدى صفوان بن سليم قال شبك بيدى أيوب خالد الأنصارى قال شبك بيدى عبد الله بن أبى واقع قال شبك بيدى أبو هريرة قال شبك بيدى أبو القاسم ﷺ فقال « خلق الله الأرض يوم السبت والجبال يوم الأحد والاشجار يوم الإثنين والظلمات يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعاء والدواب يوم الخميس وآدم يوم الجمعة » .

﴿ الباب الرابع فى ذكر أسمائها وألقابها ﴾

(قال) وهب بن منبه الاولى من الارض تسمى أديما والثانية بسيطا والثالثة ثقيلا والرابعة بطيحا والخامسة متثاقلة والسادسة ماسكة والسابعة ثرى .

(وما أسماؤها المذكورة فى القرآن) فهى سبعة أيضاً سماها الله فراشاً فقال (الذى جعل لكم الأرض فراشاً) وسماها قراراً فقال (أم من جعل الأرض قراراً) وسماها رتقاً فقال (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً) وسماها بساطاً فقال (والله جعل لكم الأرض بساطاً) وسماها مهاداً فقال (ألم يجعل الأرض مهاداً) وسماها ذات الصدع يعنى بالنبات وسماها كفاتا فقال (ألم نجعل الأرض كفاتاً) قال خالد بن سعيد كنت أمشى مع الشعبى بظهر الكوفة فنظر إلى بيوت الكوفة فقال هذه كفات الأحياء ثم نظر إلى المقبرة فقال هذه كفاة الاموات .

(يحكى) أن عبد الله بن طاهر لما قدم نيسابور صحبه من أولاد المجوس شاب متطبب يدعى تحقيق الكلام وأظهر مسألة حرق الانفس بالنار وكان يزعم أن الجسد جيفة منتن فى حال الحياة فإذا مات فلا حكمة فى دفنه والتسبب فى زيارة قبره وأن الواجب إحراقه وإذراء رماده فقيل لبعض الفقهاء إن الناس قد افتتنوا بمقالة هذا المجوسى لنسمع منه فاجتمعوا عند عبد الله بن طاهر أن أجمع بيننا وبين هذا المجوسى لنسمع منه فاجتمعوا عند عبد الله فلما تكلم المجوسى بمقالته

تلك قال له الفقيه أخبرنا عن صبى تدعيه أمه وحضينته أيهما أولى به فقال له الأم فقال إن هذه الأرض هى الأم منها خلق الخلق فهى أولى بأولادها أن يردوا إليها فأفحم المجوسى وأنشد فى معناه أمية بن أبى الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

(وسئل) يحى بن معاذ الرازى إن ابن آدم يدرى أن الدنيا ليست بدار قرار فلم يطمئن إليها قال لأنه منها خلق فهى أمه وفيها نشأ فهى عشه ومنها رزق فهى عيشه وإليها يعود فهى كفاته وهى ممر الصالحين إلى الجنة .

﴿ الباب الخامس فى ذكر مازين به الأرض ﴾

وهى سبعة أشياء الأزمنة وزين الأزمنة بأربعة أشهر قال الله تعالى (إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم) فالأربعة الاشهر الحرم منها ثلاثة سرد وواحد فرد فالثلاثة السرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والفرد رجب والأمكنة وزينها بأربعة أشياء مكة والمدينة وبيت المقدس ومسجد العشائر وزينها أيضاً بالأنبياء عليهم السلام وزين الانبيـــاء بأربعة إبراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى الوجيه ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم أجمعين وهم أهل الكتاب وأصحاب الشرائع وأولوا العـــزم وزينها أيضاً بآل محمد ﷺ وزينهم أيضاً بأربعة على وفاطمة والحسن ، الحسين رضى الله عنهم .

وزينهم أيضاً بأربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المرضيون رضى الله عنهم أجمعين .

(روى) عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا يجتمع حب هؤلاء الاربعة إلا فى قلب مؤمن قال أنس قد اجتمع حبهم فى قلبي والحمد لله وزينها أيضاً بالمؤمنين وزينهم بأربعة العلماء والقراء والغزاة والعباد وزينها بأنواع الحيوانات والنباتات والجمادات .

﴿ الباب السادس فى عاقبتها ومآلها وآخر حالها ﴾

اعلم أن الله تعالى وعدها بسبعة أشياء أحدها التبديل وهو قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وفى الخبر يؤتى بأرض بيضاء من فضة كالخبز النقى الحوارى لم يعص الله عليها قط طرفة عين ولا وصم فيها ولا قصم مستوية كالصاب المهند .

(والثانى) الزلزلة قال الله تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها) الآية وقال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل وتظهر الفتن ويكثر الهرج قيل وما الهرج يارسول الله قال القتل » فإذا أكلت أمتى الربا كانت الزلزلة وإذا جاروا فى الحكم اجترأ عليهم العدو وإذا ظهرت الفاحشة كان الوباء والموت وإذا منعوا الزكاة قحطوا ولولا البهائم لم يمطروا .

وفى الحديث « أن الأرض تزلزلت على عهد عمر رضى الله عنه فأخذ بعضادتى منبر رسول الله ﷺ وقال يا أهل المدينة إنكم رجفتم وإن الرجفة من كثرة الربا والزنا ونقصان الثمر من قلة الصدقة وإنكم أحدثتم أشياء حتى أعجلتم فهل أنتم منتهون أو يفر عمر من بين أظهركم .

(والثالث) البرز قال الله تعالى (وترى الأرض بارزة) يعنى لفصل القضاء .

(والرابع) الرج قال الله تعالى (إذا رجت الأرض رجا) قال المفسرون كما يرج الصبى فى المهد حتى ينكسر كل شيء عليها خوفا من ربها .

(والخامس) الرجف قال الله تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال)

(والسادس) المد حتى تتخلى وتلقى مافى بطنها قال الله تعالى (وإذا الأرض مدت وألقت مافيها وتخلت)

(والسابع) الدك قال الله تعالى (إذا دكت الأرض دكا دكا) وقال تعالى (فدكتا دكة واحدة)

﴿ الباب السابع فى وجوه الأرض المذكورة فى القرآن ﴾

وهى سبعة أولها مكة خاصة قال الله تعالى فى الرعد والانبياء (أولم يروا أنا نأت الأرض ننقصها من أطرافها) يعنى أرض مكة .

(الوجه الثانى) أرض المدينة قال الله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يعنى أرض المدينة وقال تعالى (إن أرضى واسعة) وقال الله تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها)

(الثالث) أرض الشام وذلك قوله تعالى (ادخلوا الأرض المقدسة) الآية يعنى بلاد الشام وقال تعالى (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين)

(الرابع) أرض مصر قال تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض) أرض مصر وقوله تعالى (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) وقوله (فلن أبرح الأرض) أى ارض مصر وقوله تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) وقال (ويستخلفكم فى الأرض) أى أرض مصر .

(الخامس) أرض المشرق فذلك قوله تعالى (إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) .

(السادس) الارضون كلها وذلك قوله تعالى (ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) وقوله تعالى (ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) فى التسخير وقال تعالى (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام) وقال تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشاً) .

(السابع) أرض الجنة فذلك قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وقوله تعالى (وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) .

﴿ مجلس فى ذكر خلق السموات وما يتصل به ﴾
((وترتيب الكلام فى هذا المجلس أيضاً على سبعة أبواب))

قال وهب بن منبه كادت الأشياء أن تكون سبعاً فالسموات سبع والأرضون سبع والجبال سبع والبحار سبع وعمر الدنيا سبعة آلاف والايام سبع والكواكب سبعة وهى السيارة والطواف بالبيت سبعة أشواط والسعى بين الصفا والمروة سبعة ورمى الجمار سبعة وأبواب جهنم سبعة ودركاتها سبعة وامتحان يوسف عليه السلام قال تعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) وإيتاؤه ملك مصر سبع سنين (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان) وكرامة الله المصطفى ﷺ سبع قال الله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) والقرآن سبعة أسباع وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء وخلقة من سبعة أشياء قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) ورزق الإنسان وغذاؤه من سبعة أشياء قال الله تعالى (فلينظر الإنسان إلى طعامه إلى قوله (متاعا لكم ولأنعامكم) وأمر السجود على سبعة أعضاء .

﴿ الباب الأول فى بدء خلق السموات ﴾

قال الله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى قصد ثم فتقها بعد أن كانت طبقة واحدة فصيرها سبع سموات قال الله تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما)

(الباب الثانى فى جواهرها وأجناسها)

قال الربيع بن أنس سماء الدنيا من موج مكفوف والثانية من صخرة والثالثة من حديد والرابعة من نحاس والخامسة من فضة والسادسة من ذهب والسابعة من ياقوتة بيضاء .

(الباب الثالث فى هيئتها وحدودها)

قال الله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) قال ابن عباس رحمه الله تعالى خلق الله السموات مثل القباب فسماء الدنيا قد شدت أقطارها بالثانية والثانية بالثالثة وكذلك إلى السابعة والسابعة بالعرش فذلك قوله تعالى (بغير عمد ترونها) وعمادها من فوقها .

(وعن أبى هريرة) رضى الله عنه قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون فقال فيم أنتم تتفكرون ؟ فقالوا نتفكر فى الخلق فقال لهم تتفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة تفكروا فى أن الله خلق السموات سبعاً والأرضين سبعاً وتحت كل أرض خمسمائة عام وبين السماء والارض خمسمائة عام وتحت كل سماء خمسمائة عام ومابين كل سماءين خمسمائة عام وفى السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله وفيه ملك قائم لا يتجاوز الماء كعبه .

(الباب الرابع فى أسمائها وألقابها)

قال وهب بن منبه أولها سماء الدنيا دنياح والثانية ديقا والثالثة رقيع والرابعة فيلون والخامسة ظفطاف والسادسة سماق والسابعة اسحا قاتل .

وأما أسماؤها المذكورة فى القرآن فسبعة أولها البناء قال الله تعالى (والسماء بناء) والسقف قال الله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً) والطرائق قال الله تعالى (وجعلنا فوقكم سبع طرائق) والطباق قال الله تعالى (الذى خلق سبع سموات طباقاً) والشداد قال الله تعالى (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) والرتق الفتق قال الله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) والدخان قال الله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) .

(وروى) أن الملائكة قالت يارب لو أن السماء والارض أمرتهما فعصياك ما كنت صانعاً بهما قال كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما قالت يارب

فأين تلك الدابة ؟ قال فى مرج من مروجى قالت يارب فأين ذاك المرج قال فى علم من علومى قالت الملائكة سبحان ذى البسط القوى .

وقد ورد عن الضحاك بن مزاحم الهلالى حديث غريب حسن جامع لما تقدم من الابواب فى صفة السموات وحدودها وهيئتها وما فيهـــا وأهلها وسكانها وأسمائها وألقابها وهو ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين العدل حدثنا محمد بن جعفر قال أخبرنا الحسن بن علوية قال حدثنا إسماعيل بن عيسى قال حدثنا إسحق بن بشر عن جويبر عن الضحاك ومقاتل قال خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينتها وهى ماء ودخان وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين الارض مسيرة خمسمائة عام ولونها كلون الحديد المجلى وإسمها برقيعا وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة خلقوا من نار وريح وعليهم ملك يقال له الرعد وهــــذا الرعد يسبح بحمده وهو ملك موكل بالسحاب والمطر يقول سبحان ذى الملك والملكوت .

وخلق السماء الثانية على لون النحاس وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة على ألوان شتى صفوف لو قيست شعرة بين منا كبهم لما انقاست رافعين أصواتهم يقولون سبحـان ذى العزة والجبروت وإسمها قيدوم وخلق الله فيها ملكا يقال له حبيب نصفه من نار ونصفه من ثلج وبينهما رتق فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النـــار وهو يقول يامن ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك ومنها إلى السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام .

ولون السماء الثالثة كلون الشبه وغلظها مسيرة خمسمائة عام وإسمها الماعون وفيها ملائكة ذو أجنحة الملك منهم له جناحـان وله أربعة أجنحة ووجوه شتى رافعون أصواتهم بالتسبيح ويقولون سبحان الحى الذى لايموت أبداً وهم

صفوف قيامهم كأنهم بنيان مرصوص لو قيست شعرة بين مناكبهم ما انقاست لايعرف أحد منهم لون صاحبه من خشية الله تعالى .

وخلق الله السماء الرابعة بينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام وغلظها مسيرة خمسمائة عام ولونها كلون الفضة البيضاء واسمها فيلون وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة السماء الثالثة وكذلك أهل كل سماء أكثر عدداً من السماء التى تليها إلى الضعف وفى السماء السابعة ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وهم فى كل يوم فى زيادة وذلك قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) قال وهم قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من للعبادة يبعث الله تعالى الملك منهم فى أمر من أموره فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذى أتى جانبه من شدة العبادة وهم يقولون سبوح قدوس ربنا الرحمن الذى لا إله إلا هو قال :

وخلق الله السماء الخامسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ولونها على لون الذهب واسمها اللاحقون ومنها إلى السماء السادسة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة الأربع سموات وهم ركوع سجود لم يرفعوا أبصارهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة قالوا ربنا نعبدك حق عبادتك .

وخلق الله السماء السادسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ومنها إلى السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام فيها جند الله الأعظم الأكبر الكروبيون لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وعليهم ملك جنوده سبعون ألف ملك وكل منهم جنوده سبعون ألف ملك وهم الذين يبعثهم الله فى أموره إلى أهل الدنيا رافعون أصواتهم بالتهليل والتسبيح واسمها عاروس وهى من ياقوتة حمراء .

وخلق الله السماء السابعة غلظها مسيرة خمسمائة عام فيها جنود الله تعالى من الملائكة وعليهم ملك وهو على سبعمائة ألف ملك كل منهم له من الجنود مثل قطر السماء وتراب الثرى والسهل والرمل وعدد الحصى والورق وعدد كل خلق فى سبع سموات وسبع أرضين ويخلق الله سبحانه وتعالى فى كل يوم ما يشاء واسمها الرقيع وهى من درة

بيضاء من السماء السابعة إلى مكان يقال له مرهوتا . سيرة خمسمائة عام وعليه جنود الله من الملائكة وهم رؤساء وهم أعظمهم سوى الروح وحملة العرش والعرش فوق ذلك فى عليين لا يعلم منتهاه إلا الله تعالى .

(الباب الخامس فى ذكر الأيام التى خلق الله الأشياء فيها)

روت الرواة أن الله تعالى ابتدأ خلق الأشياء يوم الأحد إلى يوم الخميس وخلق يوم الخميس ثلاثة أشياء السموات والملائكة والجنة إلى ثلاث ساعات بقيت من يوم الجمعة فخلق فى الساعات الأولى الأوقات والآجال وفى الثانية الأرزاق وفى الثالثة آدم عليه الصلاة والسلام وذلك قوله عز وجل (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها) الآية .

(الباب السادس فى ذكر مازين الله به السموات)

وهى عشرة أشياء الشمس قال الله تعالى (وجعل الشمس سراجا) وقال تعالى (سراجا وهاجا) والقمر قال الله تعالى (وجعل القمر فيهن نوراً) والكواكب قال الله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وهى على ضربين منها معلق كتعليق القناديل فى المساجد ممسكة بقدرة الله عز وجل .

(وروى) جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال فى العرش مثل جميع ما خلق الله تعالى فى البر والبحر وقال هذا تأويل قوله تعالى (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) وأن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية لخفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى والأشياء كلها فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة وان لله ملكا يسمى حزقيائيل له ثمانية عشر ألف جنـــاح ما بين الجناح مسيرة خمسمائة عام فخطر له خاطر هل يقدر أن ينظر إلى العرش فزاده الله تعالى فى الاجنحة مثلها فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ثم أوحى الله

تعالى إليه أيها الملك طر فطار مقدار عشرين ألف سنة فلم يبلغ قائمة من قوائم العرش ثم ضاعف الله تعالى له الاجنحة والقوة وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف سنة فبلغ رأس قائمة من قوائم العرش فأوحى الله تعالى إليه أيها الملك لو طرت إلى أن ينفخ فى الصور مع أجنحتك وقوتك ما تبلغ ساق عرشى فقال له الملك سبحان ربى الأعلى فأنزل الله سبحانه وتعالى (سبح إسم ربك الأعلى) فقال النبى ﷺ « اجعلوها فى سجودكم » .

(وروى) على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ أنه قال الكرسى لؤلؤة طولها حيث لا يعلمه العاملون وقد جعل الله آية الكرسى أمانا لأهل الإيمان من شر الشيطان .

(وروى) إسماعيل بن مسلم عن أبى المتوكل الناجى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب فإذا التمر قد أخذ منه ملء الكف ثم دخل يوماً آخر فإذا هو قد أخذ منه مثل ذلك ثم دخل يوماً آخر فإذا هو قد أخذ منه مثل ذلك فذكر ذلك أبو هريرة رضى الله عنه للنبى ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام أيسرك أن تأخذه قال نعم قال إذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك لمحمد فذهب ففتح الباب وقال ذلك فإذا هو قائم بين يديه فقال له ياعدو الله أنت صاحب الفعل قال نعم لا أعود ما كنت أخذت منه إلا لأهل بيت فقراء من الجن فتركه ثم عاد فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال أيسرك أن تأخذه قال نعم قال فإذا فتحت الباب فقل مثل ذلك أيضاً ففتح الباب وقال سبحان من سخرك لمحمد فإذا هو قائم بين يديه فقال ياعدو الله أليس قد عاهدتنى أن لا تعود فقال دعنى هذه المرة فإنى لا أعود فتركه ثم عاد فأخذ الثالثة فقال أليس قد عاهدتنى أن لا تعود لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبى ﷺ فقال لا تفعل فإنك إن تدعنى علمتك كلمة فإذا قلتها لم يقربك أحد من الجن لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى قال له لتفعلن إن تركتك قال نعم قال فما هى؟ قال (الله لا إله إلا هو الحى القيوم)

حتى ختمها فتركه فذهب فلم يعد بعد ذلك فذكر ذلك أبو هريرة للنبى ﷺ فقال له أما علمت يا أباهريرة هذه ؟ إنه كذلك صدق الخبيث ، واللوح والقلم قال الله تعالى (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) وقال تعالى (ن والقلم ومايسطرون)ء

وقال ابن عباس أن مما خلق الله تعالى لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء كتابيه نور وقلمه نور وعرضه كما بين السماء والأرض ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن)

(ويروى) أن أول ماخلق الله القلم فنظر إليه نظرة هيبة وكان طوله كما بين السماء والارض فانشق نصفين وقال اكتب فقال يارب وما أكتب قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال أجر بما هو كائن إلى يوم القيامة .

(ويحكى) أن ابن الزيات دخل على بعض الخلفاء فوجده مغموماً فقال له روح عنى يا ابن الزيات فأنشد يقول :

الهم فضل والقضـــاء غائب ... وكائن ما خط فى اللوح
فالتمس الروح وأســـبابه ... أيأس ما كنت من الروح

والبيت المعمور :

(وروى) الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ أن فى سماء الدنيا بيتاً يقال له البيت المعمور بحيال الكعبة وأن فى السماء السابعة بحراً من نور يقال له الحيوان يدخل فيه جبريل عليه السلام كل غداة فينغمس فيه انغماسه ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج منه سبعون ألف قطرة من نور فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا فيأمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه فيأتونه فيدخلونه ويصلون فيه ثم يخرجون فلا يعودون إليه إلى يوم القيامة وسدرة المنتهى قال الله تعالى (عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) .

(وقال) كعب وغيره دخل حديث بعضهم في بعض هي شجرة في السماء السابعة مما يلي الجنة أصلها ثابت في الجنة وعروقها تحت الكرسي وأغصانها تحت العرش إليها ينتهي علم الخلائق كل ورقة منها تظل أمة من الأمم يغشاها ملائكة كأنهم فراش من ذهب وعليها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ومقام جبريل عليه السلام وسطها والله أعلم والجنة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن الجنة كيف هي ؟ قال من يدخل الجنة حتى لا يموت ومنعم لا ييأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه قيل يا رسول الله كيف بناؤها قال لبنة من ذهب ولبنة من فضة بلاطها مسك أزفر وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران .

(وروى) مجاهد عن مسروق عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ أن السماء أطت وحق لها أن تئط ليس منها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم أو قاعد يذكر الله تعالى لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصحراء تجأرون إلى الله تعالى

(الباب السابع في ذكر مآلها وآخر حالها)

إعلم أن الله تعالى وعد السماء بسبعة أشياء أحدها المور قال الله تعالى (يوم تمور السماء موراً) يعني تدور كدوران الرحا من هول يوم القيامة والثاني أخبر أنها تصير كالمهل فقال تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) يعني دردي الزيت والثالث أخبر أنها تصير وردة كالدهان قال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) والرابع الإنشقاق قال تعالى (إذا السماء انشقت) والخامس الانفطار قال تعالى (إذا السماء انفطرت) و (السماء منفطر به) والانفطار أكثر من الإنشقاق والسادس الانفراج قال تعالى (وإذا السماء فرجت) والسابع الكشط قال تعالى (وإذا السماء كشطت) أي نزعت من مكانها وطويت طياً قال تعالى (يوم تطوى السماء كطي السجل للكتب) الآية وأحسن الشاعر حيث قال :

إذا قيل من رب هذى السما فليس سواه له مضطرب

ولو قيل رب سوى ربنـا لقال العباد جميعاً كذب

وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه بأبى أنت وأمى يارسول الله ذكرت مجرى الخنس مع الشمس والقمر وقد أقسم الله تعالى بالخنس فى القرآن مثل ما كان ذكرك اليوم فما الخنس؟ فقال « ياعلى هن الكواكب الخمسة البرجيس وهو المشترى وزحل وعطارد وبهرام والزهرة فهذه الكواكب الخمسة الطالعات الجاريات مع الشمس والقمر فى الفلك وأما سائر الكواكب فكلها معلقات فى السماء كتعليق القناديل فى المساجد وهى تدور مع السماء دوراناً بالتسبيح والتقديس والصلاة لله تعالى » ثم قال النبى ﷺ وأن أحببتم أن تستبينوا ذلك فانظروا دوران الفلك مرة من هنا ومرة من هنا وإن لم تستبينوا الفلك فالمجرة وبياضها مرة من هنا ومرة من هنا فذلك دوران الشمس والقمر ودوران الكواكب معها سوى هذه الخمسة ودورانها اليوم كما ترون فذلك صلاتها ودورانها يوم القيامة فى سرعة دوران الرحامن أهوال يوم القيامة فذلك قوله تعالى (يوم تمور السماء موراً) يعنى تدور دوراناً (وتسير الجبال سيراً) فإذا طلعت الشمس فإنها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها ومعها ثلثمائة وستون ملكا ناشرى أجنحتهم يجرونها فى الفلك بالتسبيح والتقديس لله تعالى على قدر ساعات النهار والقمر كذلك قدر ساعات الليل ما بين الطول والقصر فى الشتاء كان ذلك أو فى الصيف أو بينهما من الخريف والربيع فإذا أحب الله أن يبتلى القمر والشمس ويرى العباد آية من الآيات يستعتبهم رجوعاً عن معاصيه وإقبالا على طاعته تحركت الشمس على العجلة وقالت مرة خرت الشمس عن العجلة وهو الفلك فإذا أراد الله تعالى أن يعظم تلك الآية ليشتد خوف العباد غربت الشمس كلها فلا يبقى على العجلة شىء منها فذلك حين يظلم النهار وتبدو النجوم وذلك هو المنتهى من كسوفها فإذا أراد الله أن يجعل آية دون آية وقع النصف منها أو الثلث أو الثلثان فى الماء ويبقى سائر ذلك على العجلة وهو كسوف دون كسوف وابتلاء الشمس والقمر وذلك تخويف العباد واستعتاب من الله تعالى فأى ذلك صارت الملائكة الموكلة

بعجلتها فرقتين فرقة منهم يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة والفرقة الأخرى تقبل على العجلة فتجرها إلى الشمس وهم فى ذلك يقردونها فى فلك على مقادير ساعات النهار أو ساعات الليل ليلا كان أو نهاراً لكيلا يزيد فى طولها شىء وقد ألهمهم الله تعالى علم ذلك وجعل لهم تلك القوة الذى ترون من خروج الشمس والقمر بعد الكسوف قليلا قليلا من ذلك السواد حتى يحمد الله تعالى على ماقواهم لذلك ويتعلقون بعرى العجلة حتى يجرونها بإذن الله تعالى قال ﷺ عجبت من خلق الله ومابين من القدرة فيما لم يخلق أعجب منه ومن ذلك قول جبريل عليه السلام لسارة (أتعجبين من أمر الله) .

إن المجتهدون فى الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة فى الأرض فى كل بلد من بلاد المسلمين فى هوان بين الناس وذلة فى أنفسهم فينام أحدهم تلك الليله مقدار ما كان ينام قبلها من الليل ثم يقوم فيتوضأ ويدخل مصلاه فيصلى ورده ولايصبح نحوما كان يصبح كل ليلة قبل ذلك فينكر ذلك ويخرج فينظر إلى السماء فإذا هو بالليل مكانه والنجوم قد استدارت فى السماء وصارت فى مكانها من أول الليل فينكر ذلك ويظن فيها الظنون ويقول خففت قراءتى أم قصرت صلاتى أم قمت قبل حينى قال ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلى ثم ينظر فلايرى الصبح فيخرج أيضاً فإذا هو بالليل مكانه فيزيده ذلك إنكاراً ويخالطه الخوف ويظن فى ذلك الظنون من السوء ثم يقول لعلى قصرت صلاتى أو خففت قراءتى أو قمت فى أول الليل ثم يعود وهو وجل خائف مشفق لما يتوقع من هول تلك الليلة فيقوم فيصلى أيضا مثل ورده كل ليلة قبل ذلك ثم ينظر فلا يرى الصبح فيخرج الثالثة فلا ينظر إلى السماء فإذا هو بالنجوم قد استدارت مع السماء فصارت فى أماكنها فى أول الليل فشفق عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيلحقه الخوف وتلحقه الندامة .

ثم ينادى بعضهم بعضاً وهم قبل ذلك كانوا يتعارفون ويتواصلون فيجتمع المجتهدون من أهل بلده فى تلك الليلة فى مسجد من مساجدهم يجأرون إلى الله تعالى بالبكاء والصراخ بقية تلك الليلة فإذا ماتم لهم مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى

جبريل عليه السلام إليهما فيقول لهما إن الله تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه لاضوء لكما عندنا ولا نور فيبكيان عند ذلك وجلا من الله تعالى وخوف يوم القيامة بكاء يسمعه أهل السبع السموات ومن دونها وأهل سرادقات العرش ومن فوقها فيبكون جميعاً لبكائهما لما خالطهما من خوف الموت وخوف يوم القيامة فترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما قال فبينما المجتهدون يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى والغافلون فى غفلتهم إذ نادى مناد ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما فينظر الناس فإذا بهما أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك فذلك قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) وقوله تعالى (إذ الشمس كورت) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين فينازع كل واحد منهما صاحبه استباقا ويتصارخ أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها والأحبة عن ثمرات فؤادها فتشغل كل نفس بما كسبت فأما الصالحون والأبرار فإنهم ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم ذلك عبادة وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم ويكتب عليهم حسرة فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرة السماء وهى منتصفها جاءهما جبريل عليه السلام فيأخذ بقرنهما ويردهما إلى المغرب فلا يغربهما من تلك العيون ولكن يغربهما من باب التوبة .

فقال عمر بأبى أنت وأمى يارسول الله وما باب التوبة ؟ فقال ياعمر خلق الله تعالى بابا للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والجواهر ما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله تعالى الدنيا إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ولم يتب عبد من عباد الله تعالى توبة نصوحا منذ خلق الدنيا إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة فى ذلك الباب ثم ترتفع إلى الله تعالى .

فقال معاذ بن جبل بأبى أنت وأمى يارسول الله وما التوبة النصوح قال أن يندم العبد على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع قال فيغربهما جبريل عليه السلام من ذلك الباب ثم يرد المصراعين

ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صدع قط وإذا أغلق باب التوبة فلم يقبل العبد بعد ذلك توبة ولا تنفعه حسنة يعملها فى الإسلام إلا من كان قبل ذلك محسناً فانه يجرى عليه ما كان يجرى عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله تعالى(يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً) فقال أبى بن كعب بأبى أنت وأمى يارسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا ؟ فقال يا أبى إن الشمس والقمر يكسيان النور والضوء بعد ذلك ثم يطلعان ويغربان كما كان قبل ذلك وأما الناس فانهم معماراً وا من فظاعة تلك الآية وعظمتها يلحون على الدنيا ويجرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الأشجار ويبنون فيها البنيان وأما الدنيا فلو نتج للرجل منهم فيها مهر لم يركبه حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن ينفخ فى الصور فقال حذيفة جعلنى الله فداك يارسول الله فكيف بهم عند النفخ فى الصور قال يا حذيفة والذى نفسى بيده لينفخن فى الصور ولتقومن الساعة والرجل قد لاط حوضه فلا يشرع فيه الماء ولتقومن الساعة وقد أخذ لبن لقحته من تحتها فلا يشربه ولتقومن الساعة والثوب بين الرجلين فلا ينشرانه ولا يطويانه ولا يبيعانه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع لقمته إلى فيه فلا يطعمها ثم تلا هذه الآية (وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) فاذا قامت الساعة قضى الله تعالى بين أهل الدارين وميز بين الفريقين ، أهل الجنة والنار وقبل أن يدخلوهما يدعو الله تعالى بالشمس والقمر فيجاء بهما أسودين لا نور لهما مكدرين قد وقعا فى الزلازل والبلايا وفرائصهما ترتعد من هول يوم القيامة وهول ذلك ومن مخافة الرحمن تعالى فاذا كان حذاء العرش خر ساجدين لله تعالى ويقولان يا إلهنا قد علمت طاعتنا لك ودأبنا فى طاعتك وسرعتنا للمضى فى أمرك أيام الدنيا فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا فقد علمت أنا لن ندعوهم إلى عبادتنا ولم نزهل عن عبادتك فيقول الله تعالى صدقتما إنى قد قضيت على نفسى أن أبدىء وأعيد وإنى معيدكما إلى ما بدأتكما منه فارجعا إلى ما خلقتكما منه فيقولان ربنا مم خلقتنا فيقول خلقتكما من نور عرشى فارجعا إليه فيلمع من كل واحد منهما برقة تكاد تخطف الأبصار نوراً فيختلطان بنور العرش فذلك قوله تعالى (يبدىء ويعيد) .

﴿ مجلس فى قصة آدم عليه الصلاة والسلام وهو يشتمل على أبواب كثيرة ﴾

(الباب الأول فى ذكر وجود الحكمة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام)

قال الحكماء خلق الله الخلق ليظهر وجوده وليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة لأنها لا تتأتى إلا من قادر حكيم وليعبد فإنه يحب عبادة العابدين ويثيبهم عليها على قدر فضله لا على قدر أفعالهم وإن كان غنياً عن عبادة خلقه لا تزيد فى ملكه طاعة المطيعين ولا ينقص من ملكه معصية العاصين قال الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وليظهر إحسانه لأنه محسن فأوجدهم ليحسن إليهم وليتفضل عليهم فيعامل بعضاً بالعدل وبعضاً بالفضل وخلق المؤمنين خاصة للرحمة كما قال عز وجل (وكان بالمؤمنين رحيما) وقال تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم .

قال جعفر بن محمد الصادق والضحاك عن مزاحم أى للرحمة خلقهم وليحمدوه لأنه يحب الحمد (ويروى) أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم والحسن والقبيح والأسود والأبيض فقال يارب هلا سويت بينهم فقال الله تعالى إنى أحب أن أشكر .

(قال) أبو الحسن القفال خلق الله تعالى الملائكة للقدرة وخلق الأشياء للعبرة وخلق الإنسان للمحنة قال عز وجل (هو الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) .

(قال العلماء) خلقكم لإظهار القدرة ثم رزقكم لإظهار الكرم ثم يميتكم لإظهار القهر والجبروت ثم يحييكم لإظهار العدل والفضل والثواب والعقاب ومنهم من قال الخلق جميعهم لأجل محمد ﷺ .

عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال « أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ياعيسى آمن بمحمد وأمر أمتك أن يؤمنوا به ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن ، وقيل خلقهم لأمر

عظيم غيبه عنهم لايجليه حتى يحل بهم ماخلقهم له قال الله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون) وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه (ياأيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو)

وقال الاوزاعى « بلغنى أن فى السماء ملكا ينادى كل يوم لاليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا عرفوا ماخلقوا له » وقال بعضهم « إذا ماتو ثم خلقوا عرفوا ماخلقوا له وجلسوا فتذكروا ماعملوا » وكان أبو عبدالرحمن الزاهد يقول فى مناجاته « إلهى غيبت عنى أجلى وأحصيت على عملى ولا أدرى إلى أى الدارين منقلبى لقد أوقفتنى وقفة المحزونين أبدا ما أبقيتنى » وقال أبو القاسم الحكيم « إن الله تعالى جعل ابن آدم بين البلوى والبلى فما دام الروح فى جسده فهو فى البلوى فاذا فارق الروح الجسد فهو فى البلى فأنى له السرور وهو بين البلوى والبلى) .

وقال بعض الحكماء ياابن آدم أنظر إلى خطر مقامك فى الدنيا وإن ربك حلف فقال (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وإن إبليس حلف فقال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) وأنت يامسكين بين الله تعالى وبين إبليس مطروح ساه لاه والله أعلم .

(الباب الثانى فى خلق آدم عليه الصلاة والسلام وكيفيته وصفته)

قال المفسرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة إن الله تعالى لما خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى الله إلى الأرض إنى خالق منك خلقاً منهم من يطيعنى ومنهم من يعصينى فمن أطاعنى منهم أدخلته الجنة ومن عصانى أدخلته النار ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض إنى أعوذ بعزة الذى أرسلك أن لاتأخذ منها شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب فيرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً وقال يارب استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها فأمر الله عز وجل ميكائيل عليه السلام فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً فيرجع إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً فبعث الله ملك الموت فأتى

الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً فقال ملك الموت وأنى أعوذ بالله أن أعصى له أمراً فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى ومن سبختها وطينها وأحمرها وأسودها وأبيضها وسهلها ومهادها فكذلك كان فى ذرية آدم الطيب والخبيث والصالح والطالح والجميل والقبيح ولذلك اختلفت صدورهم وألوانهم قال الله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) ثم صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى فأمره أن يجعلها طيناً ويخمرها فعجنها بالماء المر والعذب والملح حتى جعلها طيناً وخمرها فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم أمر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالقبضة البيضاء التى هى قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمداً ﷺ فهبط جبريل عليه السلام فى ملائكة الفردوس المقربين الكروبين وملائكة الصفح الأعلى فقبض قبضة من موضع قبر النبى ﷺ وهى يومئذ بيضاء نقية فعجنت بماء التسليم ورعرعت حتى صارت كالدرة البيضاء ثم غمست فى أنهار الجنة كلها فلما أخرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبياً فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين.

قال الله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) الآية قال ابن عباس الإنسان آدم والحين أربعون سنة كان آدم جسداً ملقى على باب الجنة فى صحيح الترمذى بالإسناد عن رسول الله ﷺ فى تفسير أول البقرة (إن الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض من السهل والجبل والاسود والأبيض والاحمر فجاءت الأولاد على ألوان الارض .

وسأل عبدالله بن سلام رسول الله ﷺ كيف خلق الله آدم عليه السلام؟ فقال: خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة وصدره وظهره من بيت المقدس وفخذيه من أرض اليمن وساقيه من أرض مصر وقدميه من أرض الحجاز ويده اليمنى من أرض المشرق ويده اليسرى من أرض المغرب ثم ألقاه على باب الجنة فكلما مر عليه ملأ من

الملائكة عجبوا من حسن صورته وطول قامته ولم يكونوا قبل ذلك رأوا شيئاً يشبهه من الصور فمر به إبليس فرآه فقال لأمر ما خلقت ثم ضربه بيده فإذا هو أجوف فدخل فيه وخرج من دبره وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يتماسك ثم قال لهم أرأيتم إن فضل هذا عليكم فما أنتم فاعلون قالوا نطيع ربنا قال إبليس فى نفسه والله لئن فضل هذا على لأعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكنه فذلك قوله تعالى (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) يعنى ما أظهرت الملائكة من الطاعة وإبليس من المعصية وقوله تعالى (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وفى الخبر أن جسد آدم عليه الصلاة السلام كان ملقى أربعين سنة يمطر عليه مطر الحزن ثم أمطر عليه مطر السرور سنة واحدة فلذلك كثرت الهموم فى أولاده وتصير عاقبتها إلى الفرح والراحة ، وأنشدنا فى هذا المعنى أبو عوانه المهرجانى :

يقولون إن الدهر كله يومان　　فيوم محبات ويوم مكاره
وما صدقوا فالدهر يوم محبة　　وأيام مكروه كثير البدائة

وأنشدنى ابن الأعرابى فقال :

محن الزمان كثيرة لا تنقضى　　وسروره يأتيك بالفلتات

وأنشدنى أبو بكر الصولى لابن المعتز :

أى شىء يكون أعظم من ذا　　لو تفكرت فى صروف الزمان
حادثات السرور توزن وزنا　　والبلايا تكال بالقفزان

(الباب السادس فى صفة نفخ الروح)

قال العلماء لما أراد الله أن ينفخ فى آدم عليه السلام الروح أمرها أن تدخل فى فيه فقالت الروح مدخل بعيد القعر مظلم المدخل فقال للروح ثانية فقالت مثل ذلك وكذلك ثالثة إلى أن قال فى الرابعة أدخلى كرها واخرجى كرها فلما أمرها الله

تعالى بذلك دخلت فى فيه فأول ما نفخ فيه الروح دخلت من دماغه فاستدارت نزلت فى عينيه والحكمة فى ذلك أن الله تعالى أراد أن يرى آدم بدء خلقه وأصله حتى إذا تتابعت عليه الكرامات لا يدخله الزهو ولا العجب بنفسه ثم نزلت فى خياشيمه فعطس فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه فلقنه الله تعالى أن قال الحمد لله رب العالمين فكان ذلك أول ما جرى على لسانه فأجابه ربه عز وجل يرحمك ربك يا آدم للرحمة خلقتك قال تعالى سبقت رحمتى غضبى ثم نزلت الروح إلى صدره وشرايينه فأخذ يعالج القيام فلم يمكنه ذلك وذلك قوله تعالى (وكان الإنسان عجولا) وقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) فلما وصلت الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فهو أول حرص دخل جوف آدم عليه الصلاة والسلام .

(وفى) بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما قال له ربه يرحمك ربك يا آدم مد يده ووضعها على أم رأسه قال أوه فقال الله مالك يا آدم فقال إنى أذنبت ذنباً فقال من أين علمت ذلك فقال لأن الرحمة للمذنبين فصارت تلك سنة فى أولاده إذا أصاب أحدهم مصيبة أو محنة وضع يده على رأسه وتأوه ثم انتشر الروح فى جسده كله فصارت لحماً ودماً وعظاما وعروقاً وعصباً ثم كساه الله تعالى لباساً من ظفر وجعل يزداد كل يوم حسناً فلما قارف الذنب بدل بهذا الجلد ثم خلق الله فرساً من المسك الأذفر يقال له الميمون له جناحان من الدر والجواهر فركبه آدم عليه الصلاة والسلام وجبريل آخذ بلجامه وميكائيل عن يمينه وإسرافيل عن شماله فطافوا به السموات كلها وهو يقول السلام عليكم يا ملائكة الله فيقولون وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقال الله تعالى يا آدم هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بينهم إلى يوم القيامة ثم علمه الله تعالى الأسماء كلها .

(واختلف) العلماء فى هذه الأسماء فقال الربيع ابن أنس أسماء الملائكة كلهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أسماء ذريته وقال ابن عباس وأكثر الناس علمه اسم كل شىء حتى القصعة والقصيعة ثم أمر الله الملائكة بالسجود له كما قال الله تعالى

(فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) وأكثر العلماء على أن الأمر بالسجود لآدم إنما توجه على الملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون سائر الملائكة وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعبادة فلما أمرهم بالسجود سجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

(الباب الرابع في صفة خلق حواء عليها السلام)

قال المفسرون لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشي فيها وحشياً لم يكن له من يجالسه ويؤانسه فألقى الله تعالى عليه النوم فنام فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه من شقه الايسر يقال له القصيرى فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك ولا وجد له ألماً ولو تألم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة ثم لبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة وأجلسها عند رأسه فلما هب آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه ماهذه يا آدم قال امرأة قالوا وما اسمها قال حواء قالوا صدقت ولم سميت حواء بذلك قال لأنها خلقت من شيء حي قالوا ولما ذا خلقها الله تعالى لتسكن إلى وأسكن إليها وذلك قوله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) قال النبي ﷺ « خلقت المرأة من ضلع أعوج فإن تقمها تكسرها وإن تتركها تستمتع بها على عوجها » .

(وقيل) الحكمة في أن الرجال يزيدون على مرور الايام والاعوام حسناً وجمالا لأنهم خلقوا من التراب والطين يزداد كل يوم جدة وجمالا والنساء يزددن على مرور الأيام قبحاً لأنهن خلقن من اللحم واللحم يزداد على مرور الأيام فساداً .

وفي بعض الاخبار أن آدم عليه السلام لما رأى حواء مديده إليها فقالت الملائكة مه يا آدم فقال ولم وقد خلقها الله ؟ فقالت الملائكة حتى تؤدي مهرها قال وما مهرها قالوا أن تصلي على محمد ثلاث مرات قال ومن محمد قالوا آخر الأنبياء من ولدك ولولا محمد ما خلقت .

(الباب الخامس فى ذكر امتحان الله آدم عليه الصلاة والسلام)
(وما كان منه فى ذلك)

قال أهل التاريخ لما أسكن الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام أباح لهما نعيم الجنة كلها إلا شجرة واحدة ذلك قوله تعالى (وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة) إلى قوله (فتكونا من الظالمين) واختلفوا فى هذه الشجرة التى هى شجرة المحنة .

فقال على رضى الله عنه هى شجرة الكافور وقال قتادة هى شجرة العلم وفيها من كل شىء علامة وقال محمد بن كعب ومقاتل هى السنبلة وقيل هى الحنطة وقيل هى الكرمة فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما الشجرة فأكلا مانهاهما ربهما عن أكله من ثمرة تلك الشجرة وحسن لهما معصية الله تعالى فى ذلك حتى أكلا منها .

وكان وصول عدو الله إليهما وتزيينه ذلك لهما على ما ذكره أصحاب الأخبار أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة من ذلك فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب التى خلقها الله تعالى لها أربعة قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة وكانت لإبليس صديقة فسألها أن تدخله الجنة فى فيها فأدخلته فى فيها ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة وكان قد دخل مع آدم الجنة لما دخل الجنة ورأى فيها من النعيم والكرامة فقال طيب لو كان خلد فاغتنم ذلك الشيطان منه فأتاه من قبل الخلد وقيل إن إبليس لما سمع بدخول آدم الجنة حسده وقال ياويلاه أنا أعبد الله منذ كذا وكذا ألف سنة ولم يدخلنى الجنة وهذا خلق خلقه الله تعالى الآن فأدخله الجنة فاحتال فى إخراج آدم عليه السلام من الجنة فوقف على باب الجنة وهو فى كل ذلك ينتظر خروج خارج من الجنة يتوصل به إلى آدم فمكث على باب الجنة فبينما هو كذلك إذ خرج إليه الطاووس وكان سيد طيور الجنة فلما رآه إبليس قال له أيها الخلق الكريم من أنت وما اسمك فما رأيت من خلق الله أحسن منك قال أنا طائر من طيور الجنة إسمى طاووس فبكى إبليس فقال له الطاووس من أنت ومم بكاؤك ؟ فقال له إبليس أنا ملك من الملائكة

الكروبين إنما بكيت تأسفاً على ما يفوتك من حسنك وكمال خلقتك فقال له الطاووس أيفوتني ما أنا فيه قال بلى وأنك تفنى وتبيد وكل الخلائق يبدون إلا من تناول من شجرة الخلد فإنهم المخلدون من تلك الخلائق فقال الطاووس وأين تلك الشجرة قال إبليس هي في الجنة قال الطاووس ومن يدلنا بمكانها قال إبليس أنا أدلك عليها إن أدخلتني الجنة قال الطاووس كيف لي بإدخالك الجنة ولا سبيل إلى ذلك المكان فإنه لا يدخل الجنة أحد ولا يخرج منها إلا بإذن الله ورضوانه ولكن سأدلك على خلق من خلق الله تعالى يدخلها فإنه إن قدر على ذلك فهو دون غيره فإنه خادم خليفة الله تعالى آدم قال ومن هو قال الحية قال إبليس فبادر إليها فإن لنا فيه سعادة الأبد لعلها تقدر على ذلك .

فجاء الطاووس إلى الحية وأخبرها بمكان إبليس وما سمع منه وقال إني رأيت بباب الجنة ملكاً من الكروبين من صفته كيت وكيت فهل لك أن تدخليه الجنة ليدلنا على شجرة الخلد فأسرعت الحية نحوه فلما جاءته قال لها إبليس نحواً من مقالته للطاووس فقال كيف لي بإدخالك الجنة ورضوان إذا رآك لم يمكنك من دخولها فقال لها أتحول ريحاً فتجعليني بين أنيابك قالت نعم .

فتحول إبليس لعنه الله ريحاً ودخل في فم الحية فأدخلته الجنة فلما دخل إبليس الجنة أراها الشجرة التي نهى الله تعالى عنها آدم وجاء حتى وقف بين يدي آدم وحواء عليهما السلام وهما لا يعلمان أنه إبليس فناح عليهما نياحة أحزنتهما فبكيا وكان أول من ناح فقالا له ما يبكيك فقال أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة فوقع ذلك في أنفسهما واغتما لذلك وبكى إبليس ومضى ثم إن إبليس أتاهما بعد ذلك وقد أثر قوله فيهما فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى قال نعم قال كل من هذه الشجرة شجرة الخلد فقال نهاني ربي عنها فقال إبليس ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فأبيا أن يقبلا منه فأقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين فاغترا بذلك وما كانا يظنان أن أحداً يحلف بالله كذباً فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم زينت لآدم حتى أكلها .

ولذلك قال رسول الله ﷺ « الخمر مجمع الخبائث وأم الذنوب » ويقال لما قال الله تعالى لآدم وحواء لاتقربا هذه الشجرة قالا نعم لانقربها ولانأكل منها ولم يستثنيا فى قولهما بمشيئة الله تعالى فوكلهما الله تعالى إلى أنفسهما حتى أكلا المنهى عنها؟

فلما أكل من الشجرة المنهى عنها ابتلاه الله بعشرة أشياء (الأولى) معاتبته إياهما على ذلك بقوله (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) (والثانية) الفضيحة فإنه لما أصاب الذنب بدت لهما سوآتهما تهافت عنهما ما كان عليهما من لباس الجنة فتحير آدم وصار هارباً فى الجنة فتلقته شجرة العناب فأخذت بناصيته وناداه ربه أفراراً منى يا آدم قال لا يارب ولكن حياء منك ولذلك قيل كفى بالقصر حياء إلى يوم القيامة .

ويروى أن آدم لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف بأشجار الجنة يسأل منها ورقة يغطى بها عورته فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة فطفقا يعنى آدم وحواء يخصفان عليهما من ورق الجنة فكافأ الله التين بأن سوى ظاهره وباطنه فى الحلاوة والمنفعة وأعطاه الله ثمرتين فى كل عام (والثالثة) أوهن جلده وصيره مظلماً بعد أن كان جلده كالظفر وألقى عليه من ذلك قدراً يسيراً على أنامله ليتذكر بذلك أول حاله (والرابعة) أخرجه من جواره ونودى أن لا ينبغى أن يجاورنى من عصانى فلذلك قوله تعالى (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر) الآية يعنى آدم وحواء وإبليس والحية والطاووس فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند وقيل على جبل من أرض الهند يقال له نود وقيل وحواء بجدة بلد بأرض الحجاز وإبليس بالأبلة من أرض العراق وهى بالبصرة وقيل مشان والحية بأصبهان والطاووس بأرض بابل .

أخبرنى نافل بن أزفر بن أحمد بإسناده عن عثمان بن علية قال سمعت الوضين ابن عطاء يذكر أن آدم قال كنا نسلا من نسل الجنة فسبانا إبليس بالخطيئة إلى

الأرض فلا ينبغى لنا الفرح فى الدنيا ولكن الحزن والبكاء مادمنا فى دار سباء حتى نرد إلى الدار التى سبينا منها وقال الشاعر :

يا ناظراً يرنو بعينى راقد ومشاهد الأيام غير مشاهد
منتك نفسك وصلة فأبحتها سبل الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدماً منها إلى الدنيا بذنب واحد

(الخامسة) الفرقة فرق بينه وبين حواء هذا بالهند وهذه بجدة فجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه حتى قرب أحدهما من صاحبه فازدلفا فسميت المزدلفة واجتمعا بجمع فسمى جمعاً وتعارفا بعرفة فى يوم عرفة فسمى الموضع عرفات واليوم عرفة.

(السادسة) العداوة ألقى بينهم العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى (بعضكم لبعض عدو فالإنسان عدو الحية يشدخ رأسها حيث يراها والطاووس عدوه والحية عدوته تلدغه إذا أمكنها وإبليس عدو لهم جميعاً وفيه إشارة إلى أن الأحباب إذا اجتمعوا وتعاونوا على معصية أعقبت معصيتهم عداوة كما قال الله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين).

(السابعة) النداء عليهم باسم العصيان فقال الله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى).

(وروى) أن إبراهيم عليه السلام تفكر ذات ليلة من الليالى فى أمر آدم فقال يارب خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك بلا عمل ثم بزلة واحدة ناديت عليه بالمعصية وأخرجته من جوارك من الجنة فأوحى الله تعالى إليه ياإبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب أمر شديد.

(الثامنة) تسليط العدو على أولاده وهو قوله تعالى (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم) الآية.

(التاسعة) جعل الدنيا سجناً له ولأولاده وابتلاه بهواء الدنيا ومقاساة الحر والبرد فيها ولم يكن لها بهما عهد لتعود هواء الجنة وهو كما قال الله تعالى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) قال رسول الله ﷺ « الجنة سجسج لا حر فيها ولا قر »

(العاشرة) التعب والشقاء وذلك قوله تعالى (إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فهو أول خلق عرق جبينه من التعب والنصب .

(فصل) وابتليت حواء وبناتها بهذه الخصال وبخمس عشرة خصلة سواهن .

(الأولى) الحيض يروى أنها لما تناولت الشجرة رميت الشجرة قال الله تعالى أن لك على أن أدميك أنت وبناتك فى كل شهر مرة كما أدميت هذه الشجرة قال رسول الله ﷺ فى الحيض « إن هذا شىء كتبه الله تعالى على بنات آدم وحواء »

(الثانية) ثقل الحمل .

(الثالثة) الطلق وألم الوضع قال الله تعالى (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) وفى الخبر « لولا الزلزلة التى أصابت حواء كان النساء لم يحضن ولكن حليات وكن يحملن سراً ويضعن سراً .

(الرابعة) نقصان دينها .

(الخامسة) نقصان عقلها عن أبى سعيد فى حديث ذكره قال قال رسول الله ﷺ « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن فقلن له وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال أليس شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل فذلك نقصان عقلها أو ليس إذا حاضت المرأة لم تصل ولم تصم قلن بلى قال فذلك نقصان دينها » .

(السادسة) أن ميراثها على النصف من ميراث الرجل قال الله تعالى (للذكر مثل حظ الأنثيين) .

(السابعة) تخصيصهن بالعدة .

(الثامنة) جعلهن تحت أيدى الرجل كما قال تعالى (الرجال قوامون على النساء) وقال عليه الصلاة والسلام « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوار عندكم » .

(التاسعة) ليس لهن من الطلاق شيء ولا يملكون ذلك وإنما هو للرجال .
(العاشرة) حرمانهن من الجهاد (الحادية عشر) ليس منهن نبي .
(الثانية عشر) ليس منهن سلطان ولا حاكم .
(الثالثة عشر) لا تسافر إحداهن إلا مع ذي رحم محرم .
(الرابعة عشر) لا تنعقد بهن الجمعة (الخامسة عشر) لا يسلم عليهن .

وعاقب إبليس لعنه الله تعالى بعشرة أشياء : أولها عزله من الولاية وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا وكان خازن الجنة .
(الثانية) أخرجه من جواره وأهبطه إلى الأرض .
(الثالثة) مسخ الله صورته فصيره شيطاناً بعد ما كان ملكاً .
(الرابعة) غير إسمه كان إسمه عزازيل فسماه إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى
(الخامسة) جعله إمام الأشقياء (السادسة) لعنه الله تعالى (السابعة) نزع منه المعرفة
(الثامنة) أغلق عنه باب التوبة (التاسعة) جعله مريداً أي خالياً من الخير والرحمة
(العاشرة) جعله خطيب أهل النار وعاقب الحية بخمسة أشياء قطع قوائمها وأمشاها على بطنها ومسخ صورتها بعد أن كانت أحسن الدواب وجعل غذاءها التراب وجعلها تموت كل سنة بالشتاء وجعلها عدوة بني آدم وهم أعداؤها حيثما روتها يقتلونها وأباح رسول الله ﷺ قتلها في الصلاة وفي حال الإحرام .

عن أبي هريرة رضي الله عنـــه قال قال رسول الله ﷺ « ما سالمناهن منذ حاربناهن من ترك شيئاً منهن خيفة منه فليس من يعني الحيات .

حدثنا عبد الله بن يونس قال أخبرنا داود عن محمد عن أبي الأعين العبدي عن أبي الأحوص الحسني قال بينما ابن مسعود يخطب ذات يوم فإذا هو بحية تمشي على الجدار فقطع خطبته ثم ضربها بقضيب حتى قتلها ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من قتل حية فكأنما قتل رجلا مشركاً قد حل دمه » .

﴿ الباب السادس فى حال آدم بعد هبوطه إلى الارض وما كان منه ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما ولما هبط آدم إلى الارض على جبل سرنديب وذكر أن ذروته أقرب من ذرى جبال الأرض إلى السماء .

(قال) وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة واستقر جالساً على الأرض عطس عطسة فسال أنفه دماً فلما رأى سيلان الدم من أنفه ولم يكن رأى قبل ذلك دماً هاله ما رأى ولم تشرب الأرض الدم فاسود على وجهها كالحمم ففزع آدم من ذلك فزعاً شديداً فذكر الجنة وما كان من الراحة فخر مغشياً عليه وبكى أربعين عاماً فبعث الله إليه ملكاً فمسح ظهره وبطنه وجعل يده على فؤاده فذهب عنه الحزن والغشى فاستراح فما كان يصيبه من الغم .

قال شهر بن حوشب (بلغنى أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض مكث ثلثمائة سنة لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى) .

وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما (بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول توبته كما قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) الآية واختلفوا فى تلك الكلمات ماهى قال ابن عباس هى أن آدم عليه السلام قال يارب ألم تخلقنى بيدك قال بلى قال ألم تنفخ فى من روحك قال بلى قال ألم تسبق لى رحمتك قبل غضبك قال بلى قال ألم تسكنى جنتك قال بلى قال فلم أخرجتنى منها ؟ قال لشؤم معصيتك قال أى رب أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ترجعنى إلى الجنة فهى الكلمات ، وقال عبد الله بن عمر أن آدم قال يارب أرأيت ماأتيته شيئاً ابتدعته من تلقاء نفسى أوشىء قدرته على قبل أن تخلقنى بيدك قال لا بل شىء قدرته عليك قبل أن أخلقك قال يارب فكما قدرته فاغفرلى .

وقال محمد بن كعب القرظى هى قول لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فتبت على إنك أنت التواب الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فارحمنى إنك أرحم الراحمين

وقال سعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة أوحى الله تعالى إلى آدم ان لى حرماً بحيال عرشى فأته فطف به كما تطوف حول عرشى وصل عنده كما تصلى عند عرشى فهناك أستجيب دعاءك فانطلق آدم من أرض الهند إلى أرض مكة لزيارة البيت وقيض الله ملكاً أرشده فكان كل موضع يضع عليه قدمه عمراناً وماتعداه مفاوز وقفاراً فلما وقف بعرفات وكانت حواء طالبته وقصدته من جدة فالتقيا بعرفات يوم عرفة فسمى ذلك الموضع عرفات فلما انصرفا إلى منى قيل لآدم تمنى على قال أتمنى المغفرة والرحمة فسمى ذلك الموضع منى وغفر ذنبهما وقبل توبتهما ثم انصرفا إلى أرض الهند

قال مجاهد حدثنى ابن العباس أن آدم حج من أرض الهند أربعين حجة على رجليه فقيل لمجاهد ياأبا الحجاج ألا كان يركب قال وأى شىء كان يحمله فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عمر لما حج آدم عليه السلام البيت وقضى المناسك كلها تلقته الملائكة يهنئونه بالحج وقبول التوبة فقالوا بر حجك يا آدم فداخله من ذلك شىء فلما رأت الملائكة منه ذلك قالوا يا آدم إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام فتقاصرت إلى آدم نفسه .

(وروى) سفيان عن منصور بن معمر عن ربعى بن خراش عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لما أهبط آدم من الجنة إلى أرض الهند وعليه ذلك الورق الذى كان لباسه من الجنة فيبس وتطاير بأرض الهند فعبق شجر العود والصندل والمسك والعنبر والكافور من ذلك الورق فقالوا يارسول الله المسك هو من الدواب أم من الشجر قال إنما هى دابة تشبه الغزال رعت من ذلك الشجر فيصير المسك فى سرتها فإذا رعت الربيع جعله الله مسكا وتساقط فينتفع به الآدميون قالوا يارسول الله فأين يقع قال : قال لى جبريل فى ثلاث كور لا يكون فى شىء من الارض إلا فيها أرض الهند وأرض السعدى وأرض التبت قالوا يا رسول الله العنبر إنما هى دابة فى البحر قال أجل كانت هذه الدابة بأرض الهند ترعى فى البر فبعث الله إليها جبريل عليه السلام فساقها وما معها فقذفها فى البحر وهى أعظم ما تكون من الدواب غلظها ألف ذراع وإنما ترمى كما ترمى البقر أخثاها فربما يخرج من جوفها العنبرة ووزنها ١٥٠٠ رطل ونحو ذلك ثم إن آدم وجد الما فى رأسه وجسده فشكا ذلك

إلى الله تعالى فنزل عليه جبريل بشجرة الزيتون فأمره أن يأخذ ثمرها ويعصره فقال إن فى هذه الشجرة شفاء من كل داء إلا السام ودله جبريل عليه السلام على شجرة لإهليلج الأبيض والأسود والأصفر فقال له إن ربك يقرئك السلام ويقول لك كل من هذه فإنك لن تتداوى أنت وذريتك بدواء أفضل منها فيها شفاء من كل داء إن بقى فى جوفك فلا تخف وإن خرج أخرج الداء كله وأبراه فأكله آدم فبرىء

(قال) فى الأخبار إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وأصاب جسده أذى الهواء وأحس به اشتكى وحشة بجسده وكان قد اعتاد هواء الجنة فشكا ذلك إلى جبريل فقال إنك تشكو العرى فأنزل الله عليه ثمانية أزواج المذكورة فى سورة الأنعام من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ثم أمره أن يذبح كبشاً منها فذبحه ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم فجعل منها جبة لنفسه وجعل لحواء درعاً وخماراً فلبسا - وبكيا على ما فاتهما من لباس الجنة فحواء أول من نسج ولبس الصوف .

(وعن) ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله ماتقول فى حرفتى ؟ فقال رسول الله ﷺ وما حرفتك ؟ فقال أنا رجل حائك قال حرفتك حرفة أبينا آدم عليه السلام وكان أول من نسج آدم وكان جبريل يعلمه وآدم تلميذه ثلاثة أيام وإن الله عزوجل يحب حرفتك فإنها حرفة يحتاج إليها الأحياء والأموات فمن قال منكم القبيح فأبونا آدم خصمه ومن أنف منكم فقد أنف من آدم ومن لعنكم فقد لعن آدم ومن آذاكم فقد آذى آدم وهو خصمهم يوم القيامة فلا تخافوا وابشروا فإن حرفتكم حرفة مباركة ويكون آدم قائدكم إلى الجنة .

(وعن) أبى أمامة الباهلى قال قال رسول الله ﷺ عليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل عليكم بلباس الصوف تعرفون به فى الآخرة وإن النظر فى الصوف ليورث القلب التفكر والتفكير يورث الحكمة والحكمة تجرى فى الجوف مجرى الدم فمن كثر تفكره قل طعمه وكل من قل تفكره كثر طعمه وعظم بدنه وقسا قلبه والقلب القاسى بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، قالوا ثم إن آدم عليه

الصلاة والسلام بعد ستر عورته اشتكى فقال جبريل ما الذى أصابك فقال أجد فى نفسى قلقاً واضطراباً لا أجد إلى العبادة منه سبيلا وإنى أجد بين لحمى وجلدى دبيباً كدبيب النمل فقال جبريل ذلك يسمى الجوع قال وكيف الخلاص من ذلك ؟ قال سوف أهديك إلى ذلك فغاب عنه ثم جاء بثورين أحمرين والعلاة يعنى السندان والمطرقة والمنفخة والكلبتين ثم جاءه بشرر من جهنم فوقع فى يد آدم فطار منه شرارة فوقعت فى البحر فدخل جبريل إليها وأتى بها فرفعها إلى آدم فطارت منه أيضاً حتى فعل ذلك سبع مرات فذلك قول النبى ﷺ « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم بعد أن غسلت بالماء سبع مرات » فلما جاء بها فى الثامنة نطقت النار قالت يا آدم إنى لا أطيعك وإنى منتقمة من عصاة أولادك يوم القيامة فقال جبريل يا آدم إنها لن تطيعك ولكنى أسجنها لك ولأولادك ليكون لك ولأولادك فيها المنافع فسجنها فى الحجر والحديد فذلك قوله تعالى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم) الآية .

(وروى) أن آدم لما أخذ النار احترقت يده فخلى عنها فقال لجبريل مالها تحرق يدى ولا تحرق يدك ؟ قال لأنك عصيت الله وإنى لم أعصه ثم أمر جبريل باتخاذ آلة الحرث فهو أول من عمل الحديد ثم أتاه بصرة من حنطة فيها ثلاث حبات من الحنطة فقال يا آدم لك حبتان ولحواء حبة فلذلك صار للذكر مثل حظ الأنثيين وكان وزن الحبة مائة ألف درهم وثمانين ألف درهم فقال يا آدم خذها فإنها سبب سد جوعك وبها أخرجت من الجنة وبها تحيا فى الدنيا وبها تلقى الفتنة أنت وأولادك إلى أن تقوم الساعة ثم أمر أن يشد الثورين ويكسر من الخشب ويضعه عليهما ففعل ذلك وجعل يحرث الأرض عليهما فهو أول من حرث الأرض وبكى الثوران على مافاتهما من راحات الجنة فقطرت دموعهما على الأرض فنبت منها الجاورس وبالا فنبت منه الحمص ثم كسر جبريل تلك الحبوب حتى كسرها ثم بذرها فنبت من ساعته فقال آدم عليه الصلاة والسلام آكله ؟ فقال لا أصبر حتى يدرك فلما سنبل وأفرك قال آكله ؟ قال لا وعليه الحصاد فلما حصدها قال آكله ؟ قال لا وعليه الدياس فلما داس قال آكله ؟ قال لا وعليه التنقية فلما نقاه قال آكله ؟ قال لا وجاء بحجرين وعليه الطحن

فلما طحن قال آكله ؟ قال لا وعلمه العجن ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما نخل دقيقه فأمر جبريل أن يبث النخالة فى الأرض المستحصده فنبت فيها الشعير فلما عجن قال آكله قال لا فأمره أن يحفر حفرة ويضع الحطب فيها ويوقد عليها ناراً ففعل ذلك حتى جعله خبزاً ثم وضع عجينة عليه فخبز فهو أول من خبز فلما أخرجه قال آكله قال لا حتى يبرد فلما برد أكله فلما أكله دمعت عينا آدم عليه السلام وقال ما هذا التعب والنصب قال له هذا وعد الله الذى وعدك فذلك قوله تعالى (إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أما آن لك أن تأكل من كد يمينك وعرق جبينك أنت وذريتك فلما استوفى آدم من الطعام شكا من بطنه ولم يدر ماهو فشكا ذلك إلى جبريل عليه السلام فقال ذلك العطش قال فبم أسكنه فغاب عنه ثم عاد إليه ومعه المعول وقال له احفر الأرض فما زال يحفر حتى بلغ إلى ركبتيه فنبع الماء من تحت رجليه ماء زلالا أبرد من الثلج وأحلى من العسل وقال يا آدم اشرب منه شربه فشربها فاطمأن ثم أنه بعد ذلك وجد تشكياً أشد من الأول والثانى فقال لجبريل ما هذا الذى أجده قال لا أدرى فبعث الله إليه ملكاً ففتق قلبه ودبره ولم يكن قبل ذلك الطعام مخرج فلما خرج منه آذاه ووجد ريحه بكى على ذلك .

(قالوا) لما أنزل الله إلى آدم الحديد نظر إلى قضيب من حديد ثابت على الجبل فقال هذا من هذا فجعل يكسر أشجاراً قد عتقت ويبست فأوقد على ذلك الحديد حتى ذاب وكان أول شىء ضرب منه مدينة فكان يعمل بها ثم ضرب التنور الذى ورثه نوح عليه الصلاة والسلام وهو الذى فار بالعذاب بالهند .

(قالوا) لما أهبط الله تعالى آدم عليه الصلاه والسلام أخرج معه من الجنة قطعة من الذهب فلذلك يبقى الذهب لا يبلى بالثرى ولا يصدأ من الندى ولا تنقصه الأرض ولا تأكله النار لأنه من الجنة حمل .

(وقيل) إن الله تعالى زود آدم حين أهبطه إلى الأرض من الثمار الاثنين نوعا عشرة منها فى القشور وعشرة لها نوى وعشرة لا قشور لها ولا نوى فأما التى هى فى القشور فالجوز واللوز والفستق والبندق والخشخاش والبلوط والشاه بلوط والنارنج والرمان واللوز وأما التى لها نوى فالخوخ والمشمش والإجاص والعناب

والفرسك والرطب والغبير والنبق والزعرور والمقل وأما التى لاقشر لها ولا نوى فالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والأترج والخروب والخيار والبطيخ

(وقال) ابن عباس هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء الآسة وهى سيدة رياحين الدنيا والسنبلة وهى سيدة طعام أهل الدنيا والعجوة وهى سيدة ثمار الدنيا .

(قال) ابن عباس لما هبط آدم إلى الأرض كان أول شىء أكله من الثمار التين .

(قال) وهب بن منبه أن آدم لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها ولم يرفيها أحداً غيره قال يا رب أما لأرضك هذه من عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى قال الله تعالى سأجعل فيها من ولدك من يسبحنى ويحمدنى ويقدسنى وأجعل فيها بيوتاً ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها إسمى وسأجعل من ولدك يا آدم من يعبدنى حق عبادتى وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتى وأوثره بإسمى فأسميه بيتى وأنطقه بعظمتى وعليه وضعت جلالى وأجعل فى ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته ما حوله ومافرقه وما تحته فمن حرمه استوجب بذلك كرامتى ومن أخاف أهله فقد حقر ذمتى وأباح حرمتى واستوجب بذلك عذابى وعقابى وسأجعل هذا البيت أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركاً يأتونه شعثاً غبراً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق يرجون بالتلبية رجيجاً ويضجون بالبكاء ضجيجاً ويعجون بالتكبير عجيجاً فمن اعتمره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى واستضافنى فحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلا بحاجته .

(وقال) وهب بن منبه رحمه الله « أوحى الله إلى آدم بعد ما تاب عليه آدم إنى أجمع لك العلم كله فى أربع كلمات واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين الناس فأما التى لى فتعتقد بى ولا تشرك بى شيئاً وأما التى لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء ومنى الإجابه وأما التى بينك وبين الناس فأن ترضى لهم ماترضى لنفسك قال آدم يارب شغلت بطلب المعيشة وطلب الرزق عن التسبيح والعبادة ولست أعرف ساعات التسبيح فى أيام الدنيا فأهبط الله تعالى إليه ديكاً فأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح فهو أول داجن اتخذه آدم من الخلق فكان الديك إذا سمع التسبيح فى السماء سبح فى الأرض فيسبح آدم بتسبيحه

(ويروى) أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أراد أن يهبط إلى الأرض يا آدم إنى منزلك أنت وذريتك داراً مبنياً على أربع قواعـــد أما الأولى فإنى أقطع ما تصلون وأما الثانية فإنى مفرق ما تجمعون وأما الثالثة فإنى أخرب ما تبنون والرابعة أميت ما تلدون ولذلك قيل :

لدوا للموت وابنوا للخراب وكلكموا يصـــير إلى ذهاب

﴿ الباب السابع فى ذكر هبوط إبليس لعنه الله إلى الأرض وحاله فيها بعد اللعنة ﴾

قال الله تعالى (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) الآية (قال الشعبى) أنزل إبليس من السماء عليه عمامة ليس تحت ذقنه منها شيء أعور فى إحدى رجليه نعل .

(وروى) ابن المبارك عن خالد عن حميد بن هلال إنما كره أن يتخصر فى الصلاة لأن إبليس هبط متخصراً .

(وروى) حماد عن ثابت وحميد عن عبد الله بن عبيد بن عمير أن إبليس قال يا رب أخرجتنى من الجنة من أجل آدم وإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك قال فأنت مسلط عليه قال يارب زدنى قال لايولد له ولد إلاولد لك مثلاه قال يا رب زدنى قال صدورهم مساكن لك ونجعل منهم مجرى الدم قال يارب زدنى قال أجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلاغروراً قال آدم يا رب قد سلطته على وإنى لا أمتنع منه إلا بك قال لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء قال يارب زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها وأزيدها والسيئة بمثلها واحدة أو أمحوها قال يا رب زدنى قال أغفر ولا أبالى قال حسبى

(وروى) أن إبليس قال يا رب لعنتنى وأخرجتنى من الجنة وجعلتنى شيطاناً رجيماً مذموماً مدحوراً وبعثت فى بنى آدم الرسل وأنزلت عليهم الكتب فما رسلى ؟ قال الكهنة قال فما كتبى ؟ قال الوشم قال فما حديثى ؟ قال حديثك الكذب قال فما قراءتى؟ قال قراءتك الشعر قال فما مؤذنى ؟ قال مؤذنك المزمار قال فما مسجدى ؟ قال مسجدك السوق قال فما بيتى ؟ قال بيتك الحمام قال فما طعامى ؟ قال طعامك ما لم يذكر إسمى عليه قال فما شرابى ؟ قال شرابك كل مسكر قال فما مصايدى ؟ قال مصايدك النساء

﴿ الباب الثامن في ذكر ما روى من الأخبار فيمن تراءى له إبليس ﴾
(فرآه عياناً وكلمه شفاهاً)

يروى أن آدم التقى بإبليس في أرض فلاة فلامه على صنيعه وقال له يا ملعون أى شيء هذا الذى أحللت بى غررتنى وأخرجتنى من الجنة وفعلت بى ما فعلت قال فبكى إبليس وقال يا آدم إنى فعلت بك ما تقول وأنزلتك هذه المنزلة فمن فعل بى ما أنا فيه وأحلنى هذه المنزلة ؟

(ويروى) أن إبليس تصور لفرعون فى صورة الإنس بمصر فى الحمام فأنكره فرعون فقال إبليس ويحك أما تعرفنى ؟ فقال لا قال فكيف وأنت خلقتنى ألست القائل (أنا ربكم الأعلى) ،

(ويروى) أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل إبليس فقال أى الأعمال أحب إليك وأبغض إلى الله تعالى فقال لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك إنى لست أعلم شيئاً أحب إلى وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة

ويروى عن النبى ﷺ أنه قال مامن آدمى إلا قد عمل خطيئة أو هم بها إلا يحيى ابن زكريا فإنه ماعمل خطيئة ولاهم بها ولقد قال رب أرنى إبليس كما هو وأعزم عليه أن لايكتمنى شيئاً سألته عنه فأوحى الله تعالى إلى إبليس أن ائت عبدى يحيى ابن زكريا كما هبط إلى الأرض ولا تكتمه شيئا يسألك عنه فأتاه وقال يايحيى أنا إبليس أمرنى ربى أن آتيك كما هبطت إلى الأرض فنظر إليه يحيى فإذا على رأسه خطاطيف تطير وحقواه محفوفتان بأكوار كور هنا وكور هنا وفى رجليه خلاخيل فقال ما هذه الخطاطيف التى تطير على رأسك ؟ قال بها أخطف عقول بنى آدم قال فما هذه الخلاخيل التى فى رجليك قال أحركها لبنى آدم حتى يغنى أو يغنى له قال فأى ساعة أنت على ابن آدم أقدر ؟ قال حين يمتلىء شبعاً ورياً قال فهل وجدته

فى نفسى شيئاً قال لا قال ولا على حالى قال نعم قدم إليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت فشهيته إليك حتى أكلت أكثر من عادتك فتثاقلت عن وردك وعادتك فقال يحى لا جرم لاأشبع أبداً فقال إبليس لاجرم ولاأنصح آدمياً أبداً

(وقيل) لما مات رسول الله ﷺ وأخذوا فى جهازه وخرج الناس وخلا الموضع .

قال ابن عباس قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لما وضعته ﷺ على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت يا على لا تغسلوا محمداً فإنه طاهر مطهر قال فوقع فى قلبى من ذلك شىء وقلت ويلك من أنت ؟ فإن النبى ﷺ أمرنا بهذا وهذه سنته وإذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته يا على فإن الهاتف الاول كان الشيطان حسد محمداً ﷺ أن يدخل قبره مغسلا قال على جزاك الله خيراً قد أخبرتنى أن ذلك إبليس فمن أنت ؟ قال أنا الخضر .

(ويحكى) أن قوماً من بنى إسرائيل تراءى لهم إبليس فقالوا له قف موقفاً كنت تقفه بين يدى الله تعالى حسبما كنت تقف قبل أن عصيت ربك فقال إنكم لا تطيقون رؤية ذلك فألحوا عليه فوقف وقفة فلما نظروا إليه وإلى خشوعه وخضوعه ماتوا عن آخرهم .

(ويروى) أن رجلا كان يلعن إبليس كل يوم ألف مرة فبينما هو ذات يوم نائم إذا أتاه شخص وأيقظه فقال له قم فإن الجدار هاهو يسقط فقال له من أنت؟ الذى أشفقت على هذه الشفقة ؟ فقال له أنا إبليس فقال كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة فقال هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله تعالى فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم كما ينالون .

﴿ الباب التاسع فى قصة قابيل وهابيل ﴾

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً) إلى آخر القصة قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين إن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلاماً وجارية إلا شيثاً فإنها ولدته مفرداً وكان جميع من ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى فى عشرين بطناً .

أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث ثم كثر الله فى نسل آدم كما قال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) الآية قال ابن عباس « لم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفاً ورأى آدم فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد» واختلف العلماء فى وقت مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشى آدم حواء بعد هبوطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت قابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد

وقال محمد بن إسحق عن بعض اهل العلم بالكتاب الأول إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض فحملت بقابيل وتوأمته فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً ولا طلقاً حين ولدتهما ولم ترمعهما دماً لطهارة الجنة فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها فغشاها فحملت بهابيل وتوأمته لبودا فوجدت فيها الوحم والنصب والطلق والدم حتى إذا شب أولاده زوج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر وكان الرجل منهم يتزوج أى أخواته شاء إلا توأمته التى ولدت معه فإنها لا تحل له وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حواء فلما ولد قابيل وتوأمته إقليما فى بطن واحد وهابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى وأدركوا أمر الله تعالى ، أن ينكح لبودا أخت هابيل قابيل وينكح هابيل إقليما أخت قابيل وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقاً فذكر آدم ذلك لولده هابيل فرضى وسخط قابيل وقال هى أختى ولدت معى فى بطن وهى أحسن من أخت هابيل فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض فأنا أحق بأختى

فقال له أبوه إنها لاتحل لك فأبى أن يتقبل ذلك منه وقال إن الله تعالى لم يأمره بذلك وإنما هو من رأيه فقال لهما آدم قربا قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها

(وقال معاوية بن عمار) سألت جعفر الصادق أكان آدم زوج إبنته من إبنه فقال معاذ الله لو فعل ذلك آدم لما رغب عنه رسول الله ﷺ ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد ﷺ (إن الله تعالى أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما وولدله بنت فسماها عناق فبغت وهى أول من بغى فى الأرض فسلط الله عليها من قتلها فولد لآدم على أثرها قابيل ثم ولد له هابيل فلما أدرك قابيل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة فى صورة انسية فخلق لها رحمة وأوحى الله الى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه فلما أدرك هابيل أهبط الله الى آدم حوراء فى صورة انسية وخلق الله لها رحماً وكان اسمها تركه فلما نظر اليها هابيل ورمقها أوحى الله الى آدم أن زوجها من هابيل ففعل فقال يا أبى ألست أكبر من أخى وأحق بما فعلت به منه فقال يا بنى ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

فقال لا ولكنك آثرته على بهواك فقال له إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقربا قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أولى بها من صاحبه قالوا وكانت القرابين حينئذ إذا اقبلت نزلت نار من السماء فأكلتها واذا لم تقبل لم تنزل نار لأكلها وتأكلها السباع فخرجا ليقربا وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من الطعام من أراد زرعه واضمر فى نفسه ماأبالى أيقبل أم لا لايتزوج أختى ابداً وكان هابيل راعياً صاحب ماشية فقرب كبشاً سميناً من خيار ماشيته ولبناً وزبداً واضمر فى نفسه الرضا بالله والتسليم لامره

وقال اسماعيل بن رافع أن هابيل نتج له كبش فى غنمه فلما كبر لم يكن له مال أحب اليه منه وكان يحمله على ظهره فلما أمر بالقربان قربه قال فوضعا قربانهما على الجبل فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش والزبدة واللبن ولم تأكل من قربان قابيل حبة لانه لم يكن بزاكى القلب وقبل قربان هابيل لانه زاكى القلب فما زال الكبش يرتع فى الجنة حتى فدى ابن ابراهيم فذلك قوله تعالى (فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر) الى قوله من المتقين فنزلوا عن الجبل وتفرقوا وقد غضب

قابيل لما رد الله قربانه وظهر فيه الحسد والبغى وكان يضمرهما قبل ذلك فى نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت فلما أراد أن يأتى مكة قال للسماء احفظى ولدى بالأمانة فأبت فقال للأرض والجبال فأبيا فقال ذلك لقابيل فقال نعم ترجع وتراه كما يسرك فرجع آدم وقد قتل قابيل فذلك قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) يعنى قابيل حين حمل أمانة أبيه ثم خانه

قالوا فلما غاب آدم اتى قابيل إلى هابيل وهو فى غنمه فقال لأقتلنك قال ولم ؟ قال لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قربانى وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الذميمة فيتحدث الناس انك خير منى وأفضل ويفتخر ولدك على ولدى فقال له هابيل وما ذنبى إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين

(قال) عبد الله بن عمر وان كان المقتول الأشد ولكنه منعه التحرج ان يبسط الى أخيه يده قال الله تعالى (فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله) الآية اى طاوعته وساعدته فقتله

قال السدى لما قصد قابيل قتل هابيل هرب منه فى رءوس الجبال ثم أتاه يوما من الأيام وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات وقال ابن جريج لم يدر قابيل كيف يقتل اخاه فتمثل له ابليس واخذ طيراً فوضع راسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلفوا فى مصرعه وموضع قتله قال ابن عباس على جبل ثور قال بعضهم على عقبة حراء

وحكى محمد بن جرير الطبرى قال جعفر الصادق بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم فلما قتله تركه ولم يدر ما يصنع به لأنه كان اول ميت على وجه الأرض من بنى آدم فقصدته السباع فحمله فى جراب على ظهره سنة تروح وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون ان يرمى به فتأكله فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل احدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكن له فى الأرض ثم القاه فى الحفرة وواراه

وقابيل ينظر إليه فلما رأى ذلك قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين يعنى على حمله لا على قتله .

(وروى) عن الأوزاعى قال حدثنى المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومى لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء فناداه الله أين أخوك هابيل ؟ قال ما أدرى ما كنت عليه رقيباً فقال الله تعالى إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك ؟ قال فأين دمه إن كنت قتلته فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دما بعده أبداً .

(عن الضحاك عن ابن عباس) قال لما قتل قابيل هابيل وآدم بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه ومر الماء واغبرت الأرض فقال آدم قد حدث فى الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل فأنشأ يقول وهو أول شعر .

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

(وروى) عن ابن عباس أنه قال من قال إن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالمأثم وإن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم فى النهى عن الشعر سواء قال الله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سريانى وإنما يقول الشعر من تكلم بالعربية قال آدم مرثيته فى إبنه هابيل وهو أول شهيد على وجه الأرض قال آدم لشيث يا بنى إنك وصى فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام وكان يتكلم بالسريانية والعربية وهو أول من ركب الخيل وتكلم بالعربية وقال الشعر فنظر فى المرثية فإذا هو سجع فقال إن هذا ليقوم شعراً فرد المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فما زاد فيه شعراً ولا زاد ولا نقص حرفا من ذلك فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه الصبيح
وقابيل أذاق الموت هابيل ... فواحزناه قد فقد المليح
وما لى لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح
وجاءت شعلة ولها رنين ... لهابيلها وقابيلها يصيح
لقتل ابن النبى بغير جرم ... فقلبى عند قتلته جريح
وجاورنا لعين ليس يفنى ... عدو لا يموت فنستريح

(وقالت حواء)

دع الشكوى فقد هلكا جميعا ... بموت ليس بالثمن الربيح
وما يغنى البكاء عن البواكى ... إذا ما المرء غيب فى الضريح
فابك النفس وانزل عن هواها ... فلست مخلداً بعد الذبيح

فأجابها إبليس لعنه الله شامتا بهما :

تنح عن البلاد وساكنيها ... ففى الجنات ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك فى رخاء ... وقلبك من أذى الدنيا مريح
فما زالت مكايدتى ومكرى ... إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الجبار أضحى ... يكفيك من جنان الخلد ريح

(وقال) سالم بن أبى الجعد لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لا يضحك ثم أتى فقيل له حياك الله وأضحكك ولا أبكاك قال ولما مضى من غار آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد ما قتل قابيل هابيل بخمس سنين ولد له شيث وتفسيره هبة الله يعنى أنه خلف الله من هابيل وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعبادة الخلق وكل ساعة منها وأنزل عليه خمسين صحيفة وكان وصى آدم وولى عهده وأما قابيل

فقل له اذهب فذهب طريداً شريداً فزعا مرعوبا لايأمن من رآه فأخذ بيد أخته إقليما وذهب بها إلى عدن من أرض اليمن فأتى إليه إبليس وقال إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يخدم النـــار ويعبدها فأنت أيضا ائت ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من نصب النار وعبدها

قال وكان لا يمر واحد من ولده إلا رماه وكان لقابيل ولد أعمى ومعه ابن له فقال ابن الأعمى لأبيه هذا أبوك قابيل فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله قال فقال ابن الأعمى إنه أبوك فرفع يده فلطمه فمات فقال الأعمى ويل لى قتلت ربى برميتى وقتلت ابنى بلطمتى قال مجاهد فعلقت إحدى يدى قابيل إلى فخذها وساقها وعلقته من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهت إلى الشمس حيثما دارت وعليه فى الصيف حظيرة نار وفى الشتاء حظيرة ثلج

قالوا واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من أنواع الطبول والمزامير والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر والزنا وعبادة النار والأوثان والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان فى زمن نوح عليه السلام وبقى شيث عليه السلام والله أعلم

﴿ الباب العاشر فى ذكر وفاة آدم عليه السلام ﴾

ذكر أهل التاريخ وأصحاب الأخبار أن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوماً وأوصى إلى إبنه شيث وكتب وصيته ودفعها إلى شيث وأمره أن يخفى ذلك من ولده قابيل لأن قابيل قد قتل هابيل حسداً منه له حين خصه آدم بتزويج أخته إقليما فخاف عليه أيضا أن يقتله حين خصه آدم بالعلم فأخفى شيث وولده ما عندهم من الوصية فلم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به

(وروى) أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « لما أخرج الله ذرية آدم من ظهره فجعل يعرضهم على آدم فإذا قوم عليهم النور فقال يارب من هؤلاء الذين

عليهم النور قال هؤلاء الأنبياء والرسل وإذا فيهم رجل يزهو وهو أضوأهم نوراً فقال يارب من هذا فقال ذلك داود فقال يارب كم عمره قال ستون سنة قال يارب زد فى عمره قال لا إلا أن تزيده أنت من عمرك فقد جف القلم بأعمال بنى آدم وكان عمر آدم ألف سنة فوهب له من عمره أربعين سنة فكتب الله عليه بذلك كتابا وشهد عليه الملائكة فلما مضى من عمره تسعمائة وستون سنة وجاء إليه ملك الموت ليقبضه فقال آدم عجلت على يا ملك الموت قال ما فعلت بل أنت استوفيت أجلك قال آدم قد بقى من عمرى أربعون سنة قال إنك قد وهبتها لابنك داود قال ما فعلت ولا وهبت له شيئا

فأنزل الله الكتاب وأقام الملائكة شهودا ثم إن الله أكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة قال رسول الله ﷺ نسى آدم فنسيت ذريته وجحد فجحدت ذريته فأمر الله بالكتاب والشهود من يومئذ

(قال) ابن إسحق وغيره ثم إن آدم مات واجتمعت عليه الملائكة لأنه صفى الرحمن فتدفنه الملائكة وشيث وإخوته فى مشارق الفردوس عند قرية هى أول قرية كانت فى الأرض فلما اجتمعت عليه الملائكة بعث الله إليه بحنوط وكفن من الجنة وولیت الملائكة غسله ودفنه فغسلته بالسدر والماء وترا وكفنوه فى ثلاثة ثياب ثم لحدوا له ودفنوه ثم قالوا هذه سنة ولد آدم من بعده

وقال ابن عباس فلما مات آدم قال شيث لجبريل صل على آدم فقال له جبريل تقدم أنت فصل على أبيك فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة فأما خمس فهى فى الصلاة وأما خمس وعشرون فهى تفضيل لآدم وقد اختلف فى موضع قبره فقال ابن إسحق فى مشارق الفردوس وقال غيره دفن بمكة وقيل فى غار أبى قبيس وهو غار يقال له الغار الكبير

(وروى) أبو صالح عن ابن عباس أنه قال مات آدم على جبل تود بالهند وقال ابن عباس لما كان أيام الطوفان حمل نوح تابوت آدم فى السفينة فلما خرج نوح من السفينة دفن آدم ببيت المقدس وكانت وفاة آدم يوم الجمعة وعاشت حواء بعده سنة ثم ماتت فدفنت مع آدم عليهما السلام والله أعلم .

﴿ باب فى الخصائص التى خص الله بها آدم عليه السلام ﴾

قال الأستاذ خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وجعله خاتمة خلقه وخلقه فى أحسن صورة وأقسم عليه فقال عز من قال (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) ولقنه الحمد حين عطس ثم قال له يرحمك ربك فسبقت رحمته غضبه وأسكنه بعد خلقه الجنة بلا عمل وأباح له جميع الجنة إلا شجرة واحدة وعلمه الأسماء كلها وأمر ملائكته بالسجود له وأمرهم بالتلقين وجعله أبا البشر وجعله خليفته فى الأرض وعرف الملائكة فضله عليها ولعن إبليس من أجله مع كثرة عبادته وعاتب بسببه وهو أول حامد وأول تائب وأول مجتبى وأول مصطفى وأول خليفة لله فى الارض وهو المميز للارواح الخبيثة من الطيبة وهو الباعث يوم القيامة فبعث النار من ذريته فهذه ثلاث وعشرون خصلة من خصائصه ﷺ وشرف وكرم والله أعلم

﴿ مجلس فى ذكر النبى إدريس عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) قال أهل العلم بأخبار الماضين وقصص النبيين هو إدريس بن برد وقيل يارد بن مهلائيل بن قينان بن أرش بن شيث بن آدم واسمه أخنوخ وسمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث وأمه اشوت وكان إدريس أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط واول من نظر علم النجوم والحساب بعثه الله تعالى إلى ولد قابيل ثم رفعه الله إلى السماء .

قاله على ابن عباس وأكثر الناس أنه سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس فقال يا رب إنى مشيت فى الشمس يوما فتأذيت فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه ثقلها واحمل عنه حرها فلما أصبح الملك وجد من نفسه خفة الشمس وحرها مالا يعرف فقال يارب خففت على حر الشمس فما حال الذى قضيت عليه فيه قال تعالى إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك ثقلها وحرها فأجبته إلى ذلك فقال يا رب اجمع بينى وبينه واجعل بينى وبينه خلة فأذن الله تعالى له فكان إدريس يسأله وكان مما سأله أن قال أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وأمكنهم عنده فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى فأزداد شكرا وعبادة فقال له الملك لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها

قال قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى فقال أنا مكلمه لك وما كان يستطيع أن يفعل لاحد من بنى ادم فهو فاعله لك ثم حمله الملك على جناحه حتى رفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم إنه أتى إلى ملك الموت فقال له لى إليك حاجة فقال أفعل لك كل شىء أستطيعه فقال لى صديق من بنى آدم تشفع بى إليك لتؤخر اجله فقال ليس ذلك إلى ولكن احببت اعلمته اجله ومتى يموت فيتقدم فى نفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فأخبره بإسمه وقال إنك كلمتنى فى إنسان ما أراد يموت أبدا قال وكيف ذلك قال إنى لاجده يموت عند مطلع الشمس قال فإنى أتيتك وتركته هناك فقال له انطلق فلا اراك تجده إلا وقد مات والله ما بقى من اجل إدريس شىء فرجع الملك فوجده ميتاً

(قال وهب) كان يرفع له كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لاهل الارض جميعهم فى زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن الله فى زيارته فأذن له فأتاه فى صورة بنى آدم وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى ان يأكل وفعل ذلك ثلاث ليال فأنكروه وقال له فى الليلة الثالثة إنى اريد ان اعلم من انت قال انا ملك الموت استأذنت ربى انه ازورك واصاحبك فأذن لى فى ذلك

فقال إدريس لى إليك حاجه قال وماهى قال قبض روحى فأوحى الله تعالى إليه اقبض روحـــه فقبض روحـــه ثم ردها الله تعالى عليـــه ساعة فقال له ملك الموت فما الفائدة فى سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه فأكون له اشد استعدادا ثم قال لى إليك حاجة اخرى قال وما هى قال ترفعنى إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة فأذن له فى ذلك فلما قرب من النار قال لى إليك حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكاً يفتح لى ابواب النار حتى اردها ففعل ذلك ثم قال فكما اريتنى النار فأرنى الجنة فذهب به إلى الجنة فاستفتحها ففتحت له ابوابها فدخل فقال له ملك الموت اخرج لتعود إلى مقرك فتعلق بشجرة وقال لا اخـــرج منها ، فبعث الله ملكاً حكما بينهما فقال له الملك مالك لا تخرج لان الله تعالى قال (كل نفس ذائقة الموت) وقد ذقته وقال تعالى (وإن منكم إلا واردها وقد وردتها) وقال تعالى (وما هم منها بمخرجين) فلست اخرج فقال الله تعالى للملك الموت دعه فإنه بإذنى دخل الجنة وبأمرى لا يخرج فهو حى هناك فتارة يعبد الله فى السماء الرابعة وتارة يتنعم فى الجنة والله اعلم

(قصة هاروت وماروت)

قال الله تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) الآية قال اهل التفسير إن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف فى مده زوال ملك سليمان هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك ثم دفنوها تحت مصلاه ولم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوها من تحت مصلاه وقالوا للناس ماملككم سليمان إلا بهذا

قال السدى وذلك انشيطانا تمثل على صورة إنسان فأتى نفرا من بنى إسرائيل فقال هل ادلكم على كنز لا يفنى أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت كرسى سليمان وذهب معهم فأراهم المكان وقال ناحية فقالوا له ادن فقال لا ولكن ههنا فإن لم تجدوه فاقتلونى وذلك أنه لم يكن احد من الشياطين يدنو من الكرسى إلا احترق

فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما اخرجوها قال الشيطان إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهـــذا ثم طار الشيطان وذهب واما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله ان يكون هذا علم سليمان فإن كان هذا علمه فقد هلك سليمان واما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب انبيائهم فأنزل الله هذه الآية إظهارا لعذر سليمان وبيانا لبراءته فهذه قصة الآية

(وأما قصة هاروت وماروت)

قال المفسرون إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من اعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس عليه السلام عيروهم بذلك وانكروا عليهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الارض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى لو انزلتكم إلى الارض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا قالوا سبحانك ربنا ما كان ينبغى لنا ان نعصيك قال الله تعالى اختاروا ملكين من خياركم اهبطهما إلى الارض فاختاروا هاروت وماروت وكانوا من اصلح الملائكة واعبدهم

قال الكلبى قال الله تعالى اختاروا الملائكة منكم فاختاروا عزا وهو هاروت وعزابيا وهو ماروت وعزريائيل وإنما غيرا إسمهما لما اقترفا من الذنب كما غير الله إسم إبليس وكان إسمه عزازيل فركب الله تعالى فيهم الشهوة التى ركبها فى بنى آدم واهبطهم إلى الارض وامرهم ان يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر فأما عزريائيل فإنه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقبل ربه وسأله ان يرفعه إلى السماء فأتاه ورفعه وسجد اربعين سنة ثم رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطأ رأسه حياء من الله تعالى واما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما فإذا امسيا ذكرا إسم الله تعالى الاعظم وصعدا إلى السماء

قال قتادة فما مر عليهما شهر حتى افتتنا وذلك انه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من اجمل النساء قال على رضى الله عنه كانت من اهل فارس وكانت ملكة

فى بلدها فلما رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك فقالت لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا لا سبيل إلى هذه الأشياء فان الله قد نهانا عنها فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى نفسهما من الميل إليها ما فيها فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالوا الصلاة لغير الله أمر عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر بشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة فزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه .

قال الربيع بن أنس وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكباً وقال على رضى الله عنه والسدى والكلبى إنها قالت لا تدركانى حتى تعلمانى الذى تصعدان به إلى السماء فقالا لا تصعدا إلا بالإسم الأعظم فقالت فما أنتما بمدركى حتى تعلمانيه قال أحدهما لصاحبه علمها فقال إنى أخاف الله فقال الآخر فأين رحمة الله تعالى فعلماها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكبا .

(وقال) مجاهد كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لى ارمق الكوكب يعنى الزهرة فاذا طلعت فأيقظنى فلما طلعت أيقظته فلما نظر إليها سبها سبا شديدا فقلت يرحمك الله تسب نجما ساطعا مطيعا فقال إن هذه كانت بغيا فلقى الملكان منهما ما لقيا وكذلك قال ابن عباس وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا إن الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التى جعلها الله تعالى قواما للعباد وأقسم بها فقال تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) وإنما كانت المرأة التى فتنت هاروت وماروت تسمى زهرة لجمالها فلما زنت مسخها الله شهابا فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة ذكر تلك المرأة الموافقة لها الاسم فلعنها وكذلك سهيل العشار كان رجلا فلما رأى رسول الله ﷺ هذا النجم الموافق إسمه لإسم هذا الرجل لعنه يدل عليه ما روى قيس بن عباد عن ابن عباس فى هذه القصة قال كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب قالوا فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما فارقا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم تطعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما فقصدا إلى إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه ان يشفع لهما إلى الله تعالى وقالا له إنا رأيناك

يصعد لك من العبادة مثل مايصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى الله تعالى ففعل إدريس ذلك فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختاروا عذاب الدنيا لأنه ينقطع فهما ببابل يعذبان .

(واختلف) العلماء فى كيفية عذابهما فقال ابن مسعود هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة وقال مقاتل كبلا من أقدامها إلى أصول أفخاذهما وقال مجاهد ملء جب نارا فجعلوا فيه وقال عمر بن سعيد هما معلقان منكسان فى السلاسل يضربان بسياط الحديد .

(وروى) أن رجلا قصدهما لتعليم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودة وجوهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربعة أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقالا لا إله إلا الله فلما سمع كلامه قال لا إله إلا الله قالا من أنت قال رجل من الناس قالا له ومن أى أمة أنت قال من أمة محمد ﷺ قالا أو بعث محمد ﷺ قال نعم فحمدا الله تعالى وأظهرا الاستبشار فقال الرجل ومم استبشار كما قالا إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا .

(وروى) هشام عن عائشة أنها قالت قدمت امرأة من دومة الجندل جاءت تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر وما تعمل به فقالت عائشة لعروة يا ابن أختى فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله فكانت تبكى حتى رحمتها ثم قالت إنى أخاف أن أكون قد هلكت ثم قالت كان لى زوج غاب عنى فدخلت على عجوز فشكوت لها ذلك فقالت إن فعلت ما آمرك به جعلته يأتيك فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت هى الآخر فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا ما جاء بك فقلت أتعلم السحر فقال إنما نحن فتنة فلا تكفرى فارجعى من حيث أتيت فقلت لا قالا فاذهبى إلى التنور فبولى فيه فذهبت لأبول ففزعت فلم أفعل فرجعت فقالا فعلت قلت نعم فقالا هل رأيت شيئاً فقلت لم أر شيئاً قالا فارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فأبيت فقالا اذهبى إلى التنور فبولى فيه فذهبت فاقشعر جلدى وخفت ثم رجعت إليهما فقلت

قد فعلت فقالت مارأيت قلت لم أرى شيئاً قال كذبت لم تفعلى فارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فإنك على رأس أمرك فقلت لافقالا لى اذهبى إلى التنور فبولى فيه فذهبت إليه فبالت فيه فرأيت فارساً مقنعا بحديد خرج منى حتى ذهب السماء وغاب حتى ما أراه فجئتهما فقلت قدفعلت قال فمارأيت ؟ قلت رأيت فارساً مقنعا بالحديد خرج منى وذهب فى السماء فلم أره قالا صدقت ذلك إيمانك خرج منك فاذهبى فقلت والله ما أعلم شيئا ولا قالالى شيئا فقالا لاتردين شيئا إلا كان خذى هذا القمح فابذريه فبذرت ثم قلت له اطلع فطلع فقلت انحصد فحصد فقلت انفرك ففرك ثم قلت له انطحن فطحن ثم قلت انخبز فخبز فلما رأيت أنى لا أريد شيئا إلا كان سقط فى يدى فرجعت وندمت والله يا أم المؤمنين مافعلت شيئا قط ولا أفعله أبداً .

قال الأوزاعى بلغنى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال يا جبريل صف لى النار فقال إن الله تعالى أمر أن يوقد عليها الف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها الف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لايطفأ جمرها ولا يخمد لهيبها والذى بعثك بالحق لوأن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ولوأن ذنوباً من شرابها صب فى ماء الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ولو أن حلقة من السلسلة التى ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعا لذابت وما استقلت ولوأن رجلا دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبى ﷺ وبكى جبريل لبكائه وقال أتبكى يامحمد وقد غفرالله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً وبكى جبريل فقال ياجبريل أتبكى وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه قال أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهذا الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عنـــد ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء يا جبريل ويا محمـد إن الله قـد أمنكما من غضبه فلايعذبكما وأن فضل محمد ﷺ على سائر الانبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة .

﴿مجلس فى قصة نوح عليه السلام﴾

قال الله تعالى لنبيه عليه السلام (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه) الآية وهو نوح بن الملك متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام وأمه أقينوش بنت راكيل وقيل بنت كابيل بن محويل بن أخنوخ أرسله الله تعالى إلى ولده قابيل ومن تابعهم من ولد شيث (قال) ابن عباس وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل فيهم صباحة وفى نسائهم دمامة وكان فى نساء السهل صباحة وفى الرجال دمامة وأن إبليس أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام فاجر نفسه منه وكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذى يؤمر به الرعاة فجاء منه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم إليه مستمعين إليه واتخذوه عيداً يجتمعون إليه فى السنة فتتبرج النساء للرجال والرجال لهن وهو قوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

(قال ابن عباس) كان آدم أوصى أن لا ينا كح بنو شيث بنى قابيل فجعل بنو شيث آدم فى مغارة وجعلوا عليه حفاظاً لئلا يقربه أحد من أولاد قابيل وكان الذى يأتونه ويستغفر لهم بنو شيث فقال مائة من بنى شيث صباح يوم لو نظرنا ما فعل بنو عمنا يعنون بنى قابيل فهبط المائة إلى نساء السهل صباح الوجوه من بنى قابيل فاحتبس النساء والرجال ثم مكثوا ما شاء الله فقال مائة أخرى لو نظرنا ما فعل أخواننا فهبطوا من الجبل إليهم فاحتبستهم النساء ثم هبط بنو شيث كلهم فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكبر بنو قابيل حتى ملئوا الأرض وأكثروا الفساد فبعث الله إليهم نبيهم نوحاً بن خمسين سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى وخوفهم بأسه ويحذرهم سطوته كما أخبر الله تعـــالى بقوله (قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً) وقال تعالى (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) .

(وروى) الضحاك عن ابن عباس أنه قال إن نوحا كان يضرب ثم يلف فى

ليد ثم يلقى في بيته فيرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم حتى أيس من إيمان قومه فبعد ذلك جاء رجل ومعه ابنه يتوكأ على عصا فقال يا بنى انظر إلى هذا الشيخ إياك أن يغرك فقال ياأبت مكنى من العصا فأعطاه العصا فقال ضعنى فى الأرض فوضعه فمشى إليه فضربه بالعصا .

فقال نوح رب قد ترى ما يصنع بى عبادك فإن لم يكن لك فى عبادك حاجة فاهدهم وإن لم يكن غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم بينى وبينهم وأنت خير الحاكمين فأوحى الله اليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون فآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن فعند ذلك دعا عليهم وقال (رب إنهم عصونى) الآية إلى قوله (ولاتذرن وداً ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً) وهم أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله وقوله تعالى (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) وقوله تعالى (ولاتزد الظالمين إلا تبارا) أى هلاكاً ودماراً فأجاب الله دعاءه وأمره بأن يصنع الفلك كما قال الله تعالى (واصنع الفلك بأعيننا) .

ثم بعث الله جبريل يعلم نوحا صنعة الفلك وكان نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء عدة الفلك من القار وغيره وكان قومه يمرون عليه وهو فى عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة ثم يقولون ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتاً يسير به فى الماء ويضحكون منه وذلك قوله تعالى (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) فيقول نوح (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم وأوحى الله إلى نوح أن عجل صنعة الفلك فقد اشتد غضبى على من عصانى فاستأجر نوح أجراء يعملون معه وأولاده سام وحام ويافث ينحتون معه السفينة فجعل السفينة طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وثلاثون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثة وثلاثون ذراعاً هذا قول ابن عباس فى رواية الضحاك وطلاها بالقار داخلها

وخارجها وشدها بالدسر وهى مسامير الحديد وذلك قوله تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر) وفجر الله له عين القار بجب السفينة فغلى غليانا حتى طلاها به فلما فرغ من صنع السفينة أوحى الله إليه أن احمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كلها حتى لا ينقطع نسلهم وحشرها الله اليه من البر والبحر والسهل والجبل وقد جعل الله فوران التنور آية بينه وبين نوح وعهد اليه فقال إذا رأيت التنور قد فار فاركب أنت ومن معك فى الفلك واحمل فيها من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى (فإذا جاء أمرنا وفار التنور) أى عذابنا وهو الطوفان (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) الآية .

وقال ابن عباس كان التنور بالهند والفوران هو الغليان فلما رآه نوح أيقن بنزول العذاب فحمل من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كما أمر الله تعالى .

(قال) ابن عباس أرسل الله المطر أربعين يوماً وليلة فأقبلت الوحوش والطير والدواب إلى نوح حين أصابها المطر وسخرت له فحمل منهما من كل زوجين اثنين فكان أول ما حمل نوح فى الفلك من الدواب الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار بصدره تعلق إبليس بذنبه فلم تستقر رجلاه فجعل نوح يقول ادخل فانهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك كلمة ذل بها لسانه فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما أدخلك يا عدو الله فقال ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك فقال أخرج يا عدو الله قال ما أخرج وما كان بذلك لك أن تحملنى معك وكان فيما يزعمون على ظهر الفلك (سلام على نوح فى العالمين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين)

(عن وهب ابن منبه) قال لما أمر الله تعالى نوحا أن يحمل من كل زوجين اثنين قال كيف أصنع بالأسد والبقر وكيف أصنع بالعناق والذئب وكيف أصنع بالحمام والهر قال الله تعالى من ألقى بينهم العداوة ؟ قال أنت يارب قال فأنا أؤلف بينهم حتى لا يضاروا فحمل نوح السباع والدواب فى الطبقة الأولى فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر ولذلك قيل :

وما الكلب محموما وإن طال عمره   لعمرك ما المحموم دو ما سوى الأسد

وجعل الوحوش فى الطبقة الثانية وركب هو ومن معه من أولاد آدم فى الطبقة العليا وجعل الدرة معه فى الطبقة العليا شفقة عليها لئلا يقتلها شىء واختلفوا فى أهل السفينة الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله تعالى (ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) من هم وكم هم قال قتادة لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيه سام وحام ويافث ونساءهم فجميعهم ثمانية فأصاب حام امرأته فى السفينة فدعا نوح ربه فتغيرت نطفته فجاء بالسودان .

(قال الكاتب) أمر نوح أن لا يقرب ذكر أنثى ما دام فى السفينة فوثب الكلب على الكلبة فدعا عليه نوح فقال نوح اللهم اجعله عسرا وقال الأعمش كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين وثلاثة كنائن له وقال ابن إسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناث ممن كانوا آمنوا معهم وأزواجهم جميعاً .

وقال ابن عباس فلما ركب نوح فى الفلك وأدخل معه كل من آمن كان ذلك فى شهر آب بالرومية فلما دخلها وحمل معه من حمل تحركت ينابيع الأرض والغوط الأكبر وأمطرت السماء كأفواه القرب كما قال الله تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) يعنى التقى ماء السماء وماء الأرض فجعل الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض حتى كثر واشتد وكان بين إرسال الماء واحتمال الماء الفلك أربعين يوما وليلة ثم احتمل الماء الفلك وكان كنعان بن نوح تخلف عن أبيه قال قتادة لم يركب فى السفينة فناداه نوح (وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) وكان عهد كنعان بالجبال أنها تحصن من المطر فظن ذلك كما كان فقال نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) وكثر الماء فارتفع فوق الجبال قال ابن عباس ارتفع على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعاً .

(وروت) عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال « لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبي وذلك أنها خشيت عليه من الماء وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبي فلما بلغ رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله أحداً منهم لرحم هذه .

قالوا ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها فى ستة أشهر لا تستقر على شىء حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعاً وقد رفع الله البيت الذى كان يحجه آدم صيانة له من الغرق وهو البيت المعمور وخبأ جبريل الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس فلما طافت السفينة بالحرم ذهبت فى الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودى وهو جبل حصين من أرض الموصل فاستقرت عليه .

قال مجاهد تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها ماء فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً وتواضع لأمر ربه الجودى فلم يغرق فأرست السفينة عليه فذلك قوله تعالى (واستوت على الجودى) (وقال) ابن عباس استوت السفينة على الجودى وقد باد ما على وجه الأرض من الكفار ومن كل شىء فيه الروح والأشجار فلم يبق شىء من الحيوانات إلا نوح ومن معه فى الفلك إلا عوج ابن عنق فذلك قوله تعالى (وقيل بعداً للقوم الظالمين) أى هلاكا . (وقيل ياأرض ابلعى ماءك) أى انشفى (ويا سماء أقلعى) أى احبسى ماءك (وغيض الماء) أى ذهب ونقص فصار ما نزل من السماء هذه البحور التى فى الأرض لأنها آخر ما بقى فى الأرض من ماء الطوفان وبقى فى الأرض أربعين سنة ثم ذهب .

(وروى) عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم .

قال هذا كعب سام بن نوح قال ثم ضرب الكثيب بعصاه وقال له قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى أهكذا هلكت قال لا بل مت وأنا شاب ولكن ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت فقال له حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح ان اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فأكلاه فلما كثر الفار فى السفينة وجعل يقرض حبالها وذلك أنه توالد فى السفينة أوحى الله تعالى إلى نوح أن اضرب بين عينى الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفار فأكلاه فقال له عيسى كيف علم نوح أن البلاد قد يبست قال بعث نوح غرابا يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها واشتغل عن الرجوع فدعا عليه نوح بالخوف فذلك لا يألف البيوت ثم بعث الحمامة فجاءت بورق الزيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد جفت قال فطوقها بالخضرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت فقالوا يارسول الله ألا تنطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ ثم قال له عد بإذن الله تعالى فعاد ترابا .

قال أهل التاريخ أرسل الطوفان لثلاثة عشر يوما خلت من آب ومضى ستمائة سنة من عمر نوح ولتتمة ألفى سنة ومائة سنة وست وخمسين سنة من لدن أهبط آدم إلى الأرض وركب نوح ومن معه فى السفينة لعشر خلوان من رجب وخرجوا منها فى العاشر من المحرم فلذلك سمى يوم عاشوراء وأقاموا فى الفلك ستة أشهر فلما هبط نوح ومن معه فى الفلك سالمين صام نوح وآمن جميع من معه من الإنس والوحوش والدواب والطير فصاموا شكراً لله تعالى ويقال إن نوحا وقومه كانت قد أظلمت عليهم أعينهم فى السفينة من دوام النظر إلى الماء فأمروا بالاكتحال يوم عاشوراء الذى خرجوا فيه من السفينة .

(عن ابن عباس) قال قال رسول الله ﷺ «من اكتحل بالأثمد يوم عاشوراء لم ترمد عينيه أبداً» فلما خرج نوح ومن معه من السفينة اتخذ من ناحية من الأرض الجزيرة موضعاً وابتنى هناك قرية سموها سوق ثمانين لأنه كان ابتنى فيها لمن آمن معه وهم ثمانون فهى اليوم تسمى بسوق ثمانين فأوحى الله تعالى إلى نوح أنه لا يعود الطوفان إلى الأرض أبداً وعاش نوح بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة فكان جميع عمره الف سنة إلا خمسين عاما ثم قبضه الله تعالى إليه (ويروى) أنه قيل لنوح لما احتضر كيف وجدت الدنيا قال (كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر) ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه ساماً وجعله ولى عهده وكان ولد له سام قبل الطوفان بثمان وسبعين سنة وقيل لما حضرته الوفاة دعا ابنه ساماً وهو بكره فقال يابنى أوصيك باثنين وأنهاك عن إثنين فأما اللذان أنهاك عنهما فالإشراك بالله والكبر فإنه لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر وأما الذان أوصيك بهما فإنى رأيتهما يكثران الولوج إلى الله تعالى قول لا إله إلا الله وسبحان الله فإن قول لا إله إلا الله لو جمعت السموات السبع والأرضون السبع لخرقتها حتى تبلغ إلى ربها ولو جعلت لا إله إلا الله فى كفة ميزان لرجحت بالسموات السبع وما فيها وأوصيك بسبحان الله فإنها صلاة الخلق وبها يرزقون .

(ذكر خصائص نوح عليه السلام)

وهى خمسة عشرة خصلة لم يسم أحداً من الأنبياء باسمه وسمى بذلك لكثرة نوحه على نفسه وكان أول نبى من أنبياء الشريعة وأول داع إلى الله تعالى وأول نذير عن الشرك وأول من عذبته أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه ويقال إن الله تعالى أوحى إليه بعد الطوفان إنى خلقت خلقى وأمرتهم بطاعتى فانتهكوا معصيتى فاشتد لذلك غضبى فعذبت بذنوب العاصين من لم يعصنى وعذبت بذنوب بنى آدم جميع خلقى وقد حلفت إنى لا أعذب بمثل هذا العذاب أحداً من خلقى بعدها ولكن جعل الدنيا دولا بين عبادى ثم أجزيهم بأعمالهم إذا اجتمعوا عندى وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين وعمر ألف

سنة ولم ينقص له سن ولم تنقص له قوة ولم يبلغ أحد من الرسل فى الدعوة مثل ما بلغ وكان يدعو قومه ليلا ونهاراً وإعلاناً وسراً ولم يلق نبى من أمته من الضرب والشتم والأذى والجفاء مثل مالقى فلذلك قال الله تعالى (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين .

وجعل ثانى المصطفى ﷺ فى الميثاق والوحى قال الله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وقال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) هو فى البعث أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد ﷺ وأعطاه الفلك وعلمه صنعته وحفظه بما فيه وأجراه فوق الماء وسماه شكوراً فقال تعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) وأكرمه بالسلامة والبركة فقال تعالى (يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) الآية .

(قال) محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام وكل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وجعل ذريته هم الباقين فهو أول البشر وأصل النسل .

(وروى) عن الحسن عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ « ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السود ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج (قال) عطاء ودعا نوح على حام أن لا يعدو شعر ولده آذانهم وحيثما كان ولده يكونون عبيد الولد سام ويافث فلما هبط نوح وذريته من الفلك قسم الأرض بين ولده أثلاثاً فجعل لسام وسط الأرض ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون وذلك ما بين فيسون إلى شرق النيل وبين مجرى الجنوب إلى مجرى الشمال وجعل لحام قسمه غربى النيل وما بين مجرى ريح الجنوب وما وراء إلى سيحون إلى مجرى ريح الدبور وجعل قسم يافث من فيسون فما وراء إلى مجرى الصبا فذلك قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين) :

(مجلس فى قصة هود عليه السلام)

قال الله تعالى (وإلى عاد أخاهم هوداً) إلى (تتقون) وهو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح وهو عاد الأولى وكانوا ينزلون اليمن وكانت منازلهم منها بالشجر والأحقاف كما قال الله تعالى (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر)الآية وهو رمال يقال له رمل عالج وهو ما بين عمان إلى حضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وكثروا وقهروا أهلها لفضل قوتهم التى آتاهم الله تعالى وكان قد أعطاهم الله من القوة والقامة مالم يعط غيرهم كما قال الله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) أى عظماً وطولا وقوة وشدة .

وقال محمد بن إسحق بن يسار وهود بن عامر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح وولد لشالخ عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة فأمرهم هود أن يوحدوا الله تعالى ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فأبوا ذلك عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة وبنوا المصانع وبطشوا فيها بطش الجبارين كما قال تعالى (أتبنون بكل آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين) فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى أضربهم ذلك وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد طلبوا من الله تعالى الفرج وكان طلبهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم ليجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم وكلهم معظم لمكة عارف بحرمتها وسكانها عند الله تعالى وأهل مكة يومئذ العماليق وإنما سموا العماليق لأن أباهم عمليق ابن سام بن نوح وكان سيد العماليق وإذ ذاك بمكة رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية إسمها ناهدة بنت اجبيرى رجل من عاد فلما قحط المطر عن عاد جهدوا وقالوا جهزوا منكم وفداً إلى مكة فليستسقوا لكم فبعثوا منهم قيل بن عنز والقيم بن هزال بن هزيل وعبيل بن ضد بن عاد الأكبر ومرثد بن عفير وكان مسلماً كتم إسلامه وجهامة بن الخبيرى .

قال معاوية بن بكر ثم بعثوا أيضاً لقمان بن عاد بن ضد بن عاد الأكبر فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارج الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فاقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يستغيثون من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى والله ما أدرى كيف أصنع بهم فأستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه فيظنون أنه ضيق من بمقامهم عندى وقد هلك من وراءهم من قومهم جهداً وعطشاً فشكا ذلك من أمرهم إلى الجرادتين فقالتا له قل شعراً تغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك يحركهم فقال معاوية بن بكر :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم … لعل الله يمنحنا غماما
فتسقى أرض عاد إن عادا … قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجوا … به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهموا بخير … فقد أمست نساؤهموا عيامى
وإن الوحش يأتيهم جهاراً … ولا يخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيم اشتهيتم … نهاركموا وليلكموا تماما
فقبح وفدهم من وفد قوم … ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض ياقوم إنما بعثكم قومكم يستغيثون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد وكان قد آمن بهود عليه السلام سراً إنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم فأظهر إسلامه عند ذلك وقال جهامة بن الخبيرى خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنه قد اتبع دين هود عليه السلام

أبا سعد فإنك من قبيل … ذوى كرم وأمك من ثمود
فإنا لا نطيعك ما بقينا … ولسنا فاعلين لما تريد

أتأمرنا لنترك دين رفد ورمل وآل ضد والعبود
ونترك دين آباء كرام ذوى رأى ونتبع دين هود

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر وكان شيخاً كبيراً احبسا عنا مرثد بن سعد حتى يقدم معنا مكة فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا إلى مكة يستسقون لعاد بها فلما دخلوا مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا إليه فلما انتهى قام يدعو الله ووفد عاد قد أخذوا يدعون فجعل يقول اللهم اعطنى سؤلى ولاتدخلنى فى شيء مما يدعو وقد عاد وكان قيل بن عنز رأس وفد عاد قدأمرهم أن يؤمنوا عليه فقال وفد عاد اللهم اعط قيلا ما سألك واجعل سؤالنا مع سؤاله وكان تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد ولم يدخل فى دعوتهم فقال اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى فاعطنى سؤلى .

وقال قيل بن عنز حين دعا واستسقى اللهم لم أجىء لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم يا إلهنا إن كان هود صادقاً فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله سحائب ثلاث واحدة بيضاء وواحدة حمراء وواحدة سوداء ناداه مناد من السحاب ألا ياقيل اختر لنفسك واحدة من هذه السحب الثلاث فقال قيل اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه المنادى يقول إخترت يا قيل رماداً رمدداً فلم تبق من آل عاد أحداً لا والداً تتركه ولا ولداً إلا جعلتهم رميا همدا إلا بنوا اللويدة المهدا وبنو اللويدة رهط من هزال بنى هزيل ابن بكر وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم لم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الآخرة فساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فقال الله تعالى (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها) أى كل شيء مرت به وكان أول من أبصر مافيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما تبينت مافيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا لها مارأيت؟ قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها

(أخبرنا) الحسن بن محمد بن الحسين أنبأنا محمد بن جعفر أنبأنا الحسن بن علوة أنبأنا إسمعيل بن عيسى أنبأنا إسحق بن بشر أخبرنى المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال أوحى الله تعالى إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم فخرجت بغير كيل ولا وزن على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض عا بين المشرق والمغرب قال فقال الخزان يارب لن يطيقوها ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين مشارق الأرض ومغاربها فأوحى الله إليها أن ارجعى فاخرجى على قدر خرمة الخاتم وهى الحالقة قال فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما أى دائمة متتابعة فلم تدع أحدا من عاد إلا أهلكته وكان هود ومن معه قد اعتزلوا فى حظيرة مايصيبهم من الريح إلا مايلين جلودهم و لذ به الأنفس وأنها من عاد لطعن فتحملهم مابين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا قال محمد بن إسحق السدى: بعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فتبادرت البيوت فلما دخلوها دخلت عليهم الريح فأخرجتهم منها فهلكوا، فلما أهلكهم الله تعالى أرسل عليهم طيوراً سوداً لتلقيهم فى البحر فألقتهم فيه (قال) ابن بشار لما خرجت الريح على عاد من الوادى قال تسعة رهط منهم أحدهم الخلجان وكان رئيسهم وكبيرهم فى ذلك الزمان تعالوا حتى نقوم على رأس الوادى فنردها فجعلت الريح تدخل إلى تحت الواحد منهم فتحمله ثم ترمى به فيندق عنقه وكانت الريح تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم وتقلعهم فتتركهم كما قال الله تعالى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) حتى لم يبق منهم إلا الخلجان قال إلى الجبل فأخذ بجانب منه فهزه فاهتز فى يده ثم أنشأ يقول:

لم يبق إلا الخلجان نفسه   يا لك من يوم دهانى أمسه

فقال له هود ويحك يا خلجان أسلم تسلم فقال ما لى عند ربك إذا أسلمت؟ قال الجنة قال فما هؤلاء الذين أراهم فى السحاب كأنهم البخت؟ قال هود ذلك الملائكة قال إن أسلمت أيقيدنى ربك منهم لقومى قال ويحك هل رأيت ملكا

يقيد من جنوده فقال لو فعل ما رضيت فجاءت الريح فألحقته بأصحابه وأهلكته وأفنى الله عاداً سوى من بقى من قومهم بمكة ونواحيها .

قالوا وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة فى ليلة مقمرة من أنصار عاد فأخبرهم بهلاك عاد فقالوا له أين فارقت هوداً وأصحابه قال فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكوا فيما حدثتهم به فقالت هرقلة بنت بكر صدق ورب الكعبة ومنصور بن يعفر بن أخى معاوية بن بكر معهم قالوا وقد قيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قد أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم فقال مرثد اللهم اعطنى براً وصدقة فأعطى ذلك وقيل قال أختار أن يصيبنى ما أصاب قومى فقيل له هلاك فقال لا أبالى لا حاجة لى فى البقاء بعد قومى فأصابه الذى أصاب عاد من العذاب فهلك وقال لقمان يارب اعطنى عمراً فقيل له اختر لنفسك بقاء سبع بقرات سمان عفر فى جبل وعر لا يمسها القطر أو عمر سبعة أنسر إذا مضى نسر حولت إلى نسر آخر فاستحقر بقاء الأبقار واختار عمر النسور فعمر عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الذكر منها لقوته فيربيه حتى إذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل مثل ذلك حتى أتى إلى السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة فلم يبق غير السابع .

قال ابن أخ لقمان ياعم لم يبق من عمرك إلا هذا النسر فقال لقمان يا ابن أخى هذا لبد ولبد بلسانهم الدهر فلما انقضى عمر لبد طارت النسور غداة من رأس الجبل ولم ينهض لبد فيها وكان نسور لقمان لا تغيب عنه قال فلما رأى لبد لم ينهض مع النسور ونام إلى الجبل لينظر ما فعل لبد فوجد لقمان فى نفسه وهناً ولم يكن يجده قبل ذلك فلما انتهى إلى الجبل رأى نسره لبدا واقفاً بين النسور فناداه انهض لبد فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات لقمان معه وفيه جرى المثل (أتى أبد على لبد) وقال النابغة الذبيانى :

ضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وقال محمد بن إسحاق قال مرثد بن سعد حين سمع قول الراكب الذى أخبر بهلاك عاد شعراً :

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشاً ما تبلهم السماء
وسير وفدهم شهراً ليسقوا ... فأردفهم مع العطش العماء
بكفرهم بربهم جهاراً ... على آثارهم عاد العفاء
ألا نزع الإله حلوم عاد ... فإن قلوبهم قفر هواء
من الرب المهيمن إذا عصوه ... وما تغنى النصيحة والشقاء
فنفسى وابنتاى وأم ولدى ... لنفس نبينا هود فداء
أتانا والقلوب مصميات ... على ظلم وقد ذهب الضياء
لنا صنم يقال له صمود ... يقابله صدى والهباء
فأبصره الذين له أنابوا ... وأدرك من يكذبه الشقاء
وإنى سوف ألحق آل هود ... وإخوته إذا جن المساء

ثم إنه لحق بهود ومن معه وبقى هود ماشاء الله ثم مات وعمره مائة وخمسون سنة وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة سمعت علياً رضى الله عنه يقول لرجل من أهل حضرموت هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء وأراك وسدر كثيرة بناحية كذا وكذا من حضرموت قال نعم يا أمير المؤمنين إنك لتنعته لى نعت رجل قد رآه قال لا ولكنى قد حدثت عنه فقال الحضرمى وما شأنه ياأميرالمؤمنين؟ فقال فيه قبر النبى هود عليه السلام .

أخبرنا أبو عمر وأحمد بن أبى العراق أنبأنا المغيرة بن عمرو بن الوليد بمكة فى المسجد الحرام بين الركن والمقام أنبأنا الفضل بن يحيى الجندى أنبأنا يوسف بن محمد أنبأنا يزيد بن أبى حكيم عن سفيان الثورى عن عطاء عن السائب عن عبد الرحمن ابن سابط أنه قال بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبياً وأن قبر هود وصالح وشعيب وإسمعيل عليهم السلام فى تلك البقعة .

﴿ مجلس فى قصة صالح عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) وهو ثمود بن عامر بن إرم بن سام ابن نوح وهو أخو جديس وأراد ههنا القبيلة قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام وكان من قصتهم على ماذكر محمد بن إسحق بن يسار والسدى والكلبى ووهب بن منبه وكعب وغيرهم من أهل الكتب دخل كلام بعضهم فى بعض أن عاداً الأولى لما أهلكهم الله تعالى وانقضى أمرهم عمرت ثمود بعدهم واستخلفوا فى الأرض فخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل بعضهم يبنى المسكن من الحجر والمدر فينهدم وهو حى فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً فنحتوا منها وجابوها وجوفوها وكانوا فى سعة من معايشهم .

كما قال الله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) .

فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره فأفسدوا فى الأرض فبعث الله إليهم صالحاً نبياً وهو صالح بن عبيد بن آصف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود وكانوا قوماً عرباً وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فبعثه الله تعالى إليهم رسولاً فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التخويف والتحذير سألوه أن يريهم آية تكون مصدقة لما يقول فقال اللهم أرهم آية ليعتبروا بها ثم قال لهم أية آية تريدون ؟ قالوا تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة فتدعو إلهك وندعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم ؛ فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعو به .

ثم قال جندع بن عمرو بن حواس وهو يومئذ سيد ثمود يا صالح اخرج لنا من هذه الصخرة يعني الصخرة المنفردة عن الجبال من ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ماشاكلت البخت من الإبل فإن فعلت ذلك صدقناك وآمنا بك فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه إذا فعل ذلك صدقوا وآمنوا به .

ثم أن صالحاً عليه السلام صلى ودعا الله تعالى بذلك فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة فصدعت عن ناقة عشواء جوفاء وبراء كما سألوه لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت سقبا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويتبعوه فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر وكانوا من أشراف ثمود وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له شهاب بن خليفة فأراد أن يسلم فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال رجل من ثمود :

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً ... فهم أن يجيب ولو أجابا
فأصبح صالح فينا عزيزا ... وما بدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر ... نالوا بعد رشدهم ذبابا

فلما خرجت الناقة قال صالح (هذه ناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم) فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء فكانت ترد الماء يوماً ولهم يوم فإذا كان يومها وضعت رأسها فى بئر بأرض الحجر يقال له بئر الناقة فيرتفع الماء إليها فما ترفع رأسها إلا وقد شربت جميع ما فيها ولا تدع قطرة ماء فيها فتتفحج ثم تروح عليهم فيحلبون من لبنها ماشاؤا فيشربون ويدخرون ويملئون أوانيهم لكن تصدر من غير الفج الذى وردت منه لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث وردت لأنه يضيق عليها .

قال أبو موسى الأشعرى أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً فإذا كان الغد من يومهم شربوا من الماء وقد أخرجه الله تعالى من البئر

وأدخروا ما شاؤا قدر كفايتهم فى يوم الناقة وكانوا مع ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة فى الصيف إذا كان الحر تطالع ظهر الوادى فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم وتهبط إلى بطن الوادى فى حره وحدته فكانت المواشى تنفر منها إذا رأتها إذا كان الشتاء سبقت الناقة فى بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البر والحدة فأضر ذلك مواشيهم للبلاء والاختبار فكانت مراتعها الجبال فكبر ذلك عليهم حتى حملوا على الناقة فاحتالوا فى عقرها .

وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مجلز وتكنى أم غنم وهى من بنى عبيد بن المهل وكانت امرأة ذؤاب بن عمر وكانت عجوزاً مسنة ولها بنات حسان ومال كثير من الإبل والبقر والغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوق بنت المحيا بن مهر وكانت غنية جميلة ذات مواشى كثيرة وكانت هاتان المرأتان من أشد الناس عداوة لصالح وكانتا تحتالان على عقر الناقة من كفرهما بصالح بما أضرت بمواشيهما وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال له صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف بن هلال فأسلم وحسن إسلامه وكانت صدوق قد وضعت إليه مالها فأنفقته على من أسلم من أصحاب صالح ﷺ حتى نفد المال فأطلع صدوق على إسلامه فعاتبته على ما فعل فأظهر لها دينه ودعاها إلى الله تعالى فأبت عليه وأخذت أولادها فغيبتهم فى بنى عمها الذين هى منهم فقال لها زوجها ردى على أولادى فلما ألح عليها قالت حتى أحاكمك إلى بنى عمى وذلك أن بنى عمه كانوا مسلمين فأبت أن تحاكمه إليهم فقال لها بنو عمها والله لتعطينه ولده طائعة أو كارهة فلما رأت ذلك أعطته أولاده وكانت أوفر الناس جمالا وأكثرهم مالا وأحسنهم كمالا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة قدار بن سالف أهل قدح واسم أمه قديرة وكان رجلا أشقر أزرق قصيراً ويزعمون أنه كان لزانية رجل يقال له صفوان ولم يكن لسالف ولكنه قد ولد على فراشه فقالت له يا قدار أعطيتك من بناتى أيما شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزاً فى قومه وذكره رسول الله ﷺ «إذا انبعث أشقاها رجل عزيز فى قومه مثل أبى زمعة» ...

قالوا فانطلق قدار ومصدع واستغاثوا بمن استغاثوا من ثمود فأتبعهم سبعة نفر وكانوا تسعة رهط كما قال الله تعالى (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون) فلقيهم هديات بن مبلغ خال قدار وكان عزيزا من أهل الحجر ودعر ابن غنم بن داغرة أخى مصدع وخمسة لم يذكر أسماؤهم فاجتمعوا على عقر الناقة .

قال السدى وغيره أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة فقال لهم ذلك فقالوا ما كنا لنفعل ذلك فقال لهم إنه سيولد فى شهركم هذا غلاما يعقرها ويكون هلاككم على يديه فقالوا لا جرم لا يولد لنا فى هذا الشهر ولد إلا قتلناه فولد للتسعة منهم فى ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوا أولادهم وولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح إبنه وكان بكره لم يولد له قبل ذلك شىء وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم وقالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله قالوا نخرج فيرى الناس أنا قد خرجنا لسفر فنأتى الغار فنكمن فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه ونتصرف بعد ذلك إلى رجالنا فنقول ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا ويظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لا ينام الليل معهم فى القرية وكان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه بالليل فإذا أصبح أتاهم ووعظهم وذكرهم فإذا أمسى خرج إلى المسجد فصلى فيه .

فلما دخلوا الغار وأضمروا أنهم يخرجون إليه بالليل فيقتلونه سقطت عليهم صخرة من الغار فقتلتهم فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على ذلك إلى الغار فإذا هم رضخ فرجعوا يصيحون فى القرية ياعباد الله ما قنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فأجمع أهل القرية عقر الناقة .

(قال) ابن إسحق إنما كان تقاسم التسعة على تبييت صالح عليه السلام بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا

هلم فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً كنا عجلنا قتله وإن كان كاذباً كنا ألحقناه بناقته ليلا فأتوه ليلا ليبيتوه فى أهله فرمتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتى أصحابهم منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم وهموا به فقامت عشيرته وأخذوا السلاح وقالوا والله لاتقتلونه أبداً فقد وعدكم بأن العذاب نازل بكم فى ثلاث فإن كان صادقاً فلم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ماتريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

(قال) السدى غيره فلما ولد ابن العاشر يعنى قدار وكان يشب فى كل يوم شباب غيره فى الجمعة ويشب فى الجمعة شباب غيره فى الشهر ويشب فى الشهر شباب غيره فى السنة فلما كبر جلس مع أناس يصيبون الشراب فأرادوا ماء يمزجون به شربهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء شربته الناقة فاشتد عليهم ذلك وقالوا مانصنع باللبن ولو كنا نأخذ الماء الذى تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحرثنا كان خيراً لنا فقال ابن العاشر هل لكم أن أعقرها قالوا نعم .

(قال) ابن إسحق وغيره فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار فى أصل شجرة على طريقها وكمن لها مصدع فى أصل شجرة أخرى فمرت الناقة على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقيها وخرجت أم غنمة وعنيزة وأمرت إبنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فتراءت لقدار وأسفرت عن وجهها لو حرضته على عقر الناقة فشدد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فأرداها وطعن فى لبتها ونحرها وخرج أهل البلد واقتسموها وأكلوا لحمها وكانت لما عقرها رغت فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيعاً يقال له ضوء وقيل إسمه فارة .

وروى ذلك مسنداً عن رسول الله ﷺ من حديث شهر بن حوشب عن عمرو ابن خارجة فأتى صالح عليه السلام فقيل له أدرك ناقتك قد عقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون يانبى الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال لهم

صالح انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا إليه ليأخذوه فأوحى الله إلى الجبل فتطاول فى السماء حتى لا تناله الطير وجاء صالح عليه السلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم دعا ثلاثاً وانفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح عليه السلام لكل أمة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ذلك وعد غير مكذوب .

قال محمد بن إسحق بن يسار اتبع الفصيل أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصداق وأخوه ذؤاب ولد مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جره برجله فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه فقال له صالح عليه السلام انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله تعالى ونقمته فقالوا مستهزئين به ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك وكان يسمون الأيام فيوم الأحد الأول والإثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وفيه يقول الشاعر :

أومل أن أعيش وأن يومى   بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار فإن أفته   فمؤنس أو عروبة أو شبار

قالوا وكان عقر الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه السلام حين سألوه عن وقت العذاب وآيته إنكم تصبحون غرة مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم الأول فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه فخرج صالح عليه السلام هارباً حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على رجل منهم يقال له نفيل ويكنى بأبي هدب وهو مشرك فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يا نبى الله إنهم ليعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم

قال نعم فدلهم عليه مبدع فأتوا أبا هدب فكلموه فى ذلك فقال نعم هو عندى وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون فى وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم الأجل فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب واقع بهم فلما أمسوا فإذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب .

فلما كان ليلة الأحد خرج صالحاً عليه السلام من بين أظهرهم وخرج معه من آمن حتى جاؤا الشام فنزلوا رملة فلسطين فلما أصبحوا تكفنوا وتحنطوا وكان حنوطهم الصبر والمر وكانت أكفانهم الأنطاع ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة ولا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما أشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت فى الأرض فقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق فيهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال عز وجل (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود) ولم ينج منهم إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت شاف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح فاطلق لها رجليها بعد ما عاينت العذاب أجمع فخرجت كأسرع شيء يكون حتى أتت قرحاً وهو وادى القرى حد ما بين الحجاز والشام فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود ثم استسقت من الماء فلما شربت ماتت .

(وروى) أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال « لما مر النبى ﷺ بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه لا يدخلن أحد هذه القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ثم قال أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله لهم الناقة .

وقال أهل العلم توفى صالح عليه السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وذلك أنه انتقل من الشام إلى مكة بعد ما أهلك الله تعالى قومه وكان يعبد الله تعالى هنالك حتى مات وكان قد أقام فى قومه عشرين سنة .

(أخبرنا) محمد بن عبد الله بن محمد الحسن قال حدثنا عبد الله بن هاشم حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا قتيبة أبو عثمان عن أبيه عن الضحاك بن مزاحم قال قال رسول الله ﷺ يا على أتدرى من أشقى الأولين قال قلت الله ورسوله أعلم قال عاقر الناقة قال يا على أتدرى من أشقى الآخرين قال قلت الله ورسوله أعلم قال قاتلك والله أعلم .

﴿ مجلس فى قصة إبراهيم عليه السلام والنمروذ ﴾

وهو إبراهيم بن تازخ بن ناحور بن ساروغ بن ادغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح وكان إسم أبى إبراهيم الذى سماه به أبوه تازخ فلما صار مع النمروذ قيماً على خزائن آلهته سماه آزر وقال مجاهد إن آزر ليس إسم أبيه وإنما هو إسم صنم وقال ابن إسحاق ليس إسم صنم بل هو لقب عيب به وهو بمعنى معوج وقيل هو بالقبطية الشيخ الهرم وولد لناحور تارخ بعد ما مضى من عمره سبع وعشرين سنة وهذا المجلس يشتمل على أبواب والله أعلم .

﴿ الباب الأول فى مولد إبراهيم عليه السلام ﴾

اختلف العلماء فى الموضع الذى ولد فيه فقال بعضهم كان مولده بالسوس من أرض الأهواز وقال بعضهم كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوثا وقال بعضهم كان مولده بالوركاء ناحية حدود كسكر ثم نقله أبوه إلى الموضع الذى كان به نمروذ من ناحية كوثا وقال بعضهم كان مولده بحران ولكن نقله أبوه إلى أرض بابل وقال عامة السلف من أهل العلم ولد إبراهيم عليه السلام فى زمن نمروذ بن كنعان وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم عليه السلام ألف ومائتان وثلاث وستون سنة ونمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن حام

ابن نوح (ويقال) ملك الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان فسليمان ابن داود وذو القرنين عليهما السلام ، وأما الكافران فنمروذ وبختنصر ، وكان نمروذ أول من وضع على رأسه التاج وتجبر فى الأرض ودعا الناس إلى عبادته ؛ وكان له كهان ومنجمون فقالوا له إنه يولد فى بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء .

(وقال السدى) رأى نمروذ فى منامه كأن كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع فزعاً شديداً ودعا السحرة والكهنة والقافة وهم الذين يخطون فى الأرض وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد فى ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه قال فأمر نمروذ بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا رقيباً أميناً فإذا حاضت المرأة خلى بينه وبينها إذا أمن المواقعة فإذا طهرت عزل الرجل عنها فرجع آزر أبو إبراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها فى طهرها فحملت بإبراهيم عليه السلام .

(وقال) محمد بن إسحق بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها وذلك انها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ولم يبن فى بطنها .

(قال ابن عباس) لما حملت أم إبراهيم قال الكهان للنمروذ إن الغلام الذى أخبرناك به قد حملت به أمه هذه الليلة فأمر نمروذ بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها فوضعته فى نهر يابس ثم لفته فى خرقة ووضعته فى حلفاء ورجعت فأخبرت زوجها بابنها وأنها قد ولدت فى موضع كذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرداباً عند نهر فوارة وسد عليه بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه ،

(وقال السدى) لما عظم بطن أم إبراهيم خشى آزر أن يذبح فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها وركاء فأنزلها فى سرداب من الأرض وجعل يتعهدها ويكتم ذلك عن أصحابه فولدت إبراهيم عليه السلام فى ذلك السرداب فشب فكان وهو ابن سنة كابن ثلاث سنين وصار من الشباب بحالة أسقطت طمع الذباحين ثم ذكر آذر لأصحابه أن له إبناً فانطلق به إليهم .

(قال ابن إسحق) لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلة إلى مغارة وكانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه مايصلح المولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه فى المغارة فتجده حياً يمص إبهامه

(قال أبو زريق) كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم عليه السلام وجدته يمص إبهامه فقالت ذات يوم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبناً ومن أصبع عسلا ومن أصبع سمناً .

(قال ابن إسحق) وكان آزر سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت له غلاماً فمات فصدقها وسكت عنها وكان اليوم على إبراهيم عليه السلام فى الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم عليه السلام فى المغارة إلا خمسة عشر يوماً حتى جاء إلى أبيه آزر فأخبره أنه إبنه وأخبرته امرأته بما كانت صنعت فى شأنه فسر آزر بذلك وفرح فرحاً شديداً .

﴿ الباب الثانى فى خروج إبراهيم عليه السلام من السرداب ورجوعه إلى قومه ﴾
(ومحاجته إياهم فى الدين وإلقائهم إياه فى النار ومايتعلق بذلك)

(قال أهل العلم بسير الماضين) لما شب إبراهيم عليه السلام وهو فى السرداب قال لأمه من ربى ؟ قالت أنا قال فمن ربك ؟ قالت أبوك قال فمن رب أبى ؟ قالت له نمروذ قال فمن رب نمروذ ؟ قالت له اسكت فسكت ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذى يحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه إبنك ثم أخبرته بما قال

لها فأتاه أبوه آزر فقال إبراهيم عليه السلام يا أبتاه من ربى ؟ قال أمك قال فمن رب أمى قال أنا قال فمن ربك ؟ قال نمروذ قال فمن رب نمروذ ؟ فلطمه لطمة وقال اسكت وذلك قوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) .

ثم قال لأبويه أخرجانى فأخرجاه من السرب فانطلقا به حتى غابت الشمس فنظر إبراهيم عليه السلام إلى الإبل والبقر والغنم والخيل يراح بها فسأل أباه ما هذه فقال إبل وخيل وبقر وغنم فقال ما لهذه بد أن يكون لها رب خالق ثم نظر وتفكر فى خلق السموات والأرض وقال إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى إله غيره ثم نظر فإذا المشترى قد طلع ويقال الزهرة وكانت تلك الليلة فى آخر شهر فرأى الكوكب قبل القمر فقال هذا ربى فذلك قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر) لأنه رأى ضوءها أعظم (فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) قالوا وكان أبوهما يصنع الأصنام فلما ضم إبراهيم إلى نفسه جعل يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها فيذهب بها إبراهيم عليه السلام فينادى من يشترى ما يضر ولا ينفع فلا يشترى أحد منه فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب رؤسها وقال لها اشربى كسدت استهزاء بقومه بما هم عليه من الضلالة والجهالة حتى فشى عيبه إياها واستهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته فحاجه قومه فى دينه فقال لهم (أتحاجونى فى الله وقد هدانى) الآيات إلى قوله عز وجل (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) حتى خصمهم وغلبهم بالحجة ثم إن إبراهيم عليه السلام دعا أباه آزر إلى دينه فقال (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) إلى آخر القصة فأبى أبوه الإجابة إلى مادعا إليه ثم أن إبراهيم عليه السلام جاهر قومه بالبراءة مما كانوا يعبدون وأظهر دينه فقال (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) قالوا فمن تعبد أنت قال رب العالمين قالوا أتعنى نمروذ فقال إلا الذى خلقنى

فهو يهدينى إلى آخر القصة ففشا ذلك فى الناس حتى بلغ نمروذ الجبار فدعاه فقال له يا إبراهيم أرأيت إلهك الذى بعثك وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التى تعظمه بها على غيره قال ما هو ؟ قال إبراهيم عليه السلام ربى الذى يحيى ويميت قال نمروذ أنا أحيى وأميت قال إبراهيم كيف تحيى و تميت قال آخذ رجلين استوجبا القتل فى حكمى فأقتل أحدهما فأكون أمته ثم أعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته فقال له إبراهيم عند ذلك إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت عند ذلك نمروذ ولم يرجع إليه شيئاً ولزمته الحجة فذلك قوله عز وجل (فبهت الذى كفر) الآية ثم أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرى قومه ضعف الأوثان التى كانوا يعبدونها من دون الله وعجزها إلزاماً للحجة عليهم فجعل ينتهز لذلك فرصة ويحتال فيه إلى أن حضرهم عيد لهم .

قال السدى : كان لهم فى كل سنة عيد يخرجون إليه ويجتمعون فيه فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم فلما كان فى بعض الطريق ألقى نفسه وقال إنى سقيم أشتكى رجلى فتولوا عنه وهو صريع فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فسمعوها منه .

وقال مجاهد وقتادة فإنما قال إبراهيم عليه السلام هذا فى سر من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد منهم وهو الذى أفشاه عليه قالوا ثم رجع إبراهيم عليه السلام من الطريق إلى بيت الآلهة فإذا فى البيت نهر مستقبل باب النهر صنم عظيم يليه أصغر منه إلى باب النهر وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا إذا كان حين رجوعنا فرجعنا وقد باركت الآلهة فى طعامنا أكلنا فلما نظر إبراهيم عليه السلام إلى الأصنام وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجبه قال مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر فعلق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) فلما جاء القوم من العيد

إلى بيت آلهتهم ورأوها بتلك الحالة قالوا (من فعل هذا بآلهتنا أنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) هو الذى نظنه صنع هذا فبلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه فقالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه أنه هو الذى فعل ذلك وكرهوا أن يأخذوه بغير بينة .

قال قتادة والسدى وقال الضحاك لعلهم يشهدون بما نصنع به ونعاقبه فلما أحضروه قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال إبراهيم بل فعله كبيرهم هذا غضب من أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار وهو أكبر منها فكسرهن فاسألوهم إن كانوا ينطقون قال النبى ﷺ « لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات كلها فى الله تعالى وقوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله للملك الذى عرض لسارة هى أختى) فلما قال إبراهيم ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون هذا الرجل فى سؤالكم إياه وهذه آلهتكم التى فعل بها مافعل حاضرة فاسألوها وذلك قول إبراهيم عليه السلام فاسألوهم إن كانوا ينطقون فقال قومه ما نراه إلا كما قال

(قيل) إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير ثم نكسوا على رؤسهم متحيرين فى أمره وعلموا أنها لا تنطق ولا تبطش فقالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فلما اتجهت الحجة عليهم لإبراهيم عليهم السلام قال لهم (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) .

قال ابن إسحق كانوا يجمعون الحطب شهرا حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا وأشعلوا النار فى كل ناحية بالحطب فاشتعلت النار حتى إن الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقاً بإشارة إبليس لعنه الله تعالى حيث لم يتمكنوا من إلقائه فى النار من شدة حرها فاتخذوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيداً مغلولا صلوات الله عليه فضجت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين ضجة واحدة وقالوا أى ربنا إبراهيم ليس فى أرضك أحد يعبدك غيره

يحرق فى النار فاذن لنا فى نصرته فقال الله تعالى لهم إن استعان بشىء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت لكم فى ذلك وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا إلقاءه النار أتاه ملك المياه فقال إن أردت أخمدت النار فإن المياه والأمطار بيدى وأتاه خازن الريح فقال إن شئت طيرت النار فى الهواء فقال إبراهيم عليه السلام ولا حاجة لى إليكم ثم رفع رأسه إلى السماء فقال اللهم أنت الواحد فى السماء ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى .

وروى المعتمر عن أبى بن كعب عن أرقم (أن إبراهيم عليه السلام قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك) ثم رموا به فى المنجنيق إلى النار فى موضع شاسع فاستقبله جبريل عليه السلام فقال يا إبراهيم ألك حاجة قال أما إليك فلا قال جبريل فسل ربك فقال إبراهيم عليه السلام حسبى من سؤالى علمه بحالى حسبى الله ونعم الوكيل وفى الخبر (أن إبراهيم عليه السلام إنما نجى بقوله حسبى الله ونعم الوكيل) قال الله عز وجل (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) .

قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى إبراهيم فأقعدته على الأرض فإذا عين ماء وورد أحمر ونرجس قالوا فأقام إبراهيم فى النار سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال إبراهيم خليل الله ما كنت أياماً قط أنعم منى عيشاً من الأيام التى كنت فيها فى النار (قال ابن إسحق وغيره) وبعث الله ملك الظل فى صورة إبراهيم عليه السلام فقعد فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال يا إبراهيم إن ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبابى وألبسه القميص ثم أشرف نمروذ من صرح له عال ونظر إلى إبراهيم عليه السلام وما يشك أنه قد هلك فرآه جالساً فى روضة ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وحوله نار تحرق ما جمعوا من الحطب فناداه نمروذ يا إبراهيم كبير إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك يا إبراهيم فهل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فهل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك قال لا قال فقم اخرج منها فقام إبراهيم عليه السلام

يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج منها قال له النمروذ ما الذى رأيته معك فى مثل صورتك قاعداً إلى جانبك قال ملك الظل أرسله إلى ربى ليؤنسنى فيها .

(قال الشعبى) ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار وهو ابن ست عشرة سنة وذبح إسحق وهو ابن سبع سنين وولدته سارة رضى الله عنها وهى إبنة تسعين سنة وكان مذبحه من بيت المقدس على ميلين ولما علمت سارة بما أراد بإسحق بقيت يومين وماتت فى اليوم الثالث .

(قال ابن إسحق) استجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل النار عليه برداً وسلاماً على خوف من نمروذ وملئهم فآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ وهاران هو أخو إبراهيم عليه السلام وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارخ فهاران أبو لوط وناحور أبو تنويل وتنويل أبو لابان ورفقا بنت تنويل امرأة إسحق بن إبراهيم أم يعقوب وليا وراحيل زوجتا يعقوب عليه السلام وهما إبنتا لابان وآمنت أيضاً به سارة وهى بنت عمه وهى سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم عليه السلام .

(قال السدى) كانت سارة بنت ملك حران ، وذلك أن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام انطلقا قبل الشام فلقى إبراهيم سارة هى بنت الملك حران ، وكانت قد طعنت على قومها فى دينهم فتزوجها إبراهيم عليه السلام على أن لا يضرها .

(قال ابن إسحق خرج إبراهيم عليه السلام من كوثا من أرض العراق مهاجراً إلى ربه عز وجل وخرج معه لوط وسارة عليهما السلام كما قال الله تعالى (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) فخرج حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله تعالى أن يمكث ثم خرج منها حتى قدم مصر ثم خرج من مصر إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهى برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة فبعثه الله نبياً فذلك قوله عز وجل (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) يعنى الشام فبركتها أن بعث منها أكثر الأنبياء وهى الأرض

المقدسة وأرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام وبها يهلك الله المسيخ الدجال بباب لد وهى أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار يطيب فيها العيش للغنى والفقير .

﴿ الباب الثالث فى مولد إسمعيل وإسحق عليهما السلام ﴾
(ونزول إسمعيل وأمه هاجر الحرم وقصة بئر زمزم)

(قال أهل العلم بسير الماضين) لما نجا الله خليله إبراهيم عليه السلام آمن به من آمن وتابعوه على فراق قومهم وإظهار البراءة منهم فقالوا (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفراً بكم) أيها المعبودون من دون الله كفراً بكم) أيها المعبودون من دون الله (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء) أيها العابدون (حتى تؤمنوا بالله وحده) ثم خرج إبراهيم عليه السلام مهاجراً إلى ربه وخرج معه لوط عليه السلام وتزوج إبراهيم عليه السلام بابنة عمه سارة فخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادته لربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى وكانت سارة من أحسن النساء وأجملهن وكانت لا تعصى إبراهيم عليه السلام فى شىء وبذلك أكرمها الله .

قال فأتى الجبار رجل وقال له إن ههنا رجل معه امرأة من أحسن النساء ووصف له حسنها وجمالها فأرسل الجبار إلى إبراهيم عليه السلام فجاءه فقال ماهذه المرأة منك فقال هى أختى وتخوف إن قال هى امرأتى أن يقتله فقال زينها وأرسلها إلى حتى أنظر إليها فرجع إبراهيم إلى سارة عليها السلام وقال لها أن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فإنك أختى فى كتاب الله عز وجل أنه ليس فى هذه الأرض مسلم غيرى وغيرك .

ثم أقبلت سارة إلى الجبار وقام إبراهيم عليه السلام يصلى فلما دخلت عليه ورآها أهوى إليها ليتناولها بيده فيبست يده إلى صدره فلما رأى الجبار ذلك عظم

أمرها وقال لها سلى ربك أن يطلق يدى فوالله لا آذيتك فقالت سارة اللهم إن كان صادقاً فأطلق يده فأطلق الله تعالى يده .

(وفى بعض الأخبار المسندة) أنه فعل ذلك ثلاث مرات بقصد أن يتناولها فتيبس يده فلما رأى ذلك ردها إلى إبراهيم ووهب لها هاجر وهى جارية قبطية فأقبلت إلى إبراهيم فلما أحس بها إبراهيم انفتل من صلاته قال مهيم فقالت كفى الله كيد الفاجر الباغى بما رأى ، قال محمد بن سيرين كان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ قال فتلك أمكم يا بنى ماء السماء .

(وفى بعض الأخبار) أن الله تعالى رفع الحجاب بين إبراهيم وسارة حتى كان ينظر إليها من وقت خروجها من عنده إلى وقت انصرافها إليه كرامة لها وتطييباً لقلب إبراهيم عليه السلام قالوا وكانت هاجر جارية ذات هيبة فوهبتها سارة لإبراهيم فقالت إنى أرها امرأة وضيئة فخذها لعل الله تعالى أن يرزقك منها ولداً وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت فوقع إبراهيم على هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام .

(وروى) محمد بن إسحق عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ (إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً) .

قال ابن إسحق فسألت الزهرى ما الرحم التى ذكرها رسول الله ﷺ فقال : كانت هاجر أم إسمعيل منهم ثم خرج إبراهيم من مصر إلى الشام وهاب ذلك الملك الذى كان بها وأشفق من شره فنزل السبع من أرض فلسطين واحتفر بها بئراً واتخذ بها مسجداً وكانت ماء تلك البئر معيناً ظاهراً وكانت غنمه تردها فأقام إبراهيم بالسبع مدة ثم أن أهله آذوه فيها ببعض الأذى فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا يقال لها قطة فلما خرج من بين أظهرهم نضب ماء تلك العين وذهب فندم أهل السبع جميعاً على ما صنعوا وقالوا أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحاً فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع فقال ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه

قالوا إن الماء الذى كنت تشرب منه ونشرب معك منه قد نضب وذهب فأعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال اذهبوا بها معكم فإنكم إذا أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معيناً ظاهراً كما كان فاشربوا ولا تقربنها امرأة حائض فخرجوا بالأعنز .

قال فلما وقفت على البئر ظهر الماء فكانوا يشربون منها وهى على تلك الحال حتى أتتها امرأة طامث فاغترفت منها فركد ماؤها إلى الذى عليه اليوم وأقام إبراهيم عليه السلام ببلده وكان يضيف من نزل به وقد أوسع الله تعالى عليه وبسط له من الرزق والمال والخدم فلما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط عليه السلام بعث إليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم وأمرهم أن يبدؤا بإبراهيم عليه السلام ويبشروه وسارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب فلما نزلوا على إبراهيم عليه السلام وكان الضيف قد حبس عنه خمسة عشر يوماً حتى شق عليه ذلك وكان لا يأكل إلا مع ضيف ما أمكنه فلما رآهم على صورة الرجال سر بهم ورأى ضيوفاً لم يضف مثلهم حسناً وجمالا فقال لا يخرج لهؤلاء القوم إلا أنا فخرج فجاء بعجل سمين حنيذ وهو المشوى بالحجارة فقربه إليهم فأمسكوا أيديهم عنه فقال لهم ألا تأكلون (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) حيث لم يأكلوا من طعامه فقالوا يا إبراهيم لا نأكل طعاما إلا بثمن قال فإن لها ثمناً قال وما ثمنه قال تذكرون إسم الله تعالى على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهما السلام قال يحق لهذا أن يتخذه ربه خليــــلا ثم قال له لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته سارة قائمة تخدمهم وإبراهيم قاعد معهم فلما أخبروه بما أرسلوا به وبشروه بإسحق ويعقوب ضحكت سارة واختلف العلماء فى العلة الجالبة لضحكها ما هى فقال السدى إنما ضحكت سارة حيث لم يأكلوا من طعامهم وقالت يا عجباً لأضيافنا هؤلاء أنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

(قال السدى) قالت سارة لجبريل عليه السلام لما بشرها بالولد على حالة الكبر ما آية ذلك فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر فقال إبراهيم هو لله إذا ذبح .

وقال مجاهد وعكرمة فضحكت أى حاضت فى الوقت تقول العرب ضحكت الأرنب إذ حاضت وقال السدى وابن يسار وغيرهما من أهل الأخبار فحملت سارة بإسحق وقد كانت حملت هاجر بإسمعيل فوضعتا معاً وشب الغلامان فبينما هما يتناضلان ذات يوم وقد كان إبراهيم عليه السلام سابق بينهما فسبق إسماعيل فأخذه وأجلسه فى حجره وأجلس إسحق إلى جانبه وسارة تنظر إليه فغضبت وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن بضعة منها ثم ثاب إليها عقلها .

فقال لها إبراهيم عليه السلام اخفضيها واثقبي أذنيها ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء ثم أن إسمعيل وإسحق عليهما السلام اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان فغضبت سارة على هاجر وقالت لا تساكنيني فى بلد واحد وأمرت إبراهيم عليه السلام أن يعزلها عنها فأوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن يأتى بهاجر وابنها مكة فذهب بها حتى قدم مكة وهى إذ ذاك عضاة وسلم وبعث إليها خارج مكة أناس يقال لهم العماليق وموضع البيت يومئذ ربوة حمراء فقال إبراهيم عليه السلام لجبريل عليه السلام ههنا أمرت أن تضعها قال نعم فعمد بهم إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ عريشاً ثم قال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) ثم انصرف فأتبعته هاجر وقالت إلى من تكلنا فجعل لا يرد عليها شيئاً فقالت الله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، فقالت إذا لا يضيعنا ثم انصرف راجعاً إلى الشام .

وكان مع هاجر شنة فيها ماء فنفد الماء فعطشت وعطش الصبى فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض فصعدت الصفا وتسمعت هل تسمع صوتاً أو ترى إنسياً فلم تسمع شيئاً ولم تر أحداً ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادى نحو إسماعيل فأقبلت إليه مهرولة بسرعة ثم سمعت صوتاً نحو المروة فسعت وهى تزيد السعى كالإنسان المجهود فهى أول من سعى بين الصفا والمروة ثم صعدت إلى المروة فسمعت صوتاً كالإنسان الذى يكذب سمعه حتى استيقظت وجعلت تدعو اسمع إبل يعنى يا الله قد أسمعتنى صوتك فأغثنى فقد هلكت وهلك من معى .

فإذا هى بجبريل عليه السلام فقال لها من أنت ؟ فقالت سرية إبراهيم عليه السلام تركنى وابنى ههنا قال وإلى من وكلكما ؟ قالت وكلنا إلى الله تعالى قال لقد وكلكما إلى كريم كاف ثم جاء بهما وقد نفذ طعامهما وشرابهما حتى انتهى بهما إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عين فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل عليه السلام فلما نبع الماء أخذت هاجر شنة لها وجعلت تسقى فيها وتدخره فقال لها جبريل عليه السلام أنها رى وجعلت أم إسماعيل تحبسها حبساً .

قال رسول الله ﷺ (لولا أنها عجلت لكانت زمزم معيناً) وقال لها جبريل لا تخافى الظمأ على أهل هذه البلدة فإنها عين يشرب منها ضيفان الله تعالى وقال لها أما أن أبا الغلام سيجىء فيبنيان لله تعالى بيتاً هذا موضعه ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل فقالوا إن هذا الطير لحائم على ماء فأشرفوا فإذا هم بالماء فقالوا لهاجر إن شئت كنا معك فآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم فنزلوا معها وهم أول سكان مكة فلذلك كانت العرب تقول فى تلبيتها :

لا هم أن جرهما عبادك   الناس طارف وهم بلادك   وهم قديماً عمروا بلادك

فكانوا هناك حتى شب إسماعيل وماتت هاجر فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم وأخذ لسانهم فتعرب بهم فهم أولاده العرب المتعربة .

ثم أن إبراهيم عليه السلام استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل فقدم إبراهيم عليه السلام مكة وقد ماتت هاجر ويقال إنه قدمها راكباً البراق فلما قدمها ذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ليس هنا ذهب يتصيد وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع وكان مولعاً بالصيد فخص بالقنص والفروسية والرمى والصراع فقال لها إبراهيم عليه السلام هل عندك طعام أو شراب قالت ليس عندى شىء وما عندى أحد فقال لها إبراهيم إذا جاء زوجك فاقرئيه منى السلام وقولى له فليغير عتبة بابه فذهب إبراهيم عليه السلام ودخل إسماعيل فوجد ريح أبيه فقال لامرأته قد جاءك أحد فقالت شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه قال فما قال لك قالت قال فاقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه فطلقها وتزوج أخرى فلبث إبراهيم عليه

السلام ما شاء الله ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله قال لها هل عندك ضيافة فقالت نعم فجاءت باللبن واللحم فدعا لها بالبركة فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله براً وشعيراً وتمراً ثم قالت له انزل حتى أغسل رأسك وشيئك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عند شقه الايمن فوضع قدمه عليه فبقى أثر قدمه فيه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم جعلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فقال إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك فلما جاء إسمعيل ووجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاء أحد قالت جاءنى شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً فقال لى كذا وكذا وقلت له كذا وكذا وغسلت له رأسه وهذا موضع قدميه على المقام فقال ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(قال) أنس بن مالك رأيت المقام أثر أصابع إبراهيم عليه السلام وعقبيه وإخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم .

(وأخبرنا) محمد بن أحمد بن عبدون قال أخبرنا محمد بن حمدون بن خالد حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا هدية بن خالد حدثنا أبو يحي بن جابر بن مسح القرشي قال سمعت مسافر بن شيبة يقول سمعت عبد الله بن عمر يقول شهد ثلاث مرات أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول (الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولولا أن طمس الله نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب) .

﴿ الباب الرابع فى القول على بقية قصة زمزم ﴾

(روت الرواة) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال عبد المطلب بن هاشم بينما أنا نائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال لى احفر طيبة قلت وما طيبة فذهب عنى ولم يجبنى فلما كانت الليلة الثانية جاءنى فقال احفر درة قلت وما درة فذهب عنى ولم يجبنى فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فقال احفر المصونة فذهب عنى فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فجاءنى فقال احفر زمزم فقلت وما زمزم ؟ وكانت قد رست وغار ماؤها لما مضت أيام إسماعيل عليه السلام قال بئر يسقى الحجيج منه عند منحر قريش عند نقرة الغراب وقرية النمل فلما تبين له قام فدل على موضعها وعرف أنه قد صدق فغدا بمعوله ومعه الحرث بن عبد المطلب وليس له ولد غيره يومئذ فلما علمت به قريش قاموا إليه فقالوا يا عبد المطلب إنها من آثار أبينا إسمعيل وإن لنا فيها حقاً فأشركنا فيها فقال ما أنا بفاعل إن هذا شىء خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم قالوا له فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك قال فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أخاصمكم إليه قالوا كاهنة بنى سعد بن هذيل قال نعم وكانت من أطراف الشام فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف فركب من كل قبيلة من قريش نفر قال والأرض إذ ذاك مفاوز فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز نفذ ما كان معهم من الماء حتى أيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا أن يصيبنا مثل ما أصابكم فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم قال لأصحابه ماذا ترون قالوا إن رأينا تبع لرأيك فأمرنا بما شئت .

قال فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة بما يجد من القوة فكل من مات دون صاحبه ودفنه فى حفرته قال فحفروا وجلسوا يتذكرون الموت ثم قال عبد المطلب وما لنا لا نضرب فى الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء فارتحلوا ومن معهم من قريش ينظرون إليهم ماهم فاعلون وتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما أن انبعثت به انفجرت من تحت حوافر دابة عبد المطلب عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزله فشرب منه وشرب أصحابه حتى رووا وملئوا

أسقيتهم ثم دعا القبائل من قريش فقال هلموا إلى الماء فقد سقانا الله تعالى وإياكم فشربوا وسقوا ثم قالوا والله قضى الله عيناً يا عبد المطلب والله لا نخاصمك في زمزم أبداً إن الذى سقاك هذا الماء فى هذه الفلاة فهو ساقيك زمزم فارجع فرجع ورجعوا معه حتى أوفوا مكة وخلوا بينه وبين زمزم ولما جن الليل رأى عبد المطلب فى منامه كأن قائلا يقول له :

يا أيها المدلج احفـر زمزم   إنك إن حفرتها لم تندم
وهى تراث من أبيك الأعظم   تسقى الحجيج حافلا لم ينقم

فلما سمعه عبدالمطلب قال وأين زمزم ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم قال فغدا عبدالمطلب ومعه إبنه الحرث فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عند الوثنين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تعبدهما فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت قريش وقالوا والله لا نتركك أن تحفرها ووثناها ومنحرنا عندها وكانت قريش محسودة على ذلك لأنهم أخبروا أن جرهما لما سكنت مكة أودعت فى زمزم أموالا وأسلحة للمصطفى ﷺ لما أخبرت أن الله تعالى باعث فى هذه القرية نبياً من صفته وحاله كيت وكيت ولم يكونوا عرفوا موضعها فلما أخبر بذلك عبد المطلب نازعوه فى ذلك فقال بعضهم لبعض دعوه يحفر فربما يخطىء الموضع فحفر غير بعيد فظهرت له العلامات فكبر فعرفوا أنه لم يخطىء فتمادى حتى بلغ إلى تمثالين من ذهب هما الغزالان اللذان دفنهما جرهم ووجد فيها سيوفاً ودروعاً فقالت له قريش يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شركة قال لا ولكن نضرب بالقداح عليه قالوا وكيف نصنع قال اجعلوا للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شىء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شىء له قالوا أنصفت فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ثم أعطوا القداح التى تضرب بها عند هبل وقام عبد المطلب يدعو فخرج إليهما الأصفران على الغزالين للكعبة وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبدالمطلب وتخلف قدحا قريش قال فعلق عبدالمطلب الأسياف والأدرع بباب الكعبة وضرب فى الباب الغزالين الذهب فكان أول ذهب حليت به الكعبة

وكانت الرياسة والتقدمة لعبد المطلب قبل حفر زمزم فلما حفرها وأخرج منها ما أخرج ازداد بذلك فى قريش عظماً وجاهاً ومنزلة وعافت الحجيج المياه التى كانت بمكة ونواحيها وأقبلوا على زمزم لما كان من عذوبة مائها ولكونها من أثر إسمعيل عليه السلام وافتخرت بنو عبد مناف على قريش وعلى سائر العرب والله أعلم

﴿ الباب الخامس فى صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا ﴾

أخبرنا ابو عمر وأحمد بن أبى أحمد الفرانى أخبرنا الحسن بن المغيرة بن عمر بن الوليد المغربى بمكة حدثنا أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم بن المفضل حدثنا عبد الله بن أبى غسان اليمانى حدثنا أبو همام حدثنا محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ كان البيت قبل هبوط آدم عليه السلام ياقوتة من يواقيت الجنة والبيت المعمور الذى فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة حذاء الكعبة وأن الله تعالى أهبط آدم عليه السلام إلى موضع الكعبة وهو مثل الفلك من شـــدة رعدته وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء فأخذه آدم وضمه إليه استئناساً به ثم أخذ الله تعالى من بنى آدم ميثاقهم فجعله فى الحجر ثم أنزل الله تعالى على آدم العصا ثم قال يا آدم تخط فتخطى فإذا هو بأرض الهند فمكث هناك ما شاء الله أن يمكث ثم استوحش إلى البيت فقيل له حج يا آدم فأقبل يتخطى فصار موضع كل قدم قرية وما بين كل ذلك مفاوز حتى قدم إلى مكة .

فقال آدم يا رب اجعل لهذا البيت عماراً يعمرونه من ذريتى فأوحى الله تعالى إليه إنى معمره بنبي من ذريتك إسمه إبراهيم أتخذه خليلا أقضى على يديه عمارته وأنيط له سقايته وأورثه حله وحرمه ومواقفه وأعلمه مشاعره ومناسكه فلما فرغ من بنائه نادى يا أيها الناس إن الله تعالى بنى بيتا فحجوه فاسمع ما بين الخافقين فأقبل من يحج هذا البيت من الناس يقول لبيك لبيك وقال ﷺ وأن آدم عليه السلام سأل ربه عز وجل فقال يا رب أسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك

بك شيئاً أن تلحقه بى فى الجنة فقال الله تعالى يا آدم من مات فى الحرم لايشرك بى شيئاً آمناً يوم القيامة .

روت الرواة بأسانيد مختلفة : أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض كان طوله ستين ذراعاً ، فلما فقد آدم عليه السلام ما كان يسمع من أصوات الملائكة وتسبيحهم استوحش وشكا ذلك إلى الله عز وجـــل فأنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة فكانت موضع البيت الآن ، ثم قال يا آدم إنى أهبطته لك بيتاً تطوف به كما يطاف حوله عرشى وتصلى عنده كما كنت تصلى عند عرشى فتوجه آدم عليه السلام إلى مكة ورأى البيت فطاف به ،

(وروى) أبو صالح عن ابن عباس قال أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام أن لى حرماً بحيال عرشى فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان فى طاعتى قال آدم رب كيف لى بذلك ولا أقوى عليه ولا أهتدى إليه فقيض الله ملكاً فانطلق نحو مكة فكان آدم عليه السلام إذا مر بروضة وبمكان يعجبه قال للملك انزل بى ههنا فيقول له الملك مكانك حتى قدم مكة فكان كل مكان نزل فيه عمراناً وكل مكان تعداه مفاوز وقفار ثم بنى البيت فلمـــا فرغ من بنائه خرج الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس كلها اليوم ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعاً ثم رجع إلى أرض الهند فمات على تود .

قال أبو يحي بائع القت قال لى مجاهد لقد حدثنى عبد الله بن عباس أن آدم نزل حين هبط بالهند ولقد حج منها أربعين حجة على رجليه فقلت له ياأبا الحجاج ألا كان يركب قال وأى شىء كان يحمله والله أن خطوته مسيرة ثلاثة أيام .

وقال وهب بن منبه أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم يرفيها أحداً غيره قال يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى قال الله تعالى إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى وسأجعل فيها بيوتاً ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها إسمى وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتى وأوثره بإسمى وأسميه بيتى وأنطقه بعظمتى وعليه

وضعت جلالى ثم أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه فن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى أجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثاً غبراً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

(واختلف) العلماء فى كيفية بيان ذلك فقال بعضهم إن الذى خرج مع إبراهيم عليه السلام من الشام لدلالته على موضع البيت جبريل عليه السلام وذلك قوله عز وجل (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) الآية قالوا جعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة وكان إبراهيم عبرانياً وإسماعيل عربياً فألهم الله تعالى أحدهما لسان صاحبه فكان إبراهيم عليه السلام يقول هب لى كيناً يعنى هات لى حجراً فيقول له إسماعيل هاك فخذه فبنيا الكعبة من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودى وبنيت قواعده من حراء قال فبقى حجر فذهب إسماعيل يبتغيه ثم رجع فوجده قد ركب حجراً فى مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر فقال أتانى به من لم يكلنى إليك ثم قال إبراهيم لإسماعيل ائتنى بحجر حسن أضعه على الركن ليكون علماً للناس فناداه أبو قبيس يا إبراهيم أن لك عندى وديعة فهاك فخذها فاخرج إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود من جبل أبى قبيس وركبه فى موضعه فلما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت وأتماه دعوا ربهما فذلك قوله تعالى (وإذا يرفع إبراهيم البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) إلى قوله (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) فأجاب الله تعالى دعاءه وأرسل جبريل عليه السلام ليعلمهما مناسك الحج فحج بهما يوم التروية إلى منى فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم بات بهما حتى أصبح الصباح ثم غدا بهما إلى عرفة فقام بهما هناك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ثم راح بهما إلى الموقف من عرفة فوقف بهما على الموضع الذى يقف عليه الناس اليوم فلما غربت الشمس دفع بهما إلى المزدلفة فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء ثم بات بهما حتى طلع الفجر ثم صلى بهما صلاة الغداة

فوقف بهما على قزح حتى إذا أسفر الصبح أفاض بهما إلى منى فأراهما كيف يرميان الجمار وأمرهما بالذبح وأمرهما بالنحر من منى وأمرهما بالحلق ثم أفاض بهما إلى البيت

فأوحى الله تعالى إلى نبينا محمد ﷺ (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) ثم أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج فقال يا رب وما يبلغ صوتى ؟ فقال عليك الأذان وعلى البلاغ فعلا ثبيراً ونادى يا عباد الله إن ربكم قد بنى بيتاً فحجوه وأجيبوا داعى الله فسمعه ما بين السماء والأرض وما بين الأبحر ومن فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فأجابه كل من آمن بالله ممن سبق فى علم الله أن يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك .

(وقال) عبد الله بن الزبير لعبيد بن عمير استقبل إبراهيم عليه السلام اليمن والمشرق والمغرب والشام فدعا إلى الحج فقيل لبيك اللهم لبيك وذلك قوله وعز وجل (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) الآيات فلم يزل البيت على ما بناه إبراهيم عليه السلام إلى سنة خمس وثلاثين من مولد نبينا محمد ﷺ وذلك قبل مبعثه بخمس سنين فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها وكان السبب فى ذكر على ما ذكر محمد بن إسحق وغيره من أن الكعبة كانت رضة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها وكان بمكة رجل قبطى نجار فهيأ لهم أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانوا يهابونها وذلك أنه كان لا يدنوا منها أحد إلا كشرت وفتحت فاهاً فكانوا يهابونها فبينما هى ذات يوم على جدار الكعبة كما كانت تصنع فبعث الله طائراً فاختطفها فذهب بها .

وقالت قريش إنا لنرجوا أن الله تعالى قد رضى ما أردناه من عمارة بيته وأن عندنا عاملا رفيقاً وخشباً وقد كفانا الله تعالى الحية وذلك بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة فلما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمر وابن عمير ابن عامر بن مخزوم فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه

فقال يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ولاتدخلوا فيها من مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ثم إن الناس هابوا هدمها فقال الوليد ابن المغيرة أنا أبدأ لكم فى هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس به فى تلك الليلة وقالوا ننتظره فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما هى وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله تعالى بما فعلناه فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم إلى الأساس فأفضوا إلى حجارة خضر كأنها أسنمة الإبل آخذة بعضها ببعض فأدخل من قريش عتلة بين حجرين ليقلع أحدهما فلما تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها فعلموا أنهم قد انتهوا إلى الأساس .

وقالوا إن القبائل قد اجتمعت لبنائها فجعلت كل قبيلة تجتمع على حدتها ثم بنوا فلما بلغوا البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه فكل قبيلة أرادت أن تضعه فى صفة دون الأخرى حتى تجاوروا وتحالفوا وتواعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماء ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فسموا لعقة الدم بذلك فمكثوا أربع ليال أو خمس ليال على ذلك ثم أنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة وكان حينئذ أسن قريش كلها فقال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه فرضوا بذلك وتوافقوا عليه .

فكان أول من دخل عليهم محمد رسول الله فلما رأوه قالوا هذا محمد الأمين قد رضينا به فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال هلموا إلى ثوباً فأتوا به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا به ذلك حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه قالوا فكانت الكعبة كذلك على ما بنته قريش إلى أربع وستين من الهجرة حتى حاصر الحصين بن نمير السكونى عبدالله بن الزبير فقذفوا البيت بالمنجنيق وجعلوا يرتجزون ويقولون

حجارة مثل النـيق المزبد ترمى بها عيدان هذا المسجد

وقال آخر منهم :

كيف ترمى صنيع أم فروة تأخذهم من الصفا والمروة

أم فروة إسم منجنيق قالت حيطان الكعبة بما رميت به من حجارة المنجنيق وأنها مع ذلك احترقت وكان السبب فيه أنهم كانوا يوقدون حولها فاقبلت شرار هبت بها الريح فاحرقت باب الكعبة واحترق خشب البيت وقال بعضهم كان السبب فى ذلك أن امرأة كانت تبخر البيت فطارت شرارة من النار فاحترق البيت وكان أول ما تكلم الناس فى القدر يومئذ فقال قوم هو من قدرة الله وقال قوم ليس من قدرة الله قالوا فهدم عبد الله بن الزبير الكعبة حتى سواها بالأرض وكان الناس يطوفون بها من وراء الأساس ويصلون إلى موضعها وجعل الحجرة الأسود فى تابوت فى خرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب وطيب عند الحجر فى خزانة البيت ثم أعاد بناءه .

وقال إن أمى أسماء بنت أبى بكر حدثتنى أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : « لولا حداثة عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم فازيد فى الكعبة الحجر وإن قريشاً أعوزتهم النفقة فاخرجوا الحجر من البيت ولجعلت لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فامر به الزبير فحفر فوجـدوا قلاعاً أمثال الإبل فحركوا منها صخرة فبرقت برقة فقال أقروها على أساسها فبناها ابن الزبير وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر فكانت الكعبة على ما بناها ابن الزبير إلى سنة أربع وسبعين حتى قتل الحجاج بن يوسف الثقفى عبد الله بن الزبير وولى الحجاز من قبل عبد الملك بن مروان فنقض الحجاج بنيان الكعبة الذى كان بناه الزبير بامر عبد الملك وأعادها إلى بنائها الأول بمشهد من مشايخ قريش فهى اليوم على ما بناها الحجاج .

﴿ الباب السادس فى ذكر أمر الله تعالى خليله عليه السلام بذبح ولده ﴾

قال الله تعالى (فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام إنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) واختلف السلف من علماء المسلمين فى الذى أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه من بنيه بعد إجماع أهل الكتاب على أنه كان إسماعيل عليه السلام .

(وروى) شعبة عن إسحاق عن أبى الأحوص قال افتخر رجل عند عبدالله ابن مسعود قال أنا فلان بن فلان بن الأشياخ الكرام فقال عبد الله ذاك يوسف ابن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

(وروى) سفيان عن زيد بن أسلم عن عبيد الله بن عمير عن أبيه عن جده قال قال موسى عليه السلام يا رب يقولون يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب فلم قالوا ذلك فقال إن إبراهيم لم يعدل بى شيئاً قط إلا اختارنى عليه وإن إسحق جاد لى بالذبح فهو بغير ذلك أجود إن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن الظن

وروى حمزة بن الزيات عن أبى إسحق عن أبى ميسرة قال قال يوسف عليه السلام للملك مصر أترغب أن تأكل معى وأنا والله يوسف بن يعقوب نبى الله بن إسحق بن إبراهيم خليل الله وقال الآخرون هو إسمعيل وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن عمرو وأبو الطفيل عامر بن واثلة وسعيد بن المسيب والشعبى ويوسف ابن مهران ومجاهد وكان الشعبى يقول رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة .

(وروى) محمد بن إسحق عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول أن الذى أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من إبنه إسمعيل وأنا لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى فى قصة الحق عن إبراهيم عليه السلام وما أمر به من ذبح إبنه أنه إسمعيل وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبوح من إبنى إبراهيم وبشرناه بإسحاق نبيــــاً من الصالحين وقال تعالى (فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحق

يعقوب) يقول بابن وابن ابن فلم يكن يامره بذبح إسحق وله فيه من الله تعالى من الموعود ما وعده وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل .

وأما الرواة التى روت عنه ﷺ أن الذبيح إسماعيل فروى عمر بن عبد الرحمن الخطابى بإسناده عن الصحابى قال كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا أن الذبيح إسمعيل أو إسحق فقال على الخبير سقطتم كنت عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فقال يا رسول الله أعد على ما أفاء الله عليك ياابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ فقيل يا أمير المؤمنين ومن الذبيحين فقال إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ولدك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثانى إسماعيل فهذا ما ورد من الأخبار وفى القرآن ما يدل على صحة كل واحد من القولين فاما الدليل على أنه إسحق فهو أن الله تعالى أخبر إبراهيم عليه السلام حين فارق قومه مهاجراً إلى الشام مع سارة ولوط وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين أنه دعا فقال ربى هب لى من الصالحين يعنى ولداً صالحاً من الصالحين وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أم إسماعيل ثم أتبع ذلك الخبر عن إجابة دعوته وتبشيره إياه بغلام حليم وعن رؤيا إبراهيم أن يذبح ذلك الغلام الذى بشر به حين بلغ معه السعى وليس فى القرآن أنه بشر بولد ذكر إلا بإسحق .

وأما الدليل على أنه إسماعيل فما ذكرناه من حديث القرنين وقد صح الخبر أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة إلى أن احترق البيت فاحترق القرنان فى أيام ابن الزبير والحجاج وهذا ادل دليل على أن الذبيح إسماعيل . وأما قصة الذبح وصفته وفعل إبراهيم بإبنه عليهما السلام .

قال السدى بإسناده لما فارق إبراهيم الخليل عليه السلام قومه مهاجراً إلى الشام هارباً بدينه كما قال تعالى (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) دعا الله أن يهب له إبناً صالحاً من سارة (رب هب لى من الصالحين) فلما نزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكة بشروه بغلام حليم فقال إبراهيم لما بشر به هو إذاً لله ذبيح

فلما ولد الغلام وبلغ معه السعى قيل له أوف بنذرك الذى نذرت قرباناً إلى الله تعالى وكان هذا هو السبب فى أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بذبح إبنه فقال إبراهيم عند ذلك لإبنه إسماعيل تقرب قرباناً إلى الله تعالى وأخذ سكيناً وحبلا ثم انطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال له الغلام يا أبت أين قربانك فقال (يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) .

قال ابن إسحق كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويرجع من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعى وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يامل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته رأى فى المنام أن يذبحه فلما رأى ذلك قال لإبنه يا بنى خذ هذا الحبل والمدية ثم انطلق إلى هذا الشعب لنحتطب فلما خلا إبراهيم بإبنه فى شعب ثبير أخبره بما أمر به وقال (يا بنى إنى أرى فى المنام إنى أذبحك) الآية فقال له إبنه الذى أراد أن يذبحه ياأبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب واكفف عنى ثيابك حتى لا ينضح عليها دمى فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن وأشحذ شفرتك وأسرع بمر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على فإن الموت شديد فإذا أتيت أمى فاقرأها منى السلام فإن رأيت أن ترد قميصى فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى .

فقال إبراهيم نعم العون يا بنى أنت على ما أمر الله به ففعل إبراهيم ما أمره إبنه ثم أنه أقبل عليه يقبله وهو يبكى والإبن يبكى حتى استنقع الدموع تحت خده ثم أنه أوضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم تعمل السكين شيئاً .

قال السدى وضرب الله صحيفة من نحاس على حلقه فقال عند ذلك الإبن ياأبت كبنى على وجهى فإنك إن تنظر إلى وجهى رحمتنى وأدركتك على رقة تحول بينك وبين أمر الله ففعل إبراهيم ذلك فذلك قوله تعالى (فلما أسلما وتله للجبين) ثم إنه وضع السكين على قفاه فانقلبت ونودى (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) الآية هذه ذبيحتك فداء لإبنك فاذبحها دونه فنظر إبراهيم عليه السلام فإذا هو

بجبريل عليه السلام ومعه كبش أعين أملح أقرن فكبر الكبش وكبر إبراهيم وكبر إبنه فذلك قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) .

قال سعيد بن جبير وغيره وعن ابن عباس خرج عليه الكبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً وروى عنهما أيضاً أن الكبش الذى فدى به عن إبراهيم عليهما السلام هو الكبش الذى قربه هابيل بن آدم فتقبل منه فارسل إبراهيم وأخذ الكبش وأتى به المنحر من منى فذبحه فو الذى نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميازيب الكعبة قد وحش يعنى يبس .

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن عن ابيه أنه كان يقول ما فدى إسماعيل إلا بكبش من الأروى أهبط عليه بثبير وهى رواية أبى صالح عن ابن عباس قال كان وعلا .

(وروى) أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحق عن رجال قالوا لما رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح إبنه قال الشيطان والله لئن لم أفتن أنا آل إبراهيم وإلا لم أفتن أحداً منهم أبداً فمثل لهم الشيطان رجلا فاتى أم الغلام فقال لها أتدرين أين ذهب إبراهيم بإبنك قالت ذهب به ليحتطب من هذا الشعب فقال لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه قالت كلا هو أرحم به منى وأشد حباه من ذلك فقال لها إنه يزعم أن الله أمره بذلك فقالت له إن كان أمره بذلك فقد أحسن فى امتثال طاعة ربه وفى استسلامه لأمر الله تعالى فخرج الشيطان من عندها هاربا حتى أدرك الإبن وهو يمشى على أثر أبيه فقال له يا غلام هل يدرى أين يذهب بك أبوك قال يحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال لا والله ما يريد إلا ذبحك قال ولم ؟ قال يزعم أن الله أمرة بذلك قال فليفعل ما أمره الله به فسمعاً وطاعة لأمر الله تعالى فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال أين تريد أيها الشيخ ؟ قال أريد هذا الشعب لحاجة لى فقال والله إنى أرى الشيطان قد جاءك فى منامك يامرك بذبح ابنك هذا فعرفه ابراهيم فقال له اليك عنى يا ملعون فوالله لأمضين لأمر ربى فرجع ابليس لعنه الله بغيظ لم يصب من ابراهيم وأهله شيئاً مما أراد وقد امتنعوا منه بعون الله وتاييده .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ابراهيم عليه السلام لما أمر بذلك عرض له ابليس عند المشعر الحرام فاسبقه فسبقه ابراهيم عليه السلام ثم ذهب الى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات ثم مضى الى ابراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى فهذه قصة الذبح وقال أمية بن الصلت الثقفى فى ذلك شعراً :

ولإبراهيم الموفى بنذر   احتساباً وحامد الأجزال
بكره لم يكن ليصبر عنه   لو رآه فى معشر اقتتال
أى بنى انى نذرتك لله شحيطاً   فاصبر فلذلك حالى
واشدد العضد حين جبذى للسكين   جبذ الأسير الأغلال
له مدية تخايل فى اللحم   غلاماً جبينه كالهلال
بينما يخلع السراويل عنه   فكه ربه بكبش حلال
فخذ ذا فدا لإبنك انى   للذى فعلتما غير قالى
ربما تجزع النفوس من الأمر   له فرجة كحل العقال

(الباب السابع فى هلاك النمروذ بن كنعان وما أحل الله تعالى به)
(من نقمته وقصة الصرح)

قال الله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) .

(روت الرواة) باسانيد مختلفة أن أول جبار كان فى الأرض النمروذ بن كنعان وكان الناس يخرجون إليه ويمتارون من عنده الطعام فخرج اليه ابراهيم يمتار مع من يمتار وكان النمروذ اذا مر به الناس قال لهم من ربكم ؟ قالوا أنت حتى مر ابراهيم قال من ربك قال ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ورد ابراهيم بغير

طعام فرجع إبراهيم إلى أهله فمر بكثيب أعفر فقال لآخذن من هذا فآتى به أهلي فتطيب به قلوبهم حين أن أدخل عليهم فأخذ إبراهيم منه فأتى به إلى أهله فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هو بأجود دقيق رأته فأخذته وصنعت منه طعاماً فلما أفاق قدمته اليه وكان عهد أهله أن ليس معهم شيء ولا عندهم طعام فقال لهم من أين هذا فقالت من الطعام الذى جئت به فعلم إبراهيم أن الله رزقه فحمد الله وشكره .

ثم إن النمروذ الجبار لما حاجه إبراهيم عليه السلام فى ربه قال إن كان مايقوله إبراهيم حقاً فلا انتهى حتى أعلم من فى السماء فبنى صرحا عظيما عالياً ببابل وقال مقاتل وكعب كان طوله فرسخين ثم عمد إلى أربعة أفراخ من النسور فعلفها اللحم والخبز وربّاها حتى شبت واستفحلت ثم قعد فى تابوت ومعه غلام وقد حمل قوسه ونشابه وجعل لذلك التابوت باباً من أعلاه وباباً من أسفله ثم ربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم على عصا فوق التابوت ثم دخل على النسور فطارت وصعدت طمعاً فى اللحم حتى أبعدت فى الهواء فقال النمروذ لفتاه افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ففتح الباب الأعلى ونظر فإذا السماء على هيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ففتح فقال أى الأرض مثل الحبة البيضاء والجبال كالدخان وطارت النسور وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال لغلامه افتح البابين ففتح الأعلى وإذا السماء كهيئتها وفتح الباب الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة ونودى أيها الطاغى أين تريد .

قال عكرمة فأمر عند ذلك غلامه فرمى بسهم فعاد اليه السهم متلطخاً بالدم فقال كفيت شغل إله السماء واختلفوا فى ذلك السهم من أى شيء تلطخ فقال عكرمة من سمكة بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض قربت نفسها لله تعالى وقال بعضهم أصاب السهم طائراً من الطير فتلطخ من دمه ثم أمر النمروذ غلامه أن يصوب العصا وينكس اللحم ففعل ذلك فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال حفيف التابوت

والنسور ففزعت وظنت أنه أمر حدث فى السماء وأن الساعة قد قامت فذلك قوله تعالى (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ثم إن الله تعالى أرسل ريحاً على صرح النمروذ فألقت رأسه فى البحر فخر عليهم الباقى وانقلبت بيوتهم وأخذت النمروذ رعدة وتبلبلت ألسن الناس حين سقط صرح النمروذ من الفزع فتكلموا بثلاث وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل لتبلبل الألسنة فيها فلذلك قوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) وذلك أن الله تعالى بعث إلى النمروذ ملكا أن آمن حتى أتركك على ملكك قال فهل رب غيرى فجاءه الثانية والثالثة فأبى عليه فقال له الملك اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام فجمع جموعه وجنوده فأمر الله تعالى أن يفتح عليه باباً من البعوض فقعل فظلعت الشمس ذلك اليوم فلم يروها من كثرة البعوض فبعثها الله تعالى على النمروذ وقومه فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق منهم إلا العظام والنمروذ كما هو لم يصبه شىء من ذلك فبعث الله إليه بعوضة فدخلت فى منخره حتى وصلت إلى دماغه فمكث أربعمائة سنة تضرب رأسه بالمطارق فأرحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كمدة ملكه ثم إن البعوضة أكلت دماغه وأهلكه الله سبحانه وتعالى وخذله .

(الباب الثامن فى ذكر وفاة سارة وهاجر وذكر وفاة أزواج إبراهيم وولده)

قال الله تعالى (أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته) الآية قال أهل العلم بأخبار الماضين ماتت سارة وهى ابنة مائة وسبع وعشرين سنة بالشام بقرية الجبابرة من أرض كنعان فى حبرون فى مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام ودفنت بها وكانت هاجر ماتت قبل سارة بمكة فدفنت فى الحجر فلما ماتت سارة تزوج إبراهيم بامرأة من بعدها من الكنعانيين يقال لها قورا ابنة يقطان فولدت له ستة نفر يقشان وزمران ومدان ومدين وأشبق وشوخ وتزوج أيضاً بامرأة أخرى من العرب اسمها حجون بنت أهيب فولدت له خمسة بنين كيسان فروح واهيم ولوطا ونافس فكان

جميع بنى إبراهيم مع إسحق وإسمعيل ثلاثة عشر وكان إسماعيل بكره وأكبر أولاده فأنزل إسمعيل بأرض الحجاز وإسحق بأرض الشام وفرق سائر ولده فى البلاد فقالوا لإبراهيم ياأبانا انزلت إسحق معك وإسمعيل بقربك وأمرتنا ان ننزل بأرض الغربة والوحشة قال بذلك أمرت ثم علمهم أسماء الله تعالى فكانوا يستسقون منه ويستنصرون .

﴿ الباب التاسع فى ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام ﴾

قال أهل التاريخ والسير لما أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام أرسل اليه ملك الموت فى صورة شيخ هرم قال السدى بإسناده وكان إبراهيم كثير الإطعام يطعم الناس ويضيفهم فبينما هو يطعم الناس إذ هو بشيخ كبير يمشى فى الجادة فبعث اليه بحمار فركبه فلما أتاه قدم إليه الطعام فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ويريد أن يدخلها فاه فيدخلها فى عينه مرة وفى أذنه مرة ثم إذا ادخلها فى فيه حصلت فى جوفه خرجت من دبره وكان إبراهيم قدسأل ربه أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذى يسأله الموت فقال للشيخ حين رأى حاله ما بالك ياشيخ تصنع هكذا فقال ياإبراهيم من الكبر قال ابن كم أنت قال كيت وكيت فحسب إبراهيم فوجد عمره يزيد على عمر إبراهيم بسنتين فقال له إبراهيم بينى وبينك سنتان فإذا بلغت عمرك صرت مثلك قال نعم فقال إبراهيم اللهم اقبضنى قبل ذلك فقام الشيخ فقبض نفسه وكان الشيخ ملك الموت وكان عمر إبراهيم مائتى سنة وقيل مائة وخمس وتسعون سنة ودفن عند قبر سارة عند مزرعة حبرون .

﴿ الباب العاشر فى ذكر خصائص إبراهيم عليه السلام ﴾

هو إبراهيم خليل الرحمن قال الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) وهو سيد الفتيان روى فى الحديث أنه قيل للنبى ﷺ يا سيد البشر . قال ذاك إبراهيم وهو أبو الضيفان وكان لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع ضيف وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفاً .

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ (بعثت على ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل وهو المجعول على لسان الصدق في الآخرين فليس من نبي تجري ألسنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضيله وتبجيله كل أمة غيره وذلك بدعائه عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) وهو المبتلى بأنواع البلاء والمشهود له بالوفاء قال الله تعالى (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) وقال (وإبراهيم الذي وفى) بما أمر به وهو الأمة القانت قال الله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) إلى آخر الآية ومعنى الأمة أنه كان معلماً للخير وقد اجتمع فيه من خلال الخير وأنواع الفضل ما يجمع في أمة كما قال الشاعر :

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

وهو الذي أوتي رشده من قبل بلوغه وهو إمام الموحدين وجعل له لسان الحجة في التوحيد فدعا الخلق إلى الحق بلسان الحجة من صغره إلى كبره قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم) الآية وأول من سماه الله حنيفاً مسلماً قال تعالى (ولكن كان حنيفاً مسلماً) وبرأه من دعاوى اليهود والنصارى وشهد له بالإسلام والإخلاص فقال (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً) الآية وهو أول من اختتن

قال أبو منصور الخشاري حدثنا أبو العباس العقلي اخبرنا عبد الحكيم اخبرنا ابن وهب اخبرنا يحيى بن نصر قال قرأ على ابن وهب أخبرنا عن محمد بن المنكدر عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه إنه قال اختتن ابراهيم عليه السلام بالقدوم وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة واخبر الحسين ابن محمد بن فنحويه اخبرنا محمد مخلد بن جعفر اخبرنا الحسن بن علوية اخبرنا اسمعيل بن عيسى اخبرنا إسحق بن بشر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال إن إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول من ثرد الثريد وأول من لبس النعلين

وأول من قسم الفيء وأول من قاتل بالسيف وأول من اختتن واختتن على رأس مائة وعشرين سنة من ميلاده ختن نفسه فى موضع يقال له القدوم بالقدوم وهو الفأس وذلك أنه كان وقع بينه وبين العمالقة وقعة عظيمة فقتل من الفريقين خلق عظيم فلم يعرف ابراهيم أصحابه ليدفنهم فجعل الختان علامة لأهل الإسلام فاختتن يومئذ بالقدوم وهو أول من اتخذ السراويل .

أخبرنا الحسن الدينورى أخبرنا أحمد بن شداد بن عمر بن أحمد القطان أخبرنا محمد بن إسمعيل بن حسان اخبرنا وكيع اخبرنا جرير بن حازم عن واصل مولى ابن عيينة قال أوحى الله تعالى إلى ابراهيم عليه السلام يا ابراهيم إنك أكرم أهل الأرض على فإذا سجدت فلاترى الأرض عورتك فاتخذ السراويل وهو أول من شاب فلما رآه هاله ذلك فقال يارب ماهذا قال لوقار فقال يارب زدنى وقاراً وهو أول من أقام المناسك وذلك بدعوته حيث قال (وأرنا مناسكنا وتب علينا) فاستجيب له وهو أول من ضحى وهو الذى بوأ له مكان البيت وأراه ذلك بعد دروسه حتى بناه قال الله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) الآية وهو أول من ألقى فى النار فجعلت النار عليه برداً وسلاماً وهو أول نبى أحيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال رب أرنى كيف تحي الموتى) وهو الذى يكسى حلة بيضاء يوم القيامة ويوضع له منبر عن يسار عرش الرحمن قال عليه الصلاة والسلام (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما وأول من يكسى إبراهيم خليل الرحمن) وهو الكفيل لأطفال المسلمين والقائد لأهل الجنة وهو أول من قص شاربه وأول من قلم أظفاره وأول من استحد وأول من نتف الإبط وأول من أستاك وأول من فرق شعره وأول من تمضمض وأول من استنشق وأول من استنجى بالماء وأول من هاجر لله قال تعالى (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) وجعل مقامه قبلة للناس قال الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وجعله إماما للناس قال الله تعالى (إنى جاعلك للناس إماما) وقال تعالى (قد كان لكم أسوة حسنة فى إبراهيم) وأن محمداً خير الأنبياء وأمته خير الأمم باتباع ملته قال الله تعالى (ثم أوحينا

إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وقال (قل بل ملة إبراهيم حنيفا) وسماه حليما منيباً أواهاً قال تعالى (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) الحليم السيد الذى يملك نفسه عند الغضب والأواه الذى يكثر التأوه عند ذكر الذنوب والمنيب المقبل بقلبه إلى ربه فهذه ستة وأربعون خصلة من خصاله التى أكرمه الله بها .

(روى) أن الله تعالى أوحى إلى ابراهيم يا ابراهيم إنك لما سلمت مالك إلى الضيفان وابنك إلى القربان ونفسك إلى النيران وقلبك إلى الرحمن اتخذناك خليلا .

(وروى) أبو إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال قلت يارسول الله كم كتاباً أنزل الله تعالى مائة صحيفة وأربعة كتب أنزل الله على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان قال فقلت يارسول الله فما كانت صحف ابراهيم قال كانت أمثالا كلها أيها الملك المبتلى المسلط المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر وكان فيها أمثال على العاقل مالم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يحاسب فيها نفسه على ماقدم وأخر وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال والحرام فى المطعم والمشرب وغيرهما وعلى العاقل أن لا يكون طاعنا إلا فى ثلاث تزود لمعاده ومؤنة لمعاشه ولذة فى غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلا على شأنه حافظاً للسانه ومن علم أن كلامه شر من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه والله عن محذور يغنيه .

(مجلس فى ذكر بعض أخبار إسمعيل وإسحق ابنى ابراهيم عليهم السلام)

وقد ذكرنا سير إبراهيم الخليل بابنه اسمعيل وهاجر إلى مكة وإسكانه إياهما بها ولما كبر اسماعيل وبلغ النكاح تزوج امرأة من جرهم فكان من أمرها ماقدمنا

ذكره ثم طلقها بأمر أبيه ثم تزوج امرأة أخرى يقال لها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي وهي التي قال لها إبراهيم حين قدم مكة إذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام وقولي له قد استقامت عتبة بابك فولدت السيدة لإسماعيل اثني عشر رجلا نابتا وقيدار وأدبيل وبسام ومسمع وذومسا وحرا وفما ونطور ونافس وقيدما ومن نابت وقيدار ابني اسماعيل نشر الله تعالى العرب ثم نبأ الله تعالى اسمعيل فبعثه إلى العماليق وقبائل اليمن فلما حضرت اسمعيل الوفاة أوصى إلى أخيه اسحق ان يزوج بنته من عيص بن اسحق وعاش اسماعيل مائة وسبعة وثلاثين سنة ودفن بالحجر عند قبر أمه هاجر .

(وروى) عمر بن عبد العزيز أنه قال شكا اسمعيل إلى ربه تعالى حر مكة فأوحى الله تعالى إليه انى فاتح لك باباً من الجنة يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة وفي ذلك المكان دفن وأما حديث اسحق عليه السلام فإنه نكح رفقة بنت بتويل فولدت له عيصا ويعقوب بعد ما مضى من عمره ستون سنة ولهما قصة عجيبة على ماذكره السدى قال حملت رفقة في بطن واحد بغلامين وكان يعقوب أكبرهما في البطن ولكن عيصاً خرج قبله فلما كبر الغلامان وكان عيص أحبهما إلى أبيـــه ويعقوب أحبهما إلى أمه وكان صاحب صيد فلما كبر اسحق وعمى قال لعيص يا بنى اطعمنى لحم صيد واقترب منى أدعو لك بدعاء دعا لى به أبى وكان عيص رجلا أشعر ويعقوب رجلا أجرد فخرج عيص يطلب الصيد .

فسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب يا بنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة واشوها والبس جلدها ثم قدمها إلى ابيك وقل له انا ابنك عيص ففعل ذلك واتى إلى أبيه وقال يا أبتاه كل فقال من انت قال انا عيص فمسه وقال المس مس عيص والريح ريح يعقوب فقالت له امرأته هو ابنك عيص فادع له فقال قدم طعامك فقدمه فأكل منه ثم قال أدن منى فدنا منه فدعا له ان يجعل في ذريته الأنبياء والملوك ثم قام يعقوب من عنده وجاء عيص بعده فقال يا ابت قد جئتك بالصيد الذى أردته

فقال يا بنى قد سبقك أخوك يعقوب فغضب عيص وقال والله لأقتلنه فقال يا بنى قد بقيت لك دعوة فهلم أدع لك بها فتقدم إليه فدعا له فقال أن تكون ذريتك عدد التراب ولا يملكهم أحد غيرهم ثم إن أم يعقوب قالت ليعقوب الحق بخالك فكن عنده خشية عليه أن يقتله عيص فانطلق يعقوب إلى خاله كان يسير فى الليل ويكمن بالنهار فلذلك سماه إسرائيل وهو أول من سرى بالليل فأتى يعقوب إلى خاله وكان إسحق أمره أن لا ينكح امرأة من الكنعانين وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله لبان بن ناهر وأن يعقوب لما مكث عند خاله خطب إبنته راحيل وكان له إبنتان ليا وهى الكبرى وراحيل وهى الصغرى فقال له هل لك من مال فأزوجك عليه فقال لا لكن أخدمك اجيراً حتى تستوفى صداق إبنتك فقال له أن صداقها أن تخدمنى سبع حجج فقال يعقوب تزوجنى راحل لأنها أصغر ولأجلها أخدمك فقال له خاله ذلك بينى وبينك فرعى له يعقوب سبع سنين فلما وفى له شروطه دفع له إبنته الكبرى ليا وأدخلها عليه ليلا فلما أصبح وجد غير ما شرط فجاء يعقوب وهو فى ناد من قومه فقال له غررتنى وخدعتنى واستحللت عمل سبع سنين ودلست على غير امرأتى فقال له خاله يا ابن أختى أردت ان لا يدخل على فى ذلك العار وألبسه وأنا خالك ووالدك متى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى فهلم فاخدم سبع سنين أخرى حتى أزوجك الأخرى .

وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين إلى ان بعث موسى وأنزلت التوراة فرعى له يعقوب سبع سنين أخرى فدفع إليه راحيل فولدت له ليا أربعة أسباط روبيل وكان أكبرهم يهوذا وشمعون ولاوى وولدت له راحيل يوسف وبنيامين وهو بالعربية شداد وإنما سمى بنيامين لأن أمه راحيل ماتت فى نفاسها وبنيامين بالعربية الشكل وكان لبان دفع إلى إبنتيه حين جهزهما إلى يعقوب أمتين ويقال لإحداهما زلفى والأخرى بلهة فوطىء الأمتين يعقوب فولدت كل واحد منها ثلاثة أسباط فولدت زلفة ليعقوب دان ونفتال وروبالون وولدت له بلهة جاد وبشر وآشر فكان ليعقوب إثنا عشر رجلا إثنان من راحيل وأربعة من ليا

وثلاثة من زلفة وثلاثة من بلهة وهم الذين سماهم الله تعالى الأسباط وسموا بذلك لأن كل واحد منهم ولد قبيلة .

والسبط فى كلام العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان والأسباط من بنى إسرائيل كالشعوب من العجم والقبائل من العرب ثم أن يعقوب فارق خاله لبان وانصرف بولده وامرأتيه وجاريتيه المذكورات إلى منزل أبيه من فلسطين على تخوف شديد من أخيه عيص فلم ير منه إلا خيراً فنازل أخاه وتألفه وتلطفه حتى ترك البلاد ونقل فى الشام وصار إلى السواحل ثم عبر إلى الروم فاستوطنها فصار ذلك له ولولده من بعده .

وقال ابن إسحق تزوج عيص ابن إسحق بنت عمه نسيبه بنت إسمعيل بن إبراهيم فولدت له الروم بن عيص فكل بنى الأصفر من ولده وكان عيص فيما يذكر يسمى آدم لأمته ولذلك سمى ولده بنى الأصفر قالوا وعاش إسحاق بعد ما ولد له عيص ويعقوب مائة سنة وتوفى وله مائة وسبعون سنة ودفنه ابناؤه عند قبر ابنه إبراهيم عليه السلام فى مزرعة جبرون والله أعلم .

﴿ مجلس فى قصة لوط عليه السلام ﴾

وهو لوط بن هاران بن نارح بن أخى إبراهيم عليه السلام وإنما سمى لوطاً لأن حبه لاط بقلب إبراهيم عليه السلام أى تعلق به ولصق ، ومنه حديث أبى بكر رضى الله عنه حين ذكر عمر اللهم اغفر لولا ذاك ألوط أى ألصق بالقلب ، وكان إبراهيم يحبه حباً شديداً ، وكان من أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء وذكر وهب فى المبتدأ له أنه شخص من أرض بابل مع عمه إبراهيم مؤمناً به متبعاً له على دينه مهاجراً معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور وشخص معه تارح أبو إبراهيم مخالفاً لإبراهيم فى دينه ، ومقيما على كفره إلى ان وصلوا إلى حران ومكثوا بها فمات تارح وهو آزر أبو إبراهيم بحران على كفره وشخص إبراهيم ولوط وسارة إلى الشام ثم مضوا إلى مصر فوجدوا بها فرعون من فراعينها يقال له سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه

الصلاة والسلام فرجعوا عوداً إلى أرض الشام فنزل ابراهيم فلسطين وانزل لوطاً الاردن فبعثه الله تعالى إلى أرض سدوم وما يليها وكانوا أهل كفر بالله وركوب فواحش كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى (أتأتون الفاحشة ماسبقكم منها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون).

قال عمرو بن دينار ما كان يرى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر) فكان قطعهم السبيل فيما ذكر أهل التأويل ان إتيانهم الفاحشة مع من ورد بلدهم وإتيانهم المنكر فى ناديهم قال المفسرون هو أنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم على الطريق فيحذفون من مر بهم ؛ ويتضارطون فى مجالسهم وينكح بعضهم بعضاً فى الطريق وقال مجاهد كانوا يجامعون الرجال فى مجالسهم على الطريق .

وروى أبو صالح عن أم هانى قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال : كانوا يجلسون على الطريق فيحذفون من مر بهم ويسخرون به وهو المنكر الذى كانوا يأتونه وكان لوط ينهاهم عن ذلك ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويتوعدهم على إصرارهم على ماهم عليه ويأمرهم بالتوبة منهم ويخوفهم من العذاب الأليم فلا يزجرهم عن ذلك وعده ولا يزيدهم وعظه إلا تمادياً وعتواً واستعجالا بعذاب الله تعالى وإنكاراً وتكذيباً ويقولون له (ائتنا بعذاب إن كنت من الصادقين) حتى سأل لوط ربه أن ينصره عليهم فقال (رب انصرنى على القوم المفسدين) فأجاب الله دعاءه وبعث جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام لإهلاكهم وبشارة ابراهيم عليه السلام بالولد فاقبلوا مشاة فى صورة رجال مرد حسان حتى نزلوا على إبراهيم عليه السلام فتضيفوه وبشروه بإسحق وقد مضت القصة فلما فرغوا من ذلك وأخبروا إبراهيم أن الله تعالى بعثهم لإهلاك قوم لوط فناظرهم إبراهيم وحاجهم فى ذلك كما قال الله تعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) .

وكان جداله إياهم على ماذكر ابن عباس وغيره أنهم لما قالوا له إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، قال لهم أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن قالوا : لا قال : أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا ; قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا ، قال أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا : لا ، وكان إبراهيم يعدهم أربعة عشر بامرأة لوط فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وروى سعيد عن ابن عباس قال : قال الملك لإبراهيم إن كان فيهم خمسة يصلون رفع عنهم العذاب فلما عرف إبراهيم حال قوم لوط ، قال للرسل : إن فيها لوطاً ، قالها إشفاقا منه عليه ، فقالت له الرسل : (نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته) .

ثم مضت رسل الله تعالى نحو سدوم فلما انتهوا اليها لقوا لوطاً فى أرض له يعمل فيها قتاده راوياً عن حذيفة أن الله تعالى قال للملائكة ، لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فأتوه ، فقالوا إنا متضيفوك الليلة فانطلق بهم فلما مشى ساعة التفت وقال : أما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا وما أمرها ؟ قال أشهد بالله إنها أشر قرية فى الأرض ، وما أعلم على وجه الأرض أنا أخبث منهم قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه وخاف عليهم من قومه فذلك قوله تعالى (وجاءت رسلنا لوطاً سىء بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب) أى شديد

قال السدى بإسناده : لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط ، فاتوها نصف النهار فلما بلغوا سدوم لقوا بنت لوط تسقى الماء لأهلها وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والاخرى عيثا فقالوا لها يا جارية على من ننزل ؟ قالت نعم مكانكم لاتدخلوا حتى آتيكم ففزعت عليهم من قومها ثم أتت أباها فقالت يا أبتاه أدرك فتياناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالا وقالوا له

خلى عنك فلنضيف الرجال فلذلك قوله تعالى (أو لم ننهك عن العالمين) فجاءهم لوط إلى منزله ما يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها بذلك وقالت : إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم حسناً قط .

قال أبو حمزة الثمالى : بلغنا أن العلم الذى كان بين امرأة لوط وقومه إذا اتتهم الضيفان يقول رسولها هيئوا لنا ملحا تدعوهم بذلك إلى الفاحشة بأضياف لوط فبلغنا أن الله تعالى مسخها ملحاً قالوا فلما أخبرت امرأة لوط قومها بأضياف زوجها جاء قومه يهرعون إليه أى يسرعون ويهرولون فلما أتوه قال لهم لوط : (ياقوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) وقال لهم (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) قالوا (أو لم ننهك عن العالمين) أن تضيف الرجال وقالوا (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وأنك لتعلم مانريد) فلما لم يقبلوا منه من عرض عليهم قال (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) قالوا فما بعث الله نبياً بعده إلا فى شرف من قومه منعه من عشيرته ، وقال ﷺ لما قرأ هذه الآية « رحم الله أخى لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد » .

قال ابن عباس وغيره وغلق بابه والملائكة معه فى الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يالجون تسور الدار فلما رأت الملائكة مالقى لوط من الكرب والنصب والتعب بسببهم قالوا له (يالوط إن ركنك لشديد وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ، إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل) الآية ثم قالوا له افتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحيه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضر فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فذلك قوله تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم) الآية فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم ثم انصرفوا وهم يقولون النجاة النجاة إن فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض

وقالوا للوط أجئتنا بقوم سحرة سحرونا كن كما كنت حتى تصبح يتوعدونه فلما علم لوط أن أضيافه رسل ربهم وأنهم أرسلوا بهلاك قومه قال لهم أهلكوهم الساعة، فقال له جبريل (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) ثم أمره أن يسرى بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فلما كان السحر خرج لوط وأهل بيته ومعه امرأته فذ قوله تعالى (إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر) .

فلما أصبحوا أدخل جبريل جناحه تحت أرضهم فاقتلع قرى قوم لوط الأربع وكان فى كل قرية مائة ألف فرفعهم على جناحه بين السماء والأرض حتى سمع أهل سماء الدنيا صياح ديوكهم ونباح كلابهم كفأها وقلبها فجعل عاليها سافلها كما قال الله تعالى (فجعلنا عاليها سافلها) ثم أتبع شاردهم ومسافرهم بالحجارة فذلك قوله تعالى (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضودة مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) أى ممن يفعل كفعلهم .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنحويه أخبرنا مخلد بن جعفر الباقرى أخبرنا الحسين ابن علوية أخبرنا اسماعيل بن عيسى أخبرنا إسحاق بن بشر أخبرنا جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إنى لأسمع العواصف والقواصف من الرعد فأخشى أنها الحجارة التى أعدت لقوم لوط أو من يفعل بفعلهم » .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عقيل القطان أخبرنا أبو الفضل عبدوس ابن الحسين بن منصور أخبرنا أبو حاتم الرازى أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع الحمصى عن صفوان بن عمرو قال كنت عند عبد الملك بن مروان إلى أن أتى شعيب قاضى حمص وكان رجلا عالماً فسأله عن عقوبة اللوطى قال أن يرموه بالحجارة كما رجم قوم لوط فإن الله تعالى قال (وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) وقال تعالى (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) فقبل عبد الملك ذلك منه واستحسنه قالوا وكان الرجل منهم يتحدث فى قريته التى يكون فيها فيأتيه الحجر فيقتله قال

وسمعت امرأة لوط الهدة فالتفتت وقالت واقوماه فأدركها حجر فقتلها فذلك قوله تعالى (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين فى العذاب .

أخبرنا الحسين محمد بن الحسين أخبرنا موسى بن محمد بن على أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا اسماعيل بن عيسى قال أخبرنا المسيب قال سمعت أبا روق يقول : (إلا امرأته كانت من الغابرين) وكانت تسمى هلسفع وقال غيره اسمها واعلة ، قالوا وكانت قرى قوم لوط خمساً سدوم وعامورة ودومة وساعورة فأما سدوم فهى القريه العظمى وكان فى هذه القرية أربعة آلاف فاحتملها جبريل على جناحه فقلبها فلذلك سميت بالمؤتفكات أى المنقلبات وأما القرية فإنها تسمى صفرة ونجت من العذاب لأن أهلها آمنوا بلوط .

وروى أن النبى ﷺ قال لجبريل عليه السلام « إن الله تعالى سماك بأسماء ففسرها لى » قال وصفك فى قوله تعالى (ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) فأخبرنى عن قوتك : قال يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحى فى الهواء حتى سمعت ملائكة سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهراً لبطن . قال فأخبرنى عن قوله تعالى مطاوع ؟ قال أن رضوان خازن الجنان ومالكاً خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها ; قال فأخبرنى عن قوله تعالى آمين؟ قال إن الله تعالى أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيرى » .

أخبرنا عبد الله بن الحسين بن محمد الثقفى أخبرنا أبو عثمان بن أحمد بن سمعان الرازى أخبرنا عبد الله بن قحطبة أخبرنا ياسر بن ثوبة أخبرنا محمد بن راموز أخبرنا أبو بكر بن عياش قال . سألت أبا جعفر أعذب الله النساء من قوم لوط بعمل رجالهم ؟ فقال ، الله تعالى أعدل من ذلك بل استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فوجب عليهم العذاب جميعاً .

أخبرنا ابن فتحويه أخبرنا مخلد بن جعفر أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا إسماعيل بن عيسى أخبرنا إسحق بن بشر حدثنى مقاتل بن سليمان قال قلت لمجاهد يا أبا الحجاج هل بقى من قوم لوط أحد ؟ قال لا إلا رجل بقى أربعين يوماً وكان

بمكة فجاءه حجر ليصيبه فى الحرم فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر ارجع من حيث جئت فإن الرجل فى حرم الله ؛ فوثب الحجر خارج الحرم أربعين يوماً بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته ، فلما خرج أصابه الحجر فقتله عن مقاتل عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال (ما عمل ذلك قوم لوط. إنما كانوا ثلاثين رجـــلا ونيفاً لايبلغون الأربعون فأهلـكهم الله جميعاً) وقال رسول الله ﷺ (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو لتعمنكم العقوبة جميعاً).

﴿ مجلس فى قصة يوسف بن يعقوب وإخوته عليهم الصلاة والسلام ﴾

قال الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) الآية قال سعد بن أبى وقاص قالت الصحابة لرسول الله ﷺ لوحدثتنا ؛ قال فأنزل الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً) الآية فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) الآية فدلهم الله تعالى فى هذه الآية على أحسن القصص، فقال بعض أهل المعانى معنى الآية قصة حسنة لفظه لفظ المبالغة وحكمه حكم الصفة كقوله تعالى (وهو أهون عليه) قال الشاعر

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعـــز وأطول

إرادة عزيزة طويلة وأجراه الباقون على الظاهر فقالوا هى أحسن القصص ثم اختلفوا فى وجهها فروى مقاتل عن سعيد بن جبير قال اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ إلى سلمان الفارسى فقالوا يا سلمان حدثنا عن التوراة بأحسن ما فيها فأنزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) يعنى أن قصص القرآن أحسن مما فى التوراة وقيل سمى الله هذه القصة أحسن القصص لأنها ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم والعجائب واللطائف ما تضمنت هذه القصة ولذلك قال الله تعالى (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) وقال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وقال تعالى) لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) وقيل لأن فيها ذكـــر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس

والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والعلماء والتجار والعقلاء والجهلاء ، وحال الرجال والنساء ومكرهن وحيلهن وفيها ايضاً ذكر العفة والتوحيد، وعلم السير وتعبير الرؤيا وآداب السياسة والمعاشرة وتدبير المعاش فصارت أحسن القصص لما فيها من المعانى الجزيلة والفوائد الجليلة التى تصلح للدين والدنيا وتجمع خير الدنيا والعقبى .

أخبرنا أبو عبد الله الثقفى أخبرنا عمر بن أحمد بن عثمان أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان أخبرنا محمد بن حميد الرازى أخبرنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق عن روح بن القاسم قال : حدثنى عمارة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بى إلى السماء فرأيت يوسف فقلت ياجبريل من هذا ؟ فقال : هذا يوسف قالوا فكيف رأيته يارسول الله ؟ قال – كالقمر ليلة البدر » .

وعن أبى اسحق بن عبد الله بن أبى فروة قال : كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس والقمر على الجدران .

قال كعب الأحبار . إن الله تعالى مثل لآدم ذريته بمنزلة الذر فأراه الأنبياء عليهم السلام نبياً نبياً وأراه فى الطبقة السادسة يوسف متوجاً بتاج الوقار متزراً بحلة الشرف مرتدياً برداء الكرامة مقمصاً بقميص البهاء .

وكان يخبر بالأمر الذى يروى فى المنام أنه سيكون كذا وكذا من قبل أن يكون ذلك الأمر علمه الله ذلك كما علم الأسماء كلها لآدم ، ويقال إنه ورث الحسن من جده إسحق بن إبراهيم وكان أحسن الناس واسحق هو الضاحك بالعبرانيه وهو ورث الحسن عن أمه سارة فإن الله تعالى صورها على صورة الحور العين ولكن لم يعطها صفاءهن وأعطى يوسف من الحسن والجمال وصفاء اللون ونقاء البشرة مالم يعطه أحداً من العالمين .

وقال وهب : الحسن عشرة أجزاء ، ليوسف تسعة وواحد بين سائر الناس .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي عليه السلام قال (هبط جبريل عليه السلام

فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لك كسوت حسن يوسف من نور الكرسى وكسوت وجهك من نور عرشى .

وقيل لبعض الحكماء أيوسف أحسن أم محمد ؟ فقال كان يوسف من أحسن الناس ومحمد ﷺ أحسن الناس ويدل عليه حديث جابر بن عبد الله قال - نظرت إلى رسول الله ﷺ وعليه حلة حمراء ونظرت إلى القمر ليلة البدر فهو أحسن فى عينى من القمر .

﴿ القول فى القصة ﴾

قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين - كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام وبدء محبة يعقوب له وإيثاره على سائر ولده أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة فى صحن داره ، فكان كلما ولد له ولد أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصناً ، فكان كلما كبر الغلام وشب طال ذلك الغصن وغلظ ، فإذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه فولد له عشر بنين فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان ، فلما ولد له يوسف لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئاً فلما كبر وشب قال لأبيه يانبى الله إنه ليس أحد من إخوتى إلا وله غصن إلا أنا فادع الله تعالى أن يخصنى بغصن من الجنة .

فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال اللهم إنى اسألك أن تهب ليوسف غصناً من الجنة يفتخر به على جميع إخوته فهبط جبريل عليه السلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر فقال ليوسف خذ هذا فكان يوسف يأخذه ويخرج به مع إخوته قال فرأى يوسف فيما يرى النائم وهو إذ ذاك صبى كأن قضيبه غرس فى الأرض فعلق وتدلت أغصانه وأثمر من كل ثمرة ثم أتى بأغصان إخوته فغرست حوله فلم تعلق ولم تفرع ولم تثمر ، وإذا بغصن يوسف أقصرها وأصغرها فلم يزل يتعالى فى السماء ويطول حتى طال على أغصان إخوته من أصولها وألقتها فى البحر وثبت غصن يوسف فى الأرض قائماً فانتبه فزعاً مرعوباً فقال له أبوه ما الذى دهاك يابنى فقص عليه رؤياه (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً) الآية

وكان ينام إلى جانبه فبينما يوسف نائم عند أبيه ليلة من الليالى إذ رأى الرؤيا التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز وكانت ليلة الجمعة فانتبه من منامه فزعا مرعوبا فالتزمه يعقوب وضمه إلى صدره وقبله بين عينيه وقال ياحبيب أبيه ماالذى رأيت؟ قال يوسف ، رأيت كأن أبواب السماء فتحت وقد أشرق منها النور فاستنارت النجوم واشرقت الجبال وزخرفت البحار وعلت أمواجها وسبحت الحيتان بأنواع اللغات ورأيت كأنى ألبست رداء اشرقت الأرض من حيه ونوره ورأيت كأن مفاتيح خزائن الأرض القيت بين يدى فبينما أنا كذلك إذ رأيت أحدعشر كوكبا انقضت من السماء ومعها الشمس والقمر فخروا إلى ساجدين .

فقال يعقوب(يابنى لاتقصص رؤياك على أخوتك) الآية ثم عبر رؤياه فقال (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) الآية ،قال فسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه فقال لها يعقوب اكتمى ما قال يوسف لأبيه ولا تخبرى أولادى بذلك فقالت نعم فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم أخبرتهم بالرؤيا التى أمرها يعقوب بكتمها فحسدوه على ذلك فلذلك قيل فى الحكمة (لاتأمن قارئا على صحيفة ولا شاباً على امرأة ولا امرأة على سر) .

وروى الحكم بن ظهير عن إسماعيل السدى عن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله قال جاء رجل من اليهود يقال له نستار إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله أخبرنى عن النجوم التى رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ؟ فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه بشىء حتى نزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها فأرسل إلى اليهودى ودعاه وقال له إن أخبرتك بأسمائها أتسلم ؟ قال نعم ، فقال له جريان والطارق والذيال وذو الكتفين والفرغ ووثاب وعمودان وقابس والمصبح والفليق والضروح ورآها يوسف فى أفق السماء ساجدة له فلما قص رؤياه على أبيه قال ، أرى شيئا مشتتاً ويجمعه الله لك ؟ فقال اليهودى هذه والله أسماؤها ويقال كان بين رؤيا يوسف فى القميص ورؤياه فى الكواكب سبع سنين ؛ فلما ما كان من أمر يوسف ما كان وانضاف إلى ذلك تخصيص أبيه يعقوب إياه بالمحبة والقربة حسده

إخوته وحملهم الحسد على أن تآمروا بينهم فى أن يفرقوا بينه وبين أبيه بضرب من الاحتيال ويهلكوه فيما هم بينهم كما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين) أى خطأ بين فى إيثاره يوسف وأخاه علينا (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) أى تائبين فاستعدوا للتوبة قبل وقوع الذنب .

قال قائل منهم وهو يهوذا وكان أفضلهم وأعلمهم لا تقتلوا يوسف فإن القتل عظيم وألقوه فى غيابة الجب وهو البئر غير المطوية يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين قيل للحسن ، أيحسد المؤمن فقال للسائل ما أنساك بنى يعقوب ولهذا قيل - الأب جلاب والأخ سلاب فعند ذلك أجمعوا رأيهم ان يدخلوا على يعقوب ويكلموه فى إرسال يوسف معهم إلى البرية فقال لهم روبيل وهو أكبر ولد يعقوب إن أباكم لا يأمنكم على يوسف ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف حتى نلعب بين يديه فإذا نظر إلينا كيف نمرح ونلعب اشتاق إلى ذلك فأقبلوا على يوسف وهو قاعد يسبح فجعلوا يتلاعبون ويتضاحكون بين يديه فلما رأى يوسف ذلك اشتاق إلى اللعب معهم فأقبل عليهم وقال يا اخوتاه أهكذا تلعبون فى مراعيكم ؟ فقالوا نعم يا يوسف إنك لو رأيتنا ونحن نلعب فى مراعينا لتمنيت أن تكون معنا فشوقوه إلى ذلك حتى كان هو الطالب إليهم فقال لهم يا إخوتاه انطلقوا إلى أبى واسألوه ان يرسلنى معكم فأقبلوا إلى يعقوب ووقفوا بين يديه صفاً وكانوا يفعلون هكذا إذا أرادوا أن يسألوه حاجة فلما رآهم بين يديه وقوفا صفوفا قال ما حاجتكم ؟ قالوا يا أبانا (مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) نحوطه ونحفظه حتى نرده إليك (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) فى الصحراء (وإنا له لحافظون) فقال لهم يعقوب (إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف ان يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) لا تشعرون بذلك .

قال ابن عباس وغيره إنما قال ذلك يعقوب لأنه رأى فى منامه كأن يوسف على رأسه جالل وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه وإذا ذئب منها يحمى عنه وكأن الأرض قد انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة

أيام فلما رأى يعقوب هذه الرؤيا خاف على يوسف من الذئب فلذلك قال لهم اخاف ان يأكله الذئب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه أخبرنا عبد الله بن شبة أخبرنا أبو نعيم وعبد الرحمن بن قريش أخبرنا محمد بن عمرو بن الحكم الهروى أخبرنا مالك بن سليمان القروى أخبرنا عبد الله بن عمر العمرى عن نافع عن عمر قال قال رسول الله ﷺ « لاتلقنوا الناس الكذب فيكذبوا فإن بنى يعقوب لم يعلموا إن الذئب يأكل الإنسان حتى لقنهم أبوهم فلما لقنهم وقال إنى أخاف ان يأكله الذئب قالوا أكله الذئب » فقال بنوه (لئن أكله الذئب ونحن عصبة)أى عشرة رجال (إنا إذا لخاسرون) عجزة مغلوبون ثم قالوا يا نبى الله كيف يأكله الذئب وفينا شمعون إذا غضب لايسكن غضبه حتى يصيح فإذا صاح لاتسمعه حامل إلا وضعت مافى بطنها وفينا يهوذا إذا غضب شق السبع نصفين فلما سمع يعقوب ذلك منهم اطمأن إليهم وأقبل يوسف حتى وقف بين يدى أبيه ثم قال ياأبت أرسلنى معهم قال أوتحب ذلك يابنى ؟ قال نعم قال إذا كان غداً أذنت لك فى ذلك فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه منطقته وأخذ قضيبه وخرج مع إخوته ثم عمد يعقوب إلى السلة التى حمل فيها إبراهيم زاد إسحق فحمل فيها زاداً ليوسف وخرج ليشيعهم فقالوا يانبى الله ارجع فقال يعقوب يابنى أوصيكم بتقوى الله وبحبيبى يوسف اسألكم بالله إن جاع فاطعموه وإن عطش فاسقوه وقوموا عليه ولاتتعبوه ولاتخذلوه وكونوا متواصلين متراحمين، قالوا نعم نعم ياأبانا كانا لك وهو أخونا كأحدنا بل له الفضل علينا بحبك إياه فقال نعم يابنى، الله خليفتى عليكم مع أنى خائف انا كون قد ضيعته ثم إنه اقبل على يوسف فالتزمه وضمه إلى صدره وقبله بين عينيه ثم قال استودعتك الله رب العالمين وانصرف راجعاً .

وروى السدى ورجاء عن ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبى ﷺ وإسحق بن بشر بن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ومقاتل عن ابن بحيرة عن كعب الأحبار وعن سعيد بن أبى عروبة عن الحسن دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا أرسل يعقوب يوسف مع إخوته فأخرجوه مظهرين له الكرامة فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وضربوه فجعل يستغيث بهم واحداً بعد واحد وهم

يضربونه حتى كادوا يقتلونه وعطش عطشاً شديداً فقال لهم اسقونى جرعة من ماء قبل أن تقتلونى فلم يسقوه فعند ذلك بكت الملائكة رحمة ليوسف فلما رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه جعل يصيح ويقول يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الآباء فلما هموا بقتله قال لهم يهوذا وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأيا ليس إنكم قد أعطيتمونى موثقاً أن لا تقتلوه فعند ذلك أجمعوا على إلقائه فى الجب كما قال الله تعالى (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه وكان ذلك الجب فى الأردن بين مدين ومصر وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق فى واد من أوديتها على ثلاث فراسخ منزل يعقوب وكان بئراً وحشة مظلمة وأسفلها واسع وأعلاها ضيق يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها لا يمكنه الصعود وكان الجب من حفر سام بن نوح ويسمى جب الأحزان فلما أرادوا أن يلقوه فيه جعلوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا على قميصى أستر به عورتى ويكون لى كفناً بعد مماتى وأطلقوا يدى أطرد بهما عنى هوام الجب فقالوا له ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تلبسك وتؤانسك فدلوه فى البئر بحبل فلما بلغ نصفها قطعوا الحبل ليسقط فيموت فيه :

فأخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة ململمة لينة ورفعها إلى يوسف فوقف عليها وجعل يوسف يبكى فنادوه فظن أنها رحمة لحقتهم فأجابهم فهموا أن يرضخوه بالحجارة فيقتلوه فمنعهم يهوذا وقال لقد أعطيتمونى موثقا أن لا تقتلوه قالوا فلما ألقى يوسف فى الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب وبعث الله تعالى إليه ملكا فحل عنه قيده وكان إبراهيم حين ألقى فى النار جرد من ثيابه وقذف فى النار عريانا فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه وكان ذلك القميص عند إبراهيم فلما مات إبراهيم ورثه إسحق ورثه يعقوب منه فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذة وعلقه فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما ألقى فى الجب عريانا ساءه ذلك وكان عليه التعويذة فأخرج القميص وألبسه إياه وجعل يؤنسه بالنهار

ويروى أن الملك أتاه بسفرجلة من الجنة فأطعمه إياها فلما أمسى يوسف نهض الملك ليذهب فقال له يوسف إنك إذا خرجت عنى استوحش فقال له الملك قل إذا

هبت شيئاً ياصريخ المستصرخين ياغياث المستغيثين يامفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعرف حالى ولا يخفى عليك شىء من أمرى ؛ فلما دعا يوسف بهذا الدعاء بعث الله إليه سبعين ملكا فخفوا به وآنسوه فى النهر ثلاثة أيام ؛ فلما كان فى اليوم الرابع أتاه جبريل عليه السلام وقال ياغلام من طرحك ههنا فى هذا الجب؟ قال إخوتى لأبى ولم قال ؟ حسدونى على منزلتى من أبى قال أتحب أن تخرج من هذا الجب ؟ قال قل ياصانع كل مصنوع ويا جابر كل مكسور ويا حاضر كل ملأ ويا شاهد كل نجوى ويا قريباً غير بعيد ويا مؤنس كل وحيد ويا غالباً غير مغلوب ويا علام الغيوب ويا حياً لايموت ويا محيي الموتى لا إله إلا أنت سبحانك أسألك يامن له الحمد يابديع السموات والأرض يامالك الملك وياذا الجلال والإكرام أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأن تجعل لى من أمرى ومن ضيقى فرجا ومخرجا وترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لاأحتسب فقالها يوسف فجعل الله له من الجب مخرجا ومن كيد إخوته فرجا وآتاه ملك مصر من حيث لايحتسب وأوحى الله إليه وهو فى البئر لتنبئن إخوتك بما عملوا وهم لايعلمون أنك يوسف فذلك قوله تعالى (لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) .

وقال مجاهد - خرج يوسف من عند يعقوب وهو ابن ست سنين ولم يشعر وجمع الله بينهما وهو ابن أربعين سنة .

أخبرنا أبو عبد الله الدينورى أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصرى أخبرنا أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبرى أخبرنا عمران القزاز أخبرنا عبد الوارث أخبرنا يونس عن الحسن قال ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وكان فى العبودية والملك والسجن ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثمانية وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وخمس وعشرين سنة .

وصلنا إلى قصة يوسف عليه السلام وإخوته بعد ما ألقى فى الجب فلما ألقوه فى الجب عمدوا إلى سخلة من الغنم فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وشووها وأكلوا لحمها - ثم إنهم رجعوا إلى يعقوب وهو قاعد على قارعة الطريق ينتظرهم

من يأتون بيوسف فلما دنوا منه اصطرخوا صراخ رجل واحد ورفعوا أصواتهم بالبكاء فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة، فلما وافوه اجتمعوا وتقدموا بين يديه وشقوا جيوبهم وبكوا ففزع يعقوب وقال مالكم يا بنى وأين يوسف (قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق) أى ننتضل وكذلك هو فى قراءة عبد الله (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وهذا قميصه ملطخ بدمه ـ فذلك قوله تعالى (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) وإنما فعلوا ذلك ليكونوا فى الظلمة أجرأ على الاعتذار وتزوير ما مكروا فقد قالوا ـ لا تطلب الحاجة فى الليل فإن الحياء فى العينين ولا تعتذر بالنهار فالملك فتتلجلج فى الاعتذار فلا تقدر على إتمامه.

وروى الشعبي ـ قال جاءت امرأة إلى شريح فجعلت تبكى فقال رجل ألا ترى إلى هذه المسكينة كيف تبكى فقال شريح قد جاء إخوة يوسف عشاء يبكون ثم إنه أنشد فى معناه ـ

أغرك من شيخ بكاء وملقة أم اللحية البيضاء للنتف مطلقة
فإن بنى يعقوب جاءوا أباهم عشاء وهم يبكون زوراً ومخرقة

قال فلما قالوا (يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) أى ننتضل وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب الآية إلى قوله ـ بدم كذب. لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دم شاة وقرأت عائشة بدم كذاب بدال غير معجمة أى طرى فلما قالوا ذهب ليعقوب بكوا بكاء شديداً وقال لهم أرونى قميصه فأروه، فقال تالله ما رأيت كاليوم ولا ذئباً أحلم من هذا أكل ابنى ولم يشق له جيباً ولا خرق له شقاً وصاح صيحة وخر مغشياً عليه فلم يفق إلا بعد ساعة طويلة فلما أفاق بكى بكاء شديدا ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله ويضعه على وجهه وعينيه.

أخبرنا ابن فتحويه أحمد بن إبراهيم بن شاذان أخبرنا عبد الله بن ثابت أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا اسامة حدثنى زكريا عن سماك عن الشعبي قال كان فى قميص يوسف ثلاث آيات لما جاءوا به إلى أبيه فقالوا أكله الذئب ـ فقال أبوه لئن أكله الذئب ليشقن قميصه وحين سعى نحو الباب فشقت قميصه من خلف فعرفه

الوزير أنه لو كان هو الذى راودها لكان الشق من بين يديه وحين ألقى على وجهه فارتد بصيراً .

قالوا فلما صبح إخوة يوسف من الغد رجعوا إلى مراعيهم فقال بعضهم لبعض قد رأيتم ما كان من تكذيب أبيكم البارحة فإن أردتم ان يصدقكم ويخرجكم من الملامة فروا بنا على الجب فنخرج يوسف منه ونفرق بين اضلاعه ولحمه ونجىء به فقال لهم يهوذا ياإخوة أين العهد الذى بينى وبينكم والله لئن فعلتم ماتقولون لأخبرن يعقوب بما كان منكم إليه ثم لأكونن لكم عدواً مابقيت فتركوه فعندذلك قال يعقوب لأولاده (بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) وهو الذى لاجزع فيه ولاشكوى « والله المستعان على ماتصفون »

قال ابن عباس إنما كان سبب بلاء يعقوب انه ذبح شاة وهو صائم فاستطعمه جار له فلم يطعمه فابتلاه الله تعالى بأمر يوسف قال فمكث يوسف فى الجب ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع ودعا له بالدعاء الذى علمه جبريل عليه السلام جاءته سيارة أى رفقة مارة من قبل مدين تريد مصر فأخطئوا الطريق وضلوا عنها حتى نزلوا قريباً من الجب قال وكان الجب فى قفر بعيد من العمران إنما هو للرعاة والجتازة

فلما نزلت السيارة أرسلوا رجلا من العرب من أهل مدين يقال له مالك بن دعر ليطلب لهم ماء فذلك قوله تعالى (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) قالوا والوارد الذى يتقدم الرفقة إلى الماء فيهىء الأرشية والدلاء فوصل الوارد إلى البئر فأدلى دلوه أى أرسلها فتعلق يوسف بالحبل فلما وصل إلى فم البئر ورآه مالك بن دعر فرأى أحسن ما يكون من الغلمان فقال يامالك يابشراى هذا غلام يبشر أصحابه أنه أصاب عبداً وأسروه بضاعة قال المفسرون أسر مالك ابن دعر وأصحابه أمر يوسف من التجار الذين معهم وقال لهم بضاعة استبضعناها من بعض الناس إلى مصر خيفة ان يطلبوا منهم فيه الشركة إن علموا حاله .

قال وكان يهوذا يأتى يوسف بالطعام كل يوم سراً من اخوته فأتاه ذلك اليوم كما كان يفعل فلم يجده فى البئر فنظر فإذا هو بمالك وأصحابه نزولا ويوسف معهم وقد باعوه بثمن بخس بعد ان أخرجوه من الجب وان الذى اشتراه منهم هو عزيز مصر فذلك قوله تعالى (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيـــه من الزاهدين) أى باعوه بثمن ناقص ظلم حرام لأن ثمن الحر حرام ثم بين الثمن فقال دراهم معدودة وإنما قال ذلك لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أوقية أربعين درهما إنما كان يعدونها عداً فإن بلغ أوقية وزنوه لأن أقل أوزانهم واصغرها يومئذ أوقية أربعون درهما .

ويروى أنهم ذهبوا به حتى قدموا مصر قال مالك ما نزلت منزلا ولا ارتحلت إلا استبان لى بركة يوسف وكنت اسمع تسليم الملائكة عليه صباحاً ومساء وكنت انظر إلى غمامة بيضاء تظله وتسير فوق رأسه إذا سار وتقف على رأسه إذا وقف فلما قدموا مصر أمره مالك بن دعر أن يغتسل فاغتسل وألبسه ثوباً حسناً وعرضه للبيع فاشتراه قطفير بن رحيب وهو العزيز بمصر ونواحيها وكان على خزائن الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام .

ويروى أن هذا الملك ما مات حتى آمن بيوسف وتبعه على دينه ، ثم مات ويوسف حى ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وكان كافراً فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يسلم .

قال ابن عباس لما دخلوا مصر تلقى قطفير السيارة وابتاع يوسف من مالك ابن دعر بعشرين ديناراً وزوج نعال وثوبين أبيضين .

اخبرنا أبو بكر الجوزقى اخبرنا أبو العباس الدغولى بسرخس اخبرنا على ابن الحسين الهلالى أخبرنا ابو نعيم أخبرنا زهير عن ابن إسحق عن أبى عبيد عن عبد الله بن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة ، العزيز حين تفرس فى يوسف وقال

لامرأته أكرمى مثواه ، والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر ، قال الله تعالى ـ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يعنى أرض مصر .

(قال أهل الكتاب) لما تم ليوسف فى الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر وجعله على خزائنه فذلك قوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث) الآية فلما أتى العزيز بيوسف إلى منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه فتأملته امرأة العزيز ورأت حسنه وجماله وقع حبه فى قلبها وعشقته فراودته أى طلبت منه متابعتها على هواها وذلك قوله تعالى (وراودته التى هى فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) أى هلم تدعوه إلى نفسها فقال يوسف عند ذلك (معاذ الله إن ربى أحسن مثواى) يعنى زوجك قطفير سيدى إنه أحسن مثواى أنه لا يفلح الظالمون ؛ يعنى ان فعلت هذا فخنته فى أهله بعد ما اكرمنى وائتمنى فانا ظالم له ولا يفلح الظالمون قال الله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ومعنى الهم بالشىء ماحدث المرء به نفسه ولم يفعل ذلك بعد ـ قال الشاعر

همت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على وعثمان تبكى حلائله

أما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به فاختلف أهل العلم فى ذلك .

قال السدى وابن اسحق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت له ـ يا يوسف ما أحسن شعرك ؛ قال هو أول شىء يتنثر من جسدى قالت ـ يا يوسف ما أحسن عينيك قال هما أول مايسيل فى الأرض من جسدى قالت ـ ما أحسن وجهك ، قال التراب يأكله فلم تزل تأمره وتعظمه أخرى وتدعوه إلى اللذة وهو شاب مستقبل يجد شبق الشباب وهى حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به ولم يتخوف منها حتى خلوا فى بعض البيوت وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه .

وأما البرهان الذى رآه يوسف ، وكان سبب العصمة وصرف الفاحشة عنه فاختلفوا فيه .

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الطبرانى اخبرنا حسن بن عطية عن اسرائيل بن أبى حسين عن أبى سعيد قال ابن عباس فى قوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) قال له مثل له يعقوب فضربه بيده على صدره .

قال فكل بنى يعقوب ولد اثنا عشر ولداً إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه فاستحيا منه . وقال قتادة رأى صورة يعقوب فقال له يعقوب يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب فى ديوان الانبياء .

اخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الاصفهانى اخبرنا أحمد بن محمد بن يزيد السكونى اخبرنا محمد بن ابراهيم بن خالد بن عمر حفص البصرى ببغداد أخبرنا خالد بن يزيد البصرى اخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها) فإذا بكف قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلان) فقام هارباً فاراً فلما ذهب عنهما الروع والرعب عادت وعاد وإذ الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) فقام هارباً وقامت فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعادوا إذا الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقال الله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

اخبرنا يعقوب بن أحمد اخبرنا محمد بن عبد الله النعمانى اخبرنا عبد الله بن أحمد ابن عامر الطبرستانى حدثنى أبى قال حدثنى على بن موسى الرضا حدثنى أبى عن أبيه جعفر بن محمد الصادق حدثنى ابى عن أبيه عن على بن الحسين فى قوله تعالى

(لولا أن رأى برهان ربه) قال قامت امرأة العزيز إلى الصنم فظللت دونه بثوب فقال لها يوسف ما هذا ؟ قالت استحى أن يرانا فقال لها يوسف اتستحين من لايسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا استحى أنا من خالق الله كلها وعلمها :

قالوا فلما رأى يوسف البرهان قام مبادراً إلى باب البيت هارباً مما أرادته فاتبعته المرأة فذلك قوله تعالى (واستبقا الباب) يعنى تبادر يوسف وراعيل إلى الباب أما يوسف ففراراً من ركوب الفاحشة وأما المرأة فطلباً ليوسف ليقضى حاجتها التى راودته عنها ، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها مانعة له من الخروج فقدت أى خرقت وشقت قميصه من دبر أى من خلفه لأن يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة فلما خرجا ألفا سيدها لدى الباب اى وجدا زوجها قطفير عند الباب جالساً مع ابن عم لراعيل فلما رأته هابته، وقالت سابقة بالقول لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) يعنى الزنا (إلا ان يسجن او عذاب أليم) يعنى الضرب بالسياط .

عن ابن عباس - وهكذا كالمثل السائر خذ اللص قبل ان يأخذك فقال يوسف بل هى راودتنى عن نفسى فأبيت وفررت منها فادركتنى وشقت قميصى قال نوف الشامى ما كان يوسف يريد ان يذكرها فلما قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا غضب وقال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها واختلفوا فى هـــذا الشاهد من هو ؟

قال سعيد بن جبير والضحاك كان صبياً فى المهد انطقه الله تعالى يدل عليه حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال « تكلم أربعة فى المهد وهم صغار ، ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف وصاحب جريج الراهب وعيسى ابن مريم » .

وقال الحسن وعكرمة وقتادة ما كان صبياً ولكن كان رجلا حكيما وله رأى وكان من خاصة الملك . وقال السدى هو ابن راعيل كان جالساً مع زوجها على الباب فحكم بما أخبر الله تعالى عنه (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من

الكاذبين ، وإن كان قيصه قدمن دبر فكذبت وهو من الصادقين)فلما رأى قميصه قد من دبر ، عرف خيانة امرأته وبراءةيوسف عليه السلام فقال إنهمن كيدكن إن كيدكن عظيم ثم أقبل على يوسف فقال يا يوسف أعرض عن هذا الحديث لاتذكره لأحد ثم قال لامرأته (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) أي من المذنبين حين راودت شاباً عن نفسه وخنت زوجك فلما استعظم كذبت عليه .

قال فشاع أمر يوسف وراعيل وتحدثت الناس بذلك(وقال نسوة فى المدينة) وهى امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواة وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) اى عبدها الكنعانى قد شغفها حباً اى دخل حبه فى شغاف قلبها وهو حجابه وغلافه إنا لنراها فى ضلال مبين اى خطأ بين حيث تراود عبدها عن نفسه .

فلما سمعت راعيل بمكرهن اى بقولهن وحديثهن قال ابن اسحق يعنى بكيدهن وذلك إنما قلنه مكراً بها لتريهن يوسف لما بلغن من حسنه وجماله فاتخذت راعيل مائدة ودعت أربعين امرأة منهن هؤلاء اللواتى عيرنها فذلك قوله تعالى(وأرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ) اعتدت أى هيأت لهن مجلساً للطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد .

عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : يعنى هيأت طعاماً وقال مجاهد متكأ مخففاً غير مهموز - وهو كل طعام تجزه بالسكين وقال وهب اعتدت لهن اترجا وبطيخاً وموزاً ورماناً ووردا وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقال ليوسف اخرج عليهن وكانت قد أجلسته فى مجلس غير المجلس الذى هن فيه جلوس فخرج عليهن يوسف فلما رأينه أكبرنه وهالهن أمره وبهتن وقطعن أيديهن بالسكاكين اللاتى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج وغيره .

قال قتادة قطعن أيديهن حتى ألقينها فما أحسسن إلا بالدم ولم يجدن من حز الايدى ألما اشغل قلوبهن بيوسف عليه السلام .

﴿ وقلن حاش لله ﴾ أى معاذ الله ﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ فقالت راعيل عند ذلك للنسوة ﴿ فذلك الذى لمتننى فيه ﴾ أى فى حبه وشغفى به ثم إنها أبدت لهن الميل الذى عنوها فقالت ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أى امتنع واستعصى فقالت النسوة ليوسف اطع مولاتك فقالت راعيل ﴿ لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ فاختار يوسف حين عاودته المرأة فى المراودة وتوعدته بالسجن على المخالفة فقال ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن ﴾ أى أمل وأتابعهن ﴿ وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ثم بدا لهم ﴾ أى العزيز وأصحابه ﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾ الدالة على براءة يوسف وهو قد القميص من دبر وخمش الوجه وقطع النسوة أيديهن ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ .

قال السدى ـ وذلك ان المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس فإما ان تأذن لى اخرج فأعتذر واما أن تحبسه كما حبستنى فحبسه بعد علمه ببراءته دفعاً للتهمة عن امرأته ، وذلك ان الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه وتكفيراً لزلته قال ابن عباس عثر يوسف ثلاث عثرات حين هم بها فسجن وحين قال اذكرنى عند ربك فلبث فى السجن بضع سنين وحين قال لإخوته إنكم لسارقون قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

ولما سجن يوسف دخل معه السجن فتيان وهما غلامان كان للوليد بن الريان ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه واسمه مجلب والآخر ساقيه وصاحب شرابه واسمه بيوص غضب عليهما الملك فحبسهما وذلك أنه بلغه عنهما أن خبازه يريد أن يسمه وان ساقيه وافقه على ذلك وكان السبب فيه أن جماعة من مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فدسوا إلى هذين الغلامين وضمنوا لهما مالا ليسما الطعام للملك والشراب فأجابوهم إلى ذلك ثم إن الساقى نكل عنه والخباز غش الملك وقبل الرشوة فسم الطعام فلما حضر وقته وأحضر الطعام قال الساقى أيها الملك لا تأكل فإن الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب لأن الشراب مسموم فقال الملك

للساقى اشرب فلم يضره فقال للخباز كل من طعامك فأبى فجرب ذلك الطعام فى دابة من الدواب فأكلته فهلكت فأمر الملك بحبسهما وكان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله إنى أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم نجرب حلم هذا العبد العبرانى فتراءى له فسألا من غير أن يكونا رأيا شيئاً قال عبد الله بن مسعود مارأى صاحبا يوسف شيئاً وإنما كان تحالما ليجربا علمه وقال قوم بل كانت رؤياهما على صحة وحقيقة فسألاه عنها . وقال مجاهد لما رأى الفتيان يوسف قالا له والله لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما الله تعالى لا تحبانى فوالله ما أحبنى أحد قط إلا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل على من حبها بلاء ثم احبنى أبى فدخل على من حبه بلاء ثم احبتنى زوجة صاحبى فدخل على من حبها بلاء فلا تحبانى بارك الله فيكما قال فأبيا إلا حبه وألفاه حيث كان وجعل يعجبهما مايريان من فهمه وعقله وقد كانا رأيا حين دخل السجن رؤيا فأتيا يوسف فقال الساقى أيها العالم إنى رأيت كأنى فى بستان فإذا أنا بأصل كرمة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها كلها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها وسقيت الملك شربة فذلك قوله تعالى (قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً . وقال الخباز إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها خبز تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) .

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عقيل أخبرنا عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قالويه أخبرنا محمد بن يزيد السلمى أخبرنا أبو الربيع الزهرانى أخبرنا خلف بن خليفة أخبرنا سليم عن الضحاك بن مزاحم فى قوله (إنا نراك من المحسنين) قال كان إحسانه إذا مرض رجل فى السجن قام فإذا ضاق عليه وسع له وإن احتاج جمع له وسأل ربه وقال قتادة بلغنا ان إحسانه كان يداوى مريضهم ويعزى حزينهم ويجتهد لربه وقال لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا إن فى هذا الأجر ثواباً . فقال يافتى بارك الله فيك ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك إنا لانحب أن نكون فى غير هذا المكان منذ رأيناك لما تخبرنا به من

الآجر والكفارة والطهارة فى ذلك فمن أنت يافتى ؟ قال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن إسحق بن خليل الله إبراهيم عليه السلام فقال له عامل السجن والله يافتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك وأحسن إيثارك فكن فى أى بيت شئت قال فكره يوسف أن يعبر لهما ما سألاه لما علم فى ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض يوسف عن سؤالهما وأخذ فى غيره وقال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما فقال هذا فعل الكهنة والسحرة فقال ما أنا بكاهن ولا ساحر ولكن ذلكما مما علمنى ربى ثم بين لهما دينه ومذهبه فقال (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) الخ الآية فأراهما يوسف فطنته ودرايته ثم دعاهما إلى الإسلام وأقبل على أهل السجن وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله فقال إلزاما للحجة (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الواحد القهار ما تعبدون من دونه) الآية ثم فسر رؤياهما لما ألحا عليه فقال (ياصاحبى السجن أما أحدكما) وهو الساقى (فيسقى ربه خمراً) يعنى الملك ويعود إلى منزلته التى كان عليها أما العناقيد الثلاثة فإنها ثلاثة أيام فى السجن ثم يخرج (وأما الآخر فيصلب) والسلال التى رآها فى المنام ثلاثة أيام فيبقى فى السجن ثم يخرج (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) .

قال ابن مسعود : لما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب ونجرب علمك هذا فقال يوسف قضى الأمر الذى فيه تستفتيان اى فرغ الأمر الذى عنه تسألان .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الوزان أخبرنا محمد بن عبد الله الصفار أخبرنا أحمد بن مهران عن أبى رزين العقيلى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت ، إن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وأحسبه قال لا تقصها إلا على ذى رأى وعقل قال ﷺ « الرؤيا الأول عابر » فقال يوسف عليه السلام عند ذلك للذى علم أنه ناج منهما وهو الساقى اذكرنى عند ربك يعنى الملك وقل له فى السجن غلام محبوس ظلماً (فأنساه الشيطان ذكر

ربه) الآية والبضع ما بين الثلاثة إلى العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين .

وقال وهب بن منبه أصاب أيوب البلاء سبع سنين وعذب بختنصر بالمسخ سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين .

وروى يونس عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله أخى يوسف لولا كلمته ما لبث فى السجن ما لبث » يعنى قوله اذكرنى عند ربك ثم بكى .

وقال الحسن : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وقال مالك بن دينار . لما قال يوسف للساقى (اذكرنى عند ربك) فقيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يارب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت ما قلت فويل لإخوتى .

ويحكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى السجن فلما رآه يوسف عرفه وقال يا أخا المنذرين مالى أراك بين الخطئين ؟ فقال له جبريل عليه السلام يا طاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك ما استحييت منى استشفعت بالآدميين فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين قال يوسف يا أخى يا جبريل وهو فى ذلك راض عنى ؟ قال نعم . قال إذاً لا أبالى .

وقال كعب الأحبار قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول لك من خلقك ؟ قال الله تعالى ، قال فمن حببك إلى أبيك ؟ قال الله تعالى قال فمن آنسك فى البئر وألبسك وأنت عريان ؟ قال الله تعالى قال فمن نجاك من كرب البئر ؟ قال الله تعالى قال فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال الله تعالى قال فكيف استغثت بآدمى مثلك ؟ قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبى وهذه السبع سوى الخمس التى كانت قبلها وذلك أنه حبس خمس سنين قبل أن يستشفع بالساقى وهو قوله تعالى (ليسجننه حتى حين) .

فلما استشفع بالساقى وقال له أذكرنى عند ربك لبث فى السجن سبع سنين فلما انتهت محنته ودنا فرجه وراحته رأى ملك مصر الأكبر وهو الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان فدخلت فى بطونهن فلم ير منها شيئا ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفركت وسبع أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها فجمع السحرة والكهنة ومعبريه وقصها عليهم وقال (أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى تفسرون (قالوا أضغاث أحلام) مختلطة مشتبهة التأويل أباطيل (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، وقال الذى نجا منهما) أى من الفتيين وهو الساقى (وادكر بعد أمة) أى وتذكر حاجة يوسف بعد حين قال ابن عباس بعد أمة أى بعد سنين (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى إلى السجن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن السجن فى المدينة فبعثوه فأتى ليوسف فقال له (أيها الصديق) يعنى فيما عبرت لنا من الرؤيا ، والصديق هو كثير الصدق (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف) إلى قوله (لعلهم يعلمون) أى فضلك وعلمك فقال له يوسف (تزرعون سبع سنين دأبا) إلى قوله (وفيه يعصرون) فرجع الساقى إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤيا كالنهار وعرف الملك أن الذى قال كاهن فقال الملك ائتونى بالذى عبر رؤياى هذا فلما جاء الرسول إلى يوسف أبى أن يخرج معه حتى يعرف عذره وبراءته ويعرف صحة أمره من قبل النسوه فقال للرسول (ارجع إلى ربك) أى سيدك الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم) .

قال ابن عباس لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك شأنه مازالت فى نفسه منه حاجة يقول هو هذا الذى راود امرأتى وقال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من أخى يوسف وكرمه وصبره والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات السمان والعجاف

ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجونى ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولم أبتغ العذر والله إنه كان حليماً ذا أناه ، قال فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا النسوة اللاتى قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن (ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ماعلمنا عليه من سوء) قالت امرأة العزيز (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) فلما سمع يوسف قال (ذلك ليعلم إنى لم أخنه بالغيب وإن الله لايهدى كيد الخائنين) فقال له جبريل ولا حين هممت بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك (وما أبرىء نفسى) الآية فلما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال (ائتونى به استخلصه لنفسى) فلما جاء الرسول إلى يوسف قال أجب الملك الآن فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف إلى اليوم وذلك أنه قال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عنهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم فى كل بلدة .

ثم إنه اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً حساناً وقصد إلى الملك قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبى ربى من دنياى حسبى ربى من خلقه عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره ، فلما دخل على الملك قال ، اللهم إنى اسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره ، فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك ما هذا اللسان ؟ قال لسان عمى إسماعيل ثم إنه دعا له بالعبرانية ثانياً فقال له ماهذا اللسان ؟ قال لسان أبى يعقوب .

فأعجب الملك مارأى منه وكان يوسف ابن ثلاثين سنة فلما رأى الملك حداثة سنه وغزارة علمه قال لمن عنده إن هذا تأويل علم رؤياى ولم تعلمه السكهنة والسحرة ثم أنه أجلسه وقال إنى أحب أن اسمع رؤياى منك شفاهاً فقال يوسف نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عنهن نهر النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد

أعجبك حسنهن إذا غضب النيل فغار ماؤه وبدا قعره فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع ؛ فاختلطن بالسمان وافترسنهن افتراس السباع وأكلن لحمهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن ، فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبتهن وهن مهازيل لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن إذا سبع سنبلات خضر وسبع أخر سود يابسات فى منبع واحد عروقهن فى الثرى والماء . فبينما أنت تقول فى نفسك ما هذا ؟ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولها فى الماء إذ هبت ريح فردت أوراق السود اليابسات على الخضر المثمرات فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سوداً متغيرات فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ، إنك انتبهت مذعوراً فقال له الملك والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجب مما سمعته منك ، فما ترى فى رؤياى أيها الصديق؟ فقال يوسف الصديق : إنى أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كبيراً فى هذه السنين المخصبة وتبنى الخزائن وتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله ليكون أبقى له ويكون قصبه وسنبله علفاً للدواب ، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها ثم تأتيك الخلق من جميع النواحى فيمتارون منك بحكمك فيجتمع عندك الكنوز مالم يجتمع لأحد قبلك فقال له الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى الشغل فيه ؟ فقال له يوسف (أجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) أى كاتب حاسب ، وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى المجاعة وبلغة من يأتينى . قال له الملك ومن أحق به منك وولاه ذلك كله وقال له (إنك اليوم لدينا مكين أمين)

وروى سفيان عن أبى سنان عن عبد الله بن أبى الهذلى قال : قال الملك ليوسف إنى أريد ان تخالطنى فى كل شىء غير إنى آنف أن تأكل معى . فقال له يوسف إنى أحق أن آنف بذلك منك لأنى أنا ابن يعقوب ابن إسحق ابن إبراهيم خليل الله فصار بعد ذلك يأكل معه .

قال ابن عباس فلما انصرفت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه بتاجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه فدانت له الملوك ولزم الملك وفوض إليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه ثم مات قطفير عن قريب فزوج الملك يوسف براعيل امرأة قطفير فلما دخل عليها قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين منى ؟ فقالت له أيها الصديق لاتلمنى فإنى كنت امرأة حسناء ناعمة كما رأيت فى ملك ودنيا وكان صاحبى لايأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى صورتك وهيئتك فغلبتنى نفسى فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء فأصابها فولدت له ابنين إفرائيم وميشا ابنى يوسف عليه السلام واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيها العدل فأحبه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى (وكذلك نجزى المحسنين وكذلك مكنا ليوسف فى الارض) يعنى أرض مصر (يتبوأ منها من حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) وللبحترى فى هذا المعنى :

أما فى رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر فى السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكتب بعضهم إلى صديق له هذه الابيات :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

قال فلما اطمأن يوسف فى ملكه وخلت السنون المخصبة ودخلت المجدبة جاءت بهول لم يعهد الناس مثله فأصاب الناس الجوع فلما كان بدء القحط نام الملك فبينما هو نائم إذ أصابه الجوع (فهتف الملك يايوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول القحط والجوع) فلما دخل أول سنة من سنى الجدب هلك فيها كل شىء أعدوه من السنين فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام فباعهم فى أول سنة بالنقود من الذهب والفضة حتى لم يبق فى مصر درهم ولا دينار إلا قبضه وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والحلل والجواهر حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شىء وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى

والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق عبد ولا أمة إلا أخذه وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك، وباعهم فى السنة السادسة بأولادهم فإن الرجل كان يشترى بولده الحنطة أو الشعير من شدة السنة فلم يبق لأحد ولد ذكر ولا أنثى إلا مماليك وباعهم فى السنة السابعة برقابهم وأرواحهم حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار ملكا له فتعجب الناس من أمر يوسف وقالوا تالله ما رأينا ملكا أجل من هذا ولا أعظم ثم قال يوسف للملك كيف رأيت صنع ربى فيما خولنى فما ترى فى هذا فقال له الملك الرأى رأيك وإنما نحن لك تبع فقال يوسف فإنى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر جميعاً.

وروى أن يوسف كان لا يشبع من الطعام فى تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع.

وروى أن يوسف أمر طباخ الملك ان يجعل غذاءه نصف النهار مرة واحدة فى اليوم والليلة، وأراد بذلك ان يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع ويحسن إلى المحتاجين ففعل الطباخ ذلك فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار، وقصد الناس مصر من كل ناحية يمتارون فجعل يوسف لا يمكن أحداً منهم وإن كان عظيما من أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس وتوسيعاً عليهم. فتزاحم الناس عليه قالوا وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد ونزل بيعقوب من ذلك ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر يطلبون الميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه، فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام وكانوا عشرة وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين من ثغور الشام وكانوا أهل بادية ومواش فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وأنكروه لما أراد الله تعالى ببلوغ يوسف ما أراده.

وقال ابن عباس وكان بين أن قذفوه فى الجب وبين أن دخلوا عليه أرض مصر أربعون سنة فلذلك أنكروه وقيل إنه كان متزيياً بزى فرعون مصر فكانت عليه

ثياب الحرير جالساً على سرير وفى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب فلذلك لم يعرفوه وقيل كان بينهم وبينه ستر فلذلك أنكروه .

قال بعض الحكماء المعصية تورث النكرة ولذلك قال الله تعالى (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليهم فعرفهم وهم له منكرون)قالوا فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبرونى من أنتم وما أمركم فإنى أنكرت شأنكم؟ فقالوا نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادى ؟ فقالوا لا والله وما نحن بجواسيس وإنما نحن إخوة بنو أب واحد شيخ كبير صديق من أنبياء الله تعالى يقال له يعقوب قال فكم أنتم ؟ قالوا نحن كنا إثنا عشر فذهب منا أخ إلى البرية فهلك فيها وكان أحب إلى أبينا منا قال كم أنتم ههنا ؟ قالوا عشرة قال فأين الآخر ؟ عند أبينا لأنه أخو الذى هلك من أمه فأبونا يتسلى به . قال فمن يعلم أن الذى تقولون حق ؟ فقالوا أيها الملك إنا فى بلاد لا نعرف فيها . فقال يوسف ، فأتونى بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين فإنى أرضى بذلك قالوا إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه ، قالوا فضعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون وكان أبرهم بيوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى (لما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) الآية إلى قوله (وإنا لفاعلون) فقال عند ذلك يوسف لفتيانه أى لغلمانه الذين يكيلون الطعام (اجعلوا بضاعتهم) أى ثمن طعامهم .

قال ابن عباس كانت بضاعتهم النعال والأدم ، وقال قتادة كانت ورقا فى رحالهم (لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون)

واختلف العلماء فى السبب الذى فعل ذلك يوسف بهم من أجله : قال يوسف تخوف يوسف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به إليه مرة أخرى ، وقيل خشى أن يشق أخذ ذلك منهم على أبيه إذا كانت السنة سنة جدب وقيل رأى لوما أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع احتياجهم إليه فردعليهم من حيث لا يعلمون تكرماً وتفضلا ،

وقيل فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة ولا يستحلون إمساكها فيرجعون إليه لأجلها فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا أتيتم ملك مصر فاقرءوا عليه منى السلام وقولوا له إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم إنه قال لهم أين شمعون ؟ فقالوا له إن الملك ارتهنه لنأتيه ببنيامين ثم أخبروه بالقصة فقال لهم ولم أخبرتموه بذلك ؟ فقالوا إنه أخذناه وقال إنكم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية ثم قصوا عليه القصة (وقالوا يا أبانا منع الكيل فأرسل معنا أخانا) يعنى بنيامين (نكتل وإنا له لحافظون) فقال يعقوب (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) الآية .

قال كعب لما قال يعقوب (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) قال الله وعزتى وجلالى لأردن عليك كلاهما بعد ما توكلت على قالوا (ولما فتحوا متاعهم) الذى حملوه من مصر (وجدوا بضاعتهم) أى ثمن طعامهم (ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير اهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير) فقال لهم يعقوب (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتيننى به إلا أن يحاط بكم) أى تهلكوا جميعاً .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (حتى تؤتون موثقاً من الله) يعنى حتى تحلفوا لى بالله وبحق محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين أن لا تغدروا بأخيكم ففعلوا ذلك فلما آتوه موثقهم قال يعقوب (الله على ما نقول وكيل) أى شاهد بالوفاء فلما أرادوا الخروج من عنده قال لهم لا تدخلوا مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وذلك أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وهيبة وصور حسان وقامات ممتدة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا فى دخولهم البلد لئلا يصابوا بالعين ثم قال لهم (وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا الله

عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم)، وكان لمصر أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها (ما كان يغني عنهم من الله من شيء)، صدق الله يعقوب عليه السلام فيما قال إلى قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، ولما دخلوا على يوسف في المرة الثانية قالوا يا أيها العزيز هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به قال لهم أحسنتم واصبتم وستحمدون على ذلك عندي. ثم إنه أنزلهم وأكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة وأجلس بنيامين وحده وحيداً فبكى وقال لو كان يوسف حياً لأجلسني معه فقال لهم يوسف لقد بقي أخوكم هذا وحيداً فريداً ثم أجلسه يوسف معه على مائدته فجعل يؤاكله فلما كان الليل أمر لهم يوسف بمثل ذلك وقال ليبت كل اثنين منكم على فراش واحد. فلما بقي بنيامين وحده قال يوسف هذا ينام معي على فراشي فبات معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح فجعل روبيل يقول ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح قال لهم إني لأرى هذا الرجل الذي جئتم به ليس له أخ يؤنسه فإن تشاءوا أضمه إلى ليكون منزله معي ثم إن يوسف أنزلهم منزلا وأجرى عليهم الطعام والشراب وأنزل أخاه لأمه معه .

فذلك قوله تعالى (آوى إليه أخاه) فلما خلا به قال له ما اسمك . قال بنيامين، قال له وما بنيامين ؟ قال المشكل وذلك أنه لما ولد فقد أمه قال وما اسم أمك؟ قال راحيل بنت ليان بن ناحور قال فهل لك من ولد ؟ قال نعم كم ، قال عشرة بنين قال فلما أسماؤهم لقد اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي من أمي هلك إسمه يوسف فقال يوسف لقد اضطرك ذلك إلى حزن شديد فما أسماؤهم ؛ قال بالعا وأخير وأشكل وأحيا وخير ونعمان وورد ورأس وعيثم وغيثم قال فما هذه الأسماء؟ قال أما بالعا فإن أخي ابتلعته الأرض وما أخير فإنه كان بكر أمي وأما أشكل فإنه كان أخي لأبي وأمي ومني وأما أحيا فلكونه كان حياً وأما خير فإنه كان خيراً حيث كان وأما نعمان فإنه كان ناعماً بين أبويه وأما ورد فإنه كان بمنزلة الورد في الحسن ، وأما رأس فإنه كان بمنزلة الرأس من الجسد وأما حيثم فاعلمني أبي أنه حي وأما عيثم فلو رأيته

غرته لقرت عيني وتم سروري فقال له يوسف أتحب ان أكون أخالك بدل أخيك ذلك الهالك فقال بنيامين أيها الملك ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه وقال (إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) ولا تعلمهم بشيء من هذا ثم إن يوسف أوفى لإخوته الكيل وحمل لبنيامين بعيراً .

قال كعب : لما قال له إنى أنا أخوك قال بنيامين فإنى إذاً لا أفارقك قال يوسف إنى قد علمت باغتمام الوالد فإن حبسته زاد غمه ولا يمكننى حبسك إلا بعد اشتهارك بأمر فظيع فقال لا أبالى أفعل ما تريد فقال يوسف إنى أدس صاعى هذا فى رحلك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك قال افعل فذلك قوله تعالى (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه)وكانت مشربة يشرب بها الملك وكانت كأساً من الذهب مكللا مرصعاً بالجواهر جعلها يوسف مكيالا يكتال بها ثم إنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظعنوا ثم إن يوسف أمر بهم فادركوا وحبسوا عن المسير (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون) فوقفوا فلما قرب منهم الرسول قال لهم ألم نحسن منزلتكم ونكرم ضيافتكم ونوف كيلكم وفعلنا لكم مالم نفعل لغيركم قالوا بلى وما ذاك ؟ قال سقاية الملك فقدناها ولم نتهم عليها غيركم (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) وإنا منذ قطعنا هذه الطريق لم نرد أحداً بسوء واسألوا عنا من مررنا به هل أضررنا أحداً أو أفسدنا شيئاً وإنا قد رددنا الدراهم لما وجدناها فى رحالنا فلو كنا سارقين ما رددناها . وفى الحديث (إنهم لما دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم لئلا تتناول من حروث الناس شيئاً) فقال الرسول إنه صاع الملك الأكبر الذى يتكهن فيه وإنه ائتمنى عليه فإن لم أجده تخوفت أن تسقط منزلتى عنده وأفتضح فى مصر فمن رده على فله حمل بعير من طعام وأنا به زعيم أى كفيل قالوا معاذ الله أن نسرق فقال المؤذن وأصحابه فما جزاؤه أى جزاء من وجد فى رحله إن كنتم كاذبين (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين) فقال الرسول عند ذلك لابد

من تفتيش أمتعتكم ولستم ببارحين حتى أفتشها ؛ ثم إنه انصرف بهم إلى يوسف (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) لإزالة التهمة ، وكان يفتش أمتعتهم واحداً واحداً .

قال قتادة : ذكر لنا انه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر إلى وعاء أحد إلا استغفر الله تعالى مما قذفهم به حتى لم يبق إلا الغلام فقال ما أظن هذا الغلام أخذ شيئاً فقالت إخوته والله ما نتركك حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا فلما فتحوا متاعه استخرجوا الصاع منه فلما أخرج الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رءوسهم من الحياء ثم أقبلوا على بنيامين فقالوا إيش الذى صنعت بنا وفضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل لا يزال لنا منكم بلاء أخذت هذا الصاع فقال لهم بنيامين : هل بنوا راحيـــل الذين لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى إلى البرية فاهلكتموه إن الذى وضع الصاع فى رحلى هو الذى وضع الدراهم فى رحالكم ثم إنهم قالوا ليوسف (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذا هو المثل السائر: عذره شر من جرمه .

واختلف العلماء فى السرقة التى وصفوا بها يوسف قال سعيد بن جبير وقتادة السرقة التى وصفوا بها يوسف أنه سرق صنما لجده أبى أمه من ذهب فكسره والقاه فى الطريق وقال ابن جريج أمرته أمه وكانت مسلمة أن يسرق صنما لخاله من ذهب فأخذه وكسره وقال مجاهد جاء سائل يوما فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل وقال ابن عيينة دجاجة فناولها السائل فعيروه بها وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء وقال الضحاك وغيره - كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ان عمته بنت إسحق كانت أكبر ولد إسحق وكانت منطقة إسحق عندها وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت راحيل أم يوسف ماتت فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً وكانت لا تصبر عنه فلما ترعرع وبلغ سنوات وقع حبه فى قلب يعقوب فأتاها وقال لها يا أختاه سلمى إلى يوسف فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة فقالت

له ماأنا بتاركته فلما ألح عليها يعقوب قالت ذعه عندى أياما انظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ففعل ذلك فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحق لحزمت يوسف بها تحت ثيابه ثم إنها قالت فقدت منطقة إسحق فانظروا من أخذها فالتمست فلم توجد فلما فتشوا أهل البيت وجدوها مع يوسف فقال والله إنه سلم لى اصنع فيه ماشئت وكان ذلك حكم آل إبراهيم فى السارق فاتاها يعقوب فأخبرته بذلك فقال إن كان هذا فهو سلم لك لا أستطيع غير ذلك فأمسكته بعلة المنطقة فما قدر عليها يعقوب يأخذه منها حتى ماتت فهو الذى قال إخوته (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) .

قالت الرواة لما دخلوا على يوسف واستخرج الصاع من رحل بنيامين ودعا يوسف بالصاع فنقره ثم أدناه من آذنه ثم قال إن صاعى هذا ليخبرنى انكم كنتم اثنى عشر رجلا وانكم انطلقتم بأخ فبعتموه فلما سمع بنيامين قام فسجد ليوسف وقال ايها الملك سل صواعك هذا عن أخى أحى هو؟ فنقره ثم قال له حى وسوف تراه فقال بنيامين واصنع بى ماشئت فإنه إعلم بى سوف يستنقذنى قال فدخل يوسف إلى منزله ثم إنه بكى وتوضأ فقال بنيامين ايها الملك إنى أريد ان تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرقه فجعله فى رحله فنقره ثم إنه قال إن صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبى الذى سرقنى وقد رأيت مع من كنت قال وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا فغضب روبيل وقال أيها الملك والله لئن لم تتركنا وتترك أخانا لأصيحن صيحة لا يبقى فى مصر امرأة حامل إلا القت مافى بطنها وقامت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومس أحدهم الآخر ذهب غضبه فقال يوسف لإبنه قم إلى جنب روبيل ومسه فقام الغلام فمسه فسكن غضبه فقال روبيل إن فى هذا البيت لشيئاً من ولد يعقوب فقال يوسف من يعقوب ؟ فغضب روبيل وقال أيها الملك لاتذكر يعقوب فإنه إسرائيل الله ابن إسحق بن إبراهيم خليل الله قال يوسف انت إذا إن كنت

صادقاً صادق فلما أراد يوسف ان يحتبس أخاه عنده ويصير بحكمه وإنه أولى به منهم واحتبسه ورأوا ان لاسبيل لهم إلى تخليصه منه سألوه أن يخليه لهم ويعطوه واحداً منهم بدله فقالوا (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال) يوسف (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل من سرق تحرزاً من الكذب (إنا إذا لظالمون) إن أخذنا بريئاً بسقيم (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً) أى خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين فقال كبيرهم يعنى فى العقل وهو شمعون .

وقال قتادة والسدى كبيرهم فى السن وهو روبيل (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) فى هذا الغلام لتردوه (ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) أى من قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف (فلن ابرح الارض) يعنى أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) فارجع إلى الملك فأناجزه القتال (أو يحكم لى وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا) أى نحن رأينا سرقته معه (وما كنا للغيب حافظين) حين سألناك ان ترسله معنا ولو علمنا الغيب ان يسرق ماذهبنا به معنا (واسأل القرية) يعنى واسأل القرية (التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) يعنى قوماً صحبوهم من أهل كنعان (وإنا لصادقون) لك فى قولنا فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول فقال يعقوب (بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبراً جميل) وهو الذى لا جزع فيه (عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً) يعنى يوسف وبنيامين (إنه هو العليم الحكيم) وتولى عنهم يعقوب (وقال ياأسفا على يوسف) وذلك انه لما بلغه خبر بنيامين تكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فاعرض عنهم (وقال يا أسفا على يوسف) والأسف أشد الحزن .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « لم تعط أمة من الأمم عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أمة محمد ﷺ » ألا ترى إلا يعقوب حين أصابه على ابنه ما أصابه من الحزن لم يسترجع إنما قال ياأسفا على يوسف .

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف من عند أبيه إلى يوم الإلتقاء معه أكثر من ثلاثين سنة لأن يوسف أخذ من ابيه وهو ابن عشرة سنين ثم توصل إلى الملك وهو ابن ثلاثين ولم تجف عيناه من الدموع وما كان على وجه الأرض اكرم على الله تعالى من يعقوب فلما شكى وبكى قال له ولده (تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً) أى مريضاً ذاهب العقل من الهم (أو تكون من الهالكين) فقال يعقوب لما رأى غلظتهم وجفوتهم (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) لا إليكم. وفى الحديث : إن يعقوب كبر وضعف حتى سقط حاجباه على عينيه وكان يرفعهما بخرقة فقال له بعض جيرانه فتهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أخوك فما بلغ بك ما أرى ؟ فقال طول الزمان وكثرة الأحزان فاوحى الله تعالى إلى يعقوب أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال يارب أخطأتها فاغفرها لى، قال قد غفرت لك فكان بعد ذلك إذا سئل قال (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) .

اخبرنى الحسين بن فنحويه : اخبرنا احمد بن الحسين بن حامد اخبرنا الحسين ابن أيوب اخبرنا عبد الله بن أبى زياد اخبرنا سيار بن حاتم عن عبد الله بن السلط قال سمعت أبى يقول بلغنا ان رجلا قال ليعقوب ما الذى اذهب بصرك؟ قال حزنى على يوسف قال فما الذى قوس ظهرك ؟ قال حزنى على اخيه فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكونى وعزتى وجلالى لا أكشف ما بك حتى تدعونى فقال عند ذلك (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) .

قال قتادة ذكر لنا ان نبى الله يعقوب عليه السلام ما ساء ظنه بالله تعالى فى طول بلائه ساعة من ليل أو نهار فعند ذلك خرج إخوة يوسف راجعين إلى مصر وهذه كرة ثالثة فدخلوا على يوسف (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز) أى الملك بلغة مصر (مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة) اى قليلة رديئة لا تنفق فى ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها واختلف المفسرون فى هذه البضاعة ماهى فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا لا تنفق إلا بوضيعة .

وقال ابن أبى مليكة رضى الله عنه كانت خلقة الغرائر والحبال رداء المتاع .

وقال عبد الله بن الحارث والحسن كانت أمتعة الأعراب الصوف والسن والأقط وقال الضحاك كانت النعال والأدم والسويق المقلى (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين) .

قال الضحاك : لم يقولوا إن الله يجزيك إن تصدقت علينا لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن وقال عبد الجبار بن العلائى سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا محمد ﷺ فقال سفيان ألم تسمع قول الله تعالى وتصدق علينا) أراهم سفيان ان الصدقة كانت لهم حلالا وإنما حرمت على نبينا عليه الصلاة والسلام فقال لهم يوسف مجيبا لهم عند ذلك (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) واختلف العلماء فى السبب الذى حمل يوسف على هذا القول الذى كان بدء فرج يعقوب وراحلته وآخر بلائه ومحنته فقال ابن إسحق ذكر لنا أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فأرفض دمعه باكياً ثم باح بالذى كان يكتم فقال (هل علمتم مافعلتم) الآيه .

وذلك ان يعقوب لما قيل له إن ابنك سرق كتب إلى يوسف كتابا من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ابن إبراهيم خليل الله عزيز مصر المظهر العدل والموفى الكيل أما بعد فإنا اهل بيت موكل بنا البلاء فأما جدى فابتلى بالنمرود فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله بذبح عظيم . واما انا فكان لى ابن وكان أحب اولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم اتونى بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من امه وكنت أتسلى به فذهبوا ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته لذلك وإنا أهل بيت لانسرق ولانلد سارقاً فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك .

فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك نفسه من البكاء وعيل صبره فاظهر أمره

وقال بعضهم إنما قال ذلك حين سأل اخاه بنيامين هل لك ولد ؟ قال نعم : ثلاثة بنين . قال فما سميتهم ؟ قال سميت الأكبر منهم يوسف قال ولم ؟ قال محبة لك ولذكرك قال فما سميت الثانى ؟ قال ذئباً قال ولم الذئب وهو سبع عاقر ؛ قال لأذكرك به قال فما سميت الثالث قال دما قال ولم قال ، لأذكرك به فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة ولم يتمالك ان قال لإخوته (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذا أنتم جاهلون قالوا أئنك لأنت يوسف) ابن إسحق لما قال يوسف لإخوته هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه كشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب فعرفوه فقالوا (أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال لهم يوسف (هل علمتم مافعلتم) الآية ثم تبسم وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم فلما أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف فقالوا له مستفهين أئنك يوسف .

وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له فى فرقه علامة وكان ليعقوب مثلها وكان لإسحاق مثلها وكان لسارة مثلها شبه الشامة فلما رفع التاج عن رأسه ورأوا الشامة عرفوه وقالوا له (أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا) بأن جمعنا بعد مافرقتم بيننا (إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) ثم إنهم أقروا بفضل يوسف عليهم وجريتهم إليه فقالوا (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) فقال يوسف وكان حليما كريماً موفقاً (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

قال السدى وغيره : لما عرفهم يوسف بنفسه سألهم عن أبيه فقال مافعل أبى من بعدى ؟ قالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه .

قال الضحاك كان ذلك القميص لايقع على مبتلى ولا على سقيم إلا صح وعوفى فأعطاهم يوسف ذلك القميص وهو الذى كان لإبراهيم وقد مضت قصته فقال لهم

(اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وائتونى بأهلكم أجمعين) فلما فصلت العير من مصر متوجهين إلى كنعان قال أبوهم يعقوب (إنى لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون) اى تسفهون .

وروى ان ريح الصبا استأذنت ربها ان تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأتته بها ، قال ابن عباس : وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال وقال مجاهد وذلك أنه هبت ريح فصفقت القميص فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم انه ليس فى الأرض من رياح الجنة إلا ما كان عن ذلك القميص فمن ذلك قال (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) فقال له بنوه (تالله إنك لفى ضلالك القديم) فلما جاء البشير وهو يهوذا ابن يعقوب قال ابن مسعود جاء البشير من بين يدى العير ، وقال السدى قال يهوذا ليوسف انا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته ان يوسف أكله الذئب فأعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حى فأفرحه كما احزنته .

قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج ماشياً حاسراً حافياً وجعل يعدو حتى أتى أباه وكان معه سبعة ارغفة فلم يستوف أكلها حتى بلغ كنعان وكانت المسافة ثمانين فرسخاً فلما اتاه بالقميص القاه على وجهه فارتد بصيراً قال الضحاك رجع اليه بصره بعد العمى وقوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت وان ملك الموت استأذن ربه ان يأتى يعقوب فأذن له فجاءه فقال له يعقوب ياملك الموت اسألك بالذى خلقك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفس فقال لا ثم قال له ملك الموت يا يعقوب ألا اعلمك كلمات؟ قال بلى قال قل ياذا المعروف الذى لا ينقطع أبداً ولا يحصيه أحد غيرك قال فدعابها يعقوب فى تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيراً فقال لهم عند ذلك (ألم أقل لكم إنى اعلم من الله مالا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى) الآية

قال أكثر المفسرين أخر ذلك إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وذلك ان الدعاء فى الأسحار لايحجب عن الله تعالى فلما انتهى يعقوب إلى الوعد قام إلى الصلاة بالسحر فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل - وقال - اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لوالدى ماجنوا على أخيهم يوسف فأوحى الله إليه إنى قد غفرت لك ولهم أجمعين - وقال وهب - كان يستغفر لهم كل جمعة فى نيف وعشرين سنة

أخبرنا الحسن بن محمد بن فنجويه اخبرنا عبد الله بن محمد بن شيبة اخبرنا احمد ابن أبى السفر بن ثوبان البصرى اخبرنا إسحق بن زياد الارملى اخبرنا الفضل ابن حميد البغدادى اخبرنا بن زياد وابن ضمرة عن رجاء بن أبى سلمة عن عطاء الخرسانى قال - طلب الحوائج إلى الشباب أيسر منها إلى الشيوخ - ألا ترى قول يوسف لاخوته لاتثريب عليكم اليوم - وقول يعقوب سوف استغفر لكم ربى .

وروى أن يعقوب قال للبشير لما اخبره بحياة يوسف كيف يوسف ؟ قال له إنه ملك مصر فقال يعقوب ماصنع بالملك على أى دين تركته - قال على دين الإسلام - فقال يعقوب الآن تمت النعمة .

وقال الثورى - لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا فقال يوسف ياأبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال بلى يابنى ولكن خشيت ان تسلب دينك فيحال بينى وبينك يوم القيامة - قالوا وكان يوسف قد بعث مع البشير جهازاً ومائتى راحلة وسأله ان يأتيه بأهله وولده اجمعين فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر الذى فوقه فخرج مع يوسف فى أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب - وكان يعقوب يمشى متوكأ على يهوذا فنظر يعقوب إلى الجند والناس فقال يايهوذا هذا فرعون مصر الأكبر لا هذا ابنك

فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب افضل وأحق بذلك منه فابتدأه يعقوب بالسلام فقال : السلام عليك يامذهب الاحزان (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) ورفعهما على العرش وأبواه يعقوب وخالته ليا فسمى الخالة أما كما سمى العم أبا فى قوله تعالى (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) وقال الحسن وكانت تحية الناس يومئذ السجود ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض فلما رأى يوسف أبويه وإخوته قد خروا له سجداً اقشعر عند ذلك جلده - (وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً) الآية .

قال وهب دخل يعقوب وولده مصر وهم إثنان وسبعون إنساناً مابين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى والزمنى وكانت الذريه ألف ألف سوى المقاتلة وقال الفضيل بن عياض بلغنا ان يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى يوسف ومملكته فكان يطوف يوماً من الايام فى خزائنه فرأى خزانة مملوءة قراطيس بيضاء فقال له يا بنى لقد تغيرت بعدى لك كل هذه القراطيس وما حملت بطاقة منها تكتب إلى كتاباً ؟ فقال يوسف هذه القراطيس كلها لك كنت كلما زاد شوقى وكثر حنينى آخذ ورقة أكتب إليك يا أبت فيمنعنى جبريل ان أكتب اليك فأتركها فى هذه الخزانة حتى بلغت هذه المبالغ فسأل يعقوب جبريل عن ذلك فقال منعنى ربى فسأل الله عن ذلك فأوحى الله اليه لانك قلت أخاف ان يأكله الذئب فهلا خفتنى هذه العقوبة لاجل تخوفك من غيرى

وروى صالح المروى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله خلا ولده نجيا ، فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم مافعلتم بالشيخ يعقوب وبيوسف ؟ قالوا بلى قالوا فإن عفوا عنكم فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على ان يأتو بالشيخ فأتوه وجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب ابيه قاعد فقالوا ياأبانا أتيناك على امر لم نأتك بمثله قط ونزل بنا امر لم ينزل بنا مثله قط

والأنبياء أرحم البرية - فقال ما بكم يا بنى ؟ فقالوا ألست تعلم ما كان منا إليك وإلى أخينا يوسف قال بلى قد علمت قالوا فلستما قد عفوتما عنا ؟ قالا بلى قالوا فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئاً إذا كان الله تعالى لم يعف عنا قال - فما تريدون يا بنى قالوا نريد أن تدعو الله لنا فإذا جاءك الوحى من عند الله فسله هل عفا الله عنا فإن أجابك بأنه قد عفا عنا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا وإلا فلا قرت لنا عين فى الدنيا أبداً فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلفه وقاموا كلهم خلفهما أذلة خاشعين فدعا يعقوب وأمن يوسف عليهما السلام فلم يجب فيهم قريباً من عشرين سنة - قال صالح المرى - ثم نزل جبريل عليه السلام على يعقوب فقال إن الله تعالى بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك وأنه قد عفا عما صنعوا وإنهم قد انعقدت مواثيقهم بعدك على النبوة قالوا - فأقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله وولده أربعة وعشرين سنة بأحسن حال واهنأ عيش وأنعم راحة وأدوم سلامة ؛ ثم حضرته الوفاة فلما احتضر جمع بين بنيه - وقال (ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق) ثم قال (يا بنى أن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ثم أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه اسحق وجده إبراهيم ففعل ذلك ونقله إلى بيت المقدس فى تابوت من ساج وخرج معه يوسف فى عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر ووافق ذلك يوم وفاة عيص ثم فدفنا فى يوم واحد وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً وأربعين سنة لأنهما ولدا فى بطن واحد وقبرا فى قبر واحد .

قال قتادة فلما جمع الله ليوسف شمله وأقر له عينه وأتم له تفسير رؤياه وكان موسعاً عليه فى ملك الدنيا ونعيمها وعلم أن ذلك لا يدوم له وأنه لا بد له من فراقه فأراد نعيم الجنة إذ هو أفضل منه فتاقت نفسه إلى الجنة فتمنى الموت ودعا به ولم يتمن نبى قبله ولا بعده الموت فقال (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث) الآية .

روى أن يوسف لما حضرته الوفاة جمع اليه قومه من بنى إسرائيل وهم ثمانون رجلا وأعلمهم بحضور أجله ونزول امر الله تعالى به - فقالوا يانبى الله تحب أن تعرفنا كيف تتصرف الأحوال بنا بعد خروجك من بين أظهرنا وإلى ما يؤول اليه أمرنا وديننا وملتنا - فقال لهم أمركم يستقيم على ما أنتم عليه وتستقيمون على دينكم إلى أن يبعث رجل جبار عات من القبط يدعى الربوبية فيقهركم ويذبح أبناءكم ويستحيى نساءكم ويسومكم سوء العذاب فتمد أيامه مدة مديدة - ثم يخرج من بنى إسرائيل من ولد لاوى بن يعقوب رجل اسمه موسى بن عمران رجل طويل جعد الشعر آدم اللون فينجيكم الله من أيدى القبط على يده قال فجعل كل من بنى إسرائيل يسمى ابنه عمران ويسمى عمران ابنه موسى .

ثم مات يوسف عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى أخيه يهوذا واستخلفه على بنى إسرائيل فتوفاه الله طيباً طاهراً ودفن فى النيل فى صندوق من رخام وكان قبره فى النيل إلى ان حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببنى إسرائيل فنقله إلى الشام ودفنه بأرض كنعان خارج الصين حيث هو اليوم فذلك تنقل اليهود موتاهم إلى الشام من فعل ذلك فيهم .

وروى يونس بن عمران عن أبى موسى قال ؛ نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه فقال رسول الله ﷺ اكرمتنا فأحسنت سل حاجتك فقال ناقة نرحلها وعنزة تحلبها أهلى فقال رسول الله ﷺ أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بنى إسرائيل . فقالوا يارسول الله وما عجوز بنى إسرائيل؟ فقال إن بنى إسرائيل لما خرجوا اضلوا الطريق وأظلم عليهم الليل فقالوا ما هذا ؟ فقال علماؤهم إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا قال موسى فمن يعلم موضع قبره قالوا عجوز لبنى إسرائيل فبعث اليها موسى فأتته فقال دليني على قبر يوسف فقالت وتعطينى حكمى قال وما حكمك قالت أن أكون معك فى الجنة فكره أن يعطيها حكمها فأوحى الله اليه إن أعطها حكمها .

وروى من طريق أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء فقالت لموسى ألا أخبرك بموضع قبر يوسف قال نعم : فقال لا أخبرك حتى تعطيني أربع خصال تطلق رجلي وتعيد إلى بصرى وشبابي وتجعلني معك في الجنة فكبر ذلك على موسى فأوحى الله اليه أن أعطها ما سألت فإنك إنما تعطى على ففعل فانطلقت بهم إلى موضع عين في مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطىء النيل في صندوق من مرمر فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه

قال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد موت يعقوب عليه السلام ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وهكذا تنتهي قصة يوسف في روعتها وجلالها ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ مجلس في قصة موسى بن ميشا بن يوسف عليه السلام ﴾

وقال موسى الاول وقد ذكرنا فيما مضى ان يوسف عليه السلام ولد له ابنان أحدهما يقال له أفرائيم والآخر ميشا وابنة يقال لها رحمة وهى امرأة النبي أيوب عليه السلام فولد لأفرائيم نون وولد لنون يوشع وهو فتى موسى بن عمران وخليفته على بنى إسرائيل وأما ميشا فولد له موسى فنبأه الله تعالى فزعم أهل التوراة أنه صاحب الخضر والعامة من العلماء أن صاحب الخضر موسى بن عمران وكذلك روى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ .

قال أهل العلم والتاريخ لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا وظهر فيهم ملوك فغيروا سيرتهم وأفسدوا في الأرض وفشا فيهم السحر والكهانة فبعث الله تعالى إليهم موسى بن ميشا رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره وإقامة سنته وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتي سنة فأطاعه قوم منهم وعصاه آخرون .

وقال وهب بن منبه وغيره كان مما أوحى الله اليه أن قل لقومك إنى برىء ممن سحر أو سحر أو تكهن أو تكهن له أو تطير تطير له من آمن به صادقاً وتوكل على فإنى كنت له كافياً ومثليا وكفيته هم دينه ودنياه وكنت له خير معين وهاد وكنت عند ظنه بى ومن عدل عنى ووثق بغيرى فأنا أغنى الشركاء عن الشرك أكله إلى من وثق به دونى ومن وكلته إلى غيرى فليستعد للفتنة والعذاب ومن تباعد عنى كنت عنه أشد تباعداً ومن تقرب إلى كنت أشد تقربا منه إلى وقل لعبادى لاتغفلوا عن ذكرى وليكثروا ذكر الموت عند كل شهوة فإنه يميت الشهوات واللذات كلها قالوا فلبث فيهم ماشاء الله أن يلبث يقوم أمرهم ويصلح أحوالهم ثم مات ﷺ وعلى جميع الانبياء والمرسلين والله تعالى أعلم .

﴿ مجلس فى ذكر بقية عاد وقصة شديد وشداد وصفة إرم ذات العماد ﴾

قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد) الآية

روى سفيان عن منصور عن أبى وائل قال إن رجلا يقال له عبد الله بن قلابة خرج فى طلب إبل له قد ضلت أى شردت فبينما هو فى بعض صحارى عدن فى تلك الفلوات إذا وقع على مدينة عليها حصن حول ذلك الحصن قصور عظيمة وأعلام طوال فلما دنا منها ظن أن فيها من يسأله عن إبله فلم ير فيها أحداً لا داخلا ولا خارجا فنزل عن ناقته وعقلها وسل سيفه ودخل من باب الحصن فإذا هو ببابين عظيمين لم ير فى الدنيا أعظم منها ولا أطول وإذا خشبهما من أطيب عود وعليها نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ضوؤها قد ملأ المكان فلما رأى ذلك أعجبه ففتح أحد البابين فإذا هو بمدينة لم ير الراءون مثلها قط وإذا هو بقصور معلقة تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كل قصر منها غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد على كل باب من أبواب تلك القصور مصراع مثل مصراع باب تلك المدينة من عود رطب قد نضدت عليه اليواقت وقد فرشت تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران فلما رأى ذلك ولم ير هناك أحداً أخذه الفزع ثم أنه نظر إلى الأزقة فإذا فى كل زقاق منها أشجار قد أثمرت وتحتها أنهار تجرى فى قنوات من فضة أشد

بياضاً من الثلج فقال هذه الجنة التي وصفها الله لعباده في الدنيا والحمد لله الذي أدخلني الجنة ثم إنه حمل لؤلؤة وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها شيئاً ولا من يواقيتها لأنها كانت مثبتة في أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورة بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف فأخذ منها ما أراد وخرج حتى أتى ناقته فركبها ثم إنه سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليمن فأظهر ما كان معه وأعلم الناس بأمره وباع بعض ذلك اللؤلؤ .

(قال) أرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما حضر قال يا أبا إسحق إني دعوتك لأمر رجوت أن يكون علمه عندك ، فقال له أمير المؤمنين على الخبير سقطت سل عما بدا لك فقال له أخبرنا يا أبا إسحق هل بلغت أن في الدنيا مدينة بالذهب والفضة وعمدها من زبرجد وياقوت وحصى قصورها وغرفها اللؤلؤ وأنهارها في الأزقة تجري تحت الأشجار فقال كعب والذي نفس كعب بيده لقد ظننت أني سأسألك قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هي ومن بناها أما تلك المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له وأما الذي بناها فشداد بن عاد وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد فقال له معاوية يا أبا إسحق حدثنا بحديثها يرحمك الله فقال كعب يا أمير المؤمنين إن عاداً كان له إبنان سمى أحدهما شديد والآخر شداد فهلك عاد وبقي ولداه بعده فملكا وتجبرا وقهرا كل البلاد وأخذها عنوة وقهراً حتى دان لهما جميع الناس ولم يبق أحد في زمانهما إلا دخل في طاعتهما لا في شرق الأرض ولا غربها وأنهما لما صفا لهما ذلك وقر قرارهما مات شديد بن عاد وبقي شداد فلك وحده ولم ينازعه أحد وكانت له الدنيا كلها وكان مولعاً بقراءة الكتب القديمة وكان كلما مر فيها على ذكر الجنة دعته نفسه أن يجعل تلك الصفة لنفسه في الدنيا عتواً على الله تعالى وكفراً فلما وقر ذلك في نفسه أمر بصنع تلك المدينة التي هي إرم ذات العماد وأمر على صنعتها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان ثم قال لهم انطلقوا إلى أطيب بقعة في الأرض وأوسعها واعملوا فيها مدينة من

ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ وتحت تلك المدينـــة أعمدة من زبرجد وياقوت وعلى المدينة قصور ومن فوق القصور غرف واغرسوا تحت القصور غرائس فيها أصناف الثمار كلها وأجروا فيها الأنهار تحت الأشجار فإنى أرى فى الكتب صفة الجنة وإنى أحب أن أجد مثلها فى الدنيا وأتعجل سكناها .

فقالت له قهارمته كيف لنا بالقدرة على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة فنبنى منها مدينة كما وصفت لنا ؟ فقال لهم شداد ألستم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدى قالوا بلى قال فانطلقوا كل إلى موضع به معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة وأى بحر فيه لؤلؤ فوكلوا به من كل قوم رجالا تخرج لكم ما فى كل معدن من تلك الأرض ثم انطلقوا إلى ما فى أيدى الناس من ذلك فخذوه سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن فإن معادن الدنيا فيها كثير من ذلك وفيها مما لا تعلمون أكثر وأعظم مما كلفتم به من صنعة هذه المدينة .

قال فخرجوا من عنده وكتب معهم إلى كل ملك فى الدنيا كتاباً يأمره أن يجمع لهم ما فى بلاده من الجواهر وأن يحفر معادنها فانطلق هؤلاء القهارمة وأعطوا كل ملك من الملوك كتاباً يأخذ ما يوجد فى مملكته فبقوا على تلك الحالة عشر سنين حتى جمعوا كل ما يحتاجونه إلى إرم ذات العماد من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة وأخذوا موضعاً كما أراد ووصف لهم قال فخرج عند ذلك الفعلة والقهارمة فتفرجوا فى الصحارى ليتخذوا ما يوافق غرضه فلم يجدوا ذلك إلا فى أرض أبين من بلاد عدن فوقعوا بها على صحراء عظيمة نقية من التلال والجبال وإذا هم بعيون مطرودة فقالوا هذه صفة الأرض التى أمرنا بها فأخذوا بقدر ما أمرهم به من العرض والطول ثم جعلوا لها حدوداً محدودة ثم عمدوا إلى مواضع الأزقة التى فيها الماء فأجروا فيها القنوات لتلك الأنهار ثم وضعوا الأساس من صخور الجزع اليمانى وعجنوا طين ذلك الأساس من دهن اللبان والحلاب فلما فرغوا من وضع الأساس وأجروا فيها القنوات أرسل الملوك إليهم الجواهر والذهب والفضة فمنهم من بعث بالعمد مضروبة ومنهم من بعث بالذهب والفضة مصنوعة

مفروغاً منها فدفعوا كل ذلك إلى أولئك القهارمة والوزراء فأقاموا فيها حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شداد فقال له معاوية يا أبا إسحاق إنى لأحسبهم أقاموا فى بنائها زماناً من الدهر قال نعم يا أمير المؤمنين إنى لأجد فى التوراة أنهم أقاموا فى بنائها ثلثمائة سنة فقال معاوية كم كان عمر شداد صاحبها قال كان عمره سبعمائة سنة فقال له معاوية يا أبا إسحاق لقد أخبرنا خبراً عجيباً فحدثنا فقال يا أمير المؤمنين إنما سماها الله تعالى إرم ذات العماد من أجل العماد التى تحتها من الزبرجد والياقوت وليس فى الدنيا مدينة من الزبرجد والياقوت غيرها فلذلك قال (التى لم يخلق مثلها فى البلاد).

قال معاوية يا أبا إسحاق لقد ظهر فضلك على غيرك من العلماء ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين مالم يعطه أحد فقال يا أمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ما خلق الله فى الأرض شيئاً إلا وقد فسره فى التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيراً وإن هذا القرآن أشد وعيداً وكفى بالله شهيداً ووكيلا.

قال الشعبى أخبرنا غفل الشيبانى عن رجل من حضرموت يقال له بسام أنه وقع على حفيرة شداد بن عاد فى جبل من جبال حضرموت يطل على البحر وأخرج منها لوح مكتوب لا يوجد أحد يقرؤه حتى جاء رجل من أهل صنعاء حميرى وكان يحسن قراءة تلك الكتابة فأخرجنا إليه اللوح فقرأه فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات:

اعتبر بى أيها المغـــرور بالعمر المـــديد
أنا شـــداد بن عاد صاحب الحصـن العميد
وأخو القـــوة والبأ ساء والمـــلك الحشيد
دان أهل الأرض طراً لى من خوف وعيد
وملـكت الشرق والغر ب بسلطان شديد
ويفضـل الملك والعدة فيـــه والعـــديد
جاء هود وكنا فى ضلال قبـل هود

فدعا لو قبلنـــا كان بالأمر الرشيد
فعصينـــاه وناديـنـــا ألا هل من محيد
فأتتنا صيحـــة تهوى من الأفق البعيد
فتـــواقبنا كزرع وسط بيداء حصيد

قال دغفل : سألت علماء حمير عن شداد وقلت إنه أصيب وقد كان دنا من إرم ذات العماد فكيف وجد فى تلك المغارة وهى بحضرموت قالوا إنه لما هلك هو ومن معه من الصيحة على مرحلة من تلك المدينة ملك من بعده مزيد بن شداد وقد كان أبوه خلفه على ملكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت فحمل مطلياً بالصبر والكافور ثم أمر بحفر تلك المغارة فحفرت واستودعه فيها على ذلك السرير الذى من الذهب والله أعلم .

(مجلس فى ذكر قصة أصحاب الرس)

قال الله تعالى (وعاد وثمود وأصحاب الرس) اختلف العلماء من أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم فقال سعيد بن جبير والكلبى والخليل بن أحمد دخل كلام بعضهم فى بعض وكل أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرس أن أصحاب الرس بقية ثمود قوم صالح وهم أصحاب البئر التى ذكرها الله تعالى فى كتابه فى قوله تعالى (وبئر معطلة وقصر مشيد) .

(قال) وكان قوم لهم نهر يدعى الرس ينسبون إليه وكان فيهم أنبياء كثيرة لا يقوم فيهم نبى إلا قتلوه وذلك النهر بمنقطع أذربيجان بينها وبين أرمينية فإذا قطعته مدبراً دخلت فى حد أرمينيه وإذا قطعته مقبلا دخلت فى حد أذربيجان وكان من حولهم من أرمينيه يعبدون الأوثان ومن امامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران وهم كانوا يعبدون الجوارى العذارى فإذا تمت لإحداهن ثلاثون سنة قتلوها أو استبدلوها غيرها وكان عرض نهرهم ثلاث فراسخ وكان يرتفع فى كل يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التى حوله وكان لا ينصب فى بحر ولا بر

فإذا خرج من حدهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم فبعث إليهم ثلاثين نبياً فى شهر واحد فقتلوهم جميعاً فبعث الله تعالى إليهم نبياً وأيده بنصره وبعث معه ولياً فجاهدهم فى الله حق جهاده ثم بعث إليه ميكائيل حين نابذوه وكان فى أوان وقوع الحب فى الأرض وكانوا عند ذلك أحوج مايكونون إلى الماء فحفر نهرهم فى البحر وانصب ما فى أسفله وأتى إلى عيونه من فوق فسدها وبعث الله إليه خمسمائة من الملائكة أعواناً له ففرقوا مابقى فى وسط نهرهم ثم أمر الله جبريل فنزل فلم يدع فى أرضهم عيناً ولا نهراً إلا أيبسه بإذن الله تعالى وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشى فأماتها دفعة واحدة وأمر الرياح الأربع الجنوب والشمال والدبور والصبا فضمت ما كان لهم من متاع وألقى الله تعالى السبات .

ثم خفت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فرمته فى رءوس الجبال وبطون الأودية وأما ما كان من حلى وتبر وآنية فإن الله تعالى أمر الأرض فابتلعته فاصبحوا لا شاة عندهم ولا بقرة ولا مال يعودون إليه ولا ماء يشربونه ولا طعاماً يأكلون فآمن بالله عند ذلك قليل منهم وهداهم الله إلى غار فى جبل له طريق من خلفه فنجوا وكانوا أحداً وعشرين رجلا وأربع نسوة وصبيين وكان عدد الباقى من الرجال والنساء والذرارى ستمائة ألف ماتوا عطشاً وجوعاً ولم يبق منهم باقية ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها فدعا القوم عند ذلك مخلصين لله أن يجيئهم بماء وزرع وماشية ويجعله قليلا لئلا يطغوا فأجابهم الله تعالى إلى ذلك لما علم من صدق نياتهم وإخلاصهم وقالوا إنه لا يبعث الله رسولا إلا من عليهم ويقاربهم إلا أعانوه وصدقوه وعضدوه فعلم الله منهم الصدق فأطلق لهم نهرهم وزادهم على ما سألوه فأقام أولئك القوم فى طاعة الله ظاهراً وباطناً حتى مضوا وانقرضوا فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله فى الظاهر ونافقوا فى الباطن وأملى الله تعالى لهم وكان عليهم قادراً وكانت معاصيهم أكثر من طاعتهم وخالفوا أولياء الله فبعث الله عليهم من فارقهم وخالفهم فأسرع فيهم القتل وبقيت منهم شرذمة فسلط الله عليهم الطاعون فلم يبق منهم أحد وبقى نهرهم ومنازلهم وما فيها مائتى عام لا يسكنها أحد ثم أتى الله بقوم بعد ذلك فنزلوها وكانوا صالحين .

وروى على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن جده على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أن رجلا من أشراف بنى تميم يقال له عمر أتاه فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن أصحاب الرس وفى أى عصر كانوا ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملكهم ؟ وهل بعث الله إليهم رسولا أم لا ؟ وبماذا أهلكوا ؟ فإنى أجد فى كتاب الله عز وجل ذكرهم ولا أجد خبرهم ؟ فقال له أمير المؤمنين على رضى الله عنه لقد سألتنى عن حديث ما سألنى عنه أحد قبلك ولا يحدثك به أحد بعدى كان من قصتهم يا أخا تميم أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت وكان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها دوسان وكانت نبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم فى الأرض وذلك قبل سليمان ابن داود عليهما السلام وكانت لهم إثنتا عشر قرية على شاطىء نهر يقال له الرس من بلاد المشرق وبهم سمى ذلك النهر ولم يكن يومئذ فى الأرض نهر أغزر منه ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكاناً وعمراناً منها وكان أعظم منازلهم اسفنديار وهى التى كانت ينزلها ملكهم وكان يسمى تركون بن عابور بن نوش بن سارب ابن النمروذ بن كنعان فرعون إبراهيم عليه السلام وفيها العين التى يسقون منها الصنوبرة التى كانوا يعبدونها وقد غرسوا فى كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبرة فنبتت تلك الحبة وتصير شجرة عظيمة ثم حرموا ماء تلك العين والأنهار فلا يشربون منها لا هم ولا أنعامهم ومن فعل ذلك قتلوه ويقولون هى حياة آلهتنا فلا ينبغى لأحد أن ينقص من حياتها ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذى عليه قراهم ، وقد جعلوا فى كل شهر من السنة عيداً يجتمع إليه أهلها ويضربون على تلك الشجرة مظلة من الحرير فيها أصناف الصور ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قرباناً للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب الكثير فإذا سطع دخان تلك الذبائح ونارها وبخارها فى الهواء وحال بينهم وبين النظر للسماء خروا سجداً للشجرة يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم وكان الشيطان يجىء فيحرك أغصانها ويصيح فى ساقها صياح الصبى .

عبادى قد رضيت عنكم فطيبوا نفساً وقروا عيناً فيرفعون عند ذلك رءوسهم ويشربون الخمر ويضربون المعازف فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ثم ينصرفون حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم فيضربون عند شجرة الصنوبر والعين سرادقاً من ديباج وعليه أنواع الصور له إثنا عشر باباً كل باب لأهل قرية منهم فيسجدون للصنوبرة من خارج السرادق ويقربون إليها الذبائح أضعاف ما قربوا للشجرة التى فى قراهم فيجىء إبليس عند ذلك فيحرك الصنوبرة تحريكاً شديداً ويتكلم من جوفها كلاماً جهورياً يعدهم ويمنيهم بأكثر مما وعدتهم الشياطين جميعاً فيرفعون رءوسهم من السجود ولهم من الفرح والسرور ما لا يفيقون ولا يتكلمون معه فيديمون الشرب والمعازف ويكونون على ذلك إثنا عشر يوماً وليلة بعدد أعيادهم فى السنة ثم إنهم ينصرفون فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره بعث الله إليهم نبياً من بنى إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب فلبث فيهم زماناً طويلا يدعوهم إلى الله تعالى ويعرفهم بربوبيته فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته فلما رأى شدة ما هم فيه من الغى والضلالة وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح حضر عند قريتهم العظمى وقال يا رب إن عبادك أبوا تصديقى ودعوتى إليهم وما أرادوا إلا تكذيبى والكفر بك .

فبينما هم فى عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء فتحيروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم إلى بعض ثم إن الأرض صارت من تحتهم كحجر كبريت تتوقد وأظلتهم سحابة سوداء فألقت عليهم جمراً كالقبة يلتهب فأذاب أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار فنعوذ بالله من غضبه ودرك نقمته إنه هو السميع العليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً والله أعلم .

﴿ مجلس فى قصة نبى الله أيوب عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه) الآية وقال تعالى (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين).

قال وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب كان أيوب رجلا من الروم وكان رجلا طويلا عظيم الرأس جعد الشعر حسن العينين والخلق قصير العنق غليظ الساقين والساعدين وكان مكتوب على جبهته المبتلى والصابر وهو أيوب بن أموص بن تارخ ابن روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان فيها وكان له من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير مالا يكون لرجل أفضل منه فى العدد والكثرة وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان ولكل أتان ولد من الإثنين إلى فوق الخمسة وكان الله أعطاه أهلا وولداً من رجال ونساء وكان أمرأ تقياً رحيما بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكراً لأنعم الله تعالى مؤدياً لله قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما أصاب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن أمر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله رجل من أهل اليمن يقال له اليفن ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما مالك وللآخر ظافر وكانوا كهولا .

قال وهب إن لجبريل عليه السلام بين يدى الله مقاماً ليس لأحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيله وإن جبريل هو الذى يتلقى الكلام فإذا ذكر الله تعالى عبداً بخير تلقاه جبريل ثم ميكائيل ثم من حوله من الملائكة المقربين والحافين من حول العرش فإذا شاع ذلك فى الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات فإذا صلت عليه ملائكة السموات هبط عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض وكان إبليس لايحجب عن شىء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد

ومن هنالك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة فلم يزل على ذلك يصعد إلى السما حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب عن أربع وكان يصعد في ثلاث فلما بعث الله محمداً ﷺ حجب عن الثلاث الباقية فهو وجنوده محجوب عن جميع السموات إلى يوم القيامة .

(إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) قال فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فأدركه البغي والحسد وصعد سريعاً حتى صعد في السماء موقفاً كان يقفه فقال يا إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تختبره لا بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك فقال الله تعالى انطلق إليه فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله حتى بلغ الأرض ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم ، فقال ماذا كان عندكم من القوة والمعرفة فإني قد سلطت على مال أيوب وزوال المال هو المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما لو شئت تحولت إعصاراً من نار فأحرقت كل شيء فقال إبليس فأت الإبل فاحرقها ورعاتها فانطلق يؤم الإبل وذلك حين وضعت رءوسها وثبتت في مراعيها فما يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ فيه رياح السموم لا يدنوا منها أحد إلا احترق فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها فلما فرغ منها تمثل إبليس على قعود منها في صورة راعيها ثم انطلق يؤم أيوب حتى وجده قائماً يصلي فقال له يا أيوب قال لبيك فقال هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته بإبلك ورعاتها فقال أيوب إنها ماله أعارنيها وهو أولى بها إن شاء تركها وإن شاء أخذها وقد تحققت وطابت النفس أني ومالي للفناء والزوال فقال له إبليس فإن ربك أرسل إليها ناراً من السماء فاحترقت كلها وصار الناس مبهوتين وقوفاً عليها يتعجبون منها فمنهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور ومنهم من كان يقول لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع وليه من حريق مواشيه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ما فعل

قشمت به عدوه وفجع به صديقه فقال أيوب الحمد لله الذى أعطانى وحيث شاء نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى القبر وعريانا أحشر إلى ربى ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعارك الله وتجزع حين قبض عاريته فهو أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصيرك شهيداً مع الشهداء ولكنه علم فيك شراً فأخرجك وخلصك من البلاء بخلاص الزوان من القمح الخالص فرجع إبليس إلى أصحابه خائباً ذليلا .

قال : وأيوب كلما انتهى إليه بهلاك مال من ماله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضى بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقى له مال فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينل منه شيئاً ولا نجح فى شىء من أفعاله شق عليه ذلك وصعد سريعاً ووقف الموقف الذى كان يقفه وقال إلهى إن أيوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده فأنت معطيه المال فهل أنت مسلطنى على ولده فإنها الفتنة المضلة والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم فقال الله تعالى له انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله حتى جاء بنى نبى الله أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزله حتى تداعى القصر من قواعده ثم جعل يناطح بجدار بعضها بعضاً فرماهم بالخشب والجندل حتى مثل بهم كل مثلة ثم رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكسين ثم إن إبليس انطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه فأخبروه بذلك وقال له يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلب بهم القصر وكيف نكسوا على رءوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وشفاههم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رق أيوب لذلك وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه فاغتنم إبليس الفرصة منه لذلك فصعد سريعاً بالذى كان من جزع أيوب مسروراً ثم لم يلبس أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته فبدروا إبليس وسبقوه إلى الله والله أعلم بما كان فوقف إبليس خاسئاً ذليلا فقال إلهى إنما هون على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك مهما متعته بنفسه وأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطنى على

نفسه وبدنه فإنى لك زعيم لئن ابتليته فى جسده لينسينك وليكفرن بك وليجحدن نعمتك ، فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله ، وكان والله أعلم به أنه لم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعاً فوجد أيوب ساجداً فعجل أن يرفع رأسه أتاه من قبل الأرض فى موضع وجهه ونفخ فى منخريه نفخة أشعل منها جسده فذهل وخرج به من قومه إلى ثآليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة لا يملكها ولا يتماسك عن حكها فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وأنتن ، فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشاً فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت افرائم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام ، وكانت تختلف إليه بما يصلحه وتكرمه فلما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو فى بلائه ، فبكتوه ولاموه وقالوا له تب إلى الله من الذنب الذى عوقبت به .

قال وكان حضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدقه فقال إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم احق بالكلام لأسنانكم ولكنكم قد تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الأمر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم ، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة ما انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض فى يومكم هذا ثم إنكم لم تعلموا ولا أطلعكم الله تعالى على أنه سخط شيئاً من أمره منذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا ولا علمتم أنه نزع منه شيئاً من الكرامة التى أكرمه الله بها ولا أن أيوب غير الحق فى طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا فإن كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ووضعه فى أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى النبيين والصديقين

والشهداء والصالحين ثم إن بلاءهم ليس دليلا على سخطه عليهم ولا هوانهم عليه ولكنه كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس هو من الله بهذه المنزلة إلا أنكم آخيتموه على وجه لصحبه لكان لا يحمل بالحكيم أن يعدل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر الله له ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول فقد كان لكم فى عظم الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عباداً أسكنتهم خشيته من غير عى ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء النبلاء الأولياء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاماً لله تعالى وإعزازاً وإجلالا فإذا استفاقوا استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة يعدون أنفسهم مع الخاطئين الصالحين وإنهم برآء ويعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين وإنهم لأكياس أقوياء وإنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال ، فهم مروعون مفزعون خاشعون مستكينون. فقال أيوب إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب المؤمن الكبير والصغير فتى نبتت فى القلب أظهرها الله تعالى على اللسان وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب ولا طول التجربة فإذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة ثم إن أيوب أقبل على الثلاثة وقال : أتيتمونى غضاباً رهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا كيف بكم لو قلت لكم تصدقوا عنى بأموالكم لعل الله يخلصنى وقربوا عنى قرباناً لعل الله يتقبلها ويرضى عنى وإنكم قد أعجبتم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم فبهنالكم بغيتم وتعززتم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوباً سترها الله عليكم بالعافية التى ألبستكم إياها وقد كنت فيما خلا الرجال توقرنى وأنا معروف كلامى معروف حقى منتصف من خصمى ؛ فأصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم فأنتم اليوم أشد على من مصيبتى. ثم أنه أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثاً متضرعاً إليه فقال : رب لأى شىء

خلقتني ليتني إذ كرهتني ما خلقتني يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي أو ليتني قد عرفت الذنب الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني وألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل لي يا إلهي ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً وللأرملة قيماً إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمنة لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء عرضاً وللفتنة نصباً لقــــد وقع علي بلاء لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي ، إلهي تقطعت أصابعي فإني لا أرفع الأكلة من الطعام إلا بيدي جميعاً فما يبلغان فمي إلا على الجهد مني ، إلهي تساقطت لهواتي ولحم رأسي فما بين أذني من سداد بل إحداهما ترى من الأخرى ، وإن دماغي ليسيل مني ، إلهي تساقط شعر عيني كأنما أحرق بالنار وجهي وحدقتاي متدليتان على خدي وورم لساني حتى ملأ فمي فما أدخل فيه طعاماً إلا غصني وورمت شفتاي حتى غطت العليا أنفي والسفلى ذقني وتقطعت أمعائي في بطني وإني لأدخل الطعام فيخرج كما دخل ما أحســـه ولا ينفعني وذهبت قوة رجلي فكأنهما قد يبستا ولا أطيق حملها وذهب المال فصرت أسأل بكفي ويطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة فيمن بها علي ويعيرني ، إلهي هلك أولادي ولو بقي واحد منهم أعانني على بلائي ونفعني ، وقد ملني أهلي وعقني أرحامي وتنكرت لي معارفي ؛ ورغب عني صديقي وقطعني أصحابي وجحدت حقــوقي ، ونسيت صنائعي ، أصرخ فلا يصرخونني ، وأعتذر فلا يعذرونني دعوت غلامي فلم يجبني وتضرعت لأمتي فلم ترحمني ، وإن قضاءك هو الذي أذلني وأدناني وأهانني وأقامني وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري فأطلق لساني لأتكلم بملء فمي ولو كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتخلى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه ، ولا نظر إلي فرحمني ولا دنا مني ولا أدناني فأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي ؛ فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظلته غمامة حتى ظن أصحابه أنه عذاب ثم نودي يا أيوب إن الله تعالى يقول لك ها أنا قد دنوت منك فلم أزل منك قريباً فقم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك .

وقال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك حكمى وسبقت رحمتى غضبى إذا أخطأت فقد غفرت لك ما قلت ورحمتك ورددت عليـــك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء ؛ وقرب عن أصحابك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك ؛ فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل ؛ فأذهب الله ما كان فيه البلاء ؛ ثم إنه خرج وجلس فأقبلت امرأته فقامت تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت متكدرة كالواهلة فمرت به فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا فقال لهـــا وهل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ فقالت نعم وكيف لا أعرفه فتبسم وقال ها أنا هو فعرفته لما ضحك فاعتنقته .

وقال كعب ـ كان أيوب فى بلائه سبع سنين ؛ وقال وهب لبث فى ذلك البلاء ثلاث سنين ولم يزد يوماً واحداً ؛ فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ولم يستطع له على شىء اعترض امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وجمال ؛ فقال لها أنت صاحبة أيوب المبتلى ؟ قالت نعم قال فهل تعرفينى ؟ قالت لا قال أنا إله الأرض وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت وذلك أنه عبد إله السماء وتركنى وأغضبنى ولو سجد سجدة واحدة رددت عليكما ما كان لكما من مال وولد فإنهم عندى ثم أراها إياهم فى بطن الوادى الذى لقيها فيه .

قال وهب ـ وقد سمعت أنه قال لها ـ لو أن صاحبك أكل طعاما لم يسم عليه لعوفى مما فيه من البلاء والله أعلم ؛ وأراد عدو الله يأتيه من قبلها ورأيت فى بعض الكتب أن إبليس قال لرحمة ؛ وإن شئت اسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد عليك الأولاد والمال وأعافى زوجك فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراد فقال لقد أراد عدو الله أن يفتنك عن دينك ثم أن أيوب أقسم إن عافاه الله ليضربنها مائة جلدة فقال عنـــد ذلك مسنى الضر من طمع إبليس فى سجود

حرمتى له ودعائه إياها وإياى إلى الكفر قالوا ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عنها وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ جماعة من الشجرة مبلغ مائة قضيب خفافاً لطافاً فيضربها ضربة واحدة كما قال تعالى (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) الآية .

وقد كانت امرأة أيوب تتكسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته ؛ فلما طال عليها البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد التمست يوماً من الأيام ماتطعمه فما وجدت شيئاً فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف وأتته به فقال لها أين قرنك ؟ فأخبرته فقال عند ذلك مسنى الضر ؛ وقيل إنما قال ذلك حين قصدت الدود قلبه ولسانه فخشى أن يعيا عن الذكر والفكر ؛ وقيل إنما قال ذلك حين وقعت الدود من فخذه فأخذها وردها إلى موضعها وقال لها كلى فقد جعلنى الله طعامك فعضته عضة زاد ألمه على جميع ما قاسى من عض الديدان .

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران على الدنو منه من نتن ريحه فقال أحدهما لصاحبه لو كان الله علم فى أيوب خيراً ما ابتلاه بما ترى .

قال فما وجع أيوب شيئاً كان اشد عليه من تلك الكلمة وما جزع من شىء أصابه جزعه من تلك الكلمة فعند ذلك قال مسنى الضر ثم قال اللهم إن كنت تعلم إنى لم أبت ليلة شبعان قط وأنا أعلم بما كان جائعاً فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ثم قال اللهم إن كنت تعلم إنى لم أتخذ قميصاً قط وأنا أعلم بما كان عرياناً فصدقنى فصدقه وهما يسمعان فخر ساجداً لله وقيل معناه مسنى الضر من شماتة الأعداء يدل عليه ما روى أنه قيل له بعد ما عوفى ما كان أشد عليك فى بلائك ؟ فقال شماتة الأعداء وأنشد بعضهم فى معناه :

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الحساد
إن المصائب تنقضى أيامها ... وشماتة الأعداء بالمرصاد

وقال الجنيد فى هذه الآية عرفه فاقة السؤال ليمن عليه بكرم النوال وذلك قوله تعالى (فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله) الآية .

واختلف العلماء فى كيفية ذلك ، فقال قوم لما ابتلى الله أيوب فى الدنيا مثل له أهله فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه فى الدنيا وإنما وعد الله أيوب أن يؤتيه إياهم فى الآخرة .

وقال وهب كان له سبع بنات وثلاث بنين ، وقال آخرون بل ردهم الله تعالى إليه بأعيانهم وأعطاه أهله ومثلهم معهم وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب قالوا أحياهم الله تعالى وآتاه مثلهم وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثا وتسعون سنة وأنه أوصى عند موته إلى إبنه حومل وأنه بعث بعده بشر بن أيوب نبياً وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده وأنه كان مقيماً بالشام طول عمره حتى مات وكان مبلغ عمره خمساً وتسعين سنة وأن بشراً أوصى إلى إبنه عبدان وأن الله تعالى بعث بعده شعيباً عليه السلام والله أعلم .

﴿ مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام ﴾

هذا المجلس يأتى بعد فى آخر الكتاب بعد قصة اليسع وما كتب هينا زيادة فى المجلس المذكور .

وروى الأعمش عن المنهال بن عمر عن عبد الله بن الحارث أن نبياً من الأنبياء قال من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟ فقام شاب فقال أنا فقال له اجلس ثم إنه أعاد مثل قوله الأول فقام ذلك الشاب فقال أنا فقال له اجلس ثم إنه أعاد قوله ثالثاً فقال الشاب أنا فقال له تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب فقال نعم فمات ذلك النبى فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس فكان لا يغضب فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يفطر فضرب الباب

ضرباً شديداً فقال من هذا ؟ فقال رجل له حاجة فأرسل إليه رجلا فقال لا أرضى بهذا الرجل فأرسل معه آخر فقال لا أرضى فخرج إليه فأخذ بيده وانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب فسمى ذا الكفل ؛ وقال بعضهم ذو الكفل بشر بن أيوب الصابر بعثه الله بعد أبيه رسولا إلى أرض الروم فآمنوا به وصدقوه واتبعوه ثم إن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا يا بشر إنا نحب الحياة ونكره الممات ؛ ومع ذلك نكره أن نعصى الله تعالى ورسوله ؛ فلو سألت الله أن يطيل أعمارنا ولا يميتنا إلا إذا شئنا لنعبده ونجاهد أعداءه فقال لهم بشر لقد سألتمونى عظيما وكلفتمونى شططاً ثم إنه قام وصلى ودعا وقال إلهى أمرتنى بتبليغ الرسالة فبلغتها وأمرتنى أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أنى لا أملك إلا نفسى وإن قومى قد سألونى فى ذلك ما أنت أعلم به منى فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى فأنا أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك قال فأوحى الله تعالى إليه ؛ يا بشر إنى سمعت مقالة قومك وإنى قد أعطيتهم ما سألونى طولت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاءوا فكن كفيلا لهم منى بذلك فبلغهم بشر رسالة الله وأخبرهم بما أوحى الله إليه وتكفل لهم بذلك كما أمر الله تعالى فسمى ذا الكفل .

ثم إنهم توالدوا ونموا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنغصت معيشتهم وتأذوا بكثرتهم فسألوا بشر أن يدعو الله أن يردهم إلى آجالهم فأوحى الله تعالى إلى بشر أما علم قومك أن اختيارى لهم خير من اختيارهم لأنفسهم ثم إنهم ردوا إلى أعمارهم فماتوا بآجالهم قال فلذلك كثرت الروم حتى يقال إن الدنيا دار هم خمسة أسداسها للروم وسموا روماً لأنهم نسبوا إلى جدهم روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام .

قال وهب وكان بشر بن أيوب المسمى ذا الكفل مقيما بالشام حتى مات وكان عمره خمساً وتسعين سنة والله أعلم .

(مجلس فى ذكر قصة شعيب النبي عليه السلام)

قال الله تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيباً) الآية اختلف العلماء فى نسب شعيب فقال أهل التوراة هو شعيب بن صيفوان بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم وقال محمد بن إسحق هو شعيب بن ميكائيل بن مدين بن إبراهيم إسمه بالسريانية بترون وأمه ميكيل إبنة لوط وكان شعيب عليه السلام أعمى فلذلك قوله تعالى إخباراً عن قومه (وإنا لنراك فينا ضعيفاً) أى ضريراً وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وأن الله تعالى بعثه نبياً إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة والأيكة الشجر الملتف .

وقال قتادة بعثه الله تعالى إلى أمتين - أهل مدين وأصحاب الأيكة .

قالوا وكان قوم شعيب أهل كفر بالله وبخس للناس وتطفيف فى المكاييل والموازين وكان الله قد وسع لهم فى الرزق وبسط لهم فى العيش استدراجاً منه فقال لهم شعيب (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان) الآية ونظيرها فى الأعراف (فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) الآية وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من قصد شعيباً ليؤمن به أنه كذاب فلا يفتنك عن دينك وكانوا يتواعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم .

قال السدى وأبو روق كانوا عشارين . وقال عبدالله بن زيد كانوا يقطعون الطريق ، وقال النبي ﷺ (رأيت ليلة أسرى بى خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب أحد إلا شقته ولا شىء إلا خرقته . فقلت ما هذا يا جبريل ؟ فقال هذه أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) الآية ، وكان من قول شعيب وجواب قومه إياه ما ذكر الله تعالى من سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء .

قال المفسرون ، وكان مما نهاهم عنه شعيب وعذبوا لأجله قطع الدنانير وذلك قوله تعالى (وقالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) وقوله تعالى

(إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعوه وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) سورة الشعراء .

قال ابن عباس رضى الله عنهما كان شعيب كثير الصلاة فلما كثر فسادهم وقل صلاحهم دعا عليهم فقال (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) فأجاب الله تعالى دعاءه فيهم فأهلكهم بالرجفة وهى الزلزلة عن الكلبي ويقال بالصيحة وبعذاب الظلة .

قال ابن عباس وغيره وهى أن الله تعالى فتح عليهم باباً من أبواب جهنم فأرسل عليهم برداً وحراً شديداً فأخذ بأنفسهم فدخلوا فى أجواف البيوت فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر فخرجوا هرباً إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم ووجدوا لها برداً وجاءت ريح طيبة فنادى بعضهم بعضاً فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقل فصاروا رماداً وذلك قوله تعالى (فأصبحوا فى دارهم جاثمين)

وقال تعالى (فأخذهم عـــذاب يوم الظلة إنه كان عـــذاب يوم عظيم) .

قال ابن عباس بلغنى أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهم لما رأى الظلة فيها العذاب اقشعر جلده وقال

يا قوم إن شعيباً مرسل فذروا عنكم شميرا وعمران بن شداد
إنى أرى غيمة يا قوم قد طلعت تدعو بصوت على حنانة الوادى
فإنه لن يرى فيها ضحاء غد إلا الرقيم يمشى بين أنجاد

وشمير وعمران كاهنان لهم والرقيم كلب لهم قال أبو عبد الله البجلى أبو جاد وحطى وهوز وكلمن وسعفص وقرشت أسماء ملوكهم وكان ملكهم يوم الظلة فى زمن شعيب كلمن فقالت أخت كلمن تبكيه حين هلك

كلمن هدد ركنى هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ ـحتف ناراً وسط ظله
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحله

قال الله تعالى (الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) أى لهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

(مجالس في ذكر صفي الله ونجيه موسى بن عمران عليه السلام وهو يشتمل على عدة أبواب)

(الباب الأول في ذكر نسب موسى عليه السلام)

قال الله تعالى (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً) وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام .

قال أهل العلم بأخبار الأولين وسير الماضين ولد ليعقوب لاوى وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ثم إن لاوى نكح نابتة بنت ماوى بن يشجب فولدت له غرسون ومرزى ومردى وقاهث ثم أن قاهث بعد أن مضى له من عمره ستة وأربعون سنة نكح فاهى بنت مبين بن تنويل بن إلياس فولدت له يصهر بن قاهث فنكح يصهر بن قاهث سميت بنت يتادم بن بركيا بن يشعان بن إبراهيم فولدت له عمران وقد مضى له من عمره ستون سنة وكان عمر يصهر مائة وسبعة وأربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نجيب بنت شمويل بن بركيا بن يشعان بن إبراهيم فولدت له هرون وموسى واختلف في إسم أمهما فقال ابن إسحاق نجيب وقيل ناحية وقيل يوحاييل وهو المشهور وكان عمر عمران مائة وسبعاً وثلاثين سنة وولد له موسى عليه السلام وقد مضى من عمره سبعون سنة والله أعلم .

(الباب الثاني في ذكر مولد موسى عليه السلام)

قال أهل التاريخ لما مات الريان بن الوليد فرعون مصر الأول صاحب يوسف عليه السلام وهو الذى ولى يوسف خزائن أرضه وأسلم على يده فلما مات ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف الثاني فدعاه يوسف إلى الإسلام فابى وكان جباراً وقبض الله على يوسف في ملكه وطال ملكه ثم هلك وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس بن الوليد بن مصعب بن الريان بن أراشة بن شروان بن عمرو ابن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وكان أغنى من قابوس وأكبر وأفجر وامتدت أيام ملكه وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام وقد انتشروا وكثروا وهم تحت العمالقة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحق وإبراهيم شرعوا فيه من الإسلام متمسكون به حتى كان فرعون

وموسى الذى بعثه الله إليه وقد ذكر إسمه ونسبه ولم يكن فيهم فرعون أعتى منه على الله ولا أعظم قولا ولا أقسى قلباً ولا أطول عمراً فى ملكه ولا أسوأ ملكاً لبنى إسرائيل وكان يعذبهم ويستعبدهم وجعلهم خدماً وخولا وصنفهم فى أعماله فصنف يبنون وصنف يحرثون وصنف يتولون الأعمال القذرة ومن لم يكن أهلا للعمل فعليه الجزية كما قال الله تعالى (يسومونكم سوء العذاب) وقد استنكح فرعون منهم امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم رضى الله عنها من خيار النساء المعدودات ويقال هى آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول فاسلمت على يد موسى .

قال مقاتل ، لم يسلم من أهل مصر إلا ثلاثة ، آسية وحزقيل ومريم بنت ناموسى التى دلت موسى على قبر يوسف عليهم السلام قالوا فعمر فرعون فيهم وهم تحت يده عمراً طويلا يقال إنه أربعمائة سنة يسومونهم سوء العذاب فلما أراد الله أن يفرج عنهم بعث موسى عليه السلام وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فاحرقتها واحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه فقالوا يولد فى بنى إسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك وقد أظلك زمانه الذى يولد فيأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل فجمع القوابل من النساء من أهل مملكته وقال لهن لا يسقط على أيديكن غلام من بنى إسرائيل إلا قتلته ولا جارية إلا تركتها ووكل بهن وكلاء فكن يفعلن ذلك .

قال مجاهد . لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق ثم يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض ثم يأتى بالحبالى من بنى إسرائيل فيوقفهن عليه فتجرح أقدامهن حتى إن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها فتظل تطؤه وتتقى به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها .

وكان يقتل الغلمان الذين فى وقته ويقتل من يولد بعدهم ويعذب الحبالى حتى يضعن ما فى بطونهن وأسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل فدخل رءوس القبط على فرعون وقالوا له إن الموت قد وقع فى مشايخ بنى إسرائيل وأنت صغارهم وتميت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون بذبح الولدان سنة وتركهم سنة فولدت هرون فى السنة التى لا يذبح فيها أحد فترك وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها قال فولدت هرون وأمه علانية آمنة .

فلما كان العام الذى أمر فيه بقتل الولدان حملت بموسى فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه واشتد غمها فأوحى الله تعالى إليها (أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه فى اليم) إلى قوله (المرسلين) فلما وضعته فى خفية أرضعته ، ثم إنها اتخذت له تابوتاً وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه .

قال مقاتل وكان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وقيل أنه كان من بردى فاتخذت أم موسى التابوت وجعلت فيه قطناً محلوجاً ووضعت فيه موسى وصرت رأسه ثم ألقته فى النيل فلما فعلت ذلك وتوارى عنها أتاها الشيطان فوسوس إليها فقالت فى نفسها لماذا صنعت يا بنى لو ذبح عندى لو رأيته وكفلته كان أحب إلى من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله إلى دواب البحر ثم عصمها الله تعالى وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هى مستقى جوارى فرعون وكان بالقرب منها نهر كبير فى دار فرعون داخل فى بستانه فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقين فوجدن التابوت فأخذنه وظن أن فيه مالا فحملنه على حالته حتى أدخلنه إلى آسيه فلما فتحته رأت فيه الغلام فالقى الله تعالى عليها محبة منه فرحمته آسية وأحبته حباً شديداً فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا على آسية بشفارهم ليذبحوا الصبى فقالت آسية للذباحين انصرفوا فإن هذا لا يزيد فى بنى إسرائيل فانا آتى فرعون وأستوهبه إياه فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وإن أمركم بذبحه فلا ألومكم ثم إنها أتت به فرعون وقالت (قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا) فقال فرعون قرة عين لك

ما انا فلا حاجة لى فيه قال رسول الله ﷺ « والذى يحلف به لو أقر فرعون ان يكون له قرة عين كما أقرت لهداه الله تعالى به كما هدى به امراته ولكن الله تعالى حرمه ذلك » قال فاراد ان يذبحه وقال إنى اخاف ان يكون هذا من بنى إسرائيل وان يكون هذا الذى هلاكنا على يده وزوال ملكنا فلم تزل آسية تكلمه حتى وهبه لها فلما آمنت آسية ارادت ان تسميه باسم اقتضاه حاله فسمته موسى لأنه وجد بين الماء والشجر وهو بلغة القبط هو الماء وشى للشجر فعرب فقيل موسى.

اخبرنا ابن فنجويه اخبرنا مخلد بن جعفر اخبرنا الحسن بن علوية اخبرنا إسماعيل بن عيسى اخبرنا ابن بشير اخبرنى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ووافق خيارهم اشرارهم ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب فذبحوا ابناءهم .

وفى بعض الروايات ، إنه كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب صغير فضرب به على راس فرعون فغضب غضباً شديداً وتطير منه وقال هذا عدوى المطلوب فارسل إلى الذباحين ليذبحوه فبلغ ذلك امرأة فرعون وقالت له ما بدا الك فى هذا الصبى الذى قد وهبته لى فاخبرها بما فعل موسى فقالت له إنما هو صبى لا يعقل وإنما صنع هذا من صباه وانا اجعل فيه بينى وبينك امر تعرف به الحق واضع له حلياً من الذهب والياقوت واضع له جمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وإن اخذ الجمرة علمت انه صبى ثم انها وضعت له طستاً فيه الذهب والياقوت وطستاً فيه الجمرة فمد موسى يده على ان ياخذ الجوهر ليقبض عليه فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمر فقبض على جمرة ووضعها فى فيه فجاء على لسانه فاحرقته وذلك الذى قال فى قوله تعالى (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى فقالت له آسية ألا ترى إلى فعله وانه صبى لا يعقل فكف عن قتله وصرف الله عنه ذلك السوء فلم يزل عزيزا مكرماً فى بيت فرعون وحببه الله إليه وإلى الناس كلهم حتى كان يحبه كل من يراه .

ويروى انه سئل إبليس هل أحببت أحداً من العالمين قال لا إلا موسى بن عمران عليه السلام فقيل له وكيف ذلك قال لأن الله تعالى قال (وألقيت عليك محبة منى) فلم أتمالك ان أحببته .

﴿ الباب الثالث فى ذكر حلية موسى بن عمران عليهما السلام ﴾

قال كعب الأحبار - كان هرون بن عمران نبى الله رجلا فصيح اللسان بين الكلام إذا تكلم تكلم بتؤدد وعلم وكان أطول من موسى وكان على رأسه شامة وعلى طرف لسانه أيضاً شامه سوداء وكان موسى بن عمران رجلا آدم اللون جعدا طويلا كأنه من رجال أزد شنوءة وكان بلسان موسى عقدة وثقل وسرعة وعجلة وكان ايضاً على طرف لسانه شامة سوداء .

(الباب الرابع فى قصة قتله القبطى وخروجه من مصر ووروده مدين)

قال أهل التفسير لما بلغ موسى بن عمران أشده كان يركب مراكب فرعون ويلبس مايلبس فرعون وكان يدعى موسى بن فرعون وامتنع به عن بنى إسرائيل كثير من الظلم والسخرة التى كانت فيهم ولا يعلم الناس أن ذلك إلا من قبل الرضاعة قالوا فركب فرعون ذات يوم مركباً وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل إن فرعون قد ركب فركب موسى فى أثره وأدركه المقيل بأرض يقال لها منف فدخلها نصف النهار وقد أغلقت أسواقها وليس فى طرقها أحد وهى التى قال تعالى فيها (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) فبينما هو يمشى فى ناحية المدينة إذ هو برجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من آل فرعون كما قال الله تعالى (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) الآية والذى من شيعته يقال له السامرى والذى من عدوه رجل من القبط كان خبازا لفرعون وإسمه فاتون وكان قد اشترى حطباً للمطبخ فسخر السامرى ليحمله

فامتنع السامرى فلما مر به موسى استغاثه السامرى على القبطى فقال موسى للقبطى دعه فقال الخباز لموسى إنما آخذه فى عمل أبيك وأبى أن يخل سبيله فغضب موسى فبطش به وخلص السامرى من يده فنازعه القبطى (فوكزه موسى فقضى عليه) قال موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عـــدو مضل مبين) ثم قال (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم)

وقال وهب : أوحى الله إلى موسى بن عمران وعزتى وجلالى : لو كانت النفس التى قتلت أقرت لى طرفة عين أنى إله خالق رازق لأذقتك طعم العذاب وإنما عفوت عنك لأنها لم تقر لى ساعة واحدة إنى إله خالق رازق قالوا ولما قتل موسى القبطى لم يرهما إلا الله تعالى والإسرائيلى فلما قتله أصبح فى المدينة خائفاً يترقب الأخبار فأتوا فرعون وقالوا له إن بنى إسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فى ذلك فقال فرعون ائتونى بقاتله ومن شهد عليه لأنه لا يستقيم أن يقضى بغير بينة ولا يثبت ملك على الأخذ بالظلم فاطلبوا ذلك فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلى يقاتل فرعونياً فاستغاثه الإسرائيلى على قتال الفرعونى فصادف موسى وهو نادم على ما كان منه بالأمس فكره الذى رآه فغضب موسى فمد يده وهو يريد أن يبطش بالفرعونى وقال للإسرائيلى (إنك لغوى مبين) ففر الإسرائيلى من موسى وظن أنه يبطش بالفرعونى وقال للأسرائيلى (إنك لغوى مبين) ففر الإسرائيلى من موسى وظن أنه يبطش به من أجل أنه أغاظ عليه فى الكلام وكان غضبان فلما أقبل لنصره ومد يده ظن أنه يريد قتله فقال له (ياموسى أتريد تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس) الآية إنما قال ذلك مخافة من موسى وظن أن يكون موسى أراده إنما أراد الفرعونى فتنازعا فذهب الفرعونى فأخبرهم بمـــا سمع من الإسرائيلى وذكر أن موسى هو الذى قتل الرجـــل بالأمس وهو المثل السائر ، العدو العاقل أحرى عليك من الصديق الأحمق وينشد فى معناه :

إن اللبيب إذا تزايد بغضه … أحرى عليك من الصديق الأحمق

قال فلما أخبر فرعون بذلك أرسل الذباحين وأمرهم بقتل موسى وقال لهم اطلبوه فإنه غلام لايهتدى إلى الطريق فطلب موسى فى ثنيات الطريق وكان موسى يسلك الطريق الأعظم فجاءه رجل من شيعته من أقصى المدينة يقال له حزقيل وكان بقية من دين إبراهيم وكان أول من صدق بموسى وآمن به .

ويروى عن النبى ﷺ إنه قال « سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب يس وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه بالجنة وهو أفضلهم » قال فجاء حزقيل مؤمن آل فرعون فأخبر موسى بما أمر به فرعون من قتله واختصر طريقاً قريباً حتى سبق الذباحين إليه فأخبره الخبر لذلك قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) فتحير موسى ولم يدر أين يذهب فجاء ملك على فرس بيده عنزة فقال له اتبعنى فاتبعه فهداه الطريق إلى مدين .

وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما مسيرة ثمان ليال ويقال نحو من الكوفة إلى البصرة فلم يكن له طعام إلا ورق الشجر فما وصل إليها إلا وقد وقع خف قدمه وإن خضرة البقول لترى من بطنه .

﴿ الباب الخامس فى دخول موسى مدين وتزويج شعيب إبنته إياه ﴾

قال العلماء : لما انتهى موسى إلى أرض مدين فى ثمان ليال نزل فى أصل شجرة وإذا تحتها بئر وهى التى قال الله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونها امرأتين تذودان) أى تحبسان أغنامهما فقال لهما (ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء) لأننا امرأتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرعاء فاذا سقوا مواشيهم سقينا أغنامنا من فضول حاجتهم ومايبقى من حياضهم (وأبونا شيخ كبير) تعنيان شعيباً .

وروى حماد بن سلمة عن أبى حمزة عن ابن عباس قال اسم أبى امرأة موسى الذى استأجره ثيرون صاحب مدين ابن أخى شعيب النبى عليه السلام وإسم إحدى

الجاريتين ليا ويقال حنونا والأخرى صفورا وهى امرأة موسى عليه السلام فلما قالتا ذلك لموسى رحمهما وكان هناك بئر على رأسها صخرة عظيمة وكان النفر من الرجال يجتمعون إليها حتى يرفعوها عن رأسها .

وحكى الأستاذ أبو سعيد عبد الملك بن أبى عثمان الواعظ أن تلك البئر غير التى تسقى منها الرعاة وقد حضرتها ورأيتها قال فرفع موسى الصخرة عن رأسها وأخذ دلواً لهما وقال لهما قدما غنمكما فسقى لهما أغنامهما حتى أرواها فرجعتا إلى ابيهما سريعاً قبل الناس وتولى موسى إلى الظل ظل الشجرة (وقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) قال ابن عباس لقد قال ذلك موسى ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع لنظرها وما سأل الله تعالى إلا أكلة. وقال أبو جعفر محمد الباقر لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة قالوا فلما رجعتا إلى أبيهما قال لهما ما أعجلكما وأسرع رواحكما الليلة قالتا وجدنا رجلا صالحاً فرحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما اذهبى فادعيه إلى (فجاءته إحداهما) وهى التى تزوجها موسى وهى (تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) فقام موسى فقدمته وهو يليها أى يتبعها فهبت ريح فالصقت ثوب المرأة بردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها امشى خلفى ودليني على الطريق فإذا أخطأت فارمى قدامى بحصاة حتى أنهج نهجاً فإنا بنى يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء فنعتت له الطريق إلى منزل أبيها ومشت خلفه حتى دخل على شعيب فسأل شعيب موسى عن حاله وقصته فاخبره الخبر فقال له (لا تخف نجوت من القوم الظالمين فقالت إحداهما) وهى التى كانت الرسول إلى موسى (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) .

قال النبى ﷺ أصدق النساء فراسة امرأتان كلتاهما تفرستا فى موسى فأصابتا إحداهما امرأة فرعون حين قالت قرة عين لى ولك لا تقتلوه والأخرى بنت شعيب حيث قالت (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) وإنما قالت القوى الأمين لأنه أزال الحجر العظيم الذى لا يرفعه إلا أربعون رجلا ، فقال لها أبوها

كيف أنك عرفت قوته فما أعلمك بأمانته فأخبرته بما أمرها موسى من استدبارها إياه فى الطريق فازداد فيه شعيب رغبة فقال له (إنى أريد ان أنكحك إحدى إبنتى هاتين على أن تأجرنى ثمان حجج) إلى قوله (من الصالحين) أى فى حسن الصحبة معك والوفاء بشرطك فقال موسى (ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت) الآية.

روى عن رسول الله ﷺ أنه سئل : أى الأجلين قضى موسى قال : أكملهما وأفضلهما وروى أنه قال قضى أوفاهما وتزوج بصغراهما .

(الباب السادس فى ذكر نعت عصا موسى وبدء أمرها)

اختلف العلماء فى اسمها والمنافع التى كانت فيها وماظهر من دلالة قدرة الله فيها قالوا ثم أن شعيباً أمر إبنته أن تأتيه بعصا فيعطيها لموسى فيستعين بها فى رعايته فجاءته بعصا وكانت تلك العصا وديعة عنده ودفعها إليه ملك على صورة رجل فردها عليها شعيب وأمرها أن تأتيه بعصا أخرى فما زالت ترجع وتأتيه بها بعينها لأنها كانت كلما ردتها إلى مكانها وأرادت أن تأخذ غيرها سقطت هى فى يدها فما زالت كذلك حتى أخذها شعيب وأعطاها لموسى فلما أعطاه إياه ندم على ذلك لأنها كانت وديعة عنده فقال له شعيب رد على العصا فأبى أن يردها عليه فتنازعا إلى أن شرطا على أنفسهما أن يرتضيا حكم أول رجل يدخل عليهما فأتاهما ملك يمشى فتحا كما إليه فقال ضعها على الأرض فمن حملها فهى له ووضعها موسى على الأرض فعالجها الشيخ فلم يطق حملها فأخذها موسى وقال لبث موسى عند شعيب ماشاء الله ثم استأذنه فى الإنصراف فأذن له وقال له : ادخل هذا البيت وخذ عصى من العصى تكون معك ادرأ بها السباع عنك وعن غنمك وكانت عصى الأنبياء عند شعيب فلما دخل موسى تدلت ووثبت إليه العصا فصارت فى يده فخرج بها فقال شعيب ردها وخذ غيرها وذلك أن شعيباً كان أخبر بأمر العصا ولم يدر شعيب أن صاحبها هو موسى فردها موسى إلى البيت فألقاها وذهب ليأخذ غيرها فوثبت حتى صارت فى يده ففعل ذلك مراراً فقال له شعيب ألم أقل

لك خذ غيرها فقال موسى قد رددتها مرات فكلما فعلت ذلك وثبت حتى تصير في يدى فعلم شعيب أن ذلك أمر يريده الله تعالى فقال له خذها .

قالوا ؛ وزوجه إبنته ورعى له موسى عشر سنين وولد لموسى أولاد من إبنه شعيب قالوا لما خرج موسى من مدين ووافى مصر كان شعيب يزوره فى كل سنة فإذا أ كل قام موسى على رأسه ثم يكسر له الخبز ويلقيه بين يديه ويقول له كل

﴿ الباب السابع فى صفة المآرب التى كانت فيها لموسى ﴾

قال أهل العلم بأخبار الماضين كان لعصا موسى شعبتان ومحجن فى أسفل الشعبتين وسنان حديد فى أسفلها وكان موسى إذا دخل مفازة ليلا ولم يكن قمر تضىء شعبتاها كالشمعتين من نار تضيئان له مد البصر وكان إذا أعوزه الماء دلاها فى البئر فتمتد على قدر قعر البئر ويصير فى راسها شبه الدلو فيستقى بها وإذا احتاج الطعام ضرب الأرض بها فيخرج ما يأ كل يومه وكان إذا اشتهى فاكهة من الفواكه غرسها فى الأرض فتخرج أغصان تلك الشجرة التى اشتهى موسى فاكهتها وأثمرت له ساعتها ويقال كانت عصا موسى من اللوز وكان إذا جاع ركزها فى الأرض فاورقت وأثمرت وأطعمت وكان يأ كل منها اللوز وكان إذا قابل بها عدوه يظهر على شعبتيها تنينان يقاتلان وكان يضرب بها على الجبـــل الوعر الصعب المرتقى وعلى الحجر والشوك فتفرج له الطريق وكان إذا أراد عبور نهر من الأنهار بلا سفينة ضرب بها عليه فانفلق وبدا له فيه طريق منفرج وكان يشرب من إحدى شعبتيها العسل ومن الأخرى اللبن وكان إذا أعيا فى طريقه ركبها فتحمله إلى أى موضع شاء من غير ركض ولا تحريك وكانت تدله على الطريق وكانت تقاتل أعداءه عنه وكان إذا طلب منها الطيب فاح منها الطيب فيتطيب ويطيب ثوبه وإذا كان فى طريق فيه لصوص يخاف الناس جانبهم تكلمه العصا فتقول له خذ جانب كذا وكذا ولا تأخذ حيث كذا وكذا وكان يهش بها على غنمه ويدفع بها السباع عنها والحشرات والحيات

وإذا سافر وضعها على عاتقه وعلق عليها جهازه ومتاعه ومخلاته ومقلاعه وكساءه وطعامه وشرابه .

قال ابن حبان قال شعيب لموسى حين زوجه إبنته وسلم اليه أغنامه يرعاها اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولاتأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر فإن هناك تنيناً عظيما أخشى عليك وعلى الأغنام منه فذهب موسى بالأغنام حتى إذا بلغ مفرق الطرق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى ان يصرفها ذات الشمال فلم تطعه فخلاها على ماتريد ثم نام موسى والأغنام ترعى وإذا التنين قد جاء فقامت العصا فحاربته فقتلته وأتت فاستلقت إلى جانب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى رأى العصا دامية والتنين مقتولا فعلم موسى أن فى تلك العصا قدرة وعرف أن لها شأناً فهذه مآرب موسى إذا كانت فى يده . وأما إذا ألقاها فيرى أنها كانت تنقلب حية كأعظم ما يكون من الثعابين سوداء مدلهمة تدب على أربع قوائم فتصير شعبتاها فماً وفيه إثناعشر ناباً وضرساً ولها صريف وضرير يخرج منها لهيب النار ويصير محجنها عرقاً لها كأمثال النار تلتهب وعيناها تلمعان كما يلمع البرق تهب منها رياح السموم فلا تصيب شيئاً إلا أحرقته .

تمر بالصخرة مثل الناقة الكوماء فتبتلعها حتى أن الصخور فى جوفها لتقعقع وتمر بالشجر فتقصمها بأنيابها وتحطمها وتبتلعها وجعلت تتلبط وتتبرم كأنها تتطلب شيئاً تأكله وكانت تكون فى عظم الثعبان وفى خفة الجان ولين الحية وذلك موافق لنص القرآن حيث يقول الله تعالى فى موضع (فإذا هى ثعبان مبين) وفى موضع آخر : (كأنها جان) وفى موضع آخر . (فإذا هى حية تسعى) .

﴿ الباب الثامن فى ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين ﴾
وتكليم الله إياه فى الطريق وإرساله إلى فرعون واستغاثته بأخيه هرون
وكيفية ذهابهما إلى فرعون لتبليغه الرسالة

قال الله عز وجل (فلما قضى موسى الأجل) الآية قالت العلماء بسير الأنبياء لما ورد موسى أرض مدين وأتى عليه من يوم وروده تسع سنين قال له شعيب إنى وهبت لك كل بلقاء وأبلق من نتاج أغنامى التى تضعها فى هذه السنة يعنى السنة العاشرة أراد بذلك مبرة موسى وصلة إبنته صفورا امرأة موسى ، قال فأوحى الله إلى موسى ان اضرب بعصاك الماء فى مستقى الأغنام ففعل موسى ذلك ثم سقى الأغنام من ذلك الماء ما أخطات واحدة من تلك الأغنام إلا وضعت حملها مرتين ما بين أبلق وبلقاء ، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وأهله فوفى موسى بشرطه وسلم إليه الأغنام التى وهبها منه وقضى موسى أتم الأجلين واوفاهما (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله) منفصلا عن أرض مدين وكان فى أيام الشتاء ومعه امرأته وأغنامه وهى فى شهرها لا تدرى أتضع ليلا أو نهاراً فانطلق فى برية الشام عادلا عن المدائن والعمران مخافة الملوك الذين كانوا بالشام وكان أكبر همه يومئذ طلب أخيه هرون وإخراجه من مصر إن استطاع إليه سبيلا فسار موسى فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربى فى عشيا شاتية شديدة البرد وأظلم الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر وأخذ امرأته الطلق فعمد موسى إلى زنده فقدحه فلم ينور فتحير وقام وقعد إذ لم يكن له عهد بمثل ذلك فى الزند وأخذ يتأمل ماقرب وما بعد تحيراً وضجراً ثم أخذ يتسمع طويلا هل يتسمع حساً أو حركة فبينما هو كذلك إذا آنس من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً (فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) يعنى من يدلنى على الطريق وكان قد ضل الطريق فلما أتاها رأى نورا عظيما ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك واختلفوا فى تلك الشجرة ما كانت فقيل العوسجة وقيل العناب فتحير موسى وارتعدت فرائصه حيث رأى نارا عظيمة ليس

لها دخان وهى تلتهب وتشتعل فى جوف شجرة خضراء لاتزداد النار إلا عظماً ولاتزداد الشجرة إلا خضرة فلما دنا موسى منها استأخرت عنه فلما رآى ذلك رجع عنها وخاف ثم ذكر حاجته إلى النار فرجع إليها ودنت منه فنودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة (أن يا موسى) فنظر فلم يرى أحد فنودى (إنى أنا الله رب العالمين) فلما سمع ذلك علم أنه ربه تعالى فناداه ربه أن ادن وأقرب فلما قرب وسمع النداء ورأى تلك الهيبة خفق قلبه وكل لسانه وضعفت بينته وصار حياً كميت إلا أن روح الحياة تتردد فيه من غير حراك وأرسل إليه ملكا يشد ظهره ويقوى قلبه فلما ثاب إليه عقله نودى (فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى) وكان السبب فى أمره بخلع نعليه ما أخبرنا حامد بن عبد الله الأصبهانى قال حدثنا يحى السدى قال حدثنا أحمد بن بجدة قال حدثنا الجمالى قال حدثنا عيسى بن يونس عن حميد عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ فى قوله فاخلع نعليك قال (كانتا من جلد حمار ميت) وفى بعض الأخبار غير مدبوغ ،

وقال مجاهد وعكرمة إنما قال (فاخلع نعليك) كى تمس راحة قدميه الأرض الطيبة فتناله بركتها لأنها قدست مرتين ، وقال سعيد بن جبير إنما قال له ذلك لأن الحفوة من أمارات التواضع والاحترام فقيل له طأ الأرض حافياً كما تدخل الكعبة لتحصل على بركة الوادى ، وقال أهل الإشارة النعل عبارة عن المرأة وذلك تأويله فى المنام فقيل له فرغ قلبك من شغل أهلك ، ثم قال تعالى سكيناً لقلبه وإذهاباً لدهشته (وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى) الآية فقال الله تعالى (ألقها ياموسى فألقاها فإذا هى حية تسعى) قد صارت شعبتاها فما وعجزها عرفاً لها فى ظهرها وهى تهتز لها أنياب وهى كما شاء الله ان تكون فرأى موسى أمرا فظيعاً فولى موسى مدبراً ولم يعقب فناداه ربه تعالى أن (ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) (سنعيدها سيرتها الأولى) أى نردها عصا كما كانت ويقال إن الحكمة فى أمر الله تعالى إياه بالقاء العصا قبل أن يصل إلى فرعون لكيلا يفزع منها موسى إذا رآها على تلك الحالة عند فرعون فلما أقبل موسى قال له خذها إذ كانت عصا ولا تخف لأنه كان ادعى الملك فقال هى عصاى فنبه على ذلك . وكان على موسى جبة من صوف

فلف كمه على يده وهو لها هائب فنودى أن أحسر يدك فحسر كمه على يده ثم أدخل يده تحت جيبها فلما أدخل يده قبض فإذا هى عصاة فى يده ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها ثم قال له (أدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى)

قالوا ولما صعد موسى الجبل لمناجاة الله تعالى صار الجبل عقيقاً فلما نزل موسى عنه عاد إلى حالته الأولى فلما رجع موسى شيعته الملائكة وكان قلب موسى مشغولا بولده وأراد أن يختنه فأمر الله تعالى ملكاً فمد يده ولم تزل قدمه عن موضعها حتى جاء به الملك ملفوفاً فى خرقة وناوله إلى موسى فأخذ حجرين فحك أحدهما بالآخر حتى حدده كالسكين من الحديد فختن به إبنه ثم إن الملك عالج المقطوع من المختون فتفل فيه فبرأ من ساعته بإذن الله تعالى ثم أن الملك رده إلى موضعه الذى جاء منه ولم يزل أهل موسى مقيمين فى ذلك المكان لا يدرون مافعل موسى حتى مر بهم راع من أهل مدين فعرفهم فاحتملهم وردهم إلى مدين فكانوا عند شعيب حتى بلغهم خبر موسى بعد مافلق البحر وجاوزه ببنى إسرائيل وأغرق الله فرعون فبعث بهم شعيب إلى مصر لموسى ، قالوا وخرج موسى من فوره لما بعثه الله إلى مصر لا علم له بالطريق ، وكان الله تعالى يهديه ويدله وليس معه زاد ولا سلاح ولا حمولة ولا صاحب له ولا شىء من الأشياء غير العصا ومدرعة من صوف وقلنسوة صوف ونعلين وكان يظل صائماً ويبيت قائماً ويستعين بالصيد ويقول الأرض حتى ورد مصر فلما قرب من مصر أوحى الله تعالى إليه لا تخف ولا تجزع ثم أوحى الله تعالى إلى أخيه هرون يبشره بقدوم موسى ويخبره أنه قد جعله وزيراً له ورسولا معه إلى فرعون وأمره أن يمر يوم السبت غرة ذى الحجة متنكراً إلى شاطىء النيل ليلتقى بموسى تلك الساعة ، قال فخرج هارون وأقبل موسى فالتقيا على شاطىء النيل قبل طلوع الشمس ، ثم إن موسى وهرون انطلقا فى تلك الغيضة حتى وصلا إلى باب المدينة الأعظم الذى هو أقرب أبوابها إلى منزل فرعون وكان منه يدخل ويخرج وذلك ليلة الإثنين بعد هلال ذى الحجة بيوم فأقاما عليه سبعة أيام فكلمهما واحد من الحراس وقال لهما أتدريان لمن هذا الباب ؟ فقال موسى إن هذا الباب

والأرض كلها وما فيها لرب العالمين وأهلها عبيد له فسمع ذلك الرجل كلاماً ولم سمع مثله قط ولم يظن أحد من العالمين يفصح بمثله فلما سمع الرجل ماسمع أسرع إلى كبرائه الذين فوقه وقال لهم سمعت اليوم قولا وعاينت عجباً من رجلين هما عندى أعظم وأشنع وأفظع مما أصابنا فى الأسد وما كانا يقدران أن يقدما على ماقدما عليه بسر عظيم وأخبرهم بالقصة ، فلم يزل ذلك الخبر يتداول بينهم حتى انتهى إلى فرعون .

قال السدى بإسناده سار موسى بأهله نحو مصر حتى أتاها ليلا فتضيف أمه وهى لاتعرفه فأتاها فى ليلة كانوا يأكلون الطفيل فنزل فى جانب الدار فجاء هرون (فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فاخبرته أنه ضيفه فدعاه فأكل معه) فلما قعدا وتحدثا سأله هرون من أنت ؟ فقال أنا موسى فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه فلما تعارفا قال له موسى ياهرون انطلق معى إلى فرعون فإن الله تعالى قد ارسلنا إليه فقال هرون سمعاً وطاعة فقامت أمهما وصاحت وضجت وقالت أنشدكما الله أن لاتذهبا إلى فرعون فيقتلكما فأبيا عليها ومضيا لأمر الله تعالى فانطلقا إليه ليلا فأتيا الباب والتمسا الدخول عليه ليلا فقرعا الباب ففزع فرعون وفزع البواب فقال فرعون من هذا الذى يضرب بابى فى هذه الساعة فاشرف عليهما البواب وكلمهما فقال له موسى إنى أنا رسول رب العالمين ففزع البواب وأتى فرعون وأخبره بما سمع وقال له ، إن هنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين .

قال ابن إسحق خرج موسى لما بعثه الله تعالى حين قدم مصر على باب فرعون هو وأخوه هرون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان ـ إنا رسول رب العالمين ، فمكثا نحو سنتين يغدوان إلى بابه ويروحان وفرعون لايعلم بهما ولا يجترىء أحد أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطل يلعب معه ويضحكه فقال أيها الملك ، إن على بابك رجلين يقولان قولا عجيباً يزعمان أن لهما إلهاً غيرك . فقال فرعون دخلوهما فأدخل موسى ومعه هرون عليهما السلام .

(الباب التاسع فى ذكر دخول موسى وهرون على فرعون)

قال الله تعالى (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) وقال تعالى : (فقولا قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) .

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى فى هذه الآية قال قال لهما اعذرا إليه لعله يتذكر أو يخشى فقولا له إن لك رباً ومعاداً وإن بين يديك جنة وناراً لعله عند ذلك يتذكر أو يخشى وعيدكما ، وهو عندى لا يتذكر ولا يخشى قال لكيلا يقول أهلكته قبل أن أعذر إليه . قال فلما أذن فرعون لموسى وهرون دخلا عليه فلما وقف عنده دعا موسى بدعاء وهو لا إله إلا الله الحليم الكبير، لا إله إلا الله العلى العظيم ؛ سبحان رب السموات والأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، اللهم إنى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره وأستعين بك عليه فاكفنيه بما شئت قال فتحول مافى قلب موسى من الخوف أمناً ؛ وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو خائف أمن الله خوفه ونفس الله كربته وهون عليه سكرات الموت ثم أن فرعون قال لموسى من أنت ؟ فقال أنا رسول رب العالمين فتأمله فرعون فقال له (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين) معنا على ديننا هذا الذى هو الآن تعيبه قال موسى (فعلتها إذاً وأنا من الضالين) أى من المخطئين ولم أرد بذلك القتل (ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) ثم أقبل موسى ينكر عليه ماذكره له من يده عليه فقال (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى اتخذتهم عبيداً تنتزع أبناءهم من أيديهم فتسترق من شئت وتقتل من شئت أى إنما صيرنى إليك ذلك (قال فرعون ومارب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) قال فرعون (لمن حوله) من ملئه (ألا تستمعون) ؟ إنكاراً لما قال موسى ربكم ورب آبائكم الأولين (قال) فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) يعنى ماهذا بكلام رجل صحيح العقل إذ يزعم أن لكم إلهاً غيرى (قال) موسى (رب المشرق والمغرب وما بينهم إن كنتم تعقلون) ثم قال فرعون لموسى (لئن اتخذت

إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ٭ قال أولو جئتك بشىء مبين)تعرف به صدقى وكذبك وحقى وباطلك (قال فرعون (فأت به إن كنت من الصادقين فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) فاتحة فاها قد ملأت ما بين جانبى القصر واضعة لحييها الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر حتى رأى بعض من كان خارجاً من مدينة مصر رأسها ثم توجهت لنحو فرعون تأخذه فانفض منها الناس ، وذعر منها فرعون ووثب عن سريره وأحدث حتى قام من بطنه فى يومه ذلك أربعين مرة وكان فيما يزعمون لا يسعل ولا يتمخط ولا يتصدع رأسه ولا تصيبه آفة مما يصيبه الناس

قالوا فلما قصدته الحية صاح ياموسى أنشدك الله وحرمة الرضاع إلا ما أخذت وأمسكتها عنى وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى فعادتها عصا كما كانت ، ثم إن موسى نزع يده من جيبه فأخرجها فقال له فرعون هذه يدك فما فيها فأدخلها موسى فى جيبه ثم أخرجها ولها نور ساطع فى السماء تكل عنه الأبصار قد أضاء ما حولها ودخل ضوؤها البيوت ورؤى من الكوى ومن وراء الحجب فلم يستطع فرعون النظر إليها ثم ردها موسى إلى جيبه ثم أخرجها فإذا هى على لونها الأول . قالوا فهم فرعون بتصديقه فقام إليه هامان وجلس بين يديه ، ثم إنه قال بينما أنت إله تعبد إذ أنت تابع لعبد ، فقال فرعون لموسى مهلنى اليوم وغداً فأوحى الله لموسى أن قل لفرعون إنك إن آمنت بالله وحده عمرتك فى ملكك ورددتك شاباً طرباً فاستنظره فرعون فلما كان من الغد دخل إليه هامان وقال له والله مايعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوماً واحداً ونفخ فى منخره ثم قال هامان أنا أردك شاباً فاتى بالوشم فخضبه فهو أول من خضب بالسود فلذلك كرهه ﷺ ونهى عنه فلما دخل عليه موسى ورآه على تلك الحالة هاله ذلك فاوحى الله تعالى إليه لا يهولنك ما رأيت فإنه لن يلبث إلا قليلا حتى يعود إلى حالته الأولى .

وفى بعض الروايات أن موسى وهرون لما انصرفا من عند فرعون أصابهما مطر فى الطريق فأتيا على عجوز من أقرباء أمهما وكان فرعون وجه الطلب فى أثرهما فلما دخل عليهما الليل ناما فى دارها وجاء الطلب إلى الباب والعجوز منتبهة فلما أحست بهما خافت عليهما فخرجت العصا من جانب الباب والعجوز تنظر إليها فقاتلتهم فقتلت منهم سبعة أنفس ثم عادت ودخلت الدار فلما انتبه موسى وهرون أخبرتهما وآمنت

(الباب العاشر فى قصة موسى وهرون مع فرعون والسحرة)
(وخروجهم يوم الزينة إلى الفضاء للمغالبة)

قالت العلماء بأخبار الأنبياء إن موسى وهرون عليهما السلام وضع فرعون مرهما وما أنبأه من سلطان الله تعالى على السحر فقال الملأ حوله إن هذان الساحران عليمان فماذا تأمرون ؟ قالوا اقتلهما فقال العبد الصالح حزقيل مؤمن آل فرعون (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) إلى قوله تعالى (سبيل الرشاد) وقال الملأ من قوم فرعون أرجئه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم وكانت لفرعون مدائن فيها سحرة معدة للأمر إذا حزبه .

فلما اجتمع السحرة والناس جاء موسى متكئاً على عصاه ومعه أخوه هرون حتى أتيا المجتمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم (ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) فتناجوا فيما بينهم فقال بعضهم لبعض ماهذا يقول ساحر فذلك قوله تعالى (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) فقالت السحرة لنأتينك اليوم بسحر لم تر مثله (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) وكانوا قد جاءوا بالعصى والحبال يحملها ستون بعيراً فلما أبوا إلا الإصرار على السحر قالوا لموسى (إما أن تلقى وأما أن نكون نحن الملقين) قال لهم موسى بل ألقوا انتم حبالكم وعصيكم فألقوا فإذا هما حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضاً تسعى فذلك قوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) إلى قوله (خيفة موسى) فقال موسى إنها كانت لعصايا فى أيديهم ولقد عادت حيات وما عصاى هذه ؛ فلما حدث نفسه بذلك أوحى الله إليه (لا تخف إنك أنت الأعلى وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) ففرح موسى ثم إنه ألقى عصاه من يده فإذا هى ثعبان مبين كأعظم مايكون من الثعابين اسود مدلهم يدب على أربع قوائم فصار غلاظ شداد وهو أعظم وأطول من بختى عظيم وله ذنب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعقله وكاهله لايضرب بذنبه على شىء إلا حطمه وقصمه ويكسر بقوائمه الصخر الصم الصلاب ويطحن كل شىء ويصرم الحيطان والبيوت نفسه نار ؛ وله

عينان تلتهبان ناراً ومنخراه ينفخان سموماً وعلى معرفته شعر كأمثال الرياح وصارت الشعبتان له فما سعته إثنا عشر ذراعا وفيه أنياب وأضراس لها فحيح وكشيش وصريف وصرير فاستعرضت ما ألقت السحرة من حبالهم وعصيهم وهى تخيل فى أعين الناس وعين فرعون وإنها تسعى فجعلت تلقفها وتبلعها واحداً واحداً حتى لم ير فى الوادى لا قليلا ولا كثيراً مما ألقوا وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين فتزاحموا وتضاغطوا ووطىء بعضهم بعضاً حتى مات منهم يومئذ فى ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفاً وانهزم فرعون فيمن انهزم منخوفاً مرعوباً ذاهباً عقله ، وقد استطلق عليه بطنه من يومه ذلك أربعمائة مرة فصار يحصل له ذلك أربعين مرة فى كل يوم وليلة على الدوام إلى أن هلك فلما انهزم الناس وعاين السحرة ما عاينوا قال لبعضهم لو كان ساحراً ما علينا ولا تخفى علينا أمره ولو كان سحرا فأين حبالنا وعصينا (فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون وكان فيهما اثنان وسبعون شيخاً قد انحنت ظهورهم من الكبر وكانوا علماء ورؤساء وكان رءوس السحرة خمسة نفر سابورا وغادر وحفظ وخطط ومصفاء وهم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله تعالى فلما رأى فرعون ذلك أسف وقال لهم متجلدة (آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) إلى قوله تعالى (أشد عذاباً وأبقى قالوا نؤثرك على ما جاءنا من البينات) الآية فقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل وهو أول من فعل ذلك فأصبحوا سحراً كفر : وأمسوا شهداء بررة ورجع فرعون مغلوباً مهزوماً مكسوراً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عليه الآية وأخذه وقومه بالسنين إلى أن أهلكهم ثم إن موسى عاد راجعاً إلى قومه والعصا على حالها حية تتبعه وتبصبص حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألوف بصاحبه والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها وقد ماتوا رعباً فلم تزل العصا على هيئة الحية والناس يتحدثون وينظرون إليها ويتصاعقون ويتضاغطون حتى دخل موسى عليه السلام عسكر بنى إسرائيل فأخذ برأسها فإذا هى عصا كما كانت أول مرة وشتت الله على فرعون أمره ولم يجد إلى موسى سبيلا واعتزل موسى مدينته ولحق بقومه وعسكره وكانوا مجتمعين إلى أن صاروا ظافرين .

﴿ الباب الحادى عشر فى قصة حزقيل مؤمن آل فرعون ﴾
(وامرأته ومقتله وأولاده رضى الله عنهم أجمعين)

قالت الرواة : كان حزقيل من أصحاب فرعون نجاراً وهو الذى صنع لأم موسى التابوت حين ولدته وألقته فى البحر . وقيل إنه كان خازناً لفرعون وقد خزن له مائة سنة وكان مؤمناً مخلصاً يكتم إيمانه إلى أن ظهر موسى على السحرة فأظهر حزقيل أمره فأخذه يومئذ وقتل مع السحرة صلباً وهو الذى ذكره الله فى القرآن قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه)وقال رسول الله ﷺ سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حبيب النجار مؤمن آل يس وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلى مؤمن آل محمد ﷺ وهو أفضلهم . وأما امرأة حزقيل فإنها كانت ماشطة بنات فرعون وكانت مؤمنة من إماء الله الصالحات لا إ ٫ا كانت مع بنات فرعون تخدمهن وكانت من قصتها ما أخبرنا به بالأسانيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال (لما أسرى بى مررت برائحة طيبة فقلت لجبريل عليه السلام ماهذه الرائحة : قال هذه ماشطة آل فرعون وأولادها كانت تمشط ذات يوم بنت فرعون فوقع المشط من يديها فقالت بسم الله فقالت بنت فرعون أبى ؟ قالت لا بل ربى ورب أبيك فقالت لها لأخبرن بذلك أبى فلما أخبرته دعا بها وبولدها وقال لها من ربك ؟ فقالت إن ربى وربك الله فأمر بتنور من نحاس فاحمر وأمر بها وبولدها ان يلقوا فيه فقالت له إن لى إليك حاجة فقال وماهى قالت تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها قال ولك ذلك لما لك علينا من الحق ثم أمر بأولادها فألقوا واحداً واحداً فى التنور حتى إذا كانت آخر أولادها ولداً صبياً رضيعا فقال اصبرى ياأماه فإنك على الحق فألقيت فى التنور مع ولدها .

فسئل ابن عباس فيمن تكلم فى المهد فقال : تكلم فى المهد أربعة ؛ عيسى بن مريم وشاهد يوسف وصاحب جريج وهذا الصبى .

﴿ الباب الثانى عشر فى ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ﴾
(ومقتلها رحمها الله تعالى)

قال الله تعالى (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) يقال إن امرأة فرعون آسية كانت تعتل فى قضاء حاجتها فتبرز فتصلى يومها فى مئزرها خوفاً من فرعون وكانت على تلك الحالة إلى أن قتل فرعون امرأة حزقيل وكانت آسية متطلعة من كوة قصر فرعون تنظر إلى الماشطة امرأة حزقيل كيف تعذب وتقتل فلما قتلت الماشطة عاينت آسية الملائكة وقد عرجت بروحها لما أراد الله تعالى من كرامتها وما أراد لها من الخير فزادت يقيناً بالله وتصديقاً فبينما هى كذلك إذ دخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر الماشطة امرأة حزقيل وما صنع بها فقالت له آسية الويل لك يافرعون ما أجرأك على الله تعالى فقال لها لعلك قد اعتراك الجنون الذى اعترى صاحبتك فقالت ما اعترانى جنون ولكنى آمنت بالله ربى وربك ورب العالمين فدعا فرعون أمها وقال لها إن ابنتك قد أخذها الجنون الذى أخذ الماشطة ثم إنه أقسم لتذوقن الموت أو لتكفرن بإله موسى فخلت بها أمها وسألتها موافقة فرعون فيما أراد فأبت وقالت تريدين أن أكفر بالله فلا والله ما أفعل ذلك بها فأمر بها فرعون فمدت بين أربعة أوتاد ثم مازالت تعذب حتى ماتت رحمها الله تعالى وذلك قوله تعالى (وفرعون ذى الأوتاد) .

عن ابن عباس قال أخذ فرعون امرأته آسية حين ابتدأ بها يعذبها لتدخل فى دينه فمر بها موسى وهو يعذبها فشكت إليه بأصبعها فدعا الله موسى أن يخفف عنها من العذاب فبعد ذلك لم تجد للعذاب ألماً إلى أن ماتت فى عذاب فرعون فقالت وهى فى العذاب (رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى) الآية فأوحى الله إليها أن ارفعى رأسك ففعلت فرأت البيت فى الجنة من در فضحكت فقال فرعون انظروا إلى الجنون الذى بها تضحك وهى فى العذاب .

﴿ الباب الثالث عشر فى بناء الصرح ﴾

قال الله تعالى (وقال فرعون ياهامان ابن لى عندك صرحاً) الآية قالت العلماء كان الله تعالى قد أملى لفرعون فى كل باب من أبواب التملك والتسلط والثروة والتنعم والترفع والتمتع ما قد استخف به رعيته من أهل مملكته حتى استعبدهم فعبدوه وادعى الربوبية فقبلوه مع ما أوتى من العمر الطويل والقوة والمنعة والسعة والجود والشوكة والعدة والعدد .

قال سعيد بن جبير ملك فرعون أربعمائة سنة لا يرى مكروهاً ولو كان فى تلك المدة فأدرك جوع يوم أوحمى ليلة ما ادعى الربوبية وقدم على خطب عظيم وخطر جسيم فلم يمسه سوء ولا مكروه ولا تلقاه إلا محبوب ومرغوب وكان له قصر من قصوره مشرف منيف على ألف درجة وسخر الله دابة من دوابه يركبها فيصعد ذلك القصر عليها ، وكان يركبها صاعداً ونازلا مع أنعم الله تعالى عليه استدراجاً منه فلما عاين من أمر موسى ماعاين لم يزده ذلك إلا عتواً واستكباراً وعلم من قومه الرعب والخوف فخاف عليهم أن يؤمنوا بموسى ويجعلوه مكانه فاحتال لنفسه وعزم على بناء صرح يقوى به سلطانه ويشيد أركانه فقال لوزيره (ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) فأمر هامان ببنائه فجمع له العالقة والفعلة ولم يترك أحداً يقدرعليه ممن يعمل البنيان إلا جمعه لبنائه حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والجبس ويتخذ الخشب والأبواب والمسامير فلم يزل يبنى الصرح وييسر الله تعالى له امره استدراجاً منه وأتاه الأمر على ما يريد إلى أن فرغ منه فى سبع سنين فارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض فشق ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه أن دعه وما يريد فإنى مستدرجه وآخذه بغتة وإنى مبطل كل ماعمله فى ساعة واحدة وكان ذلك الصرح إذا طلعت الشمس ضرب ظله نحو المغرب وإذا غربت ضرب ظله نحو المشرق بحيث لا يعلمه إلا الله تعالى فلما أتم بنائه بعث الله تعالى جبريل عليه السلام فضرب بجناحه الصرح ضربة فقطعته

ثلاث قطع فلما رأى فرعون ذلك من أمر الله تعالى علم أن حيلة لم تغنى عنه شيئاً فعزم على قتال موسى وقومه فأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ثم إن عسكر فرعون قالوا لموسى إنك لساحر وأنت عبد من عبيد فرعون أبقت منه وكفرت نعمته وتربيته ونسيت إحسانه إليك ومنته عليك حيث ألقتك أمك فى اليم قبحاً بك وبغضاً لك لما علمت ما أنت صائر إليه من سوء الحال فاستنقذك فرعون من الغرق واستدركك من الموت فآواك وكفلك ورباك واتخذك ولداً ثم فررت منه آبقاً كافراً وجئته عدواً محارباً فلسنا بممتنعين منك حتى نردك إلى عبادته وخدمته أو نذيقك الذل والهوان فلما رأى الله تعالى ذلك وقد علم أنه لا يغنى عنهم ما جاءهم به موسى لما سبق فيهم من مكر الله النافذ وحقت عليهم كلمة العذاب وابتلاهم الله بالعذاب وبالآيات .

﴿ الباب الرابع عشر فى ذكر الآيات التى ابتلى بها فرعون وقومه ﴾
(حين دنا هلاكهم إظهاراً لقدرته وإلزاماً لحجته) .

قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) قال المفسرون : هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وفلق البحر قال تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات) .

وقال قتادة : أما السنون فكانت ببواديهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم قال الله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) الآية .

واختلف المفسرون فى ذلك الطوفان ما هو .

قال ابن عباس كان أول الآيات الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء ، وقال مقاتل هو المـــاء طغى فوق حروثهم فأهلكها ، وقال الضحاك هو الغرق ، وقال مجاهد وعطاء هو الموت الذريع الجارف ، وروى ذلك عن رسول الله ﷺ وقال وهب هو الطاعون بلغة أهل اليمن أرسل الله الطاعون على أبكار آل فرعون فافتضوا فى ليلة فلم يبق منهم باقية ، وقال أبو قلابة الطوفان الجدرى فهم أول من عذب به فبقى فى الأرض (والجراد والقمل) .

واختلفوا فى القمل ماهو فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس القمل هو السوس الذى يخرج من الحنطة . وروى عن على بن أبى طلحة أنه الدبا وقال مجاهد والسدى وقتادة والكلبى وغيرهم الجراد الطيارة التى لها أجنحة والقمل الصغار التى لا أجنحة لها وروى معمر عن قتادة قال القمل أولاد الجراد وقال عبد الرحمن بن أسلم هو البراغيث وقال عطاء هو القمل دليله قراءة الحسن والقمل بفتح القاف وجزم الميم وقال أبو عبيدة هو الحنان وهو ضرب من القردان ؛ قال أبو العالية أرسل الله الحنان على دوابهم فأكلها حتى لم يبق منها شىء ولم يقدروا على المسير قال أمية بن أبى الصلت الثقفى

أرسل الذر والجراد عليهم وعذاباً فأهلكتهم دبور

(باب فى صفة تنزيل الآيات تفصيلياً وكيفيتها)

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحق وغيرهم من أصحاب الأخبار دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ؛ لما آمنت السحرة وصلبهم عدو الله فرعون ورجع عدو الله مغلوباً مقهوراً انصرف موسى وهرون إلى عسكر بنى إسرائيل فأمر فرعون قومه أن يكلفوا بنى إسرائيل مالا يطيقون فكان يقول من القبط يجىء إلى الرجل من بنى إسرائيل يقول له انطلق معى فاكنس عشى واعلف دوابى واستق لى وتجىء القبطية إلى الكريمة من بنى إسرائيل فتكلفها مالا تطيق ولا يطعمونهم فى كل ذلك خبزاً فإذا انتصف النهار يقولون لهم اذهبوا فاكتسبوا لأنفسكم ما تأكلون فشكوا ذلك إلى موسى فقال لهم (استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) قالوا يا موسى (أوذينا من قبل أن يأتينا ومن بعد ما جئتنا) كنا نطعم إذا استعملونا من قبل أن تأتينا فلما جئتنا استعملونا ولم يطعمونا فقال موسى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) يعنى فرعون والقبط (ويستخلفكم فى الأرض) يعنى الشام ومصر فينظر كيف تعملون

فلما أبى فرعون وقومه إلا التمادى على الكفر والإقامة على الشر والظلم ودعا موسى ربه فقال : يا رب عبدك فرعون قد طغى فى الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك رب خذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم من الأمم اعتباراً فتابع الله عليهم الآيات المفصلات وبعضها فى أثر بعض فأخذهم

بالسنين ونقص من الثمرات ثم بعث الله عليهم الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء حتى كادوا يهلكون وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها فى بعض فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم من جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل من الماء قطرة واحدة وفاض الماء على وجه أراضيهم وركد فلم يقدروا على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً حتى جهدوا ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا العذاب فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل وعادوا إلى أشر مما كانوا عليه فأنبت الله تعالى لهم فى تلك السنة من الكلأ والزرع والثمر مالم ينبت قبل ذلك فأعشبت بلادهم وأخصبت فقالوا هذا ما كنا نتمنى وما كان هذا الماء إلا نعمة لنا وما يسرنا أنا لم نمطر فأقاموا شهراً فى عافية ثم بعث عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم وزهرها حتى إنها كانت تأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير من الحديد حتى تساقطت دورهم وابتلى الجراد بالجوع فجعل لا يشبع وكان لا يدخل بيوت بنى إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شىء فعجوا وضجوا وقالوا (ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك فى بنى إسرائيل) فأعطوه عهد الله وميثاقه فسأل موسى ربه فكشف الله عنهم الجراد بعد ماأقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ويقال أن موسى برز إلى الفضاء فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن.

(فصل فى بعض ما ورد من الأخبار الغريبة فى الجراد)

أخبرنى الحسن بن محمد بإسناده عن جابر وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه كان يدعو على الجراد يقول: اللهم اقطع الجراد اللهم اقطع دابرهم اللهم اقتل كبارهم واهلك صغارهم وافسد بيضه وخذ بأفواههم عن معايشنا وارزقنا إنك أنت سميع الدعاء فقاله رجل من القوم كيف ذلك يا رسول الله تدعو على جند من جنود الله بهلاكه وقطع ادبره؟ فقال إنما الجراد نثر حوت من البحر .

وقال ابن علاثه : حدثنى من رأى الحوت ينثره وبإسناده عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (فى صدر الجراد مكتوب جند الله الأعظم) وبإسناده عن جابر بن عبد الله قال : عدم الجراد فى سنة من سنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يخبر عنه بشىء فاغتم لذلك فأرسل راكباً إلى اليمن وراكباً إلى الشام وراكباً إلى العراق يسألون هل رأوا شيئاً من الجراد أم لا فأتاه الراكب الذى دخل اليمن بقبضة من الجراد فألقاه فى يده فلما رآه كبر ثلاثاً ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول خلق الله ألف أمة منها ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر فأول شىء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك الجراد يتابع مثل النظام إذا قطع سلكه .

وبإسناده عن أبى أمامة الباهلى يحدث عن النبى ﷺ أنه قال « إن مريم ابنة عمران سألت ربها أن يطعمها لحماً لا دم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه بغير شياع » فقلت يا أبا المضىء ما الشياع ؟ قال الصوت .

وبإسناده عن عبد الله بن ضمرة السلولى قال لما أخرج الله تعالى إبليس من الجنة قال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً قال الله تعالى وأنا متخذ من خلقى جنداً هو الجراد فقال إبليس وأنا جندى النساء هى شبكتى التى لا تخطىء أبداً .

أخبرنا الحسين بإسناده عن الأوزاعى يقول كان ببيروت رجل صالح يذكر أنه رأى رجلا صالحاً راكباً على جرادة قال وعليه خفان طويلان أظنهما أحمرين وهو يقول الدنيا باطل باطل ما فيها ويقول بيده هكذا فحيثما أشار استاق الجراد إلى ذلك الموضع فبلغنا أن ذلك الرجل ملك الجراد قال فأقام قوم فرعون شهراً فى عافية ثم بعث الله عليهم القمل وذلك أن موسى أمر أن يمشى إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس فمشى موسى إلى ذلك الكثيب وكان مهيلا عظيما فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكلها ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلىء قملا حتى أن أحدهم ليبنى الاسطوانة بالجص ويزلقها حتى لا يرتقى فوقها شىء ثم يرفع فوقها الطعام فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملىء قملا فما أصيبوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذ القمل أشعارهم وأبشارهم وأشفار

عيونهم وحواجبهم ولزمت جلودهم كأنها الجدرى عليها ومنعتهم النوم والقرار ولم يستطيعوا لها حيلة وقال سعيد بن جبير القمل السوس الذى يخرج من الحبوب فكان الرجل يخرج عشرة أقفزة إلى الرحا فلا تردمنها ثلاثة أقفزة فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا يا أيها الساحر . أى أيها العالم إنا نتوب ولا نعود فادع لنا ربك بما عهد عندك يكشف عنا هذا العذاب فدعا موسى ربه فكشف عنهم القمل فانتشروا فى أقطار الأرض وأطراف البلاد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ثم نكثوا العهد وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا أحق أن نستيقن أن موسى ساحر لنا إلا اليوم فيجعل الرمل دواب فعلى ماذا نؤمن ونرسل معه بنى إسرائيل فقد أهلك زرعنا وحرثنا وأذهب أموالنا فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل وعزة فرعون لا نصدق به أبداً ولا نتبعه فدعا عليهم موسى بعد ما أقاموا شهر فى عافية وقيل أربعين يوماً أوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفة النيل فيغرز عصاه فيه ويشير بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ففعل ذلك فتنابعت له الضفادع بالنقيق من كل جانب حتى أعلم بعضها بعضاً وأسمع أدناها أقصاها ثم إنها خرجت من النيل مثل الليل الدامس سراعاً تؤم نحو باب المدينة فدخلت عليهم فى بيوتهم بغتة وامتلأت منهم أفنيتهم وآنيتهم وكان أحدهم لا يكشف ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع فى فيه وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعاً بعضها فوق بعض وتصير عليه ركاماً حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شقه الأيمن ولا الأيسر وكان أحدهم يفتح فاه لأكلته فتسبقه الضفدعة إلى فيه وكانوا لا يعجنون شيئاً من العجين إلا انشدخت فيه ولا يطبخون قدراً إلا امتلأت منه وكانت تلب فى نيرانهم فتطفئها وفى طعامهم فتفسده فلقوا منها أذى شديداً

روى عكرمة عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله تعالى على فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها فى القدور وهى تفور وفى التنانير وهى مسجورة فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء قال فضجوا إلى فرعون من ذلك وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفها

من كثرة ما يطئونها بأقدامهم وأروحت البقاع كلها منها فلما رأوا ذلك بكوا وشدوا إلى موسى وقالوا كشف عنا هذا البلاء فإننا نتوب هذه المرة ولا نعود فأخذ على هذا عهودهم ومواثيقهم ثم أن موسى دعا ربه فكشف عنهم الضفادع وذلك فيما يروى أن موسى أمر أن ينسف بعصاه ويميلها ففعل ذلك فانتشع ما كان منها حياً فلحق بالنيل وأرسل الله على الميتة ريحاً فنحتها عن مدينتهم بعد ما أقامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فأقاموا شهراً فى عافية وقيل أربعين يوماً ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطىء البحر فيضربه بعصاه ففعل ذلك فسال عليهم النيل دما وسارت مياههم كلها دما وما يسقون من الأنهار والآبار إلا وجدوه دما أحمر عبيطا فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا إنا قد ابتلينا بهذا الدم وليس لنا شراب غيره فقال لهم إنه قد سحركم موسى فكان يجتمع الرجلان على الإناء الواحد القبطى والإسرائيلى فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء وما يلى القبطى دماً عبيطا وكان القبطى والإسرائيلى يستقيان ماء واحد فيخرج ماء القبطى دم، وماء الإسرائيلى ماء عذبا وكان يقومان إلى الجرة التى فيها ماء فيخرج للاسرائيلى ماء وللقبطى دم حتى إن المرأة من آل فرعون تأتى إلى المرأة من بنى إسرائيل حين يجهدها العطش فتقول اسقينى من مائك فتسكب لها من جرتها أو تصب لها من قربتها فتعود فى الإناء دماً قالوا والنيل على ذلك يسقى الزرع والشجر فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دماً عبيطاً وإن فرعون اعتراه العطش فى تلك الأيام حتى إنه اضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها ملحاً أجاجاً ومراً زعاقاً فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لا يأكلون ولا يشربون إلا الدم.

وقال زيد بن أسلم : كان الدم الذى سلط عليه الرعاف فلما ضجروا من ذلك قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك وذلك أن موسى أمر أن يضرب النيل بعصاه ضربة أخرى فضربه فتحول ماء صافياً كما كان فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) الآيات قال نوف البكالى

عن امرأة كعب الأحبار مكث موسى فى آل فرعون عشرين سنه بعد ما غلب السحرة يريهم الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع وقال أصحاب الأخبار لما يئس موسى من إيمان فرعون وقومه ورآهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادى والكبر دعا عليهم وأمن فرعون عليهما السلام وهو (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) فأجاب الله دعاءهما كما قال تعالى (قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان) الآية قالوا وكان لفرعون وأصحابه من أثاث الدنيا وزهرتها وزينتها من الذهب والفضة واليواقيت وأنواع الحلى والجواهر ما لا يحصيه إلا الله تعالى وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام فى زمانه أيام القحط فبقى ذلك فى يد القبط فأوحى الله إلى موسى عليه السلام إنى مورث بنى إسرائيل مافى يد آل فرعون من العروض والحلى وجاعله لهم جهازاً وأعياداً إلى الارض المقدسة ما جعل لذلك عيدا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتذكرونى وتعظمونى ذلك اليوم وتعبدونى فيه لما أريكم من الظفر تجاه الأولياء وهلاك الأعداء واستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلى وأنواع الزينة فإنهم لا يمنعون عنكم بسبب الحال بهم فى ذلك الوقت لما قذف فى قلوبهم لكم من الرعب ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى فأمر فرعون بزينة أهله وولده وما كان فى خزائنه من أنواع الحلى فغيرت لبنى إسرائيل لما أراد الله بذلك أن يفيء على موسى وقومه أفضل أموال أعدائهم بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا رجل لطفاً منه بهم وإفضالا عليهم لما دعا موسى عليهم مسخ الله الأموال التى بقيت فى أيديهم حجارة كلها حتى المنخل والدقيق .

قال محمد بن كعب القرظى : سالنى عمر بن عبد العزيز عن التسع آيات التى أراها الله فرعون وقومه فقلت : الطوفان والجراد والقمل والضفدع والدم والعصا واليد والبيضة والطمس وفلق البحر فقال عمر لايكون الفقه إلا هكذا ثم إنه دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصاب لعبد العزيز بن مروان إذ كان فيها بقايا أموال فرعون فأخرج البيضة مشقوقة نصفين وإنها الحجر والجوزة مشقوقة وإنها الحجر والحمصة والعدسة

وروى محمد بن إسحق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال : قد رأيت نخلة مصروعة وإنها لحجر وقال رأيته إنساناً وما شككت أنه إنسان وإنه لحجر وكان ذلك المسخ فى أرقائهم دون أحرارهم إذ العبيد من جملة أموالهم فلم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى ما خلا الذى بايدى بنى إسرائيل من الحلى والجواهر وأنواع الزينة .

وقال ابن عباس : أول الآيات العصا وآخرها الطمس ، قالوا وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً وجعل سكرهم حجارة

(الباب الخامس عشر فى قصة إسراء موسى عليه السلام ببنى إسرائيل)
(وخبر فلق البحر لهم)

(قالوا) لما سار موسى ببنى إسرائيل من مصر وأرادوا أن يسيروا ضرب الله عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبوا فدعا موسى عليه السلام مشايخ بنى إسرائيل فسألهم عن ذلك فقالوا له إن يوسف عليه السلام لما مات بمصر أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فيضعوه فى الأرض المقدسة فلذلك نالنا هذا الأمر فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقام موسى ينادى أنشد الله كل من يعلم موضع قبر يوسف ألا أخبرنى ومن لا يعلم صمت أذناه عن قول فكان يمر بين الرجلين ينادى فلا يسمعان قوله حتى سمعت عجوز منهم فقالت له أرأيتك إن دللته عليه أتعطينى ما سألتك ؟ فأبى عليها وقال استأذن ربى فامره ربه أن يعطيها مناها فاعطاها ذلك فقالت له : إنى أريد أن لا تنزل غرفة من الجنة إلا نزلتها معك قال نعم قالت فإنى عجوز كبيرة لا أستطيع أن أمشى فاحملنى فحملها فلما دنت من النيل قالت له إنه فى جوف هذا الماء فادع الله أن يحسر عنه هذا الماء فدعا الله تعالى فحسره عنه فقالت له احفر ههنا ففعل فاستخرجه وهو فى صندوق من مرمر فحمله معه ودفنه فى الأرض المقدسه .

قال عروة بن الزبير : وقد كان الله تعالى أمر موسى أن يسير ببنى إسرائيل إذ طلع الفجر فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف ففعل فمن ثم تحمل اليهود موتاهم من كل بلد إلى الأرض المقدسة من فعل نبيهم ذلك .

أخبرنى الحسن بن محمد بإسناده عن ابن أبى موسى الأشعرى عن أبيه عن النبى ﷺ قال: نزل النبى ﷺ باعرابى فاكرمه فقال له عليه السلام، يماهدنا فاتاه الأعرابى فقال له عليه السلام ما حاجتك؟ قال له الأعرابى ناقة يا رسول الله برحلها وأعنز بحلبها أهلى فقال له رسول الله ﷺ ثانية ما حاجتك فقال ما لى حاجة غيرها، فقال عليه السلام إن عجوز بنى إسرائيل كانت أحسن مسئلة من هذا وذكر الحديث الذى فى قصة يوسف.

قال فلما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح وعادت ترمى بموج كالجبال فقال يوشع بن نون يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا فقال موسى ههنا فخاض يوشع بن نون الماء فجاز البحر ولم يوار حافر دابته الماء.

وقال الذى يكتم إيمانه وهو حزقيل مؤمن آل فرعون يا كليم الله أين أمرت قال ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه ثم اقتحم البحر فارتسب فى الماء فذهب القوم ليصنعوا مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع فاوحى الله إليه (أن اضرب بعصاك البحر) وكان الماء فى ذلك الوقت فى غاية الزيادة فضرب موسى البحر بعصاه فلم يطعه فاوحى الله تعالى إليه أن كنه فضربه ثانياً وقال. انفلق ياأبا خالد بإذن الله تعالى (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) فلما انفلق البحر فإذا بالرجل الذى أقحم فرسه البحر واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده وظهر فى البحر إثنا عشر طريقاً لإثنى عشر سبطاً لكل سبط طريق وأرسل الله تعالى الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يابساً كما قال الله تعالى (فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى).

قال سعيد بن جبير. أرسل معاوية إلى ابن عباس يسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة فارسل إليه إنه المكان الذى انفلق عنه البحر لبنى إسرائيل

أخبرنا الحسن بن محمد بإسناده عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال. يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا فرجاً ومخرجاً فاوحى الله تعالى إليه (أن اضرب بعصاك البحر) فضرب بعصاه البحر (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم).

وروى الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال . قال رسول الله ﷺ « ألا أعلمكم الكلمات التي تكلم بها موسى حين جاز البحر ببني إسرائيل ؟ فقلنا بلى يارسول الله قال قولوا . اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال عبد الله . فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ

قالوا فخاض بنى إسرائيل البحر كل سبط فى طريق وعلى جانبيه الماء كالجبل العظيم لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا وقالوا كل سبط قد قتل إخواننا فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبكى فصار الماء شبكات كهيئات الطبقات فنظر بعضهم بعضاً فأخذوا يجاوزون البحر وهم يرون بعضهم بعضاً ويسمع بعضهم بعضاً حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر) أى فلقنا وميزنا لكم الماء يميناً وشمالا (فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وذلك أنه لما خرجت ساقة عسكر موسى من البحر وصلت مقدمة عسكر فرعون إليه فأراد موسى أن يدعو البحر ليرجع إلى حالته الأولى فأوحى الله إليه أن (اترك البحر رهواً) أى ساكناً على حاله « إنهم جند مغرقون » فلما وصل جند فرعون إلى البحر رأوه منفلقاً . فقال فرعون . انظروا إلى البحر كيف انفلق لهيبتى حتى أدرك أعدائى وعبيدى الذين أبقوا منى فأقتلهم فادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه ولم يكن فى خيل فرعون أنثى وإنما كانت ذكوراً كلها فجاء جبريل عليه السلام على فرس له أنثى وهى مشتهية للفحل وعليه عمامة سوداء فتقدمهم وخاض البحر فظن أصحاب فرعون أن الفارس منهم فلما شمت الخيول ريحها اقتحمت البحر أثرها حتى خاضوا كلهم وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويقول لهم الحقوا بأصحابكم فلما أراد فرعون أن يسلك طريق موسى نهاه وزيره هامان وقال له إنى قد أتيت إلى هذا الموضع مراراً وما لى عهد بهذا الطريق وإنى أخاف ولا آمن أن يكون مكراً من الرجل ويكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا فلم يطعه فرعون وذهب معاجلا على حصانه ليدخل البحر فامتنع الحصان فجاءه جبريل على رمكة بيضاء فصهلت فهمهم إليها حصان فرعون فخاض جبريل البحر فتبعها حصان فرعون

فاقتحمه البحر فلما توافوا فى البحر وهم أولهم أن يخرج من البحر أمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فغرقهم أجمعين وذلك بمرأى من بنى إسرائيل فذلك قوله تعالى (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) يعنى إلى مصارعهم وانفرد جبريل عليه السلام بفرعون فلما أدرك فرعون الغرق (قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فقال له جبريل (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) ثم إن جبريل أراه فتياه وتوقيعه الذى فيه ، وقال إنما هذا فتياك الذى أفتيت به ، ثم جعل يدس فى فيه من حما البحر مخافة أن يعيد تلك الشهادة .

وفى الحديث أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ ، ما أبغضت أحداً من الخلق ما أبغضت رجلين ، أما أحدهما فمن الجن وهو إبليس عليه لعنة الله حين أبى أن يسجد لآدم ، والآخر من الإنس ، وهو فرعون حين قال (أنا ربكم الأعلى) ولو رأيتنى يا محمد وأنا آخذه من حما البحر وأدسه فيه مخافة أن يقول كلمة التوحيد فيرحمه الله تعالى بها .

أخبرنى الحسن بن محمد بإسناده عن محمد بن قيس قال جاء يهودى إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال يا أبا الحسن ماصبرتم بعد نبيكم خمساً وعشرين سنة حتى قتل بعضكم بعضاً ؟ فقال بلى قد كان صبر وخير ولكنكم ما جفت أقدامكم من حما البحر حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فلما أغرق الله تعالى فرعون ومن معه ونجى موسى ومن معه بعث موسى جندين عظيمين من بنى إسرائيل كل جند إثنا عشر ألفاً إلى مدائن فرعون وهى يومئذ خالية من أهلها قد أهلك الله علماءهم ورؤساءهم وقادتهم ومقاتلتهم ، فلم يبق منهم إلا النساء والصبيان والمرضى والهرمى فامر على الجنديين يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فدخلوا بلاد فرعون وغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم فحملوا من ذلك ما استقلت به الحمول منها وما لم يطيقوا حمله باعوه من قوم آخرين فذلك قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون) إلى قوله تعالى (فاكهين كذلك أورثناهم قوماً آخرين) إلى آخر القصة ثم أن يوشع بن نون استخلف على قوم فرعون رجلا منهم وعمد إلى موسى بمن معه من المسلمين غانمين شاكرين .

(الباب السادس عشر فى ذهاب موسى إلى الجبل لميقات ربه)
(وصفة إيتاء الله تعالى الألواح وإنزاله التوراة وما يتعلق بذلك)

قال الله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) وقال فى موضع آخر (وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة)

قال العلماء بقصص الأنبياء وسير الماضين إن موسى كان واعد بنى إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه واستنقذ بنى إسرائيل من أيديهم وأمنهم من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها قالوا يا موسى ائتنا بالكتاب الذى وعدتنا به فسأل موسى ربه ذلك فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً ثم يتطهر ويطهر ثيابه ويأتى طور سيناء ليكلمه ويعطيه ذلك الكتاب فصام ثلاثين يوماً فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه فتسوك بعود خروب

وقال أبو العالية — أخذ من لحاء الشجر فمصه فقالت له الملائكة إنا كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسواك . فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيام أخر ، وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من رائحة المسك ؛ وكانت فتنتهم فى العشرة الأيام التى زادها الله تعالى على موسى فذلك قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) ذى القعدة (وأتممناها بعشر) من ذى الحجة

قال وهب — كان بين الله وبين موسى سبعون حجاباً فرفعها الله كلها إلا حجاباً واحداً فتجلى موسى لكلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها فقال (رب أرنى أنظر إليك)

واختلف العلماء فى معرفة التجلى قال ابن عباس ظهر نوره للجبل

وقال الضحاك أظهر الله تعالى من نور الحجب مثل منخر الثور

وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، ما تجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا كسم الخياط حتى صار دكاً دكاً

وقال السدى ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس عن النبى ﷺ أنه قرأ هذه الآية فقال (هكذا ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل يعنى غار

وقال الحسن أوحى الله تعالى إلى الجبل وقال هل تطيق رؤيتى فغار الجبل وساخ فى الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع

وقال السدى ما تجلى للجبل إلا قدر جناح بعوضة فصار الجبل دكاً

وقال ابن عباس تراباً وقال سفيان ساح حتى وقع فى البحر

قال عطية العوفى صار رملا هائلا

وقال الكلبى جعله دكاً أى مكسرا جبالا صغارا وبالإسناد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا)

(قال) فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى فلم يطيق حملها فقال يا رب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود وهل خلقت خلقاً يطيق حملها فامده الله بملائكة يحملونها بعدد كل حرف من التـــوراة فحملوها حتى بلغوها موسى وعرضوا له الأواح على الجبل فانصدع لها الجبل وخشع ، وقال يارب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها وضرب الله مثلا فى القرآن فقال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) كما أنزل التوراة على الجبل فلم يطق حملها ، قال فلما وضعوها على الجبل بين يدى موسى وذلك عند صلاة العصر فقبض موسى على الألواح فلم يطق حملها فلم يزل يدعو حتى هون الله عليه حملها فحملها فذلك قوله (يا موسى إنى اصطفيتك) الآية وقوله تعالى (وكتبنا له فى الألواح) الآية

(فصل فى نسخة العشر الكلمات التى كتبها الله تعالى لموسى نبيه وصفيه)
(فى الألواح وهى معظم التوراة وعليه مدار كل شريعة)

وهى بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران أن سبحنى وقدسنى لا إله إلا أنا فاعبدنى ولا تشرك بى شيئاً واشكر لى ولوالديك إلى المصير أحيك حياة طيبة ولا تقتل النفس التى حرم الله عليك فاضيق عليك السماء باقطارها والأرض برحبها ولا تحلف باسمى كاذباً فإنى لا أطهر ولا أزكى من لا يعظم إسمى ولا تشهد بما لا يعى سمعك ولا تنظر عينك ولا يقف عليه قلبك فإنى لا أوقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة وأسالهم عنها ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى ورزقى فإن الحاسد عدو نعمتى ساخط لقسمتى ولا تزن ولا تسرق فاحجب عنك وجهى وأغلق دون دعوتك أبواب السموات ولا تذبح لغيرى فإنه لا يصعد إلى من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه إسمى ولا تفجرن بحليلة جارك فإنه أكبر مقتاً عندى وأحبب للناس ما تحب لنفسك وأكره لهم ما تكره لنفسك فهذه نسخة العشر الكلمات وقد أعطاها الله جميعاً لمحمد ﷺ فى ثمان عشر آية وهى قوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى قوله (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) ثم جمعها فى ثلاث آيات من سورة الأنعام وهى

قوله تعالى (أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى قوله تعالى (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)

أخبرنا أبو عمر محمد الفريابى بإسناده عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ (لما أعطى موسى الألواح نظر فيها فقال يا رب لقد أكرمتنى بكرامة لم تكرم بها أحداً من العالمين قبلى) قال (يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

اخبرنا أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن نصير المكي قال أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج قال حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المعافري عن أبيه ان كعب الاحبار رأى حبراً من اليهود يبكي فقال ذكرت بعض الأمر فقال كعب الأحبار أنشدك الله لئن أخبرتك بما أبكاك فتصدقني قال نعم قال أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل على موسى عليه الصلاة والسلام ان موسى نظر في التوراة فقال - إني أجد أمة هم خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتؤمنون بالكتاب الأول والآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال فقال موسى رب اجعلهم أمتي قال هم أمة محمد ياموسى قال له الحبر نعم .

قال كعب أنشدك الله تعالى هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال إني أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس هم المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا نفعله إن شاء الله تعالى فقال موسى فاجعلهم أمتي فقال هم أمة محمد ياموسى قال الحبر نعم .

قال كعب أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال يارب إني أجد أمة يأكلون كماراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار غير أن موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل فلا يجد عبداً مملوكاً ولا أمة إلا اشتراه من تلك الصدقة وما فضل يحفر له حفرة عميقة القعر وألقاه فيها ثم دفنه كي لا يرجعوا فيه وهم المسبحون المستجيبون المستجاب لهم وهم الشافعون والمشفعون قال موسى يارب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد ياموسى قال الحبر نعم .

قال كعب أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال إني أجد أمة إذا اشرف أحدهم على شرف كبر الله تعالى وإذا هبط إلى واد حمد الله تعالى ، الصعيد لهم طور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من

الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غراً محجلين من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد ياموسى قال الحبر نعم .

قال كعب أنشدك الله تجد فى التوراة أن موسى نظر فيها فقال يارب إنى أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وإذا عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم أحدهم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه وإذا عملها كتبت عليه سيئة مثلها فاجعلهم يارب أمتى ، قال هم أمة محمد ياموسى قال الحبر نعم .

قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال يارب إنى أجد أمة مرحومة أصفياء يرثون الكتاب فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتى قال هم أمة أحمد ياموسى .

قال فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله لأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين قال موسى ياليتنى من أصحاب محمد ـ فأوحى الله تعالى إليه بثلاث آيات يرضيه بهن فقال تعالى (ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) إلى قوله تعالى (دار الفاسقين) وقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال فرضى موسى كل الرضا .

وقال ابن عباس : لما صار موسى إلى طور سيناء إلى الميقات ـ قال له ربه ماتبتغى ؟ قال جئت أبتغى الهدى قال وجدته ياموسى قال موسى يارب أى عبادك أحب إليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال أى عبادك اعلم قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه فيسمع الكلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى .

وقال عبد الله بن مسعود لما قرب الله تعالى موسى إلى طور سيناء رأى عبدا في ظل العرش جالساً قال يارب من هذا ؟ قال عبد لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله بر بوالديه ولا يمشي بالنميمة قال موسى يارب اغفر لى ماجرى من ذنبي وما غبر وما بين ذلك وما أنت أعلم به منى أعوذ بك من وسوسة نفسى وأعوذ بك من سوء عملى قال كفيت ذلك ياموسى قال موسى يارب فأى الأعمال أحب إليك أن أعمل به قال تذكرنى ولا تنسانى قال أى عبادك خير عملا قال من لم يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فهو مؤمن فى خلق حسن قال أى عبادك شر عملا قال فاجر فى خلق سيء جيفة بالليل بطال بالنهار قال فلما رجع موسى إلى قومه وقد أتاهم بالتوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها من الأثقال والأغلال التى كانت عليهم فيها وكانت شريعة ثقيلة فأمر الله جبريل فقلع جبلا على قدر عسكرهم وكان فرسخاً فى فرسخ فرفعه فوق رءوسهم مثل الظلة مقدار قامة الرجل وقال أبو صالح عن ابن عباس أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رءوسهم مثل الظلة فذلك قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) وقوله تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة)

وقال عطاء عن ابن عباس - رفع الله تعالى فوق رءوسهم الطور وبعث نارا من قبل وجوهم وأتاهم البحر ملحاً من خلفهم وقيل لهم خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا فإن قبلتموه وفعلتم ما أمرتكم به وإلا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم فى هذا البحر واحرقتكم بهذه النار - فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم يلاحظون الجبل وهم سجود فصارت سنة فى اليهود لا يسجدون إلا على انصاف وجوههم فلما زال الجبل قالوا ياموسى سمعنا وأطعنا ولولا الجبل ما أطعناك .

واخبرنى أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى قال حدثنا محمد بن أبي شيبة قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله القزوينى قال حدثنا محمد بن

مرزوق البصرى قال حدثنا هانىء بن يحيى السلمى قال حدثنا الحسين بن ابو سهل عن جعفر عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (لما كلم الله موسى كان يبصر بعد ذلك دبيب النملة فى الليلة المظلمة على الصفا من مسيرة عشر فراسخ .

وأخبرنا أبو عبد الله الثقفى قال حدثنا عبد الله بن سيبة قال حدثنا أبو حامد المستملى قال حدثنا إسحق قال حدثنا خالد بن خراش قال حدثنا عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه ان موسى كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً لشدته .

﴿ باب ذكر قصة بنى إسرائيل وهرون مع السامرى حين اتخذهم العجل إلهاً ﴾

قال أهل السير وأصحاب التواريخ لما أهلك الله فرعون وقومه قال موسى إنى ذاهب إلى الجبل لميقات ربى وآتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون وواعدهم ثلاثين ليلة واستخلف عليهم أخاه هرون فجاء جبريل عليه السلام على فرس يقال لها فرس الحياة وهى بلقاء أنثى لاتصيب شيئاً إلا حى فلمـــا رآه السامرى على تلك الفرس عرفه وقال أن لهذه الفرس لشأناً عظيماً وأخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل هذا قول السدى .

قال الكلبى إنما اتخذ السامرى من تراب حافر فرس جبريل العجل حين عبروا البحر وبعث الله تعـــالى جبريل على فرس بلقاء خطوتها مد البصر عليها تركب الانبياء كلهم وخاض البحر وسمت خيول قوم فرعون ريحها فخاضت فى أثرها قالوا وإنما عرف السامرى جبريل دون بنى إسرائيل لأن فرعون حين أمر بذبح أولاد بنى إسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقت به سراً فى جوف الليل إلى صحراء أو واد أو غار فى جبل فأخفته فيقيض الله ملكاً من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يخلط بالناس وكان الذى ربى السامرى جبريل عليه السلام فجعل بمصر

من أحد إبهاميه سمناً ومن الآخر عسلا فمن ثم عرفه ، ومن ذلك الوقت إذا جاع الطفل يمص إبهامه فيروى من المص لأنه جعل فيه رزق .

وقال الحسن البصرى إسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه بهموت قالوا فلما رأوا العجل وسمعوا قول السامرى فافتتنوا به غير إثنى عشر ألفا وكان مع هرون ستمائة ألف ، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله وأحبوه حباً ما أحبوا شيئاً مثله قط ، فقال لهم هرون يابنى إسرائيل (إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) فأقام هرون فيمن معه من المسلمين وأقام من يعبد العجل على عبادته وتخوف هرون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتونين الضالين أن يقول له موسى فرقت بين بنى إسرائيل وكان له هائباً مطيعاً وقال قتادة فى هذه القصة قد كره الصالحون الفرقة قبلكم .

أخبرنى الحسن بإسناده عن راشد بن سعيد قال ، لما واعد الله موسى أربعين يوماً قال الله تعالى ياموسى إن قومك قد افتتنوا من بعدك قال يارب كيف يفتتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر وأنعمت عليهم ، قال إنهم اتخذوا العجل إلها من دونى وهو عجل ذو جسد له خوار قال يارب من نفخ فيه الروح قال أنا ، قال أنت وعزتك فتنتهم (إن هى إلا فتنتك) الآية

عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ (ليس المعاين كالمخبر قال الله تعالى لموسى إن القوم قد فتنوا فلم يلق الألواح فلما عاين ألقى الألواح فكسرها

عن تميم الدارى قال ـ قلت يارسول الله مررت بمدينة صفتها كيت وكيت قريبة من ساحل البحر ، فقال عليه الصلاة والسلام (تلك أنطاكية) أما إن فى غار من غيرانها رضاضا من الألواح موسى وما من سحابة شرقية ولا غربية تمر بها إلا ألقت عليها من بركاتها ولن تذهب الأيام والليالى حتى يسكنها رجل من أهل بيتى يملؤها عدلا وقسطاً كما ملئت جوراً وظلما) قالوا فلما رأى موسى ما صنع

قومه من بعده من عبادة العجل أخذ بشعر رأس أخيه هرون بيمينه ولحيته بشماله وكان هرون قد اعتزلهم فى إثنى عشر ألفاً (لم يعبدوا العجل) فقال لهرون (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ان لا تتبعن أفعصيت أمرى) هلا قاتلتهم إذ علمت إنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم فقال هرون (يا ابن أم) الآية قال المفسرون كان هرون أخا موسى لأبيه وأمه ولكن أراد بقوله يا ابن أم ترفيقه واستعطافاً عليه (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى بذوائبى (إنى خشيت) إن قاتلتهم أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً فتقول (فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) أى ولم تحفظ وصيتى حين قلت لك (اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) ثم أن موسى أقبل على السامرى وقال (ما خطبك يا سامرى) أى ما أمرك وما شأنك ؟ فقال السامرى (بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول) يعنى أخذت تراباً من أثر فرس جبريل (فنبذتها) وطرحتها فى العجل (وكذلك سولت لى نفسى) أى زينت لى .

قالوا فلما علم بنو إسرائيل إنهم قد أخطئوا وضلوا فى عبادتهم العجل ندموا على ذلك واستغفروا الله تعالى كما قال الله تعالى (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) فقال لهم موسى (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) قالوا له فأى شىء نصنعه وما الحيلة ؟ قال (توبوا إلى الله بارئكم) أى ارجعوا إلى خالقكم قال فكيف نتوب قال (فاقتلوا أنفسكم) أى ليقتل البرىء المجرم (ذلكم) يعنى القتل (خير لكم عند بارئكم)

قال ابن عباس أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالحال التى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل .

وقال قتادة : جعل الله توبة عبدة العجل القتل لأنهم ارتدوا وكفروا والكفر مبيح الدم فلما أمرهم موسى بالقتل استسلموا لأمره وقالوا نصبر لأمر الله ، فجلسوا فى الأفنية محتبين وأظلت عليهم القوم بالسيوف والخناجر فكان الرجل يرى أخاه وابنه وأباه وقريبه وجاره فلم يمكنه إلا إرضاء الله تعالى فقالوا ياموسى

كيف نصنع ؟ فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء حتى لا يبصر بعضهم بعضاً، وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته فكانوا يقتلونهم فلما كثر فيهم القتل وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً دعا موسى وهرون ربهما جزعاً وتضرعاً وقال يارب هلكت بنو إسرائيل البقية فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يرفعوا السلاح ويكفوا القتل فلما انكشفت السحابة عن القتلى اشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه : أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة ؟ فكان من قتل منهم شهيداً ومن بقى منهم مكفراً فذلك قوله تعالى (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) .

وروى أنه اختار من كل سبط ستة نفر فصاروا إثنين وسبعين رجلا فقال إنما أمرت بسبعين رجلا فليتخلف منكم رجلان فتشاحوا على ذلك فقال موسى إن لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فامر موسى السبعين أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا أثوابهم ثم خرج بهم إلى الطور لميقات ربه وذلك قوله تعالى (واختار موسى سبعين رجلا لميقاتنا) الآية ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه فلما دنا موسى إلى الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى إسرائيل أن ينظر إليه فضرب دون الحجاب ودون القوم حتى دخلوا فى الغمام وخروا سجداً وسمعوا الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يكلم موسى ويأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى ، فلما فرغ موسى من الكلام وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهى نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعاً .

قال وهب بل أرسل الله عليهم جنداً من السماء فلما سمعوا حسهم ماتوا يوماً وليلة فذلك قوله تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة فأخذتكم

الصاعقة وأنتم تنظرون) فلما ماتوا قال موسى (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) يا رب كيف أرجع الى بنى إسرائيل ، وقد أهلكت خيارهم ولم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله جميعاً رجلا بعد رجل ينظر بعضهم بعضاً كيف يحيون فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم من بعد موتكم) الآية .

(باب فى قصة قارون حين عصا ربه واستكبر وأورثه ماله الطغيان)
(والبطر حتى أهلكه الله تعالى)

قال الله تعالى (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) الآية قالت العلماء بأخبار القدماء قارون كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث هذا قول أكثر العلماء :

وقال ابن إسحق تزوج يصهر بن قاهث سمين بنت ماريت بن بركيا بن يقشان ابن إبراهيم فولدت له عمران بن يصهر وقارون بن يصهر فنكح عمران بخيت بنت شمويل بن بركيا بن يقشان فولدت هارون وموسى ابن عمران فموسى على قول ابن إسحق بن أخى قارون وقارون عمه لأبيه وأمه على قول الآخرين ابن عمه وعليه أصحاب التواريخ ، وكان قارون أعلم بنى إسرائيل بعد موسى وهرون وأفضلهم وأجملهم .

قال قتادة كان يسمى المنور لحسن صورته ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى فبغى على قومه كما قال الله تعالى (فبغى عليهم) واختلفوا فى معنى هذا البغى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما كان فرعون قد ملك قارون على بنى إسرائيل حين كانوا بمصر .

وأخبرني الحسن بإسناده عن المسيب بن شريك أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم قال كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل وكان يبغى عليهم ويظلمهم . وقال عطاء الخرسانى وشهر بن حوشب زاد عليهم فى الثياب شبراً .

وروى شيبان عن قتادة قال بغى عليهم بالكبر والبذخ وبكثرة ماله وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم كما قال تعالى (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء) الآية .

(وفى الخبر) إن الله تعالى علم موسى الكيمياء ، فعلم موسى أخته فعلمته قارون فكان ذلك سبب أمواله فذلك قوله تعالى (إنما أوتيته على علم عندى) أو بالتصرف فى التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب وقيل فى سبب جمعه تلك الأموال ما أخبرنا الثقفى بإسناده عن أبى الحوارى قال سمعت أبا سليمان الدارانى كان يقول تبدى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام على جبل أربعين سنة يتعبد حتى إذا غلب جميع بنى إسرائيل فى العبادة بعث إليه إبليس شياطينه فلم يقدروا عليه فتقدم هو له وجعل يتعبد مع قارون وجعل إبليس يقهره بالعبادة ويفوقه فخضع له قارون وقال له إبليس يا قارون قد رضينا بهذا الذى نحن فيه ولا يشهد لبنى إسرائيل جماعة ولا نعود لهم مريضاً ولا نشهد جنازة قال فاحدره من الجبل إلى البيعة فكانوا يؤتون بالطعام فقال له إبليس يا قارون قد رضينا أن نكون هكذا كلا على بنى إسرائيل فقال له قارون فأى رأى عندك قال نكتسب يوماً فى الجمعة ونتعبد بقية الجمعة قال فتكسبا فى يوم الجمعة وتعبدا بقيتها فقال إبليس قد رضينا أن نكون هكذا قال قارون فأى الرأى عندك قال نكتسب يوماً ونتعبد يوماً فنتصدق ونعطى ، قال فلما كسبا يوماً وتعبدا يوماً خناس إبليس وتركه ففتحت على قارون أبواب الدنيا فبلغ ماله ما أخبرنا به ابن فنحويه بإسناده عن المسيب بن شريك قال ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة وكانت أربعمائة ألف فى أربعين خزانة فصار فى الثروة وكثرة الأمثال حيث يضرب به الأمثال أنشدنى أبو العباس سهل بن محمد المروزى عن بعضهم :

وعدتنى وعـــدك حتى إذا أطعمتنى من كنز قارون
جئت من الليل بغسالة تغسل ما قلت بصابون

فبغى قارون وطغى وتجبر حين استغنى وأثرى حتى هلك فصار عبرة للعابرين وعظة للباقين وكان أول طغيانه وعصيانه أنه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال فكان يخرج فى زينته وهيئته ويختال كما قال تعالى (فخرج على قومه فى زينته) الآية .

قال مجاهد خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان وعليها المعصفرات وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفرات .

قال وكان ذلك أول يوم ظهرت المعصفرات فى الأرض فيما كان أبى يذكر لى عن مقاتل أنه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليهم الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ستمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب فتمنى أهل الخسارة والجهالة مثل الذى أوتيه فقالوا (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) فأنكر عليهم أهل العلم بالله وقالوا لهم اتقوا الله واعملوا بما أمركم الله به وانتهوا عما نهاكم عنه فإن (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون) عن لذات الدنيا وشهواتها قال الله تعالى (وما يلقاها إلا الذين صبروا) أى لا يوفق لهذه الكلمة إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قال فلما قطع موسى ببنى إسرائيل البحر جعلت الحبارة وهى رياسة المذبحة وبيت القربان لهرون فكانت بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هرون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون فى نفسه من ذلك فأتى موسى وقال ياموسى لك الرياسة والرسالة ولهرون الحبارة ولست أنا فى شىء من ذلك وأنا أقرأ التوراة منكما ولا صبر لى على هذا . فقال موسى والله ما جعلتها أنا فى هرون بل الله جعلها له فقال له قارون والله لا أصدقك فى ذلك حتى تربنى

نه . قال فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال ، هاتوا عصيكم فمن أصبحت عصاه خضراء فهو احق بالحبارة فجمعوا العصى وجاءوا بها وكتب كل واحد إسمه على عصاه فحزمها موسى وألقاها فى القبة التى كان يعبد الله فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى اصبحوا فأصبحت عصا هرون قد اهتزت ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى : ياقارون ترى هذا من فعلى فقال قارون . والله ماهذا بأعجب مما تصنع السحرة وذهب قارون مغاضباً واعتزل موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ولا يزيد كل يوم إلا عتواً وتجبراً .

(قال) جمع قارون بنى إسرائيل وقال لهم ياقوم إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا له أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت فقال آمركم ان تجيئوا بفلانة البغى فنجعل لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرجت عليه بنو إسرائيل فرفضوه فاسترحنا منه فأتوا بها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل ألف دينار وقيل طستا من ذهب على ن تقذفى موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل .

فلما كان من الغد جمع قارون بنى إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بنى إسرائيل اجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شرعهم فخرج إليهم موسى وهم فى براح من الأرض فقام فيهم خطيباً ووعظهم وقال فيما قال . يابنى إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة وإن كان له امرأة رجمناه حتى يموت .

فقال له قارون وإن كنت أنت ؟ قال وإن كنت أنا قال إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال أنا ؟ قال نعم . قال أدعوها فإن قالت فهو كما قالت فدعوها فلما جاءت قال لها موسى يافلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء ، وعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لموسى وبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت .

فلما ناشدها تداركها الله بالتوفيق وقالت فى نفسها لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذى رسول الله فقالت . لا بل كذبوا ولكن جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى فلما تكلمت بهذا الكلام سقط فى يد قارون ونكس رأسه وسكت الملأ وعرف أنه قد وقع فى مهلكة فخر موسى ساجداً لله يبكى ويقول يارب إن عدوك هذا قد آذانى وأراد فضيحتى وسبنى اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى وسلطنى عليه ، فأوحى الله تعالى إليه ان ارفع رأسك وأمر الأرض بما شئت تطعك فقال موسى : يا بنى إسرائيل إن الله تعالى قد بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون ؛ فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا عن قارون ولم يبق معه إلا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى كعابهم ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى جنوبهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أحقابهم ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون بالله والرحم حتى روى فى بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة وموسى فى جميع ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فانطبقت الأرض عليهم وأوحى الله إلى موسى ياموسى ماأفظعك استغاثوا بك سبعين مرة فلم تغثهم ولم ترحمهم أما وعزتى وجلالى لو إياى دعوا لوجدونى قريباً مجيباً .

قال قتادة ذكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم فى كل يوم قامة وأنه يجلجل بهم فيها لا يبلغون قعرها إلى يوم القيامة .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتى عليه قال أحمد بن محمد بن الحسين اخبرنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشير وأحمد بن يونس قال اخبرنا عبد الرزاق اخبرنا معمر بن راشد عن همام ابن منبه قال اخبرنا أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ « بينما رجل يتبختر فى برديه وينظر فى عطفيه وقد أعجبته نفسه إذ خسف

الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قالوا فلما خسف الله بقارون وصاحبيه الأرض أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم إن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وأمواله وكنوزه فدعا الله موسى حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض وأوحى الله تعالى إليه إنى لا أعيد الأرض لأحد بعدك أبداً فذلك قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) فلما حلت نقمة الله بقارون حمد الله تعالى المؤمنون الذين وعظوه وأنذروه بأس الله كما أخبر الله تعالى (إذ قال لقومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) أى لا تبطر ولا تأشر (وابتغ فيما آتــــاك الله الدار الآخرة) الآية وندم الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس وماله وحاله كما قال الله (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) فنجى الله نبيه موسى صلوات الله على سيدنا محمد وعليه وسلامه والمؤمنين من كل بلاء ومحنة ، وأهلك أعداءهم فرعون وهامان وقارون كما قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض) الآيات .

﴿ باب فى قصة موسى حين لقى الخضر وما جرى بينهما من العجائب ﴾
(إلى أن بلغ من أمرهما ما بلغ)

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً) قال الأستاذ الإمام : اختلف العلماء فى السبب الذى قصد موسى لأجله الخضر فروى الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن سعيد بن جبير قال : جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم يا ابن عباس إن نوفا ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى عليه السلام الذى طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا ، قال ابن عباس كذب نوف حدثنى أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أن موسى نبى بنى إسرائيل سأل ربه ، فقال يارب إن كان فى عبادك أحد

هو أعلم منى فدلنى عليه ، فقال الله عز وجل نعم فى عبادى من هو أعلم منك ثم نعت له مكان الخضر عليه السلام وأذن له فى لقائه .

وروى هرون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى ربه فقال يارب أى عبادك أحب إليك ؟ فقال الذى يذكرنى ولا ينسانى . قال فأى عبادك أقضى ؟ قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال يارب أى عبادك أعلم ؟ قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى ، قال فهل فى الأرض أحد أعلم منى ؟ قال نعم قال يارب من هو قال الخضر قال فأين أطلبه ؟ قال على الساحل عند الصخرة التى يفلت عندها الحوت وجعل الحوت علماً له ودليلا . وقال إذا حيى هذا الحوت فإن صاحبك هناك ، وكان قد تزود سمكا مملحاً .

وروى عطية العوفى عن ابن عباس قال لما ظهر موسى وقومه على مصر واستقرت بهم الدار أنزل الله عليهم المن والسلوى فخطب موسى قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم واستخلفهم فى الأرض ؛ قال وكلم الله نبيكم تكليما واصطفاه لنفسه وألقى عليه محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه ، فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرءون التوراة فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا ذكرها وعرفهم إياها ؛ فقال له رجل منهم من بنى إسرائيل قد عرفنا الذى تقول فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يانبى الله ؟ قال لا قال فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم إليه فبعث إليه جبريل عليه السلام ، فقال له ياموسى ما يدريك أين أضع علمى بل إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك فسأل موسى ربه أن يريه إياه فأوحى الله إليه أن ائت البحر فإنك تجد على شاطىء البحر حوتاً فخذه وادفعه إلى فتاك ثم ألزم شاطىء البحر فإذا نسيت الحوت وهلك منك فثم تجد العبد الصالح .

قال فخرج موسى وفتاه يقصدان مجمع البحرين للقاء الخضر عليه السلام ومعهما حوت مالح فذلك قوله تعالى (وإذ قال موسى) يعني ابن عمران (لفتاه) أي لصاحبه يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام (لا ابرح) أي لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) يعني بحر فارس والروم ومما يلي المشرق ، قاله قتادة وقال أبي بن كعب هو أفريقية وقال محمد بن كعب طنجة (أو أمضي حقباً) دهراً وزماناً طويلاً فذهبا ومعهما الخبز والسمك المملوح وسارا حتى انتهيا إلى الصخرة عند مجمع البحرين ليلا فذلك قوله تعالى (فلما بلغا) يعني موسى وفتاه (مجمع بينهما) يعني البحرين (نسيا) تركا (حوتهما) وإنما كان الحوت مع يوشع وهو الذي نسيه يدل عليه قوله تعالى (إني نسيت الحوت) ولكنه صرف النسيان إليهما والمراد به أحدهما كما قال تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرجان من المالح دون العذب (فاتخذ) الحوت (سبيله في البحر سربا) أي مذهباً ومسلكا واختلفوا في ذلك .

فروى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال « انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على إثر الحوت فإذا هو بالخضر عليه السلام »

وقال ابن عباس رأى أثر جناحيه في الطين حين وقع في الماء وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة

وروى ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رءوسهما فناما فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه وسقط في البحر هارباً فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى عليه السلام نسي صاحبه أن يخبره بالحوت. فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه (آتنا غداءنا) الآية وقتادة رد الله إلى الحوت روحه فسرب حتى أفضى إلى البحر ثم سلكه جعل لا يسلك منه موضعاً إلا صار ماء جامداً طريقاً يبساً

قال الحكماء كان لموسى عليه السلام خمسة أسفار : الأول سفر البحر وهو قوله تعالى (ففرقت منكم لما خفتكم) الآية . والثانى سفر الطور وهو قوله تعالى (فلما أتاها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها) الآية وقوله تعالى (فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن) الآية . والثالث سفر الطلب وذلك عند خروجه من مصر قال الله تعالى (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) والرابع سفر الحرب وهو قوله تعالى إخبارا عن قول قومه (فاذهب أنت وربك فقاتلا) الآية والخامس سفر النصب وهو قوله تعالى (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) وذلك أنه لما ألقى على موسى الجوع بعد ماجاوز الصخرة يتذكر الحوت ويرجع إلى موضع مطلبه فقال له فتاه وتذكر (أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت) أى تركته وفقدته . وقيل فيه اضمار تقديره فإنى نسيت أن اذكر أمر الحوت (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً) قال عبد الرحمن بن زيد أى شىء أعجب من حوت كان دهراً من الدهور يؤكل منه ثم صار حياً حتى حشر فى البحر قال وكان شق حوت .

وقال وهب بن منبه ظهر فى الماء من أثر جرى الحوت أخدود شبه نهر حيث دخل إلى حيث انتهى فرجع موسى حتى انتهى إلى مجمع البحرين وإذا هو بالخضر فذلك قوله تعالى (قال ذلك ما كنا نبغ) أى نطلب (فارتدا) فارتجعا (على آثارهما) الذى جاءا منه (قصصا) أى يقصان الأثر (فوجدا عبداً من عبادنا) يعنى الخضر عليه السلام .

﴿ فصل فى ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله ﴾

واسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وإنما لقب بالخضر كما أخبرنا به أبو سعيد محمد بن عبد الله حمدون بقراءتى عليه قال أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسين الشرقى ، قال حدثنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن ابن بشر وأحمد بن يوسف قالوا انبأنا عبد الرزاق انبأنا عبد الله بن حامد الوراق

قال أنبأنا مكى بن عبدان قال انبأنا أبو الأزهر قال حدثنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ (إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء)

أخبرنا أبو نصر محمد بن على بن الفضل الخزاعى قال أنبأنا أبو بكر محمد الحسن القصار قال انبأنا أحمد بن يوسف السلمى قال انبأنا محمد بن يوسف الفريابى قد ذكر سفيان عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمى الخضر لأنه أينما صلى اخضر حوله .

(فصل فى بدء أمر الخضر عليه السلام)

يروى أن رسول الله ﷺ (لما أسرى به إلى السماء بينما هو على البراق وجبريل يمر به إذ وجد رائحة طيبة ، فقال له ياجبريل ماهذه الرائحة الطيبة ؟ قال إنه كان ملك فى الزمان الأول له سيرة حسنة فى أهل مملكته وكان له ابن ولم يكن له ولد غيره قال أصحاب الأخبار وكان أبوه ملكا عظيما فسلمه إلى المؤدب يؤدبه وكان يختلف إليه وكان منزله ومؤدبه رجل عابد كان يمر به فأعجبه حاله فألفه وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه فى المنزل وأبوه يظن أنه عند المعلم حتى شب ونشأ وأخذ من العابد شمائله وعبادته ، فقالوا لأبيه ليس لك ولد غيره يرث ملكك فلو زوجته لعله يرزق أولادا فعرض عليه أبوه التزويج فأبى ثم عاوده فعرض عليه فرضى فزوجه جارية من بنات الملوك فزفت إليه .

فلما بقيت عنده قال لها إنى مخبرك بأمر إن أنت سمعتيه صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة وإن أفشيت سرى عذبك الله فى الدنيا والآخرة : قالت وماذاك ؟ قال إنى رجل مسلم لست على دين أبى وليست النساء من حاجتى فإن رضيت أن تقيمى معى على ذلك وتتابعينى على دينى فذاك إليك وإن أنت أبيت لحقت بأهلك فقالت المرأة بل أقيم معك فلما أتت عليها مدة قالوا لأبيه ماتظن

لابنك إلا عاقر لا يولد له ولد فسأله أبوه فقال ما الذى بيدى وإنما ذلك بيد الله يؤتيه من يشاء فدعا المرأة وسألها فردت عليه مثل مارد عليه الخضر .

فمكث أبوه زمانا ثم دعا ابنه إليه فقال له أحب أن تطلق امرأتك هذه وأزوجك امرأة غيرها ولودا ربما ترزق منها ولدا فكره ذلك الخضر وألح عليه أبوه حتى رق بينهما وزوجه امرأة غيرها ولودا ثيبا فعرض عليها مقالته الأولى فرضيت وقالت أقيم معك فلبثا زمانا ثم إن أباه استبطأ الولد سنة فدعاه وقال له ليس يولد لك فقال ليس ذلك بيدى ولكنه بيد الله ثم إنه دعا امرأته وقال لها أنت امرأة شابة ولود وقد كنت ولدت عند غيرى إنى والست تلدين عنده إنما فقالت مامسنى منذ صحبته وكذلك المرأة الأولى فدعاها وسألها ؟ فقالت مثل ذلك فدعا ابنه وعيره وعنفه . ففزع من أبيه ولم يأمن على نفسه منه فخرج من عنده فهام على وجهه ولم يدر أحد من خلق الله تعالى أين توجه فندم أبوه على مافعل فأرسل فى طلبه مائة رجل من طرق شتى مختلفة فانطلقوا فى طلبه فأدركه منهم عشرة فى جزيرة من جزائر البحر فقال لهم إنى أقول لكم شيئا واحدا فاكتموه عنى فان كتمتموه صرف الله عنكم شر الدنيا وعذاب الآخرة وإن أبيتم ذلك وأفشيتم سرى عذبكم الله فى الدنيا وفى الآخرة قالوا له قل ماشئت قال هل بعث أبى فى طلبى أحدا غيركم ؟ قالوا نعم . فقال لهم إذا فاكتموا أمرى ولا تخبروا أبى أنكم رأيتمونى وقولوا مثل قول نظائركم الذين لو أرسلهم فى طلبى فلم يرونى لأنكم إن أخبرتموه بى وذهبتم بى إليه قتلنى وصرتم أنتم مؤاخذين بدمى فخلوا عنى وانصرفوا .

فلما دخلوا على أبيه قال تسعة منهم قد وجدناه وقال لنا كيت وكيت فخلينا عنه وقال العاشر مالنا به علم ومالى به خبر والتسعة قالوا بلى ظفرنا به وإن شئت أتينا به فقال لهم ارجعوا فى طلبه وأتونى به وإن الخضر خاف أن يظفروا به فانحاز من ذلك الموضع إلى موضع آخر فأتوا إليه فلم يجدوه فرجعوا وقالوا لم نره فقتلهم أبوه .

قال وإن أباه دعا بالمرأة الثيب وقال لها أنت صنعت هذا بابنى حتى هرب فقتلها وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل وقال العاشر الذى أنكر رؤيا الخضر مايؤمننى أن يقتلنى كما قتل القسمة فهرب حتى أتى قرية فاذا المرأة الهاربة أيضا فى تلك القرية فكانت تحتطب . فقالت يوما باسم الله فسمعها الرجل الهارب فقال لها من أنت ؟ فاخبرته خبرها فقال ياهذه أنا العاشر خرجت خوف القتل فهل لك أن أتزوجك ونعبد الله حتى نموت . فقالت نعم ثم إنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة فاتخذا بيتاً من قصب ومكثا فيه ورزقا فيه ثلاثة أولاد فقال لها الرجل إذا أنا مت فادفنينى فى هذا البيت وكذلك كل من مات منكم فانى لا أحب أن تكون قبورنا مع هؤلاء فاذا كان آخرنا موتاً يوصى ان يهدم عليه البيت فمات الرجل فدفنته امرأته .

ثم أنه بلغ فرعون زمانهم أنهم يوحدون الله ويعبدونه فجىء بالمرأة إلى حضرته فأمرت أن ترجع عن دينها فأبت فأمر بقدر من نحاس فلئت ماء وغلى غلياناً شديداً وأمر بالمرأة وولدها ، فلما أحضروا قال لها إرجعى عن دينك وإلا ألقيتك انت وأولادك فى هذا القدر فأبت عليه فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه وكذلك الثانى وكان فى حجرها ابن رضيع فارادوا إلقاءه فرقت المرأة ونازعتهم فى رأيه فتكلم الغلام الرضيع وقال لها اصبرى فإنا جميعاً فى الجنة فلما أرادوا أن يلقوها فى القدر قالت لهم لى إليكم حاجة يسيرة قالوا وماهى . قالت إذا رميتمونى فى القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا فى بيتنا واهدموه علينا ففعلوا ذلك فلما أسرى برسول الله ﷺ وجدوا رائحة طيبة فقال ماهذه ياجبريل فأخبرهم بقصتهم وقال هذه رائحتهم ..

ويروى ان جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ إن قوما من أهل تلك المدينة ركبوا البحر فى تجارتهم فضربتهم الامواج فتكسرت بهم سفينتهم فانفلت منهم رجلان على لوح من ألواحها فضربتهم الأمواج حتى اسندتهم إلى جزيرة من

جزائر البحر فخرجا يجولان بالجزيرة فإذا هما بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلي فجلسا حتى فرغ من صلاته فالتفت إليهما وقال لهما من أنتما؟ قالا نحن من مدينة كذا وكذا خرجنا في هذا البحر لطلب التجارة فانكسرت بنا هذه السفينة ودفعنا إلى هذه الجزيرة فقال اختارا إن شئتما أن تقيما في هذا الموضع تعبدان الله تعالى وتأتيكم أرزاقكما وإن شئتما أردكما إلى منزلكما قالا بل تردنا إلى منازلنا فقال لهما على أن تعطياني عهد الله وميثاقه على أنكما لا تخبران بشيء مما تريانه فأعطياه العهد والميثاق على الكتمان فنظر فإذا سحائب تمر فدعاهن وسألهن فقالت كل واحدة منهن أريد بلد كذا وكذا فدعا التي تريد بلادهما فقال لها احملي هذين حتى تضعيهما فسقطت السحابة وانشقت لهما ثم رفعتهما ومضت حتى وضعتهما على سطحيهما فعزم أحدهما على الكتمان ونزل إلى منزله وعزم الآخر على إذاعته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق إلى باب المدينة ونادى النصيحة فأدخل على الملك فقال له ما نصيحتك؟ فقال رأيت ابنك في موضع كذا وكذا وصنع بي كذا.

فقال له من يعلم ذلك فقال له فلان كان رفيقي فبعث إليه وسأله عما قال؟ فقال أما ركوب البحر فقد ركبنا جميعاً وقد انكسرت السفينة وصرنا على لوح من ألواحها فلم تزل الأمواج تضربنا حتى صرنا إلى الساحل فخرجنا من البحر فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والثمر ترفعنا الأرض وتضعنا أخرى حتى أتينا إلى منازلنا فقال له الغادر ابعث معي رسلك حتى أدفعه إليك وتعلم أن هذا قد كذب فأمر بالرجل الكاتم فحبس وتوعده بالصلب إن وفى صاحبه بما قال وأوعد الغادر بالصلب إن هو كذب ولم يأت به فبعث معه رسلا فركبوا البحر حتى انتهوا إلى الجزيرة فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئاً فرجعوا بالرجل إلى الملك وقالوا هذا أكذب خلق الله ما رأينا مما قال شيئاً فصلبه وخلى عن الآخر.

ثم إن أهل تلك المدينة لم يزالوا يعملون المعاصي حتى غضب الله عليهم وقال جبريل عليه السلام فبعثني الله تعالى إليهم فأدخلت جناحي تحتها واقتلعتها فرفعتها

حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك ثم أمرني فقلبتها فجاءت تهوي بمن فيها حتى انتهيت إلى وجه الأرض فبقي الرجل الكاتم والمرأة الكاتمة من جانب سالمين ثم انطبقت الأرض بمن فيها فلم ينج منهم غيرهما فجعلا يدوران في حدود المدينة فلا يلقى كل واحد منهما غير صاحبه فلما ان كثر ذلك قال الرجل أيتها المرأة قد رأيت ما أصاب القوم وإنه لم يفلت غيري وغيرك فبأي شيء نجونا فأخبريني وأنا أخبرك فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا فاذا قصتهما واحدة وإنما نجاهما الكتمان ، فقال لها هل لك أن تزوجيني نفسك وتخرج إلى مدينة من هذه المدائن فاكتسب عليك وتكتسبين علي حتى يقضي الله من أمرنا ما يشاء ففعلت فذهبا الى مدينة فرعون من الفراعنة فاتخذ لهما بيتاً وولداً لهما أولاد وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشطة لهم فحظت عندهم .

فبينما هي ذات يوم قاعدة تسرح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها فقالت باسم الله تعس من كفر بالله ففزعت الجارية من ذلك وقالت ام امن الله ؟ قالت ربي . فقالت لها إن لك رباً غير أبي ؟ فقالت نعم هو ربي ورب أبيك ورب كل شيء فهبطت الجارية ودخلت على أبيها وقالت تعلم أن فلانة تقول قولا عجباً تقول كذا وكذا . فأرسل إليها فحضرت ، فقال لها ماهذا الذى بلغني عنك ؟ فقالت ما بلغك قال فهل أحد يقول بقولك ؟ قالت نعم بعلي وصبيتي فبعث إليهم وامتحنهم فاذاهم يقولون قولا واحداً فقال لهم إنالانقركم على ماأنتم عليه حتى ترجعوا إلى ديننا فقالوا له اصنع ماأنت صانع فأمر بقدر من نحاس عظيمة فملئت ماء ثم اشعل تحتها حتى اضطرب الماء ثم دعا بالصبية فعرض عليهم وحداً ليكفروا فأبوا أن يكفروا فأخذهم وطرحهم في القدر ثم إنه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى فالقاه في القدر ثم دعا بالمرأة وقال لها إن علينا حقاً فإن أنت رجعت إلى ديننا وإلا القيناك في القدر فقالت له اصنع ماأنت صانع إنها قالت لي اليك حاجة : قال وماهي ، قالت إذا صنعت ماأنت صانع فر ببيتنا ان يحفر فيه حفرة ، ثم تأمر بالقدر فتكمل بما فيه ثم

يأتون بها منزلنا فيسكب مافى القدر فى الحفرة ثم يعاود علينا التراب ثم يهدم علينا البيت ففعل ذلك .

وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ فى حديث أبى كعب أن صاحب موسى ابن عمران الذى أمر بطلبه وبالاقتباس منه هو الخضر عليه السلام ورسول الله ﷺ أعلم الخلق بالأمور الماضية والباقية وموسى بن عمران إنما نبىء فى عصر منوشهر الملك وكان منوشهر الملك مالك بعد جده أفريدون فدل هذا على خطأ من قال أنه أرميا بن خلقيا لأن أرميا كان فى أيام بختنصر وبين عهد موسى وبختنصر من المدة مالا يخفى على أهل العلم .

رجعنا إلى حديث موسى وفتاه — قالوا فانتهى موسى وفتاه إلى الخضر وهو قائم يصلى على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بارضك السلام ؟ فقال أنا موسى بنى إسرائيل قال نعم قال ياموسى لقد كان فى بنى إسرائيل شغل قال موسى إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ثم جلسا يتحدثان فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء فقال الخضر ياموسى خطر ببالك أنك اعلم أهل الأرض ماعلمك وعلمى وعلم جميع الأولين والآخرين فى جنب علم الله تعالى إلا أقل من الماء الذى حملته الخطافة بمنقارها فذلك قوله تعالى (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا) أى نبوءة وحكمة (وعلمناه من لدنا علما)

وقال ابن عباس كان الخضر يعلم علم الغيب فقال موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معى صبرا) لأنى اعلم علم الباطن علم علمنيه الله تعالى (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) يعنى على مالم تعلمه (قال) موسى (ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك امرا قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء) علمته مما تنكره (حتى أحدث لك منه ذكرا) وأبين لك شأنه (فانطلقا) يتمسان سفينة يركبان فيها فمرت بهما سفينة جديدة وثيقة فركباها فقال أصحاب

السفينة هؤلاء لصوص وأمروهم بالخروج منها فقال صاحب السفينة ما هؤلاء بلصوص ولكنى أرى وجوههم وجوه أنبياء .

وقال أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ انطلقا يمشيان على ساحل البحر إذا مرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوال فلما دخلوا البحر أخذ الخضر عليه السلام فأساً فخرق لوحا من السفينة قال موسى (أخرقتها لتغرق أهلها) وقد حملونا وأحسنوا إلينا فخرقت سفينتهم ماهذا جزاؤهم منا (لقد جئت شيئا إمرا) أى عجبا منكراً قال الخضر (ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً) قال موسى (لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) يعنى لاتكلفنى ولا تضيق على أمرى .

ويدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به عبد الله بن حامد أخبرنا أحمد بن عبيد الله أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان اخبرنا يحيى أخبرنا قيس عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن ابى بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (كان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا) فقال الخضر لموسى (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) أى فى فراقى .

أخبرنا عبد الواحد بن حامد الوزان أخبرنا مكى بن عبدان أخبرنا عبد الرحمن ابن بشير أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا حمزة الزيات عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدا بدعائه بدأ بنفسه فقال ذات يوم ، رحمة الله علينا وعلى أخى موسى لو لبثت مع صاحبه لأبصر العجب العجاب ولكنه قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) فانطلقا يمشيان حتى أتيا أهل قرية

واختلفوا فى القرية قال ابن عباس ، هى انطاكية وقال محمد بن سيرين هى ايلة وهى أبعد ارض الله من السماء وقيل هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة وإليها

ينسب النصارى قالوا فوافياها قبل غروب الشمس ، فاستطعما أهلها واستضافاهم فأبوا ان يضيفوهما قالوا كانوا أهل قرية لئاما وقال قتادة فى هذه الآيات شر القرى التى لاتضيف الضيف ولاتعرف لابن السبيل حقه قالوا فلم يجدوا تلك الليلة فى تلك القرية قرى ولا ماء ولا مأوى وكانت ليلة باردة فالتجئوا إلى حائط على شارع الطريق (يريد أن ينقض) أى يكاد ينهدم ويسقط ولم يكن يمر به أهل القرية ولا غيرهم من الناس إلا خوف منه وكان قد بناه رجل صالح .

وقال ابن عباس هدمه وبناه ، وقال سعيد بن جبير مسح الجدار وسواه بيده ومنكبيه فاستقام فقام له موسى (لو شئت لاتخذت عليه اجراً) ليكون لنا بقوتا وبلغة على سفرنا إذ استضفناهم فلم يضيفونا ، فقال الخضر (هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً) ثم أخذ يفسر له فقال (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) الآية .

ويروى عن عكرمة قال ، قلت لابن عباس فى قوله (أما السفينة فكانت لمساكين) كانوا مساكين والسفينة تساوى ألف دينارا ، فقال إن المسافر مسكين وإن كان معه ألف دينار ولهذا قيل إن المسافر وماله على قلة إلا ما وقى الله تعالى (فأردت أن أعيبها) قطعاً لطمع الطامعين فيها ودفعاً لشرهم (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) ووراءهم أى أمامهم قال الله تعالى(من ورائهم جهنم ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) اى أمامهم وقيل خلفهم لأنه كان رجوعهم فى طريقهم عليه ولم يكونوا يعلمون خبره فأعلم الله تعالى الخضر خبره وكان يأخذ كل سفينة صالحة غصباً ، وكذلك كان يقرأها ابن عباس فخرقتها وعبتها كيلا يتعرض لها ذلك الملك .

واختلفوا فى اسم ذلك الملك ، فقال أكثر العلماء إسمه جلندى وكان كافراً وقال ابن إسحق ، كان إسمه منواه بن جلندى الأردنى ، وقال شعيب الجبائى كان اسمه هدد بن بدد وقيل كان لهذا الملك ثلثمائة وستون قصراً فى كل قصر امرأة ، قال فلما جاوز الملك سد الخضر خرق السفينة ورمها (وأما الغلام فكان

أبواه مؤمنين ، فخشينا) أى فعلمنا (أن يرهقهما) يغشاهما (طغيانا وكفراً) فيهلكهما وقيل خشى ان يدرك فيدعو أبويه إلى الكفر فيجيباه ويدخلا معه فى دينه لفرط محبتهما له .

وقيل خشيا على الغلام أن يعمل عمل الفساق فيتغافل أبواه فيدخلان النار (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) وصلاة (وأقرب رحما) .

(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) واسمهما أصرم وصريم (وكان تحته كنز لهما) .

واختلفوا فى ذلك الكنز ماهو ؟ فقال ابن عباس وسعيد بن جبير كان صحفاً مدفونة تحته فيها علم ، وقال الحسن وجعفر بن محمد كان لوحا من ذهب مكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم عجباً لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجباً لمن يوقن بالرزق كيف يتعب ، وعجباً لمن يوقن بالموت كيف يفرح وعجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع وعجباً لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)

وقال آخرون كان ذلك الكنز مما لا يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الجشادى المزكى أخبرنا أبو الحسن أحمد بن قيدوس الطرائفى أخبرنا عثمان بن سعيد أخبرنا صفوان ابن صالح الدمشقى أخبرنا يزيد بن مسلم الصنعانى عن يزيد عن مكحول عن أبى الدرداء قال قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى (وكان تحته كنز لهما) قال كان ذهباً وفضة وكان أبوهما إسمه كاشح وكان صالح تقياً أميناً لحفظاً لصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذى حفظاً به سبعة آباء .

اخبرنا عبدالله بن حامد بن محمد قال أخبرنا بشر بن موسى أخبرنا الحميدى أخبرنا سفيان أخبرنا محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر قال (إن الله عز وجل ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التى هو فيها والدويرات التى حوله فما يزالوا فى حفظ الله . وستره)

وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا رأى إبنه قال : يا بنى لأزيدن من صلاتى من أجلك لعلى أحفظ فيك ، ويتلو هذه الآية .

أخبرنا يحي بن إسماعيل بن سلمة قال كانت لى أخت أسن منى فاختلطت وذهب عقلها فتوحشت وكانت فى غرفة فى أقصى سطوحنا فلبثت كذلك بضع عشرة سنة وكانت مع ذهاب عقلها تحرص على الصلاة والطهور فبينما أنا نائم ذات ليلة إذا أنا بباب بيتى يدق فى نصف الليل فقلت من هذا ؟ فقالت بحة فقلت أختى ؟ قالت أختك فقلت لبيك فقمت فتحت الباب فدخلت ولا عهد لها فى البيت أكثر من عشرين سنة ، فقلت : يا أختى خيراً فقالت خيراً يا أخى بت الليلة فأتانى آت فى منامى فقال لى السلام عليك يا بحة فقلت وعليك السلام ، فقال لى : إن الله قد حفظ أباك إسمعيل بن سلمة بن كهيل بسلمة جدك وحفظك بأبيك إسماعيل فإن شئت دعوت الله لك فيذهب ما بك وإن شئت صبرت ولك الجنة فإن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قد تشفعا لك إلى الله تعالى لحب أبيك وجدك إياهما فقلت إن كان ولا بد من اختيارى أحدهما فأصبر على ما أنا فيه والجنة وإن الله لواسع الفضل لخلقه لا يتعاظمه شيء فى حكمه ولو شاء لجمعهما لى قالت فقيل لى قد جمعهما الله لك ورضى عن أبيك وجدك بحبهما أبا بكر وعمر فانزلى فإن الله أذهب ما كان بك .

ويحكى عن بعض العلوية أنه دخل على هارون الرشيد وقد هم بقتله فلما دخل عليه أكرمه وخلى سبيله فقيل له بم دعوت حتى نجاك الله .

قال قلت : يا من حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظنى منه لصلاح أبيهما احفظنى منه لصلاح آبائى (فأراد ربك أن يبلغا أشـــدهما ويستخرجا كنزهما) المدفون تحت الجدار (وما فعلته عن أمرى) وإنما فعلته بأمر الله تعالى (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) :

ويقال لما عاب موسى على الخضر خرق السفينة وقتله الغلام وإقامته الجدار محتسباً مجاناً قال له يا موسى أتلومنى على خرق السفينة مخافة غرق اهلها ونسيت نفسك

حين ألقتك أمك وأنت صغير فى اليم ضعيف فحفظك الله وتلومنى على قتل الغلام الكافر بلا أمر ونسيت نفسك حين قتلت القبطى بغير أمر ؟ وتلومنى على ترك أخذ الأجر فى إقامة الجدار ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسباً لأجل الملك الجبار .

قال بعض أهل الأخبار هذا ما كان من قصة موسى وفتاه وقصدهما الخضر حيث كانوا فى التيه فلما فارق موسى الخضر رجع إلى قومه وهم فى التيه ،

وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال (ألا أحدثكم عن الخضر ؟) قالوا بلى يا رسول الله قال : بينما الخضر يمشى فى سوق من أسواق بنى إسرائيل إذ لقيه مكاتب فقال له تصدق على بارك الله لك ، فقال آمنت بالله وما يقضى من أمر سيكون ما معى شيء أعطيكه ، فقال له الرجل تصدق على بارك الله عليك فإنى أرى الخير فى وجهك فرجوت الخير من قبلك فقال له الخضر آمنت بالله وما يقضى الله من أمر سيكون ما معى شيء أعطيكه فقال له السائل أسألك بالله لما تصدقت على ؟ فقال له الخضر آمنت بالله ما يقضى من أمر سيكون ما معى شيء أعطيكه إلا أن تأخذ بيدى وتدخلنى السوق فتبيعنى قال الرجل وهل يكون مثل هذا ؟ قال الحق أقول إنك سألتنى بعظيم سألتنى بوجه ربى وقد أجبتك فخذ بيدى وأدخلنى السوق فبعنى فأخذ بيد الخضر فأدخله السوق فباعه بأربعمائة درهم فلبث عند المبتاع أياماً لا يستعمله فى شيء فقال له الخضر استعملنى فقال إنك شيخ كبير وأكره أن أشق عليك قال لا يشق على ذلك قال فقم فانقل هذه الحجارة من ههنا إلى هناك وكانت الحجارة لا ينقلها إلا ستة نفر فى يوم تام فقام ونقلها فى ساعة واحدة وأمره الله تعالى على نقلها بملك من الملائكة فتعجب الرجل منه وقال أحسنت ثم عرض للرجل سفر فقال للخضر إنى أراك أميناً صالحاً ناصحاً فاخلفنى فى أهلى قال نعم إن شاء الله تعالى فاستعملنى فى شيء قال أكره أن أشق عليك قال لا يشق ذلك على فقال اضرب لى لبنا أريده لقصر لى ووصفه له ثم خرج لسفره فلما قضى حاجته ورجع من سفره إذا هو بالخضر عليه السلام قد شيد بنيانه على ما أراد فازداد تعجباً منه وقال له من أنت ؟ قال أنا المملوك الذى كنت اشتريتنى فقال له

سألتك بوجه الله أن تخبرنى من أنت ؟ فقال الخضر إن هذا القسم هو الذى أوقعنى فى العبودية ، أما أنا فسأخبرك أنا الخضر سألنى سائل بوجه الله ربى أن أعطيه ولم يكن معى شىء أعطيه فأمكنته من نفسى حتى باعنى وبلغنى أن من سئل بوجه الله ورد سائله وهو يقدر على قضاء حاجته وقف يوم القيامة بين يدى ربه وليس عليه لحم ولا جلد إلا عظم يتقعقع . قال فبكى ذلك الرجل وانكب عليه يقبله ويقول له بأبى أنت وأمى شفقت عليك ولم أعرفك فاحكم على فى مالى وأهلى وإن أحببت أن أخلى سبيلك فعلت قال نعم بل أحب أن تخلى سبيلى لأعبد ربى وكان الرجل كافراً فأسلم على يديه وأعطاه أربعمائة دينار وخلى سبيله فأوحى الله إليه قد نجيتك من الرق وأسلم الكافر على يديه وأعطاك مكان كل درهم ديناراً لتعلم أن لا يخسر أحد فى معاملتى فهذه آخر قصة الخضر وموسى وقتادة والله أعلم .

{ باب فى ذكر قصة عاميل قتيل بنى إسرائيل وقصة البقرة }

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه إن الله تعالى يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال المفسرون : وجد قتيل فى بنى إسرائيل إسمه عاميل لم يدر من قتله واختلفوا فى قاتله وسبب قتله فقال عطاء والسدى : كان فى بنى إسرائيل رجل كثير المال وله ابن عم مسكين ولا وارث غيره فلما طالت عليه حياته قتله ليرثه .

وقال بعضهم : كان تحت عاميل إبنة عم ما لها فى بنى إسرائيل مثل فى الحسن والجمال فقتله ابن عم لها لينكحها فلما قتله حمله من قرية إلى قرية أخرى فألقاه هناك

قال عكرمة : وكان لبنى إسرائيل مسجد له إثنا عشر باباً لكل سبط منهم باب فوجد قتيل على باب سبط جر إلى باب سبط آخر فاختصم فيه السبطان .

وقال ابن سيرين قتله القاتل ثم احتمله ووضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يطلب ثأره ودمه ويدعيه عليه وقيل ألقاه بين القريتين فاختصم أهلها وجاء أولياؤه إلى موسى وأتوه بناس وادعوا عليهم القتل وسألوه القصاص فسألهم موسى عن ذلك فجحدوا ولم يكن لهم بينة فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم قتال

واختلاف وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم أمر ذلك القتيل فسأل موسى ربه فأمرهم بذبح البقرة فقال لهم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً) جئناك لنسألك عن القتيل فتأمرنا بذبح بقرة وإنما قالوا ذلك لتباعد الأمرين والظاهر ولم يدروا وجه الحكمة فيه فقال موسى (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أى من المستهزئين المؤمنين فلما علم القوم أن ذبح البقرة أمر من الله تعالى قد ألزمهم سألوه الوصف فقال (ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم لكنهم شددوا الأمر على أنفسهم فشدد الله عليهم وإنما كان تشديدهم تقديراً من الله وحكمة وكان السبب فيه على ما ذكره السدى وغيره أن رجلا فى بنى إسرائيل كان باراً بأبيه وبلغ من بره أن رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفاً وكان فيها فضل وربح فقال البائع اعطنى ثمن اللؤلؤة فقال إن أبى نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلنى حتى يستيقظ وأعطيك الثمن فقال أيقظ أباك واعطنى المال فقال ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرة آلاف وانتظرنى حتى ينتبه أبى فقال الرجل أنا أدفع عنك عشرة آلاف إن أيقظت أباك وعجلت النقد فقال أنا أزيدك عشرين ألفاً إن انتظرت انتباهه فقال قبلت فقعد ولم يوقظ أباه فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك فدعا له وجزاه خيراً وقال له أحسنت يا بنى وهذه البقرة لك بما صنعت وكانت بقية بقر كانت لهم وقال رسول الله ﷺ فى هذه القصة انظروا ما صنع الله به لأجل البر .

وقال ابن عباس ووهب وغيرهما من أهل الكتب كان فى بنى إسرائيل رجل صالح وله ولد طفل وكان له عجلة فأتى بالعجلة إلى غيضة وقال اللهم إنى أستودعك هذه العجلة لإبنى حتى يكبر ثم مات الرجل وشبت العجلة والغيضة حتى صارت عواناً وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الإبن وكان باراً بوالدته وكان يقسم الليل إلى ثلاثة أثلاث يصلى ثلثاً وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل بثلثه ويعطى والدته ثلثه .

قالت له أمه يوماً يا بنى إن أباك ورثك عجلة وذهب بها إلى غيضة كذا وكذا واستودعها الله تعالى فانطلق إليها وعزم عليها بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يتخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت إسمها المذهبة لحسن خلقها وصفاء لونها وصفرتها فأتى الغيضة فرآها وهى ترعى فصاح بها الفتى وقال لها أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب أن تردى على فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها وقادها فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى وقالت أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فإن ذلك أهون لك فقال إن أمى لم تأمرنى بذلك وإنما قالت خذ بعنقها فقالت البقرة وإله بنى إسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبداً فانطلق فإنك لو اشرت إلى الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق لفعل لبرك بوالدتك فانطلق الفتى بها فاستقبله عدو الله إبليس فى صورة راع فقال له أيها الفتى إنى راع من رعاة البقر اشتقت إلى أهلى فأخذت ثوراً من ثيرانى وحملت عليه زادى ومتاعى حتى إذا بلغت شطر هذه الطريق ذهبت لأقضى حاجتى فغدا وسط الجبل وماقدرت عليه ، وإنى لأخشى على نفسى الهلكة فإن رأيت أن تحملنى على بقرتك هذه وتنجينى من الموت وأعطيك بقرتين مثل بقرتك ، فلم يفعل الفتى وقال اذهب فتوكل على الله لو علم الله منك اليقين لبلغك بلا زاد ولا راحلة فقال له إبليس لعنه الله إن شئت فبعنيها بحكمك وإن شئت فاحملنى عليها وأعطيك عشرة أمثالها فقال له الفتى إن أمى لم تأمرنى بهذا .

فبينما الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدى البقرة ، ففرت البقرة هاربة فى الفلاة وغاب الراعى فدعاها الفتى وقال باسم الله إله إبراهيم فرجعت إليه البقرة وقالت أيها الفتى البار بوالدته ألم تر إلى الطائر الذى طار فإنه إبليس عدو الله اختلسنى أما أنه لو ركبنى لما قدرت على أبداً فلما دعوت بإله إبراهيم جاءنى ملك انتزعنى من يد إبليس وردنى إليك لبرك بأمك وطاعتك لها .

فجاء بها الفتى إلى أمه فقالت له إنك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها فقال بكم أبيعها ؟ فقالت

بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاى ومشورتى ، وكان ثمن البقرة فى ذلك الوقت ثلاثة دنانير فانطلق بها إلى السوق فبعث الله تعالى إلى الفتى ملكاً ليرى خلقه وقدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خبيرا .

فقال له الملك : بكم تبيع هذه البقرة فقال بثلاثة دنانير واشترط عليه رضا والدتى فقال له الملك أنا أعطيك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمى فردها إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت ارجع فبعها بستة دنانير على رضاى فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق فأتى الملك فقال له استأمرت والدتك ؟ فقال الفتى نعم أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها فقال له الملك إنى أعطيتك إثنا عشر دينارا على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك فقالت إن ذلك الرجل الذى يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك فى صورة آدمى ليختبرك فإذا أتاك فقل له أتأمرنى أن أبيع هذه البقرة أم لا ففعل الفتى ذلك ، فقال له الملك اذهب إلى أمك وقل لها امسكى هذه البقرة فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى إسرائيل ولا تبيعوها إلا بملء مسكها دنانير .

فأمسكا البقرة وقدر الله على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه ورحمة فذلك قوله تعالى (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) وما سمتها قال موسى أنه يعنى الله يقول (إنها بقـــرة لا فارض ولا بكر) أى لا كبيرة ولا صغيرة عوان بين ذلك نصف بين السنين (فافعلوا ما تؤمرون) من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها) قال إنه يقول (إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) إليها وتعجبهم من حسنها وصفاتها لأن العين تسر وتولع بالنظر إلى الشىء الحسن .

وقال على بن أبى طالب من لبس نعلا صفراء قل همه لأن الله تعالى يقول : صفراء فاقع لونها تسر الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) أسائمة أم عاملة (إن البقرة تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون) إلى وصفها .

قال رسول الله ﷺ (وأيم الله لو لم يستثنوا لما بينت منهم إلى آخر الأبد) (قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول) مذللة بالعمل (تثير الأرض) تقلبها للزراعة (ولا تسقى الحرث مسلمة) بريئة من العيوب (لا شية فيها) قال عطاء لا عيب فيها ، وقال قتادة لا بياض فيها أصلا ، وقال محمد بن كعب لا لون فيها يخالف معظم لونها .

قال فلما قال موسى هذا (قالوا الآن جئت بالحق) أى بالوصف الثابت التام البين فطلبوها فلم يجدوها بكمال وصفها إلا عند الفتى البار بأمه فاشتروها منه بملء مسكها ذهباً ، وقال السدى اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً (فذبحوها وما كادوا يفعلون من غلو ثمنها) .

وقال القرطبى : وما كادوا يذبحونها باجتماع أوصافها ، وذلك قوله تعالى (وإذا قتلتم نفساً) يعنى عاميل وهذه الآية أول القصة (فادارأتم فيها) أى فاختلفتم فيها (والله مخرج) أى مظهر (ما كنتم تكتمون) أى تخفون (فقلنا اضربوه) يعنى القتيل (ببعضها) أى بعض البقرة واختلفوا فى بعضها البعض ما هو .

قال ابن عباس ؛ ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو المقتل .

قال الضحاك بلسانها قال حسين بن الفضل ، وهذا أولى الأقاويل لأن المراد من إحياء القتيل كلامه واللسان آلة وقال سعيد بن جبير بعجب ذنبها .

قال غياث وهو أولى التأويلات بالصواب لأن عجب الذنب أساس البدن الذى ركب عليه الخلق وأول ما يخلق الله وآخر ما يبلى .

﴿ باب فى ذكر بناء بيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة ﴾
(وصفة النار التى كانت تأكل القربان وما أمر به موسى عليه السلام من ذلك)

قال الله تعالى (الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) الآية .

أنبأنا محمد بن حمدويه بإسناده عن وهب بن منبه قال ؛ وأوحى الله إلى موسى أن يتخذ مسجداً لجماعتهم وبيت قدس للتوراة والتابوت والسكينة وقباباً للقربان وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها ، وأن تكون تلك الجلود جلود ذبائح القربان وحبالها التى تمد بها من أصواف تلك الذبائح وعهد إليه أن لا تزال تلك الحبال حاتض ولا يدمغ تلك الجلود جنب ن وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عمد من نحاس طول كل عمود منها أربعوا ذراعاً ويجعل فيها إثنى عشر قسماً مسرجاً ؛ فإذا انقضى وصار إثنى عشر جزء ، جعل على كل جزء بما فيه من العمد سبطاً من أسباط بنى إسرائيل وأمره أن يجعل سعة تلك السرادقات ستمائة ذراع وأن ينصب فيه سبعة قباب ستة منها مشتبكة بقضبان الذهب والفضة كل واحدة منها منصوبة على عمود من فضة طوله أربعون ذراعاً.

وأوحى الله اليه انى منزل عليكم من السماء ناراً لا دخان لها ولا تحرق شيئاً ولا تطفأ أبداً لتأكل القرابين المتقبلة وتسرج القناديل التى ببيت المقدس وهى من ذهب معلقة بسلاسل من الذهب منظومة من اليواقيت واللالىء وأنواع الجواهر وأمره أن يضع فى وسط البيت صخرة عظيمة من الرخام وينقر فيها نقرة لتكون كانون تلك النار التى تنزل من السماء فدعا موسى أخاه هرون وقال له : ان الله قد اصطفانى بنار تنزل من السماء تأكل القرابين المتقبلة وتسرج منها القناديل وأوصانى بها ؛ وإنى قد اصطفيتك بها وأوصيتك بها .

فدعا هرون إبنيه وقال لهما ؛ إن الله تعالى قد اصطفى موسى بأمره وأوصاه به وإنه قد اصطفانى له وأوصانى به وإنى قد اصطفيتكما له وأوصيتكما به وكان أولاد

هرون هم الذين يلون سدنة هذا البيت وأمر القربان والنار فشربوا ذات ليلة حتى ثملوا ثم دخلوا البيت وأسرجوا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا فغضب الله عليهم وسلط عليهم تلك النار فأحرقتهما وموسى بن هرون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من أمر الله شيئاً فأوحى الله تعالى إلى موسى وهكذا أفعل بمن عصانى ممن يعرفنى فكيف أفعل بمن لا يعرفنى من أعدائى وهذا آخر القصة والله أعلم .

﴿ باب فى ذكر مسير بنى إسرائيل إلى الشام حين جاوز البحر ﴾
(وصفة حرب الجبارين وقصة التيه وما يتعلق بذلك)

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً) الآيات اختلفت عبارات المفسرين فى الأرض المقدسة ما هى :

فقال مجاهد هو الطور وما حوله ؛ وقال مقاتل هى إيلياء وبيت المقدس ؛ وقال عبد الله بن عمر الحرم محرم بمقداره من السموات والأرض والبيت المقدس مقدس بمقداره من السموات والأرض ؛ وقال عكرمة والسدى هى أريحاء ؛ وقال الكلبى هى دمشق وفلسطين وبعض الأردن ؛ وقال الضحاك هى الرملة والأردن وفلسطين ؛ وقال قتادة هى الشام كله .

﴿ فصل فى فضل الشام وأهله ﴾

قال زيد بن ثابت بينما نحن جلوس عند النبى ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال (طوبى لأهل الشام) قيل يا رسول الله ولم ذلك قال (إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم) .

عن عبد الله بن حوالة قال ؛ كنا عند النبى ﷺ فقال (والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله لكم أرض فارس والروم وأرض حمير حتى تكونوا أجناداً ثلاثة ؛ جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن ، فقلت يارسول الله اختر لى

إن أدركنى ذلك ، فقال أختار لك الشام فإنها صفوة الله تعالى من بلاده وإليها يجتبي صفوته من عباده يا أهل الإسلام عليكم بالشام فإن صفوة الله من الأرض الشام وكان الله تعالى قد تكفل لى بالشام وأهله .

وقال عبد الله بن مسعود ، حدثنا رسول الله ﷺ قال (قسم الله الخير عشرة أجزاء فجعل منه تسعة أجزاء فى الشام وواحد فى العراق) وقسم الله الشر عشرة أجزاء فجعل منه تسعة فى العراق وواحد بالشام .

ودخل الشام عشرة آلاف عين رأت النبى ﷺ ونزل حمص تسعمائة من أصحاب النبى ﷺ فيهم سبعون بدرياً

وقال الكلبى صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان وقيل له انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك من بعدك فذلك قوله تعالى (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) يعنى كتب الله فى اللوح المحفوظ أنها لكم المساكن ، وقال ابن إسحق وهبها الله لكم مساكن ، وقال السدى أمركم أن تدخلوها

(ذكر قصة بلعام بن باعوراء)

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية واختلفوا فيه فقال أكثر المفسرين هو بلعام بن باعوراء بن باعر بن أيد بن مارث بن لوط وكان من الكنعانيين من مدينة بلقاء وهى مدينة الجبارين وسميت بلقاء لأن ملكها رجل يقال له بالق بن صافوراء

وكانت قصة بلعام على ما ذكره ابن عباس وابن إسحق والسدى والكلبى وغيرهم أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إلى بلعام وكان عنده إسم الله الأعظم فقالوا له إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وإنا قومك وبنو عمك وجيرانك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فأقدم إلينا وأشر علينا فى هذا الرجل العدو الذى قد أرهقنا

فادع الله أن يرد عنا موسى وقومه فقال لهم بلعام : ويلكم هذا نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت ذلك ذهبت دنياى وآخرتى - فلم يزالوا حتى قال لهم اصبروا حتى أستأمر ربى ، وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام فتآمر فى الدعاء عليهم فى المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه ، إنى قد آمرت ربى فى الدعاء عليهم فنهيت عن ذلك فراجعوه فقال حتى أؤامر ثانياً فآمر فلم يجب فقال له آمرت فلم يجب لى شيئاً فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما فعل فى المرة الأولى فلم يزالوا يرفقون به ويناشدونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فقالوا لبعضهم اهدوا إليه فيقال إنهم أهدوا إليه هدية فقبلها

ويقال إن بلعام بن باعوراء لما أبى أن يدعو على موسى وقومه اجتمع آراء قومه على أن يحملوا شيئاً إلى امرأته وقالوا إنها فقيرة وإنه يصغى إلى رأيها فانطلق عشرة من عظمائهم وحمل كل واحد منهم صحيفة من ذهب مملوءة ورقاً فأهدوها له فأقبلت على صاحبها وألحت عليه حتى قالت له ارجع إلى ربك فاسأله أن يأذن لك فى مؤازرتهم والدعاء على عدوهم فلم تزل به حتى استجاب فلم يجب إليه بشىء فقالت له إنه قد خيرك فى الدعاء عليهم فلو لم يأذن لنهاك قالوا فركب أتاناً له متوجهاً إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال له حسان وكانت مراكب العباد الأولين الأتن ؛ فما سار عليها غير بعيد ربضت به فنزل عنها وضربها حتى أزلفها فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها حتى أزلفها فأذن الله تعالى لها فى الكلام حجة عليه فقالت له ؛ ويحك يا بلعام أين تذهب ألا ترى أن الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلما سمع ذلك خر ساجداً فلم يزل باكياً متضرعاً حتى غابت عنه الملائكة

قال مقاتل ؛ إن ملك البلقاء قال لبلعم ادع الله على موسى وإلا قتلتك فقال إنه من أهل دينى ولا أدعو عليهم فجىء بخشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على

أتان له ليدعو عليه فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها فقالت له لم تضربني وأنا مأمورة فلا تظلمني وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع فأخبر الملك فقال له لتدعون عليه وإلا صلبتك فدعا على موسى بالإسم الأعظم أى لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه فقال موسى يا رب بأى ذنب وقعنا في التيه ؟ قال بدعاء بلعام فقال موسى يا رب كما سمعت دعاءه على فاسمع دعائى عليه أن تنزع منه الإسم الأعظم والإيمان فسلخه الله مما كان عليه ونزعت منه المعرفة فخرجت كحمامة بيضاء وأنزل الله تعالى هذه الآية

وقال عبد الله بن عمرو وزيد بن أسلم وأبو روق أنزلت هذه الآية في أمية ابن أبي الصلت الثقفي كانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب السالفة وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد ﷺ حسده وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مر بقتلى بدر فسأل عنهم فقيل له قتلهم محمد ، فقال لو كان نبياً ما قتل أقرباءه

فلما مات أمية أتت أخته فارعة رسول الله ﷺ فسألها عن وفاة أخيها فقالت بينما هو راقد إذ أتاه رجلان فكشطا سقف البيت ونزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه أوعى ؟ قال وعى ، قال أزكا ؟ قال زكا ، قالت فسألته عن ذلك فقال خير أريد بى ؛ ثم قطرت عيناه ، ثم غشى عليه فلما أفاق قال :

كل عيش وإن تطاول دهراً صائر أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لى فى تلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ ما أطيبه من شعر سألتك بالله أن تنشدى شعر أخيك فأنشدته :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا فلا شىء أعلى منك جداً وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهى قصيدة طويلة وأنشدته حتى أتت على آخرها ثم أنها أنشدته قصيدته التى يقول فيها :

عند ذى العرش يعرضون عليه ... يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم تأتيه وهو رب رحيم ... إنه كان وعده مأتيا
يوم تأتيه مثل ما قال فرداً ... لم يذر فيه رشداً وغوياً
أسعيد سعادة أنا ارجو ... أم مهان بما كسبت شقيا
رب إن تعف فالمعافاة ظنى ... أو تعاقب فلم تعاقب بريا
إن أؤاخذ بما اجترمت فإنى ... سوف القى من العذاب قويا

فقال ﷺ (آمن شعره وكفر قلبه) فانزل الله تعالى فيه (واتل عليهم نبأ آتيناه آياتنا) الآية .

قال سعيد بن المسيب نزلت فى أبى عامر بن النعمان بن صيفى الراهب الذى سماه النبى ﷺ الفاسق ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح فقدم المدينة ، فقال النبى ﷺ ما هذا الذى جئت به ؟ قال جئت بالحنيفية دين إبراهيم قال فانا عليها فقال النبى ﷺ لست عليها ولكنك ادخلت فيها ما ليس منها فقال أبو عامر امات الله الكاذب منا فى مناظرته طريداً فريداً فخرج إلى الشام وارسل إلى المنافقين أعدوا القوة والسلاح وابنوا لى مسجداً فإنى ذاهب إلى قيصر وآتى بجند لنخرج محمداً وأصحابه من المدينة فذلك قوله تعالى (وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) يعنى انتظاراً لمجيئه فمات فى الشام طريدا وحيدا فريدا ، ومنهم من قال إنها نزلت فى البسوس ، وكان رجلا قد اعطى ثلاث دعوات مستجابات ، وكان له امرأة وله منها ولد ، فقالت له اجعل لى منها واحدة ، فقال لك منها دعوة فما تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلنى اجمل امرأة فى بنى إسرائيل فدعا فجعلت أجمل امرأة فى بنى إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الرجل فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس لنا على هذا قرار ولا صبر صارت آمنة كلبة نباحة ، وان الناس يعيروننا بها فادع الله أن يردها إلى الحالة التى كانت عليها فدعا الله فصارت كما كانت فذهبت فيها الثلاث دعوات كلها .

(باب فى ذكر النقباء الذين اختارهم موسى ليكونوا كفلاء على قومهم)
(حين بعثه إياهم إلى أرض كنعان جواسيس له ولقومه)

قال الله تعالى (ولقد اخذنا ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم إثنى عشر نقيباً) الآية وذلك أن الله تعالى وعد موسى أن يورثه قومه الأرض المقدسة وهى الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون وهم العمالقة من ولد عملاق بن لاوذ بن سام ابن نوح ووعده الله أن يهلكهم ويجعل أرض الشام مساكن لبنى إسرائيل فلما ..رت ببنى إسرائيل الدار أمرهم الله بالمسير إلى اريحاء من أرض الشام وهى .. المقدسة فقال يا موسى إنى قد كتبتها لك دارا وقرارا فاخرج إليها .. من العدو فإنى ناصركم عليهم فخذ من قومك إثنا عشر رجلا من .. يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به فاختار موسى من كل .. نقيبا وامره عليهم وهذه اسماؤهم من سبط روبيل شموع بن ذكور ومن سبط شمعون شوقط بن حورى ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ومن سبط جابذ ابن يوسف ومن سبط ريالون حدى بن سورى ومن سبط اشير شايون بن مليكيك ومن سبط يقال حي بن وقسى ومن سبط دان حمل بن وكيل بن خمل ومن سبط لاوى حولا بن مليكا ومن سبط يوسف افرائيم ومن سبط افرائيم يوشع بن نون وهما سبطان لموسى ومن سبط ميشا حي بن موسى ومن سبط بنيامين ناظم بن زقون .

ثم إنه سار ببنى إسرائيل قاصدا اريحاء فبعث إليها هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار له ويعلمون حالها وحال اهلها فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج ابن عنق .

(فصل فى ذكر أخبار جمل من أخبار عوج بن عنق وأحواله)

قال ابن عمر كان طول عوج ثلاثة وعشرون الف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً بالذراع الأول وكان عوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله

ويروى أنه أتى نوحاً فى أيام الطوفان فقال له احملنى معك فى سفينتك فقال له اذهب يا عدو الله فإنى لم أومر بك فطبق الماء الأرض من سهل ومن جبل ؛ وما جاوز ركبتيه وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى اهلكه الله على يد موسى وكان لموسى عسكر فرسخ فى فرسخ فجاء عوج ونظر إليهم ثم جاء إلى الجبل وقدر منه صخرة على قدر العسكر ثم حملها ليطبقها عليهم فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة وانثقبت فوقعت فى عنق عوج بن عنق فطوقته وصرعته فاقبل موسى وطوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع وقفز إلى فوق عشرة اذرع فما أصاب منه إلا كعبه وهو مصروع فى الأرض فقتله قالوا فاقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه فلما قتل وقع على نيل مصر فحسره سنة قالوا وكانت أمه عنق هى إحدى بنات آدم من صلبه ويقال إنها كانت أول من بغى على وجه الأرض وكان كل اصبع من أصابعها طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين كل أصبع ظفران حادان مثل المنجلين وكان موضع مقعدها جريبة من الأرض ولما بلغت بعث الله إليها أسودا كالفيلة وذئابا ونمورا كالإبل ونسورا كالحمر وسلطهم عليها فقتلوها وأكلوها

قال تعالى (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين) الآية قال قتادة كان لهم اجسام وخلق عجيب ليس لغيرهم مثله (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) قال موسى ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم فإن الله سيفتحها عليكم وإن الذى انجاكم من آل فرعون وفلق لكم البحر

هو الذى يبلغكم ويظهركم عليهم فلم يقبلوا قوله ولم يفعلوا وردوا عليه أمره وهموا بالانصراف إلى مصر فخرج يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وهما اللذان أخبر عنهما بالتوفيق والعصمة فى قوله تعالى (قال رجلان من اللذين يخافون أنعم الله عليهما) بالتوفيق والعصمة (ادخلوا عليهم الباب) يعنى باب مدينة الجبارين فإذا دخلتموه فإنكم غالبون لأن الله منجز وعده فإنا رأيناهم وخبرناهم فكانت جسومهم عظيمة قوية وقلوبهم ضعيفة فلا تخشوهم وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين فأراد بنو اسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما وقالوا يا موسى إنا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون

وروى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد عن البيت إنى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت فاستشار أصحابه فى ذلك

فقال المقداد بن الأسود السكندرى إنا والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا لقاعدون ولكنا نقول إنا معك مقاتلون والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك وبين يديك ولو خضت بحرا لخضناه ولو تسنمت جبلا لعلوناه ولو ذهبت بنا إلى برك الغماد يعنى مدينة بالحبشة لتبعناك فلما سمع أصحاب النبى ﷺ تابعوه على ذلك فاشرق لذلك وجه النبى ﷺ

قال ابن عباس لأن أكون صاحب هذا المشهد أحب إلى من الدنيا وما فيها

قال فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيهم ومخالفتهم أمر ربهم سوى يوشع وكالب غضب موسى فدعا عليهم وقال (رب إنى لا أملك إلا نفسى واخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) اى العاصين وكانت عجلة عجلها موسى فظهر الغمام على باب فيه موسى واوحى الله تعالى إلى موسى (إلى متى يعصينى هذا الشعب وإلى متى لا يصدقون بهذه الايات لأهلكنهم جميعاً ولأجعل لك شعباً اقوى وأكبر منهم) فقال موسى : إلهى لو انك قتلت هذا الشعب كلهم كرجل واحد لقالت الأمم الذين سمعوا ذلك إنما قتلت هذا الشعب من أجل أنه لم

يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة فقتلهم فى البرية وإنك طويل صبرك كثيرة نعمتك وأنت تغفر الذنوب وتحفظ الآباء من الأبناء وأبناء الأبناء فاغفر لهم ولا تو بقهم .

﴿ استجاب الله لموسى وغفر لهم ﴾

فقال الله تعالى لموسى (إنى غفرت لهم بكلمتك ولكن بعد ما سميتهم فاسقين ودعوت عليهم ، حلفت بعزتى لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع بن نون وكالب ولآتينهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الأيام التى تحبسوا فيها سنة) وكانت أربعين يوماً وليأتينهم حتفهم فى هذه القفار .

وأما بنوهم الذين لم يعصونى ولم يعملوا الخير ولا الشر فإنهم يدخلون الأرض المقدسة .

فذلك قوله تعالى (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) متحيرين (فلا تأس على القوم الفاسقين) .

فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة ونشأت النواشىء من ذراريهم ساروا إلى حرب الجبارين وفتح الله لهم .

(باب فى ذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل فى التيه وخصهم بذلك)
(ورفع عنهم الهلاك كرامة لنبيه وصفيه موسى عليه السلام)

قال الله تعالى (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الآية كقوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) والعد لا يقع على الواحد (التى أنعمت عليكم) أى على أجدادكم وأسلافكم .

وذلك أن الله تعالى فلق لهم البحر وأنجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأنزل عليهم التوراة فيها بيان كل شيء يحتاجون إليه وأعطاهم ما أعطاهم فى التيه وذلك أنهم قالوا لموسى أهلكتنا وأخرجتنا من العمران والبنيان إلى مفازة لا ظل فيها ولا كون فأنزل الله تعالى عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطر بل أرق وأطيب وأبرد منه فأظلتهم وكانت تسير بسيرهم إذا ساروا وتدور عليهم من فوقهم إذا نزلوا وذلك قوله تعالى (وظللنا عليهم الغمام) يعنى فى التيه يقيكم حر الشمس ومنها أنه جعل لهم عموداً من نور يضىء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر ، فقالوا هذا الظل والنور قد حصل فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن .

واختلفوا فيه فقال مجاهد هو شيء كالصمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد وقال الضحاك هو البر يختبز ، وقال وهب هو الخبز الرقاق ، وقال السدى كان عسل يقع على الشجر من الليل فيأكلون منه ، وقال عكرمة هو شيء أنزله الله عليهم مثل الربو الغليظ ، وقال الزجاجى المن ما يمن الله به بما لا تعب فيه ولا نصب ، وقال النبى ﷺ (الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين) .

قالوا وكان الله ينزل هذا المن كل ليلة يقع على الأشجار مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع كل ليلة .

فقالوا يا موسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع الله ربك لنا يطعمنا اللحم فدعا موسى فأنزل الله عليهم السلوى .

واختلفوا فيه فقال ابن عباس وأكثر الناس هو طائر يشبه السمانى .

وقال أبو العالية ومقاتل هو طير أحمر بعثه الله عليهم فأمطر به السماء في عرض ميل وقدر رمح فى السماء بعضها على بعض وكانت السماء تمطر عليهم ذلك ، وقيل إنه كان طيراً مثل فراخ الحمام طيباً سميناً قد تمعط ريشه وزغبه وكانت الريح تأتى به إليهم فيصبحون وهو فى معسكرهم .

وقيل إنه كان يأتيهم فيسترسل إليهم فيأخذونه بأيديهم ، وقال عكرمة هو طير يكون بالهند أكبر من العصفور ، وقال المؤرخ هو العسل بلغة كنانة قال شاعرهم

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ألذ من السلوى إذا ما نشورها

فكان الله ينزل عليهم المن والسلوى ، وكان أحدهم يأخذ ما يكفيه يومه وليلته فإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت فذلك قوله تعالى (وأنزل عليكم المن والسلوى كلوا) أى قلنا لهم كلوا من طيبات حلال ما رزقناكم ولا تدخروا لغد فخبأوا لغد فدود وفسد ما أدخروا وقطع الله عنهم ذلك .

قال الله تعالى (وما ظلمونا) أى أضرونا بالمعصية ومخالفة الأمر (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) باستصحابهم الغذاء وقطع عنهم مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا مشقة فى الدنيا ولا حساب ولا تبعة فى العقبى .

أخبرنا شعيب بن محمد قال أخبرنا مكى بن عبدان قال أخبرنا محمد بن الأزهر قال حدثنا روح بن عبادة قال حدثنا عوف بن عبد الله عن جلاس بن عمر عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ولم يخبث الطعام ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها) ومنها أنهم عطشوا فى التيه فقالوا يا موسى من أين نشرب ؟ فاستسقى لهم موسى فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر فقالوا

كيف بنا إذا مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التى ليس فيها حجارة فأمر موسى أن يحمل معه حجراً فحيثما نزل ألقاه .

وقال آخرون : كان حجراً مخصوصاً بعينه ، والدليل عليه قوله تعالى الحجر فادخل الألف واللام للتعريف والتخصيص كقوله : رأيت الرجل .

ثم اختلفوا فى ذلك الحجر ما هو ؟ فقال ابن عباس كان حجراً خفيفاً مربعاً مثل رأس الرجل أمر أن يحمله فحمله فكان يضعه فى مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه فيتفجر عيوناً كما ذكرنا فسقاهم .

وقال سعيد بن جبير هو الحجر الذى وضع موسى عليه ثوبه ليغتسل ففر الحجر بثوبه ، فلما وقف الحجر أتاه جبريل عليه السلام فقال يا موسى أن الله يقول لك ارفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة وهو الذى ذكره الله تعالى فى قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله تعالى مما قالوا) الآية وهو ما أخبرنا به الحسن بن أحمد الخلدى بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال (كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فجمح فى أثره موسى يقول ثوبى يا حجر ثوبى ياحجر حتى نظر بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس قال فقام الحجر بعد ما نظر إليه بنو إسرائيل فأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضرباً فقال أبو هريرة والله إن أثر ضرب موسى بالحجر ستة أو سبعة .

قال عبد العزيز الكنانى كان موسى ضرب الحجر إثنى عشرة ضربة فكان يظهر فى كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة ، ثم ينفجر بالأنهار المطرودة فذلك وله تعالى « فانفجرت منه إثنتا عشر عيناً » .

ومنها أنهم قالوا لموسى فى التيه من أين لنا اللباس فخلد الله تعالى ثيابهم التى عليهم حتى لاتزيد على الأيام ومرور الأعوام إلا جدة وظرافة ولا تخلق ولاتبلى وتنموا على صبيانهم كما تنموا فمكثوا على ذلك زماناً طويلا والله أعلم .

(باب فتح أريحاء ونزول بنى إسرائيل الشام)

اختلف العلماء فيمن تولى حرب الجبارين وفيمن كان على يده الفتح فقال قوم
إنما فتح أريحاء موسى بن يوشع وكان يوشع على مقدمته فسار موسى إليهم بمن
بقى من بنى إسرائيل فى التيه ولم يمت فى التيه فدخلها بهم يوشع وقتل الجبارين
الذين كانوا بها فدخلها موسى ببنى إسرائيل فقام فيها ما شاء الله أن يقيم ثم قبضه
الله تعالى ولم يعلم أحد قبره من الناس وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها إلى
الحق لإجماع العلماء بأخبار الأنبياء .

أن عوج بن عنق قتله موسى ، وقال آخرون : ما قاتل الجبارين إلا يوشع
بن نون ولم يسر إليهم بعد موت موسى وهـلاك من كان أبى المسير إليها
وقالوا مات موسى وهرون عليهما السلام فى التيه .

(قصة وفاة هرون عليه السلام)

قال السدى أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : إنى متوف
هرون فأت جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل وإذا هما
بشجرة لم ير مثلها وبيت مبنى وفيه سريراً عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر
هرون إلى ذلك أعجبه وقال يا موسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير فقال نم
عليه فقال إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على فقال موسى لا تخف أنا
أكفيك رب هذا البيت فنم فقال يا موسى نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب
علينا جميعاً فنام موسى وأخذ هرون الموت .

وقال عمرو بن ميمون : مات موسى وهرون فى التيه ومات هرون قبل موسى
وكان خرجا فى التيه إلى بعض الكهوف فمات هرون ودفنه وانصرف إلى بنى إسرائيل
فقال أين هرون ؟ قال مات قالوا كذبت ولكنك قتلته لحبنا إياه وكان محبباً فى
بنى إسرائيل فتضرع موسى إلى ربه وشكا إلى ربه ما لقى من بنى إسرائيل .

فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره فإنى باعثه حتى يخبرهم أنه مات ولم
تقتله فانطلق بهم إلى قبر هرون فناداه يا هرون فخرج من قبره ينفض التراب عن
رأسه فقال له أنا قتلتك قال لا والله ولكنى مت فعاد وانصرفوا والله أعلم .

(ذكر وفاة موسى عليه السلام)

قال ابن إسحق : كان موسى قد كره الموت واستعظمه فلما كرهه أراد أن يحبب إليه الموت ويكره إليه الحياة ، وكان يوشع بن نون يغدو إليه ويروح فيقول له موسى يا نبي الله ما أحدث الله إليك فيقول له يوشع يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدىء به وتذكره ولا يذكر له شيئاً ، فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت .

قال الأستاذ بإسناده ؛ حدثني عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهباً يقول: وذكر من كرامة موسى عليه السلام أنه ضاق ببني إسرائيل ذرعاً لما كثروا عليه فبعث الله إليه ألف ملك يكونون أعواناً له ، فلما مال الناس إليهم وجد موسى في نفسه غيرة فأماتهم الله لكرامته في يوم واحد .

واختلفوا في صفة موت موسى عليه السلام .

حدثنا أبو سعيد محمد بن عبدالله بن حمدون بإسناده عن أبي عن رسول الله ﷺ قال : جاء ملك الموت إلى موسى فقال له أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها قال فرجع ملك الموت إلى الله عز وجل فقال يا رب إنك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت وفقأ عيني فرد الله عينه وقال ارجع إلى عبدي وقل له الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعر فانك تعيش بعدد كل شعرة من ذلك سنة قال ثم ماذا ؟ قال ثم تموت ، قال فالآن من قريب قال يا رب فادنني من الأرض المقدسة رمية حجر .

قال رسول الله ﷺ . لو كنت عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر .

قال سمعت أبا سعيد بن حمدون يقول : سمعت أبا حامد الشرقي يقول : سمعت محمد بن يحيى يقول قد صح هذا عن رسول الله ﷺ يعني قصة ملك الموت وموسى عليه السلام لا يردها إلا كل مبتدع ضال .

وفي حديث آخر : أن رسول الله ﷺ قال : أن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا حتى أتى موسى ليقبضه فلطمه ففقأ عينه فجاء ملك الموت بعد ذلك خيفة .

ويروى أن يوشع بن نون رآه بعد موته في المنام فقال : كيف وجدت الموت يا نبي الله ؟ قال : كشاة تسلخ وهي في الحياة .

ويروى أن موسى لما مات قالت الملائكة بعضهم لبعض مات صفي الله موسى ابن عمران فمن الذي يطمع في البقاء ، وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة عشرون منها في ملك أفريدون ومائة سنة في ملك منوجهر .

قال الأستاذ : رجعنا إلى قصة حرب أريحاء وخبر الفتح ، قال : فلما انقضت الأربعون سنة ومات موسى بعث الله يوشع بن نون نبيا فأخبرهم أنه نبي الله وأن الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وبايعوه فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر ،

فلما كان في الشهر السابع نفخوا في القرون وصاحوا صيحة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم وجعلوا يقتلونهم فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها ولا يقطعونها

وكان القتال يوم الجمعة فبقي منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فخشي يوشع أن يعجزوه فقال : اللهم اردد الشمس علي ، أو أنه قال للشمس إنك في طاعة الله وأنا في طاعة الله فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غروب الشمس فردت له الشمس وزيد له في النهار ساعة واحدة حتى قتلهم أجمعين .

أخبرنا أحمد بن عبد الله بن حامد الأصفهانى بإسناده عن عروة بن عبد الله قال : دخلت على فاطمة بنت على رضوان الله عليهما فرايت فى عنقها خرزاً ، ورأيت فى يدها مسكتين غليظتين وهى عجوز كبيرة ، فقلت لها ما هذا ؟ فقالت إنه يكره للمرأة أن تتشبه بالرجل .

ثم حدثتنى أن أسماء بنت عميس الخثعمية حدثتها أن على بن أبى طالب رضى الله عنه كان مع نبى الله وقد أوحى الله إليـــه فجعله بثوبه ولم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس تقول غابت أو أرادت أن تغيب ثم إن نبى الله سرى عنه فقال : أصليت يا على ؟ قال لا ، فقال النبى ﷺ « اللهم اردد عليه الشمس » فرجعت حتى بلغت نصف المسجد .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ غزا نبى من الأنبياء فقال القوم : لا يتبعنى رجل كان قد ملك بضع أمرة وهو يريد أن يبنى بها ولا آخر قد بنى له بيتاً ولم يرفع سقفه ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها قال فدنا من القوم صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقالت الشمس أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على ساعة فحبست له ساعة حتى فتح الله عليه .

قال ثم وضعت الغنيمة فجاءت النار فلم تأكلها فقال إن فيكم غولا فليبايعنى من كل قبيلة منكم رجل فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول أنتم غللتم .

قالت : فأخرجوا مثل رأس البقره من ذهب فألقوه فى الغنيمة وهى بالصعيد فجاءت النار فأكلتها .

قال النبى ﷺ (لم تحل الغنائم لأحد قبلنا ، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا) .

قالوا ثم أمرهم الله أن يدخلوا أريحاء متواضعين مستغفرين خافضين رؤوسهم وذلك قوله تعالى (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) وكان لهم سبعة أبواب سجداً أى منحنين متواضعين وقولوا حطة أى حط عنا خطايانا .

قال وهب : إنهم أذنبوا بآبائهم وكان توبتهم إذا أذنبوا دخلوا أريحاء فلما فصلوا من التيه أحب الله أن يستنقذهم من الخطيئة .

قال ابن عباس حطــة قول لا إله إلا الله سميت بذلك لأنها تحط الذنوب (نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين إحساناً . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم : وذلك أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حطاً سمقاثاً يعنى حنطة حمراء استخفافاً بأمر الله تعالى . فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء) أى عذاباً من السماء بما كانوا يفسقون .

وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم طاعوناً وظلمة فهلك منهم سبعون ألفاً فى ساعة واحدة ثم رفعه الله عنهم ورحمهم :

قالوا فلما استقرت بنو إسرائيل بالشام وصفت لهم توفى الله نبيه يوشع ودفن فى جبل افرائيم وكان عمره مائة وعشرين سنة وتدبيره أمر بنى إسرائيل بعد موت موسى سبعاً وعشرين سنة .

(مجلس فى ذكر الأنبياء والملوك الذين قاموا بأمور بنى إسرائيل)
(بعد يوشع وقصة كالب عليه السلام)

قالت العلماء بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين لما حضرت الوفاة يوشع بن نون استخلف على بنى إسرائيل كالب بن يوقنا .

قال الله تعالى (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) فأحسن الخلافة حتى قبضه الله عز وجل واستخلف على بنى إسرائيل إبنه يوساقوس .
وكان فيما ذكر يشبه يوسف عليه السلام فى الحسن والجمال والبهاء ؛ وكانوا يفتتنون به ، وكانوا من شغفهم به يأتونه وينظرون إليه ويقولون له : أيها العبد الصالح جئنا لنسلم عليك وهو يستحى أن يردهم فلما أكثروا خاف الفتنة فسأل الله أن يغير صورته مع سلامة حواسه وجوارحه فأصابه الجدرى فصار مجدوراً ملوحاً فلبث فيهم مائة وأربعين سنة ثم قبضه الله إليه والله أعلم .

(ذكر خبر حزقيل عليه السلام)

قالت العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام لما قبض الله كالب وإبنه بعث الله تعالى حزقيل إلى بنى إسرائيل نبياً ، وهو حزقيل بن بورى ، ويلقب بابن العجوز ، وإنما لقب بابن العجوز لأن أمه سألت الله تعالى الولد وهى عجوز ؛ وقد كبرت وعقمت عن الولد فوهبه الله تعالى لها ، وهو الذى أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته فى قوله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

قال أكثر المفسرين : كانت قرية يقال لها (داوردان) قرية قبل واسط وقع بها الطاعون فخرج منها طائفة هاربين من الطاعون ، وبقيت طائفة فهلك

أكثر من بقى فى القرية وسلم الذين خرجوا ؛ فلما رجع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : إن أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجن إلى الأرض التى لا وباء فيها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيح فلما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا فماتوا جميعاً .

وروى عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا سمعتم بالوباء فى بلدة فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه .

وقال الضحاك ومقاتل والكلبى : إنما فر هؤلاء من الجهاد ؛ وذلك أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فخرجوا فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت واعتلوا وقالوا لملكهم : إن فى الأرض التى نأتيها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع الوباء عنها ؛ فأرسل الله عليهم الموت : فلما رأوا الموت قد كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً من الموت ، فلما رأى الملك ذلك قال : اللهم رب يعقوب وإله موسى ؛ قد ترى معصية عبادك ، فأرهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لايستطيعون الفرار من حكمك وقضائك .

فلما خرجوا قال الله لهم موتوا فماتوا جميعاً وماتت دوابهم كموتهم موتة رجل واحد فما أتى عليهم ثلاثة أيام حتى انفجروا وأروحوا وأروحت أجسادهم فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها واختلفوا فى مبلغ عددهم .

فقال عطاء الخراسانى : كانوا ثلاثة آلاف ، وقال ابن عباس ووهب كانوا أربعة آلاف .

وقال مقاتل والكلبي : ثمانية آلاف .

وقال أبو روق : عشرة آلاف .

وقال أبو مالك . ثلاثين ألفاً .

وقال السدى : بضعاً وثلاثين ألفاً .

وقال ابن جريج : أربعين ألفاً .

وقال عطاء بن أبى رباح : سبعين ألفاً .

وقال فأتى على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت أوصالهم فمر عليهم حزقيل النبي عليه الصلاة والسلام فوقف متفكراً متعجباً فأوحى الله تعالى إليه يا حزقيل تريد أن أريك كيف أحيي الموتى ؟ قال نعم يارب فأحياهم الله جميعاً .

وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت فرجعوا إلى قومهم وتناسلوا بعد ما أحياهم الله وعاشوا دهراً لا يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عادوا رميا مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتب الله لهم .

قال ابن عباس : فإنه لا يوجد فى ذلك السبط من اليهود تلك الريح .

قال قتادة : مقتهم الله على فرارهم من الموت وتقصيرهم فى الجهاد فأماتهم الله عقوبة لهم بعثهم لبقية آجالهم ليوفوها ولو كانت آجال القوم جاءت ما بعثوا بعد موتهم فلما أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد وقال (وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) .

(باب فى قصة إلياس عليه السلام)

قال الله تعالى (وإن إلياس لمن المرسلين) إلى آخر القصة .

قال ابن إسحق والعلماء من أصحاب الأخبار : لما قبض الله تعالى حزقيل عليه السلام عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وظهر فيهم الفساد ونسوا عهد الله إليهم فى التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عز وجل فبعث الله إليهم نبياً وهو إلياس بن يس بن فنحاص بن عيزار بن هرون بن عمران

وإنما كانت الأنبياء بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا وضيعوا من أحكام التوراة وبنى إسرائيل يومئذ متفرقون فى أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح أرض الشام وملكها بوأها بنى إسرائيل وقسمها بينهم فأخذ سبط منهم بعلبك ونواحيها هم سبط إلياس فبعث الله تعالى إليهم نبياً وعليهم يومئذ ملك يقال له لاجب قد ضل وأضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام وكان هو وقومه يعبدون صنما يقال له بعل وكان طوله عشرين ذراعاً وكان له أربعة وجوه

وقال ابن إسحق قد سمعت بعض أهل العلم يقولون ما كان البعل إلا امرأة كانوا يعبدونها من دون الله تعالى فذلك قوله تعالى (إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين)

قال فجعل إليـــاس يدعوهم إلى الله ولا يطيعونه ولا يجيبونه إلى ذلك إلا ما كان من أمر لاجب الملك الذى كان ببعلبك فإنه آمن به وصدقه : وكان إلياس يقوم أمره ويسدده ويرشده ، وكان للاجب امرأة يقال لها أربيل

وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم فى غزاة أو غيرها فكانت تبرز بين الناس كما يبرز زوجها وتركب كما يركب وتجلس كما يجلس فى مجلس القضاء ، وتقضى بين الناس وكانت قتالة للأنبياء وكان لها كاتب رجل حكيم يكتم إيمانه وكان قد خلص من بين يديها ثلثمائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم وكانت فى نفسها غير محصنة ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها وهى مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من بنى إسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة ويقال إنها ولدت سبعين ولداً

قال وكان للاجب هذا جار من بنى إسرائيل رجل صالح يقال له مزدكى وكانت له جنية يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزينها وكانت الجنية إلى جانب قصر الملك وامرأته وكان يشرفان على تلك الجنية ويتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها حيناً وكان لاجب مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكى وامرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة وتحتال على غصبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها ويقولون ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل القصر ويتعجبون من أمر الملك وامرأته كيف لم يغصباها فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكى فى أن تقتله وتأخذ جنينته والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد إليه سبيلا ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد فلمـــا طالت غيبته اغتنمت امرأته أربيل أن تتم لها الحيلة على العبد الصالح مزدكى فى أن تقتله وتأخذ جنينته وهو غافل عما تريد مقبل على عبادة ربه وإصلاح معيشته فجمعت أربيل جمعاً من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكى بالزور أنه يسب الملك لاجب فأجابوها إلى ما سألتهم من الشهادة بالزور

وكان حكمهم فى ذلك الزمان على من يسب الملك القتل إن قامت البينة فأحضرت مزدكى وقالت له بلغنا أنك شتمت الملك واغتبته فأنكر مزدكى ذلك فأقامت البينة فشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس فأمرت بقتله فقتل وأخذت جنينته غصباً فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح

فلما قدم الملك من السفر أخبرته الخبر فقال لها ما أصبت ولا وفقت ولا أرى أنا نفلح بعدها أبداً وإنا كنا غنيين عن جنينته لأغنياء وقد كنا نتنزه فيها وقد جاورنا وتحرم بنا منذ زمن طويل فأحسنا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا فقبحت بنا الجوار وما حملك على اجترائك عليه إلا سفهك وسوء رأيك وقلة تفكرك في العواقب

فقالت إنما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها ما كان يسع حلمك وعظيم خطرك العفو عن رجل واحد فتحفظين جواره فقال قد كان ما كان

فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى لاجب وقومه وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليه لوليه حين قتلوه بين أظهرهم ظالماً

وقد آل على نفسه أنهما لم يتوبا من صنعهما ويرد الجنينة على ورثة مزدكى وإلا يهلكهما يعني لاجب وامرأته في جوف الجنينة أشر ما يكون يسفك دمهما ثم يدعهما جيفتين ملقاتين حتى تتعرى عظامهما عن لحومهما ولا يتمتعان إلا قليلا

قال فجاء إلياس وأخبر الملك بما أوحى إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة

فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه ثم قال له يا إلياس والله ما ارى ما تدعونا إليه إلا باطلا والله ما أرى فلاناً وفلاناً وسمى ملوكاً منهم عبدوا الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويشربون ويتمتعون ممكنين ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل شيء وما ترى لكم علينا من فضل

قال ثم هم بتعذيب إلياس وقتله قال فلما سمع إلياس ذلك وأحس بالشر رفضه وخرج عنه فلحق بشواهق الجبال وعاد الملك إلى عبادة بعل فأوثق إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغاراً فيقال إنه بقى فيه سبع سنين شريداً وحيداً فريداً خائفاً يأوى إلى الشعاب والكهوف ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون يتوقعون أخباره ويجتهدون في أخذه والله تعالى يستره ويحفظه ويدفع عنه البلاء

فلما تم له سبع سنين أذن الله تعالى فى إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم فأمرض الله تعالى ابن الملك لاجب وكان أحب أولاده إليه وأعزهم عليه وأشبههم به فأدنف حتى يئس منه فدعا صنمه بعلا وكانوا قد فتنوا ببعل فعظموه حتى إنهم سموا مدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا له أربعمائة سادن فوكلوهم به وجعلوهم أمناء وجعل الشيطان يدخل فى جوف الصنم ويكلمهم بأنواع الكلام والأربعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس لهم شريعة من الضلال فيكتبونها للناس ويعملون بها ويسمونهم الأنبياء فلما اشتد مرض ابن الملك طلب الملك أن يشفعوا له إلى بعل ويطلبوا منه لإبنه الشفاء والعافية فدعوه له فلم يجبهم ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الولوج فى جوفه ولا الكلام وهم يجتهدون فى التضرع إليه والمريض لا يزداد بذلك إلا ألماً وجهداً

فلما طال عليهم ذلك قالوا للاجب أيها الملك إن فى ناحية الشام آلهة أخرى وهى فى العظم مثل إلهك فابعث إليها الأنبياء يشفعون لك إليها فلعلها أن تشفع لك إلى بعل فإنه غضبان عليك ولولا غضبه عليك لكان قد أجابك وشفى مرض إبنك فقال لاجب لأى شيء غضب على وأنا أطيعه وأطلب رضاه ولم أسخطه ساعة قط

قالوا من أجل أنك تقتل إلياس وفرطت فيه حتى نجا سالماً وهو كافر بإلهك يعبد غيره فذلك الذى أغضبه عليك

قال لاجب وكيف لى أن أقتله فى يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع إبنى وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصده فلو عوفى إبنى تفرغت لطلبه ولم يكن لى هم ولا شغل غيره حتى آخذه وأقتله وأريح إلهى منه وأرضيه

قال ثم إنه بعث لأربعمائة نبى إلى الآلهة التى بالشام يسألوها أن تشفع لصنم الملك ليشفى إبنه فانطلقوا إلى الأصنام فكلموها فمنع الله عز وجل الشيطان من

الولوج فى الأصنام ولم تكلمهم فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك . فقال الملك وكيف لى أن أقتل إلياس فى هذا اليوم . قال فخرج أربعمائة حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذى فيه الياس أوحى الله اليه أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم وقال له لاتخف فإنى سأصرف عنك شرهم وألقى الرعب فى قلوبهم فنزل الياس من الجبل فلما لقيهم استوقفهم فلما وقفوا قال لهم إن الله أرسلنى إليكم وإنى من ورائكم فاسمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوها صاحبكم ارجعوا إليه وقولوا له إن الله تعالى يقول لك أنت تعلم يا لاجب إنى أنا الله لا إله إلا أنا إله بنى إسرائيل الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم فلا يحملك جهلك وقلة عقلك على أن تشرك بى وتطلب الشفاء لإبنك من غيرى ممن لايملكون لأنفسهم شيئاً إلا ماشئت وإنى آليت باسمى لأغيظنك فى إبنك ولأميتنه من فوره هذا حتى تعلم أن أحداً لا يملك لهم شيئاً دونى .

فلما قال لهم ذلك رجعوا وقد ملئوا منه رعباً فلما صاروا إلى الملك ووصلوا اليه قالوا له ما قال لهم الياس وأخبروه بأن الياس انحط عليهم من الجبل وهو رجل نحيف طويل وقد قشف وقحل وتمعط شعره ويبس جلده وعليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا . فلما وقفنا صار معنا فقذف له فى قلوبنا الرعب والهيبة وتقطعت ألسنتنا ونحن فى هذا العدد الكثير . وهو واحد فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه وملأ أعيننا منه حتى رجعنا اليك .

ثم إنهم قصوا عليه كلام الياس فقال لاجب لا أنتفع بالحياة مادام إلياس حياً ما الذى منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوثقوه وتأتونى به . وأنتم تعلمون أنه طلبتى وعدوى ؟ وقالوا قـــد أخبرناك بالذى منعنا عنه ومن كلامه والبطش به .

فقال لاجب إذا ماانطيق إلياس إلا بالمكر والخديعة فقيض له خمسين رجلا من قومه من ذوى القوة والبأس وعهد اليهم عهده وأمرهم بالاحتيال عليه وأن يطمعوه بأنهم قد آمنوا به ومن وراءهم ليطمئن اليهم ويغتر بهم ويمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذى فيه الياس عليه السلام ثم أنهم تفرقوا فيه وهم ينادون بأعلى أصواتهم ويقولون يانبى الله ابرز لنا وأشرف علينا بنفسك فإنا قد آمنا بك وصدقناك وملكنا لاجب وكذلك جميع قومنا مقرون بذلك ويقرءون عليك السلام ويقولون قد بلغتنا رسالاتك وعرفنا ما قلت وآمنا بك وأجبناك إلى مادعوتنا اليه فهلم إلينا فأنت نبينا ورسول ربنا فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا فإننا ننقاد إلى ما تأمرنا وننتهى عما نهيتنا وليس يسعك أن تتخلف عنا بعد إيماننا بك وطاعتنا لك فتداركنا وارجع إلينا وكل هذا مكراً منهم وخديعة .

فلما سمع إلياس مقالتهم وقع فى قلبه إيمانهم وخاف الله وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر اليهم يجيبهم بعد الذى سمع منهم فلما صمم على البروز إليهم رجع إلى نفسه وقال لو إنى دعوت الله تعالى فسألته أن يعلمنى مافى نفوسهم ويطلعنى على حقيقة أمرهم .

وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى وتوفيقاً له فقال اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فائذن لى فى البروز اليهم وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم جميعاً فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فاحرقوا جميعاً .

قال وبلغ لاجب وقومه الخبر فلم يرتد عن ضمير السوء واحتال ثانياً فى أمر الياس فقيض له فئة أخرى مثل عدد أولئك وأقوى منهم وأمكن فى الحيلة والرأى فأقبلوا حتى وافوا ذلك الجبل وارتقوه متفرقين وجعلوا ينادون يا نبى الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطوته إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا أولئك فرقة نافقوا وخالفوا .

فصاروا إليك ليمكروا بك من غير رأينا ولو علمنا بهم لقتلناهم والآن قد كفاك الله أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم لنا ولك منهم .

فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى فأمطر الله عليهم ناراً فأحرقوا جميعاً عن آخرهم كل ذلك وابن الملك فى البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله تعالى على لسان نبيه إلياس لا يقضى عليه فيموت ولا يخف عنه من عذابه .

فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غيظاً إلى غيظه وأراد ان يخرج فى طلب الياس بنفسه إلا أنه شغله عن ذلك مرض إبنه فوجه نحو الياس الكاتب المؤمن الذى هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس إليه فينزل معه وأظهر الكاتب أنه لايريد بإلياس سوءاً ولا مكروها وإنما أظهر له ذلك لما طلع عليه من إيمانه .

وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مغضياً عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأى والبصارة بالأمور .

فأوحى الله تعالى إلى الياس أن كل ما جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك وأن لاجب إن أخبرته رسله إنك لقيت هذا الرجل ولم يأت بك إليه فإنه يتهمه ويعرف أنه قد داهن فى أمرك ولم يأمن أن يقتله فانطلق معه فإن انطلاقك معه عذرة وبراءته عند لاجب وإنى سأشغله عنكما وأضاعف على إبنه البلاء حتى لايكون له هم غيره ثم أميته على شر حال فإذا مات هو فارجع أنت ولاتقم عنده قال فانطلق إلياس معهم حتى قدموا على لاجب فلما دخلوا عليه شدد الله على ابنه الوجع وأخذ الموت بكظمه فشغل الله بذلك لاجب وأصحابه عن الياس ورجع الياس سالماً إلى مكانه .

فلما مات ابن لاجب وفرغوا من أمره قد جزعه انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب المؤمن الذى جاء فقال له ليس لى به علم وذلك أنه قد شغلنى عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا قد استوثقت منه فأطرق عنه لاجب وتركه لما كان به من الحزن على إبنه .

فلما طال الأمر على إلياس من المكث فى الجبل والمقام به واشتاق إلى العمران والناس فنزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بنى إسرائيل وهى أم يونس بن متى ذى النون فاستخفى عندها ستة أشهر ويونس ابنها يومئذ مولود رضيع وكانت م يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها .

قال ثم إن الياس عليه السلام سئم ضيق البيوت بعد قعوده فى الجبال وأوحشها فأحب اللحوق فى الجبال فعاد إلى مكانه فى الجبال فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ثم لم يلبث إلا قليلا حتى مات إبنها يونس حين فطمته فعظمت مصيبتها فخرجت فى طلب إلياس فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته فسلمت عليه وقالت له إنى فجعت بعدك بموت إبنى وعظمت به مصيبتى واشتد لفقده بلائى وليس لى ولد غيره فارحمنى وادع ربك تعالى أن يحيى لى ابنى ويجبر مصيبتى فإنى قد تركته مسجى لم أدفنه وقد خفيت مكانه .

فقال لها إلياس عليه السلام ليس هذا مما أمرت به وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما أمرنى ربى به ولم يأمرنى بهذا فجزعت المرأة وتضرعت فعطف الله قلب إلياس عليها فقال لها ومتى مات ابنك ؟ فقالت منذ سبعة أيام .

فانطلق إلياس عليه السلام معها وسار سبعة أيام حتى أتى إلى منزلها فوجد ابنها يونس ميتاً منذ أربعة عشر يوماً فتوضأ الياس وصلى ودعا فأحيا الله يونس ابن متى فلما عاش وجلس وثب إلياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضعه

قال ، فلما طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعاً وأجهده البلاء فأوحى الله إليه بعد سبع سنين وهو خائف مذعور مجهود يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذى أنت فيه ألست أمينى على وحيى وحجتى فى أرضى وصفوتى من خلقى فاسألنى أعطك فإنى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم .

قال إلياس عليه السلام : تميتنى وتلحقنى بآبائى فإنى قد مللت بنى إسرائيل وملونى وأبغضتهم فيك وأبغضونى ، فأوحى الله إليه يا إلياس ماهذا اليوم الذى عرى منك الأرض وأهلها وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك ولكن سلنى أعطك قال إلياس : فإن لم تمتنى يا إلهى فأعطى ثأرى من بنى إسرائيل .

فأوحى الله تعالى إليه فأى شىء تريد أن أعطيك يا إلياس قال تمكننى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشىء عليهم سحابة إلا بدعوتى ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتى فإنهم لايذلهم إلا ذلك قال الله تعالى يا إلياس أنا أرحم بعبادى من ذلك وإن كانوا ظالمين قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين قال فخمس سنين قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين قال فأربع سنين قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين ولكن أعطيك ثأرك منهم ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك ولا أنشر عليهم سحابة إلا بدعوتك ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك قال إلياس فأى شىء أعيش ؟

قال أسخر لك جيشاً من الطير تنقل اليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التى لم تقحط قال إلياس قد رضيت فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت المواشى والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً والياس على حاله مختف من قومه بموضع يتساق له فيه الرزق ويأتيه حيثما كان وقد عرفه بذلك قومه ؟ فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز فى بيت قالوا لقد دخل إلياس هذا المكان فيطلبونه ويلقى منهم أهل ذلك المكان شراً .

قال ابن عباس ، أصاب بنى إسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات فمر إلياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام فقالت نعم شىء من دقيق وزيت قليل فجاءته بشىء من الدقيق والزيت فدعا فيهما بالبركة ومسهما فبارك الله فى ذلك حتى ملأت جرابها دقيقاً وملأت خوابيها زيتاً فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عندها قالوا لها من أين لك هذا ؟ قالت مر بى رجل من حالة كذا وكذا ووصفته بصفته فعرفوه وقالوا لها ذلك إلياس ثم إنهم طلبوه فوجدوه فهرب منهم إلى الجبال والله أعلم .

﴿ قصة اليسع عليه السلام ﴾

ويروى إن إلياس أتى إلى بيت امرأة من بنى إسرائيل لها ابن يسمى اليسع ابن أخطوب وكان به ضر فآوته وأخفت امره فدعا له فعوفى من الضر الذى كان به واتبع اليسع الياس وآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب معه حيثما ذهب .

وكان الياس قد أسن وكبر وكان اليسع غلاماً شاباً ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس عليه السلام إنك أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعصونى سوى بنى إسرائيل من البهائم والدواب والهوام والشجر والنبات بحبس المطر عن بنى إسرائيل فيزعمون والله أعلم أن الياس قال يارب دعنى أكون الذى أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلهم يرجعون عماهم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم فجاء الياس إلى بنى إسرائيل وقال لهم ويلكم إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وهلكت البهائم والدواب والطير والشجر والنبات بحبس المطر عنكم بخطاياكم وإنكم على باطل وغرور فإن كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التى تدعونها من دون الله لن تغنى عنكم شيئاً فاخرجوا بأصنامكم هذه فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون وإن هى لم تفعل علمتم إنكم على باطل وغرور فنزعتم عنها ودعوت الله تعالى أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء قالوا أنصفت فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء .

فقالوا ياالياس إنا هلكنا فادع الله لنا فدعا الله الياس ومعه اليسع عليهما السلام بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون إليها فأقبلت نحوهم وطبقت عليهم الأفق ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثتهم وأحييت بلادهم .

قالوا فشكوا إلى الياس هدم الجدران وعدم البذر ، وقالوا ليست لنا حبوب. فاوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بأن يبذروا الرمل فأنبت الله لهم منه الدخن فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عن ضلالهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه .

فلما رأى الياس ذلك دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له انتظر يوم كذا وكذا فاخرج لى موضع كذا كذا فإذا جاءك شيء فاركبه ولاتهبه فخرج الياس ومعه اليسع بن أخطوب حتى إذا كان بالموضع الذى أمر بالخروج اليه أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه فوثب عليه الياس فانطلق به الفرس فناداه اليسع يا الياس ماتأمرنى به فقذف اليه كساءه من الجو الأعلى فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بنى إسرائيل وذهب الياس وكان ذلك آخر العهد به .

ونبأ الله تعالى بفضله اليسع عليه السلام وبعثه نبياً ورسولا إلى بنى إسرائيل وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأيه وأمره وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع.

أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن محمد الحافظ عن عبد العزيز بن أبى داود قال إن الخضر والياس عليهما السلام يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويوافيان الموسم فى كل عام .

وأخبرنى ابن فنحويه عن رجل من أهل عسقلان أنه كان يمشى بالأردن عند نصف النهار فرأى رجلا فقال ياعبد الله من أنت ؟ فقال أنا إلياس قال فوقعت

على رعدة شديدة فقلت له ادع الله أن يرفع عنى ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك قال فدعا لى بثمان دعوات وهن : يابر يا رحيم يامنان يا حنان ياحى ياقيوم ودعوتين بالسرانية لم أفهمهما - وقيل هما باهيا شراهيا فرفع الله عنى ما كنت أجد ووضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين يدى فقلت له أيوحى إليك اليوم ؟ فقال منذ بعث محمد ﷺ رسولا فإنه لا يوحى إلى ، قال فقلت له كم من الأنبياء اليوم أحياء ؟ قال أربعة إثنان فى الأرض وإثنان فى السماء أما اللذان فى السماء فعيسى وإدريس عليهما السلام - وأما اللذان فى الأرض فإلياس والخضر عليهما السلام .

قلت كم الأبدال ؟ قال ستون رجلا خمسون منهم من لدن عريش مصر إلى شاطىء الفرات ورجلان بالمصيصة ورجلان بعسقلان وسبعة فى سائر البلدان كلما أذهب الله واحداً منهم جاء بآخر مكانه وبهم يدفع الله عن الناس البلاء وبهم يمطرون قلت فالخضر اين يكون ؟ قال فى جزائر البحر فقلت هل تلقاه قال نعم قلت أين قال بالموسم قلت فما يكون حديثكما ؟ قال يأخذ من شعرى وآخذ من شعره .

قال وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال قلت فما تقول فى مروان ابن الحكم ؟ قال رجل جبار عات على الله تعالى والقاتل والمقتول والشاهد فى النار قلت : فإنى قد شهدته ولم أطعن برمح ولا رميت بسهم ولم أضرب بسيف وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أدعو إلى مثله أبداً قال أحسنت فهكذا تكون .

قال فبينما أنا وإياه قاعدان إذا وضع بين يديه رغيفان أشد بياضاً من الثلج فأكلت أنا وهو رغيفاً وبعض الآخر ثم رفعت رأسى وقد رفع باقى الرغيف الآخر فما رأيت أحدا وضعه ورأيت أحداً رفعه . قال وله ناقة ترعى فى وادى الاردن فرفع رأسه إليها فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه فركبها فقلت له إنى أريد ان

أصحبك قال وإنك لاتقدر على صحبتى قال فقلت له إنى خلو لازوجة لى ولا عيال . قال تزوج وإياك والنساء الأربع الناشزة والمختلعة والملاعنة والبرزة وتزوج مابدا لك من النساء . قال فقلت إنى أحب أن ألقاك قال فإذا رأيتنى فقد لقيتنى إنى أعتكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان ثم حالت بينى وبينه شجرة فوالله ماادرى كيف ذهب وهذه آخر القصة .

﴿ مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (وإسمعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين) قال مجاهد لما كبر اليسع قال : لو إنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس ثم قال من يتكفل لى بثلاث استخلفته يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ، فقام إليه رجل شاب تزدريه العيون فقال أنا فرده ذلك اليوم وقال مثلها فى اليوم الثانى فسكت الناس فقام ذلك الرجل وقال : أنا أعمل ذلك فاستخلفه .

قال فلما رأى إبليس ذلك جعل يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم فقال دعونى وإياه فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لاينام بالليل والنهار إلا تلك النومة فدق إبليس الباب فقال من هذا ؟ فقال شيخ كبير مظلوم ففتح الباب فجعل يقص عليه القصة ويقول أنا بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى حضر وقت الرواح وذهب القائلة فقال له إذا رحت فإنى آخذ لك بحقك فانطلق وراح إلى مجلسه فلما جلس جعل ينظر ليرى الشيخ فلم يره وقام يتبعه .

فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا ؟ فقال أنا الشيخ المظلوم ففتح له ؛ وقال ألم أقل لك إذا قعدت فائتنى فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا إنك قاعد يقولون نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدونى قال فانطلق فإذا رحت فائتنى وفاتته القائلة

فراح وأقبل وجعل ينظره فلا يراه فشق عليه الناس فقال لبعض أهله لا تدعى أحداً يقرب هذا الباب حتى أقوم فإنه قد شق على عدم النوم .

فلما كانت الساعة جاء فلم يأذن له أحد فلما أعياه نظر فإذا كوة فى البيت فتسور منها فإذا هو فى البيت وإذا به يدق الباب من الداخل فاستيقظ الرجل وقال يافلان ألم آمرك أن لاتأذن لأحد على فقال أما من قبلى فما أتى فانظر من قبل من أتى ، فقام إلى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الشيخ معه فى البيت فقال له : أتنام والخصوم بيابك فعرفه فقال له ياعدو الله ماألجأك إلى هذه الفعال؟ فقال له إنك أعييتنى فى كل شىء أردت بك ففعلت بك ماترى لأغضبك فعصمك الله منى فسمى ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به .

اخبرنا ابن فنحويه ، قال حدثنا عمر بن المفضل عن أبى هاشم أخبرنا ابن الفضل قال أخبرنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله الدارى عن سعيد عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين لم أحدث سمعته منه أكثر من سبع مرات يقول(كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذا الكفل لاينزع عن ذنب عمله فاتبع امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن تعطيه نفسها فلما قعدت منها مقعد الرجل من المرأة ارتعدت وبكت فقال لها مايبكيك فقالت من هذا الفعل فإنى مافعلته قط ، فقال لها أكرهتك ؟ قالت لا ولكنى حملتنى عليه الحاجة فقال لها اذهبى فهى لك) .

ثم إنه قال والله لا أعصى الله بعدها قط أبداً فمات من ليلته فقيل مات ذو الكفل فوجدوا بباب داره مكتوباً (إن الله تعالى قد غفر لذى الكفل)

وقال أبو موسى الأشعرى : إن ذا الكفل لم يكن نبياً وإنما كان عبداً صالحاً تكفل بعمل رجل صالح وكان يصلى لله تعالى فى كل يوم مائة صلاة فأحسن الله عليه الثناء ، وقيل هو إلياس ؛ وقيل هو زكريا والله اعلم بالصواب .

﴿ مجلس فى قصة عيلى وشمويل وهو إسماعيل بالعبرانية وقصة التابوت وخبر طالوت وجالوت وهذه قصة كبيرة تشتمل على أبواب كثيرة ﴾

قال الله تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل) الآية

(فصل فى سياق ومقدمة القصة) قال وهب بن منبه : لما نبأ الله تعالى اليسع بعد الياس عليهما السلام واستخلفه على بنى إسرائيل وكان فيهم ما شاء الله أن يكون ثم قبضه الله تعالى اليه وخلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الخطايا ، وكان عندهم التابوت يتوارثونه كابراً عن كابر ، فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون وكانوا لا يلقاهم عدو فيقدموا التابوت ويزحفون به معهم إلا هزم الله تعالى ذلك العدو وكان الله تعالى قد بارك لهم فى أرزاقهم فكان أحدهم فيما يذكرون يجمع التراب على صخرة ثم يبذر فيه الحب فيخرج الله ما يأكل منه هو وعياله ويكون لأحدهم الزيتون فيعصر منها ما يأكل هو وعياله سنة

فلما كثرت أحداثهم وعظمت ذنوبهم وتركوا ما عهد الله اليهم سلط الله عليهم العمالقة وهم قوم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر ما بين مصر وفلسطين وكان جالوت الملك فيهم فظهروا على بنى إسرائيل وغلبوهم على كثير من أراضيهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم وبقوا على اضطراب من أمرهم واختلاف من حالهم يتمادون أحياناً فى غيهم وضلالهم فسلط الله تعالى عليهم من ينتقم له منهم ليرجعوا إلى التوبة أحيانا ويكفيهم الله شر من بغى عليهم حتى بعث الله فيهم طالوت ملكا ورد عليهم توراتهم فانتظم أمرهم واستوثق ملكهم وكان مدة ما بين وفاة يوشع بن نون التى آل أمر بنى إسرائيل فى بإلى السماالمجومة منهم وفى بعضها

إلى غيرهم ممن يقرهم ويتملك عليهم إلى أن ثبت الملك فيهم ورجعت النبوة إليهم بشمويل النبي عليه السلام أربعمائة وستين سنة وكان آخر من ملكهم في هذه المدة رجل يقال له إيلاف وكان يدبر أمرهم في ملكه شيخ كبير يقال له عيلى الكاهن كان حبرهم وصاحب قربانهم وكان ينتهون إلى رأيه فلما مضى مضى من وقت قيامه بأمرهم مدة بعث الله شمويل نبياً .

(القول في بدء أمر شمويل وصفة نبوته صلى الله على نبينا وعليه وسلم)

قال وهب بن منبه - كان لأبى شمويل امرأتان إحداهما عجوز عاقر لم تلد له ولداً وهى أم شمويل ؛ والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد

قال وكان لبنى إسرائيل عيد من أعيادهم أقاموا فيه شرائطه وقربوا القرابين فحضر أبو شمويل وامرأتان وأولاده العشرة ذلك العيد .

فلما قربوا قربانهم أخذ كل واحد منهم نصيباً وكان لأم الأولاد عشرة أنصباء وللعجوز نصيب واحد ؛ فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت أم الأولاد للعجوز الحمد لله الذى كثر لى بولدى وقلك فوجدت العجوز وجوما شديداً ، فلما كان عند السحر عمدت إلى متعبدها فقالت ؛ اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتى واستطالتها على بنعمك التى أنعمتها عليها وأنت ابتدأتها بالنعمة والإحسان فارحم ضعفى وارزقنى ولداً تقياً راضياً واجعله لى ولك ذخراً فى مسجد من مساجدك يعبدك ولا يكفرك ويطيعك ولا يجحدك فاذا رحمت ضعفى ومسكنتى وأجبت دعوتى فاجعل لى علامة أعرف بها قبول دعائى فلما أصبحت حاضت وكان قبل ذلك يئست من الحيض فجعله الله علامة لما سألته فألم بها زوجها فحملت وكتمت أمرها ولقى بنو إسرائيل فى ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدة ولم يكن لهم نبى يدير أمرهم فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً يشير عليهم ويجاهدو عدوهم معه وكان سبط النبوة قد هلك ولم

يبق منه إلا تلك المرأة الحبلى ، فلما علموا بحبلها تعجبوا من أمرها ، وقالوا حملت إلا أنى ، لأن اليائسات لايحملن إلا الأنبياء كسارة امرأة ابراهيم عليه السلام حملت بإسحاق وإيشاع امرأة زكريا حملت بيحيى عليه السلام فأخذوها وحبسوها فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولداً ذكراً فولدت غلاما وسمته شمويل تقول سمع الله دعائى فلما شب الغلام أسلمته ليتعلم التوراة فكفله الشيخ عيلى وتبناه .

فلما بلغ الغلام الوقت الذى يبعثه الله فيه نبياً أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ عيلى الكاهن وكان لم يأمن عليه أحدا فدعاه جبريل فقال الشيخ ياشمويل فقال الغلام مرعوباً إلى الشيخ وقال يا أبتاه أدعوتنى فكره الشيخ أن يقول لافيفزع الغلام ، فقال يا بنى ارجع فنم فرجع الغلام فنام ثم دعاه جبريل ثانياً فانتبه الغلام وقال ادعوتنى يا أبتاه فقال الشيخ ما شأنك ؟ قال أما دعوتنى ؟ قال لا فقال شمويل فإنى سمعت صوتاً فى البيت وليس فيه غيرنا فقال الشيخ أرجع فتوضأ وصل فإنك أن دعيت بإسمك فأجب وقل لبيك أنا طوعك فأمرنى بما شئت أفعل ما تأمرنى به ففعل ذلك الغلام فنودى ثالثة ، فقال لبيك أنا طوعك فأمرنى بأمر أفعل ما تأمرنى به فظهر له جبريل عليه السلام ، فقال له اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فإن الله سبحانه عز وجل قد بعثك فيهم نبياً وإن الله قد ذرأك يوم ذرأك للنبوة ورحم وحدة أمك ذلك اليوم الذى تباهت عليها ضرتها فيه فلا أحد اليوم أشد منها عضداً ولا ملاذا فانطلق إلى الشيخ عيلى فقل له إنك كنت خليفة الله على عباده ودينه فقمت زمانا بأمرهما كما بكتابه محافظاً على حدوده .

فلما امتدت مدتك ودق عظمك وذهبت قوتك وفنى عمرك وقرب أجلك وصرت أفقر ما يكون إلى الله تعالى ولم تزل فقيراً اليه عطلت الحدود وجرت بين

لخصوم وعملت بالرشا والمصانعات وأضعفت حكم الحق عن الباطل وأهله وذل الحق وحزبه وظهر المنكر وخفى المعروف وفشا الكذب وقل الصدق وما كان الله عاهدك فى هذا ولا عليه استخلفك فبئسما ختمت به عملك ؛ والله لا يحب الخائنين .

قال وهب بن منبه - بعث الله شمويل نبياً فلبثوا أربعين سنة فى أحسن حال كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان فسألوا شمويل عليه السلام أن يبعث لهم ملكا فذلك قوله تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) يعنى شمويل وهو بالعبرانية اسماعيل ابن إلى بن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن صون بن علقمة صاحب عموصا ابن عرويا وقال مجاهد هو شمويل بن هلفانا ولم ينسبه أكثر من ذلك .

وقال مقاتل - هو من نسل هرون عليه السلام فقال لهم نبيهم - هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا فأجابوا بما قص الله فى كتابه (قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد خرجنا من ديارنا) الآية فلما أخذ شمويل عليهم الميثاق على الطاعة والجماعة والجهاد سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا .

﴿ ذكر قصة الملك طالوت واتيان التابوت وحرب جالوت ومايتعلق به ﴾

قال الله تعالى (وقال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) الآية .

قال المفسرون - أن شمويل لما قالوا له ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القوس وقيل له إن صاحبكم الذى يكون ملكا طوله طول هذه العصا وانظر إلى القرن الذى فيه الدهن فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى إسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم ثم انهم قاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها وكان طالوت

لطولها واسمه بالسريانية سادل وبالعبرانية شاول بن قيس بن أفيل بن صارون بن نحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم الخليل عليه السلام وكان رجلا دباغاً يعمل الأدم .

قال وهب بن منبه (كان يدبغ الجلود) وعكرمة والسدى يقولان كان سقاء يستقى على حمار له من النيل فضل حماره فخرج فى طلبه .

قال وهب بن منبه : بل ضاعت حمر لابن طالوت فأرسله وغلاماً له يطلبانها فمرا ببيت شمويل عليه السلام فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبى فسألناه ليرشدنا ويدعو لنا فيها بخير فقال له نعم فدخلا عليه .

فبينما هما عنده يذكران له خبر الحمر إذ نش الدهن فى القرن فقام شمويل وقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال له شمويل قرب رأسك إلى فدهنه بدهن القدس ثم قال له . أنت ملك بنى إسرائيل وقد أمرنى ربى أن أملكك عليهم فقال طالوت أنا فقال نعم قال أو ما علمت أن سبطى أدنى أسباط بنى إسرائيل قال بل قال أو ما علمت أن بيتى أدنى بيت فى بنى اسرائيل قال بلى قال فبأى آية قال بآية انك ترجع وقد وجد أبوك الحمر فكان كذلك ثم أن شمويل قال لبنى إسرائيل، أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا .

قال مجاهد أميراً على الجيش (فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) وإنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة وكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنهم موسى وهرون وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من سبط النبوة ولا من سبط المملكة وإنما كان من سبط بنيامين ابن يعقوب وكانوا عملوا ذنباً عظيما كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً فغضب الله عليهم ونزع النبوة والملك منهم .

قال ابن كيسان وكان طالوت أجمل رجل فى بنى إسرائيل وأعلمهم) والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) قالوا فما آية ذلك قال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت الآية

﴿ قصة التابوت وصفته وابتداء أمره إلى انتهائه ﴾

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار - إن الله تعالى أهبط تابوتاً على آدم عليه السلام من الجنة حين أهبط إلى الأرض فيه صور الأنبياء من أولاده وفيه بيوت بعدد الرسل منهم وآخر البيوت بيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء وإذا هو قائم يصلى وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه هذا أول من يتبعه من أمته أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعن يساره الفاروق وعلى جبهته مكتوب قرن من حديد لاتأخذه فى الله لومة لائم ، ومن ورائه ذو النورين آخذ بحجرته مكتوب على جبهته بار من البررة ومن بين يديه علي بن أبى طالب كرم الله وجهه شاهر سيفه على عاتقه ومكتوب على جبهته هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله وحوله عمومته والخلفاء والنقباء والكبكبة الخضراء أنصار وأنصار رسوله نور حوافر دوابهم يوم القيامة مثل نور الشمس فى دار الدنيا

وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع فى ذراعين وكان من عود الشمشاذ الذى يتخذ منه الأمشاط مموهة بالذهب وكان عند آدم عليه السلام إلى أن مات ثم عند شيث إلى أن مات ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إلى إبراهيم عليه السلام فلما مات كان عند إسماعيل لأنه أكبر ولده فلما مات إسماعيل كان عنده ولده قيذار فنازعه فيه ولد إسحق وقالوا له إن النبوة صرفت عنكم وليس لكم إلا هذا النور الواحد يعنى نور محمد ﷺ فاعطنا التابوت فكان يمتنع عليهم ويقول أنه وصية أبى ولا أعطيه لأحد من العالمين

قال فذهب ذات يوم ليفتح ذلك التابوت فعسر عليه فتحه فناداه مناد من السماء مهلا ياقيذار فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل أنه وصية نبي ولا يفتحه إلا نبي فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله فحمل قيذار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان وكان بها يعقوب عليه السلام قال فلما قرب قيذار صر التابوت صرة سمعها يعقوب عليه السلام فقال لبنيه أقسم بالله لقد جاءكم قيذار بالتابوت فقوموا نحوه فقام يعقوب وأولاده جميعاً فلما نظر يعقوب إلى قيذار سعى اليه باكياً وقال ياقيذار مالي أرى لونك متغيرا وقوتك ضعيفة أأرهقك عدو أم أتيت بمعصية بعد أبيك إسماعيل ؟ قال ما أرهقني عدو ولا أتيت معصية ولكن اثقل ظهري نور محمد ﷺ فلذلك تغير لوني وضعف ركني .

قال يعقوب أفي بنات إسحق ؟ قال لا ولكن في العربية الجرهمية وهي العامرية فقال يعقوب بخ بخ شرفاً لمحمد ﷺ لم يكن الله ليخرجه إلا في العربيات الطاهرات ياقيذار وأنا مبشرك ببشارة قال وماهي ؟ قال اعلم أن العامرية ولدت لك البارحة غلاماً قال قيذار وما علمك يا ابن عمي وأنت بأرض الشام وهي بأرض الحرم ؟ قال يعقوب قد علمت ذلك لأني رأيت أبواب السماء قد فتحت ورأيت نورا كالقمر المدور بين السماء والأرض ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة فعلمت أن ذلك من أجل محمد ﷺ ثم أن قيذار دفع التابوت إلى ابن عمه يعقوب ورجع إلى أهله فوجدها قد ولدت غلاماً فسماه حملا وفيه نور محمد ﷺ .

قالوا كان التابوت في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى وكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه وكان عنده إلى أن مات ، ثم تداولته أنبياء من إسرائيل إلى وقت شمويل عليه السلام فوصل إلى شمويل وقد تكامل أمر التابوت بما فيه وكان فيه مما ذكر الله في كتابه (فيه سكينة من ربكم)

واختلفوا فى السكينة ماهى فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ؛ السكينة ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجهان كوجه الإنسان .

وقال مجاهد لها رأس كرأس الهرة وذنب وجناحان .

وقال محمد بن إسحق بن وهب بن منبه عن بعض علماء بنى إسرائيل فى السكينة رأس هرة وكانت إذا صرخت فى التابوت صرخة أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح .

وروى السدى عن أبى مالك عن ابن عباس قال ؛ هى طست من ذهب الجنة يغسل فيه قلوب الأنبياء .

وكانت قصة ذلك التابوت أن القوم الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أردن وجعلوه فى بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فاصبحوا من الغد وإذا الصنم تحته فأخذوه وجعلوه فوقه وسمروا قدمى الصنم على التابوت فاصبحوا من الغـــد وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وأصبح ملقى تحت التابوت فاصبحت الأصنام كلها منكسة فاخرجوه من بيت الأصنام ووضعوه فى مكان قريب بقرية فى ناحية من مدينتهم فاخذ أهل تلك الناحية وجع فى أعناقهم حتى هلك أكثرهم فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن هذا التابوت لايقوم له شىء فاخرجوه من مدينتكم قال فاخرجوا إلى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك القرية فأرا يبيت الرجل صحيحاً فيقرضه الفار فيصبح ميتاً وقد أكلت مافى جوفه فاخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه فى مجرى لهم فكان كل من تبرز هناك أخذ الباسور والقولنج فاخرجوه ووضعوه فى بيت فكث فيهم عشر سنين وسبعة أشهر لايدنو أحد منه إلا احترق وأصابهم فى المدينة الآفات والعاهات وفى مواشيهم الموت وفى نسائهم الطاعون فتحيروا وكانت عندهم امرأة من بنى إسرائيل من أولاد الأنبياء فقالت إنكم لاتزالون ترون ماتكرهون مادام هـــذا التابوت فيكم فاخرجوه عنكم فاتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة فحملوا عليها التابوت ثم علقوها

على ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران ووكل بها أربعة من الملائكة يسوقونها فلم يمر التابوت بأرض إلا كانت مقدسة فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبني إسرائيل فكسر برتهما وقطع حبالهما ووضع التابوت فيها ورجع الثوران إلى أرضهما فلم تدر بنو إسرائيل إلا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى واجتمعوا على طالوت فذلك قوله تعالى (تحمله الملائكة) أي تسوقه الملائكة.

وقال ابن عباس: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته في دار طالوت فأقروا بملكه قال الله تعالى (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) قال ابن عباس: أن التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية وأنهما يخرجان قبل القيامة والله أعلم.

﴿ باب في قصة شمويل حين أوحى اليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال جالوت ﴾
(مع بني إسرائيل وصفة نهر الابتلاء)

قال الله تعالى (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر) الآية.

قال فلما أوحى الله إلى شمويل عليه السلام أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود فلم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو ضرير لضره أو معذور لعذره، وذلك إنهم لما رأوا التابوت قالوا قد أتانا التابوت وهو نصر لاشك فيه، فسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت لا حاجة لي فيما أرى لايخرج معي رجل بني بناء لم يفرغ منه؛ ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل بها ولا يتبعني إلا الشاب النشط الفارغ فاجتمع ثمانون ألفا على شرطه فخرج بهم وكان في حر شديد فشكوا قلة المياه بينهم وبين عدوهم، وقالوا أن المياه لا تحملنا فادع الله تعالى أن يجري لنا نهرا، فقال لهم طالوت بأمر شمويل عليه السلام «أن الله مبتليكم بنهر» مختبركما ليرى طاعتكم وهو أعلم بكم وهو نهر بين الأردن وبين فلسطين عذب يقال له أدمي «فمن شرب منه فليس

منى » أى من أهل ديني وطاعتى « ومن لم يطعمه » لم يشربه « فإنه منى » ثم استثنى فقال « إلا من اغترف بيده » وهو ملء الكف ومن فتح الغين أراد المرة الواحدة فشربوا منه إلا قليلا منهم .

قال السدى : كانوا أربعة آلاف وقال غيره كانوا ثلثمائة وبضع عشر رجلا

وهو الصحيح يدل عليه حديث البراء بن عازب قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر « أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاوز معه إلا مؤمن » قال وكانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فمن اغترف غرفة بيده كما أمر الله تعالى قوى قلبه وصح ورجع إيمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه ، والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى أسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شاطىء النهر وجبنوا على لقاء العدو ولم يشهدوا الفتح .

فلما جاوز النهر مع طالوت القليل الذين ثبتوا معه قالوا يعنى الذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وانصرفوا عن طالوت ولم يشهدوا قتال جالوت وقال الذين يظنون أى يعلمون ويوقنون أنهم ملاقوا الله وهم القليل الذين ثبتوا مع طالوت (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) الآية ومروا قاصدين الجهاد

(باب فى ذكر أمر داود عليه السلام وخبر جالوت وصفة قتله)

قال الله تعالى (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا) إلى قوله تعالى (وقتل داود جالوت) قال المفسرون والمخبرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود ومعه ثلاثة عشر إبنا له وكان داود أصغرهم وأحقرهم فأتى ذات يوم أباه فقال يا أبتاه ماقذفت بمقلاعى هذه شيئا إلا أصابته وصرعته فقال ابشر يا بنى فإن الله قد جعل رزقك فى قذافتك يعنى فى مقلاعك ثم أتاه يوما آخر فقال : يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا رابضا فركبته

وقبضت بأذنيه فلم يهمنى فقبضت على كفيه ففطرتهما برأسه وعنقه إلى ليته بيدى من غير سكين ولا ضرب بحديد وتراه هناك مقتولا فقال له أبوه : أبشر يابنى فإن هذا خيرا أعطاكه الله .

ثم أتاه يوماً آخر وقال يا أبتاه : إنى لأمشى بين الجبال فأسبح فما يبقى جبل إلا سبح معى ، قال أبشر يا بنى فإن هذا خيرا أعطاكه الله وسيكون لك شأن عظيم .

قال فلما وصلت غزاة بنى إسرائيل مع طالوت إلى عسكر جالوت أرسل جالوت إلى طالوت ان ابرز إلى أو أبرز إلى من يقاتلنى ؛ فإن قتلنى فلكم ملكى وإن قتلته فلى ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى فى عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتى وناصفته ملكى فهاب الناس قتال جالوت فلم يجبه أحد .

فسأل طالوت نبيهم شمويل عليه السلام فدعا الله تعالى فى ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس ويشبه تنور من حديد وقيل له أن الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع هذا القرن على رأسه فيغلى الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون عن رأسه كهيئة الإكليل ويدخل فى هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت أشداء بنى إسرائيل وأقوياهم فجربهم فلم يوافقه منهم أحد .

فأوحى الله إلى شمويل عليه السلام إن فى ولد إيشا من يقتل جالوت وإنى أريد أن أجعله خليفة فى الأرض من بعدك أعلمه فصل الخطاب وهو راعى الغنم فقل لإيشا يعرض عليك بنيه واحداً واحدا فدعا إيشا وقال له اعرض على بنيك فاخرج له اثنا عشر ولدا امثال السوارع وفيهم رجل بارع فجعل يعرضهم على القرن والتنور فلا يرى شيئاً فقاول لذلك الجسم ارجع فيردده على التنور فأوحى الله تعالى اليه أنا لانأخذ الرجال على صورهم ولكنا نأخذهم على صلاح هممهم وقلوبهم فقال لإيشا : بل بقى لك ولد غيرهم ؟ قال لا ، قال شمويل : رب قد زعم أنه لا ولد غيرهم فقال كذب ، فقال شمويل يا إيشا إن ربى كذبك قال صدق الله يانبى الله إن لى إبناً صغيرا يقال له داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته

وخلفته فى الغنم يرعاها وهو فى شعب كذا وكذا ، وكان داود عليه السلام قصيراً سقيما مصفراً أزرق العينين فدعاه طالوت ويقال خرج اليه فوجد الوادى قد سال بالماء بينه وبين الزريبة التى كان يتروح اليها فوجده يحمل الغنم شاتين شاتين يعبر بهما السيل ولا يخوض بهما الماء .

فلما رآه شمويل قال ، هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو أرحم بالناس فدعاه فوضع القرن على رأسه ففاض وأجلسه فى التنور فملأه .

فلما رأى طالوت ذلك قال له هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك إبنتى وأجرى حكمك فى مملكتى قال نعم ، قال فهل لقيت من نفسك شيئاً تتقوى به على قتله قال نعم أنا راعى الغنم فيجىء الأسد والنمر والذئب ليأخذ شيئاً فأقوم إليه وأقبضه وافتح لحييه عنها واحرقهما إلى قفاه ؛ فلما سمع طالوت منه ذلك رده إلى عسكره فمر داود عليه السلام فى الطريق بحجر فناداه ياداود احملنى فإنى حجر هارون الذى قتل به ملك كذا وكذا فحمله فى مخلاته .ب

ثم مر بحجر آخر فناداه ياداود احملنى فإنى حجر موسى عليه السلام الذى قتل به ملك كذا وكذا فحمله فى مخلاته .

ثم مر بحجر آخر فقال احملنى فإنى حجرك الذى تقتل به جالوت وقد خبأنى الله لك فوضعه فى مخلاته ؛ فلما تصافوا للقتال برز جالوت وسأل المبارزة فانتدب له داود وكان طالوت أعطاه فرسا ودرعاً وسلاحا فركب الفرس ولبس السلاح وسار قليلا فوجد فى نفسه زهواً فانصرف وعاد سريعاً إلى الملك فقال من حوله جبن الغلام فجاء حتى وقف على الملك فقال له ما شأنك ؟ فقال له داود أن الله تعالى إن لم ينصرنى فما يغنى عنى هذا السلاح شيئاً فدعنى أقاتل كما أريد ؛ فقال طالوت أفعل ما تريد

فأخذ داود عليه السلام مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة وزنها ثلثمائة رطل حديد وكان له فرس أبلق مثله فى الشدة والقوة وعظم الخلق ،

فلما برز جالوت إلى داود ألقى الله تعالى فى قلبه الرعب فقال له أنت تبرز إلى ، قال نعم وكان جالوت راكباً على فرس أبلق وعليه السلاح التام فقال له يابنى تأتينى بالحجر بالمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر، قال نعم أنت أشر من الكلب قال لا جرم لأقسمن لحمك بين سباع الأرض وطير السماء فقال داود باسم الله ويقسم الله لحمك بين السباع وطير السماء وأخذ حجراً منها وقال باسم إله إبراهيم ووضعه فى مقلاعه ثم أخرج ثانياً وقال باسم الله إله إسحق ووضعه فى مقلاعه ثم خرج ثالثاً وقال باسم الله إله يعقوب ووضعه فى مقلاعه .

قال فصارت الأحجار الثلاثة كلها حجراً واحدا وأدار المقلاع ورمى به فسخر الله الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه أو قتل من ورائه ثلاثين رجلا .

ويقال إنه من بعد ماخرج من قفاه تكسر وتفتت بإذن الله تعالى حتى عم جميع جنود جالوت فلم يبق منهم أحد إلا وقد أصابته منه قطعة ومثل ذلك صار كرامة للنبى ﷺ يوم بدر حين حثا الحثوة من التراب فانهزم الجيش وخر جالوت قتيلا وأسرع داود عليه السلام اليه فحز رأسه وانتزع من يده خاتمه وأقبل برأسه يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين بحمد الله رب العالمين .

(ذكر بقية قصة طالوت وما كان من داود عليه السلام بعد قتل جالوت)

قالوا لما قتل داود جالوت ذكر الناس داود وعظم فى أنفسهم ، فجاء داود إلى طالوت وقال له : انجز إلى ماوعدتنى واعطنى امرأتى فقال له طالوت : أتريد ابنة الملك بغير صداق عجل صداق ابنتى وشأنك بها . فقال داود لطالوت . ماشرطت على صداقاً وليس إلى شىء فتحكم فى الصداق بما تريد وأقرضنى مهرها وعلى الأداء والوفاء لك به ، فقال طالوت أصدقها نصيبك من الملك فقال له بنو إسرائيل لاتظلمه وأنجز ماوعدته ، فلما رأى طالوت ميل بنى إسرائيل إلى داود أحسن ثناءه عليه وقال : لا حاجة لإبنتى فى المال ولا أكلفك مالا تطيق

انت رجل جرىء وفى جبالنا أعداء من المشركين فانطلق فجاهدهم فاذا قتلت منهم مائتى رجل وجئتنى برءوسهم زوجتك ابنتى .

فأتاهم داود عليه السلام وجعل كلما اقترب منه رجلا احتز رأسه ونظمه فى خيط حتى نظم رءوسهم ثم جاء بهم إلى طالوت وألقاهم بين يديه وقال له . ادفع لى امرأتى فزوجه امرأته وأجرى خاتمه فى ملكه فال الناس إلى داود عليه السلام وأحبه بنو إسرائيل وأكثروا من ذكره فوجد طالوت من ذلك فى نفسه فأراد قتله .

قال وهب بن منبه : كان الأنبياء والملوك يومئذ يتوكئون على العصى ويغرزون فى أطراف العصى أزجة من حديد وكان داود عليه السلام جالساً فى ناحية البيت فدخل طالوت فرماه بالعصى بغتة ليقتله فلما أحس داود بذلك حاد عن رميته وأمال نفسه من غير أن يبرح مكانه فارتكزت مكازة فى الجدار فقال له داود : أردت قتلى قال له طالوت لا بل أردت أن أقف على ثباتك عند الطعان وربط جاشك للأقران ، فقال له داود عليه السلام أفلقيته على ماقدرته فى؟ قال نعم ولكنك لعلك فزعت ، قال معاذ الله أن أخاف إلا الله ولا ألجأ إلا اليه لايدفع الشر إلا هو

ثم أن داود انتزعها من الجدر وهزها هزة النكرة ، وقال له اثبت لى كما ثبت لك فأيقن طالوت بالهلاك فقال له ، أنشدك بالله وبحرمة المصاهرة التى بينى وبينك ولا كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت ولكن كان مقال تخويف وتحذير ، فقال داود لطالوت : إن الله قد كتب فى التوراة جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة والبادى أظلم .

قال طالوت : أفلا تقول قولها بيل (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) فقال داود قد عفوت عنك لوجه الله تعالى .

فلبث طالوت زماناً يريد قتل داود عليه السلام فعزم على أن يأتيه ويقتله فى داره فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود أخبرها رجل يقال ذو العينين فقالت

لداود إنك المقتول الليلة قال ومن يقتلني ؟ قالت أبي قال وهل أجرمت جرماً ؟ قالت حدثني من لا يكذب ولا عليك بأس أن تغيب الليلة حتى تنظر مصداق ذلك فقال لئن كان أراد ذلك لا أستطيع خروجاً ولكن إئتيني بزق من خمر فأتته به فوضعته في مضجعه على السرير وسجاه ودخل تحت السرير ؟

قال فدخل طالوت نصف الليل وأراد أن يقتل داود فلم يجده فقال لابنته أين بعلك ؟ فقالت هو نائم على السرير فضربه بالسيف فسال الخمر فلما وجد ريح الخمر قال رحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً فقال إن رجلا طلبت منه ماطلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني ؛ ثم أنه استتر بحجابه وحراسه وأغلق دونه الأبواب .

قال فأتى داود ذات ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب وفتح الله له الأبواب فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهماً عند رأسه وسهما عند رجليه وسهماً عن يمينه وسهماً عن شماله ثم خرج .

فلما استيقظ طالوت وجد السهام فعرفها فقال ؛ رحم الله داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكف عني لو شاء لوضع هذا السهم في حلقي وما أنا بالذي آمنه

ووضع الله في قلب طالوت التوبة فندم على مافعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي أنشد الله عبداً يعلم لي توبة إلا أخبرني بها فلما كثر عليهم بكاؤه ناداه مناد من القبور يا طالوت أما ترضى إنك قتلتنا أحياء حتى تؤذينا أمواتاً فازداد حزناً وبكاء فرحمه الخباز وقال له مالك أيها الملك ، فقال له هل تعلم في الأرض عالماً أسأله هل لي من توبة فقال له الخباز أيها الملك هل تدرى مامثلك ؟ قال لا ، قال مامثلك إلا كمثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطير منه ؛ فقال لا تتركوا في هذه القرية ديكا إلا ذبحتموه فلما أراد أن ينام قال لأصحابه إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج فقيل له وهل تركت ديكا يسمع صوته ؛ وأنت هل تركت عالماً في الأرض فازداد حزناً وبكاء

فلما رأى الخباز ذلك ، قال أرأيت إن دللتك على عالم لعلك تقتله قال لا فتوثق منه الخباز بالإيمان فأخبره أن المرأة العالمة عنده ، فقال له انطلق بنا اليها اسألها هل لى من توبة وكانت تعلم الاسم الأعظم وكان إنما يعلم هذا الاسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم فلما بلغ طالوت الباب ، قال له الخباز إنها إن رأتك فزعت منك ثم جعله خلفه ودخل عليها الخباز فقال : لست أعظم الناس عليك منه أنجيتك من القتل وأوثقتك عندى ؟ قالت بل ، قال لى اليك حاجة هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فلما سمعت بذكره غشى عليها من الفرق فلما أفاقت قال لها إنه لا يريد قتلك ولكن يسألك هل من توبة ؟ قالت لا والله ماله من توبة .

ولكن هل تعلمون قبر شمويل عليه السلام ، قالوا نعم قالت فانطلقوا بنا إلى قبره ، فلما وصلوا اليه صلت عنده ركعتين ثم إنها نادت ياصاحب القبر . فخرج شمويل عليه السلام من القبر ينفض التراب عن راسه فلما نظر إلى الثلاثة المرأة والخباز والملك ، فقال لهم ، أقامت القيامة قالوا لا ولكن هذا طالوت يسألك هل من توبة ؟ فقال له شمويل ما فعلت ياطالوت بعدى ؟ قال لم أدع شيئاً من الشر إلا فعلته ، وقد جئت أطلب التوبة .

قال كم لك من ولد قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلى عن ملكك وتخرج أنت وولدك تجاهد فى سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ؛ ثم إنك تقاتل حتى تقتل آخرهم ثم رجع شمويل عليه السلام إلى القبر فسقط ميتاً ورجع طالوت أحزن ما يكون وخاف أن لا يتابعه ولده فبكى حتى ذهبت أشفار عينيه ونحل جسمه فدخل عليه أولاده فقال لهم أرأيتم لو دفعت إلى النار أكنتم تنقذونى قالوا نعم ننقذك بما قدرنا عليه قال فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم قالوا فاعرض علينا مقالك فذكر لهم القصة فقالوا إنك لمقتول بعدنا ؛ قال نعم قالوا لاخير لنا فى الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذى سألت فتجهز بأولاده إلى الغزو وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شد بعدهم فقاتل حتى قتل فجاء قاتله إلى داود يبشره بقوله قد قتلت عدوك فقال داود ما كنت بالذى تحيا بعده فضرب عنقه .

﴿ مجلس فى خلافة داود عليه السلام وما يتعلق بها ﴾

قال الله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) الآية : قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما استشهد طالوت أتى بنو إسرائيل أى داود فاعطوه خزانة طالوت وملكوه على أنفسهم وذلك بعد قتل داود جالوت بسبع سنين ولم تجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد بعد يوشع بن نون إلا على داود عليه السلام فذلك قوله عز وجل (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة) الآية .

(باب فى ذكر نسبه)

هو داود بن ايشا بن عوفيذ بن بوعز بن سلمون بن يخسون بن عمينو ذب بن رم بن حصروم بن بارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين .

(باب فى ذكر صفته وحليته)

أخبرنى الحسن بن محمد الدينورى بإسناده عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (زرقة العينين يمن) وكان داود عليه السلام أزرق العينين أحمر الوجه دقيق الساقين سبط الشعر أبيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت والخلق طاهر القلب نقية .

(باب فى ذكر ماخص الله تعالى به داود عليه السلام من الفضل)
(والكرامة حين أعطاه الله النبوة والملك)

فمنها أنه أنزل عليه الزبور بالعبرانية مائة وخمسون سورة ؛ فى خمسين منها ذكر مايكون من بختنصر وأهل بابل وفى خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم من أهل ايران ، وفى خمسين منها موعظة وحكمة ولم يكن فيها حلال ولا حرام فذلك قوله تعالى (وآتينا داود زبورا) ومنها الصوت الطيب والنغمة الطيبة اللذيذة والترجيع والألحان ولم يعط الله أحدا من خلقه مثل صوته وكان يقرأ الزبور بسبعين

لحناً بحيث يعرق المحموم ويفيق المغمى عليه ؛ وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية فيقوم وتقوم معه علماء بنى إسرائيل خلفه وتقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس وتقوم الشياطين خلف الجن وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها وتظله الطيور مضحية ويركد الماء الجارى ويسكن الريح وما صنعت المزامير والأراغيل والصنوج إلا على صوته ، وذلك أن إبليس لعنه الله حسده واشتد عليه فقال لعفاريته ألا ترون ما دها كم ؟ فقالوا له مرنا بما شئت فقال إنه لا يصرف الناس عن داود إلا ما يضاد ويحاده فى مثل حاله . فهيئوا المزامير والعيدان والأوتار والملاهى على أجناس أصوات داود فسمعها سفهاء الناس فمالوا اليها واغتروا بها .

ويقال إن داود عليه السلام كان إذا قرأ الزبور بعد ما قارف الذنب لا يقف له الماء ولا تصغى له الوحوش ولا البهائم ولا الطيور كما كانت ونقصت نغمته فقال إلهى ماهذا ؟

فأوحى الله تعالى إليه ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ياداود إن المعصية هى التى غيرت صوتك وحالك ، فقال إلهى أو ليس قد غفرتها لى قال بلى ولكن ارتفعت الحالة التى بينك من الود والقرب فلن تدركها أبداً .

أخبرنا أبو سعيد بن أحمد بن حمدون عن وهب بن منبه ، قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال خفف الله على داود القرآن فكان يأمر بداوبه أن تسرج فكان يقرأ القرآن قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يده . قال الأستاذ الإمام أراد بالقرآن الزبور .

وبالإسناد أخبرنا أبو بكر الجوزقى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال لى رسول الله ﷺ (لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود فقلت أما والله يارسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً) .

وأخبرنا أبو بكر قال أخبرنا أبو العباس باسناد عن البراء بن عازب قال : (سمع النبى ﷺ صوت أبى موسى فقال كان صوت هذا من صوت آل داود)

ومنها تسخير الجبال والطير له يسبحن معه إذا سبح كما قال الله تعالى (ولقد آتينا داود منه فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد) وقوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق)

ويقال إن داود عليه السلام كان إذا تخلل الجبال فسبح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح ثم قال فى نفسه ليلة من الليالى لأعبدن الله تعالى عبادة لم يعبده أحد بمثلها ، فصعد الجبل فلما كان جوف الليل داخلته وحشة فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن آنسى داود فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل فقال داود فى نفسه كيف يسمع صوتى مع هذه الأصوات ، فهبط عليه جبريل عليه السلام وأخذ بعضده حتى انتهى به إلى البحر فوكز برجله فانفلق له البحر فانتهى به إلى الأرض فوكزها برجله فانفجرت له الأرض فانتهى به إلى الحوت فوكزه برجله فانتهى به إلى الصخرة فوكز الصخرة برجله فانفلقت فخرج منها دودة تنش فقال له جبريل إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة فى هذا الموضع وقوله تعالى (يسبحن بالعشى والإشراق) قال المفسرون يعنى صلاة الضحى وصلاة الأوابين بين العشاءين .

قال ابن عباس : وكان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر .

ومنها أنه أكرمه الله تعالى بالحكمة وفصل الخطاب فالحكمة هى الإصابة فى الأمور وأما فصل الخطاب فاختلفوا فيه فقال ابن عباس بيان الكلام وقال ابن مسعود والحسن المعنى على الحكم والنظر فى القضاء كان لا يتتعتع فى القضاء بين الناس وقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه هو البينة على من ادعى واليمين على من أنكر

قال بلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلا جوهرة ثمينة فلما جاء يستردها أنكرها فتحاكما إلى السلسلة فعلم الرجل الذى كانت عنده الجوهرة أن يده لا تنال السلسلة فعمد إلى عكازه فنقرها ثم ضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر معه غريمه عند السلسلة فقال صاحب الجوهرة لمن لى عندك وديعة فقال خصمه ما أعرف

لك وديعة فإن كنت صادقا فتناول السلسلة فتناولها بيده : ثم قيل للمنكر قم أنت أيضا فتناولها فقال لصاحب الجوهرة الزم انت عكازتى هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فأخذها وقام الرجل وقال اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التى يدعيها قد وصلت اليه فقرب منى السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وتفكروا فيها فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اشتبه عليه الأمر بين الخصمين اللذين يتحاكما إليه يقول : ما أحوجكما إلى سلسلة بنى إسرائيل كانت تأخذ بعنق الظالم فتجره إلى الحق جراً .

ومنها القوة فى العبادة وشدة الاجتهاد كما قال الله تعالى (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) يعنى القوة فى العبادة إنه أواب يعنى تواب مسبح مطيع وكان يصوم يوما ويفطر يوما يصوم النهار ويقوم الليل وما أمرت به ساعة من الليل إلا وفيها من آل داود قائم يصلى ولا يوم من الأيام إلا وفيها منهم صائم

ومنها قوة المملكة كما قال الله تعالى (وشددنا ملكه) أى قويناه وقرأ الحسن وشددنا ملكه بالتشديد ،

وقال ابن عباس ؛ كان أشد ملوك الأرض سلطانا وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل وقال السدى كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل .
أخبرنا عبد الله بن حامد عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من بنى إسرائيل تعدى على رجل من عظمائهم فاجتمعا على داود عليه السلام فقال المتعدى إن هذا قد غصبنى بقرتى فسأل داود الرجل عن ذلك فجحد وسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر فى أمركما فقاما من عنده فأوحى الله تعالى اليه فى منامه أن يقتل الرجل الذى تعدى فقال هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتبين فأوحى الله تعالى اليه مرة أخرى أن يقتله فقال هذه رؤيا فأوحى الله تعالى اليه مرة ثالثة أن يقتله فأرسل داود إلى الرجل فقال له إن الله تعالى قد أوحى إلى أن اقتلك فقال له الرجل تقتلنى بغير ذنب ولا بينة فقال داود : نعم والله لأنفذن أمر الله

فيك فلما عرف الرجل أنه قاتله قال لاتعجل على حتى أخبرك إنى والله ما أخذت بهذا الذنب ولكنى كنت اغتلت ولد هذا فقتلته فأمر به داود فقتل فاشتدت هيبة بنى إسرائيل عند ذلك لداود واشتد له ملكه فذلك قوله تعالى (وشددنا ملكه) ويقال كان داود إذا جلس للحكم كان على يمينه ألف رجل من الأنبياء وعلى يساره ألف رجل من الأجناد .

ومنها شدة البطش فيروى أنه مافر ولا انحاز من عدو له قط

ومنها إلانة الحديد له وكان سبب ذلك ماروى فى الأخبار : أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكراً فإذا رأى رجلا لايعرفه تقدم اليه فيسأله عن داود فيقول له ماتقول فى داود واليكم هذا أى الرجل هو فيثنى عليه ويقول خيراً فبينما هو كذلك يوما من الأيام إذ قيض الله له ملكان فى صورة الآدميين فلما رآه تقدم داود على عادته فسأله فقال له الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود فقال ماهى ياعبد الله ، قال أن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً يستغنى به عن بيت المال فينفق ويطعم عياله فالان له الحديد فصار فى يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول وكان يصرفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد وعلمه الله تعالى صنعة الدروع فكان يتخذ الدروع وهو أول من عملها وكانت قبل ذلك صفائح فيقال انه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين فذلك قوله تعالى (وعلمناه صنعة لبوس لكم) وقوله تعالى (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات) أى دروعا كوامل واسعات (وقدر فى السرد) أى لا يجعل المسامير دقاقاً فيقلق ولا غلاظا فتكسر الحلق فكان يفعل ذلك حتى أعتد من ذلك مالا .

وروى أن لقمان الحكيم رأى داود عليه السلام وهو يعمل درعا فتعجب من ذلك ولم يدر ماهو فاراد أن يسأله فسكت حتى فرغ داود من نسج الدروع فقام ولبسه وقال نعم القميص هذا للرجل المحارب فعلم لقمان مايراد به فقال . الصمت حكمة وقليل فاعله

(باب فى قصة داود عليه السلام حين ابتلى بالخطيئة وما يتصل بذلك)

قال الله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم) الآيات

اختلف العلماء بأخبار الأنبياء فى سبب امتحان الله تعالى نبيه داود عليه السلام بما امتحنه الله من الخطيئة ، فقال قوم : كان سبب ذلك أنه تمنى يوما من الأيام على ربه تعالى منزلة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب وسأله أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم فروى السدى والكلبى ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم فى بعض قالوا : كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوماً يقضى فيه بين الناس ويوماً يخلو فيه بنسائه ، ويوماً لعبادة ربه وقراءة الكتب ، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام فيقول يارب أرى الخير قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى فأوحى الله تعالى اليه إنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها أحد فصبروا عليها ، ابتلى ابراهيم عليه السلام بنار النمروذ وبذبح ولده ، وابتلى اسحق بالذبح ، وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بصره على يوسف وإنك لم تبتلى بشىء من ذلك

فقال داود عليه السلام يارب فابتلنى كما ابتليتهم واعطنى كما أعطيتهم فأوحى الله تعالى إنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم كذا فاحترس على الصبر ، فلما كان اليوم الذى وعده الله دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وتمثل فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فوقعت بين يديه ليأخذها .

وفى بعض الروايات ليدفعها إلى ابن له صغير فلما أهوى اليها طارت غير بعيد من غير أن تمكنه من نفسها فامتد اليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت فوقعت فى كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث اليها من يصيدها فنظر إلى امرأة فى بستان على شط بركة تغتسل هذا قول الكلبى

وقال السدى : رآها تغتسل على سطح لها فرآها من أحسن الناس خلقاً فتعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظل داود عليه السلام فنشرت شعرها فغطى بدنها كله فزاد بذلك إعجاباً بها فسأل عنها فقيل له هى سابع بنت شائع امرأة أورياء بن حنان وزوجها فى غزاة البلقاء مع أيوب بن صوريا بن أخت داود فكتب داود إلى ابن أخته أيوب صاحب بعثة البلقاء أن ابعث أورياء إلى موضع كذا وكذا وقدمه على التابوت وكان المقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع إلى ورائه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه داود أيضاً أن ابعثه إلى غزوة كذا وكان رئيسها أشد منه بأساً فبعثه فقتل فى المرة الثانية فلما انقضت عدتها تزوجها داود فهى أم سليمان عليه السلام

وقال آخرون : إنما سبب امتحانه أن نفسه حدثته أن يطيق قطع يوم بغير مفارقة سيئة .

وعن الحسن أخبرنا شعيب بن محمد قال إن داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أجزاء : يوماً لنسائه ويوماً لعبادة ربه ويوماً لقضاء حوائج المسلمين ويوماً لبنى إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه ويسألهم ويسألونه .

فلما كان يوم بنى إسرائيل ذكروا ، فقالوا هل يأتى على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً فأضمر داود فى نفسه أنه سيطيق ذلك فلما كان يوم عبادة ربه أغلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وانكب على التوراة فبينما هو يقرأ إذ هو بحمامة من ذهب فيها كل شىء حسن قد وقفت بين يديه فأهوى إليها ليأخذها فطارت فوقعت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه خلقها وحسنها فلما رأت ظله فى الأرض جللت جسدها بشعرها فزاده ذلك إعجاباً بها وكان قد بعث زوجها فى بعض جيوشه فكتب إليه أن سر فى مكان كذا وكذا مكاناً إذا وصل إليه قتل ولم يرجع ففعل فأصيب فخطبها داود وتزوجها

وقال بعضهم فى سبب ذلك كما أخبرنا قتادة عن الحسن بن محمد إن داود عليه السلام قال لبنى إسرائيل حين ملك والله لأعدلن فيكم ولم يستثن فابتلى .

وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة فأعجب بعمله فقال هل فى الأرض أحد يعمل عملى فأتاه جبريل عليه السلام فقال إن الله تعالى يقول : أعجبت بعبادتك والعجب يأكل العبادة فإن أعجبت ثانياً وكلتك إلى نفسك فقال داود يا رب كلنى إلى نفسى سنة فقال إنها لكثيرة قال فشهراً قال فإنه لكثير قال فأسبوعاً فقال إنه لكثير قال فيوماً قال إنه لكثير قال فساعة قال فشأنك بها قال فوكل الحراس ولبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه فبينما هو فى نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه وكان من أمر المرأة ما كان قالوا فلما دخل داود بامرأة أورياء لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله تعالى ملكين فى صورة رجلين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحراس أن يدخلا عليه فتسورا المحراب وهو يصلى فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان فذلك قوله تعالى (هل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم) حين هجما عليه فى محرابه بغير إذنه (قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أى لا تجر ولا تفرط (واهدنا إلى سواء الصراط) أرشدنا إلى وسط الطريق المستقيم (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء والعرب تفعل ذلك كثيراً تورى عن النساء وتكنى عنها بألقاب كالظباء والنعاج والبقر وهو كثير فاش فى أشعارهم فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب .

قال الضحاك اعطنيها وتحول لى عنها واجعلها كفلى أى نصيبى وعزنى فى الخطاب قال الضحاك يقول إن تكلم كان أفصح منى وإن حارب كان أبطش منى فقال داود (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) .

قال السدى بإسناده : إن أحدهما لما قال هذا أخى له تسع وتسعون نعجة قال داود للآخر ما تقول ؟ قال إن لى تسعاً وتسعين نعجة وله نعجة واحدة فأريد أن آخذها منه وأكمل نعاجى مائة قال وهو كاره قال نعم ، قال إذا لا ندعك وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا يعنى طرف الأنف وأصل الجبهة فقال

الرجل يا داود أنت أحق بضرب هذا منى حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لاورياء إلا امرأة واحدة فلم تعرضه للقتال حتى قتل وتزوجت امرأته فهذا وجه الآية إلا أن داود حكم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر .

قالوا ثم أن داود نظر فلم ير أحداً فعرف ما قد وقع فيه وذلك قوله تعالى (وظن داود إنما فتناه) أى ابتليناه وقال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنة داود بالنظر وقال القائلون بتنزيه المرسلين فى هذه القصة : أن لا ذنب إنما كان تمنى أن تكون له امرأة أورياء حلالا وحدث نفسه بذلك فاتفق له غزوة فأرسل أورياء فقدمه أمام الحرب فاستشهد فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ولم يتوجع عليه كما كان يجزع على غيره من جنده إذا هلك ووافق قتله مراده ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهى عظيمة عند الله .

وقال بعضهم : كان ذنب داود أن أورياء قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها فلما غاب فى غزاته خطبها داود فتزوجت منه لجلالته فاغتم لذلك أورياء غماً شديداً فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول .

وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة ولذلك قال النبى ﷺ « لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه » ومما يصدق ما ذكرناه ما قيل عن المفسرين والمقدمين ما أخبرنا به عقيل بن محمد الفقيه المغافرى عن ذكريا عن أنس أن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن داود عليه السلام حين نظر إلى المرأة قطع على بنى إسرائيل بعثاً وأوصى صاحب البلفاء إذا حضر العدو فقدم فلاناً بين يدى التابوت وكان التابوت فى ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يديه لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم الجيش عنه فقتل زوج المرأة ونزل الملكان ليقصا عليه قصته ففطن داود وسجد فمكث أربعين ليلة ساجداً يبكى حتى نبت الزرع من دموعه حول رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول فى سجوده ذل داود ذلة هى أبعد مما بين المشرق والمغرب رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر له ذنبه وجعلت ذنبه حديثاً فى الخلائق من بعده .

فجاء جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهم الذى هممت به فقال داود قد علمت أن الله قادر على أن يغفر الهم .

وإذا جاء أورياء يوم القيامة فقال يارب دمى الذى عند داود ؟ قال جبريل ماسألت هممت به فكيف بفلان يعنى ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن قال نعم؟

فرجع جبريل عليه السلام وسجد داود فمكث ما شاء الله ثم نزل فقال قد سألت ياداود عن الذى أرسلتنى فيه فقال الله تعالى قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لى دمك الذى عند داود فيقول هو لك يا رب فأقول أن لك فى الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضاً عن دمك .

أخبرنا ابن فنجويه بإسناده عن كعب الأحبار وعن وهب بن منبه قالوا جميعاً أن داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان وقضى على نفسه تحولا فى صورتهما فعرجا وهما يقولان قضى للرجل على نفسه وعلم داود أنما فتناه فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها أو صلاة مكتوبة ثم يعود فيسجد تمام أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب وهو يبكى حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادى ربه تعالى ويسأله التوبة .

وكان يقول فى سجوده : سبحان الملك الأعظم الذى يبتلى الخلائق بما يشاء سبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب إلهى خليت بينى وبين عدوى إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزل بى قدمى ، سبحان خالق النور إلهى تبكى الثكلى على ولدها إذا فقدته ويبكى داود على خطيئته ، سبحان خالق النور يغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه والخطيئة لازمة لى لا تذهب عنى ، سبحان خالق النور إلهى لم أتعظ بما وعظت به غيرى ، سبحان خالق النور إلهى أمرتنى أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف فنسيت عهدك ، فسبحان خالق النور إلهى خلقتنى وفى سابق علمك كان ما أنا صائر إليه سبحان خالق النور إلهى الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا داود الخاطىء ، سبحان خالق النور إلهى بأى قدم أقوم أمامك يوم تزل أقدام الخاطئين يوم القيامة من سوء الحساب سبحان

خالق النور إلهى مضت النجوم وكنت أعرفها بأسمائها فتؤنسنى فتركتنى والخطيئة لازمة لى سبحان خالق النور إلهى أمطرت السماء ولم تمطر حولى وأعشبت الأرض ولم تعشب حولى بخطيئتى سبحان خالق النور إلهى أنا الذى لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك سبحان خالق النــــور إلهى أنا الذى لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم سبحان خالق النور إلهى كنت تستر الخاطئين بخطاياهم وأنت شاهد حيث كانوا سبحان خالق النور إلهى رق القلب وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدى سبحان خالق النور إلهى الطير تسبح لك وأنا العابد الخاطىء الضعيف الذى لم أرع وصيتك .

سبحان خالق النور إلهى الويل لداود من الذنب العظيم الذى أصاب ولا علم له بذلك سبحان خالق النور إلهى أنا المستغيث وأنت المغيث فمن يدعو المستغيث إلا المغيث سبحان خالق النــــور إلهى أنا أسألك بإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب أن تعطينى سؤلى سبحان خالق النور . اللهم برحمتك اغفر لى ذنوبى ولا تباعدنى من رحمتك لهوانى فإنك أرحم الراحمين

سبحان خالق النور إلهى إنى أعوذ بك من دعوة لا تستجاب وصلاة لا تقبل وذنب لا يغفر وعذاب لا يفتر سبحان خالق النور إلهى إنى أعوذ بنور وجهك الكريم من ذنوبى التى أوبقتنى سبحان خالق النور إلهى فررت إليك من ذنوبى واعترفت بخطيئتى فلا تجعلنى من القانطين ولا تخزنى يوم يبعثون .

سبحان خالق النور إلهى فرغ الحنين وفرغت الدموع وتناثر الدود من ركبتى وخطيئتى ألزم لى من جلدى سبحان خالق النور .

قالوا فأتاه النداء : أجائع أنت فتطعم أو ظمآن أنت فتسقى أو مظلوم أنت فتنصر ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشىء فصاح صيحة فهاج منها ما حوله ثم نادى يا رب الذنب الذى أصبته فنودى يا داود ارفع رأسك قد غفرت لك فلم يرفع رأسه حتى أتاه جبريل عليه السلام فرفعه .

قال وهب بن منبه أن داود عليه السلام أتاه نداء إنى قد غفرت لك فقال يارب اعف وأنت لا تظلم أحداً فقال اذهب إلى قبر أورياء فناده وأنا أسمعه نداءك فتحلل منه قال فانطلق داود عليه السلام حتى أتى قبره وقد لبس المسوح فجلس عند قبره ثم ناداه يا أورياء فقال لبيك من هذا الذى قطع على لذتى وأيقظنى قال أنا داود فقال ما جاء بك يا نبي الله قال جئت أتحلل مما كان منى إليك ، قال وما كان منك إلى ؟ قال عرضتك للقتل قال عرضتني للجنة وأنت فى حل فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ألم تعلم أنى حكم عدل لا أقضى إلا بالحق ألا أعلمته أنك تزوجت امرأته ؟ قال فانطلق داود إليه فناداه يا أورياء فأجابه فقال من هذا الذى قطع على لذتى ؟ فقال أنا داود فقال يا نبى الله ما حاجتك أليس قد عفوت عنك ؟ قال نعم لكن أنا ما فعلت بك ذلك إلا لمكان امرأتك وأنى قد تزوجتها .

قال فسكت أورياء ولم يجبه فدعاه ولم يجبه فقام عند قبره وحثا التراب على رأسه ثم نادى الويل ثم الويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له إذا نصبت الموازين القسط ليوم القيامة سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الدائم له حين يؤخذ برقبته ثم يدفع إلى المظلوم .

سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقربه الزبانية مع الظالمين إلى النار .

سبحان خالق النور قال فأتاه النداء من السماء : يا داود قد غفرت ذنبك ورحمتك ورثيت لطول مكانك واستجبت دعائك وأقلت عثرتك قال يارب كيف لى أن تعفو عنى وصاحبي لم يعفو عنى قال ياداود وأن يعف أو لم يعف فأنا أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه فأقول له قد رضيت عبدى فيقول يارب من أين هذا ولم يبلغه عمل فأقول هذا عوض من أجل عبدى داود فأستوهبك منه فيهبك لى فقال داود يارب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لى فذلك قوله عز وجل (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)

قال وهب بن منبه : أن داود عليه السلام لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة ولا ترقأ له دمعة ليلا ولا نهاراً .

وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة وقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أقسام يعني أربعة أيام فجعل يوم للقضاء بين الناس ويوماً لنسائه ويوماً يسيح في الفيافي والجبال والقفار والسواحل ويوما يخلو في داره فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح بعضهم على بعض ويساعدون على ذلك .

فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافي فيرفع صوته كالمزامير ويبكي فيبكي معه الشجر والمدر والطير والوحش حتى تسيل دموعه مثل الأنهار .

ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته كالمزامير فيبكي وتبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى تسيل الأودية من بكائهم .

ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته كالمزامير فيبكي وتبكي معه الحيتان ودواب البحر والطير والماء والسباع فإذا أمسى رجع فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه أن اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده قال فيدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط له ثلاث فرش من مسوح حشوها الليف ليجلس عليها وتجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وعليهم المسوح وفي أيديهم العصي ثم يجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع صوته بالبكاء فيرفع الرهبان معه أصواتهم .

فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ وهو يضطرب فيجيء إبنه سليمان عليه السلام فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفه ثم يمسح وجهه ويقول يا رب اغفر لي ما ترى فلو عدل بكاء داود ودموعه ببكاء أهل الأرض ودموعهم لعدلها .

أخبرنا ابن فنحويه عن عثمان بن أبي عاتكة أنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام : سبحانك إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحي إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووني فكلهم عليك دلوني .

وقال ﷺ : « خد الدمع في وجه داود مثل خد الماء في الأرض » .

وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « كان الناس يعودون داود عليه السلام فيظنون أنه مريض وما به إلا الحياء والخوف من الله تعالى » .

قال وهب بن منبه : لما تاب الله على داود كان يبـــدأ إذا دعا فيستغفر للخاطئين قبل نفسه فيقول : اللهم اغفر للخاطئين فعساك أن تغفر لداود معهم .

وعن قتادة عن الحسن قال : كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ثم يقول تعالوا إلى داود الخاطىء ولا يشرب شراباً إلا وهو ممزوج بدموع عينيه وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعته ولا يزال يبكي حتى يبتل بدموعه وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين .

قال وكان داود عليه السلام قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن ثابت قال : كان داود عليه السلام إذا ذكر عقاب الله تعالى تخلعت أوصاله ولا يشدها إلا الأنين ، فإذا ذكر رحمة الله تعالى تراجعت .

وعن أبي عبد الله البجلي قال ما رفع داود بعد الخطيئة رأسه إلى السماء قط حتى مات وصلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

(باب فى ذكر خروج ابن داود على أبيه وما كان من أمرهما)

قال وهب وغيره من أهل الكتاب أن داود عليه السلام لم يزل قائماً بالملك بعد طالوت إلى أن كان من أمره وأمر امرأة أوريا . ما كان فلما واقع الخطيئة واشتغل بالتوبة منها استخفت به بنو إسرائيل واستضعفوه واجتمع أهل الزيغ من بنى إسرائيل وذهبوا إلى ابن لداود من إبنه طالوت يقال له شالون وقيل إيشا وقالوا له قد كبر أبوك واشتغل بخطيئته وتوبته وضاعت حقوق الناس وضعف أمر الملك فلم يزالوا به حتى بايعوه وخلعوا داود وعدلوا عنه ودعا هذا الإبن إلى نفسه ، فلما رأى ذلك داود خرج من بين أظهرهم مع ابن أخ له يقال له ثواب وتوغل فى الجبال فأشار قومه على إبنه أن يقتل أباه فلما بلغ ذلك داود أرسل إليه رفيقه وقال له هل سمعت بإبن قتل اباه قال له الإبن وهل سمعت أنت بنى أذنب فلم تقبل توبته فقال له الرسول إن كان الله تعالى قد أذن لك فى هلاكه فلا تباشره أنت فإنه لا يجهل فى الآخرة حدوثه منك فقبل منه ذلك فكف عن قتل أبيه وبقى إبنه ملكاً سنتين .

فلما تاب الله على داود صارت الناس تأتيه فحارب إبنه فهزمه ووجه فى طلبه قائداً من قواده وأوصاه أن يتوقى حتفه ويتلطف فى أسره فطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فربض بها وكان الغلام ذا جمة فتعلق غصن من أغصانها بشعره فحبسه ولحقه القائد فقتله مخالفاً لأمر داود عليه السلام فحزن عليه داود حزناً شديداً وتنكر للقائد وكان له بأس شديد فى ملاقاة العدو فكره داود أن يقتله فتركه لأجل مجاهدة العدو .

فلما حضر داود الموت أوصى ولده سليمان عليهما السلام يقتل القائد فقتله حين فرغ من دفن أبيه وكانت مدة داود من يوم خرج من ملكه وانقطع عنه الوحى إلى أن قبل الله توبته ورد عليه ملكه ورجع إلى قومه سنتين .

(باب فى قصة أصحاب السبت)

قال الله تعالى (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت) الآية .

قال ابن عباس ووهب بن منبه : أن قوماً من بنى إسرائيل سكنوا قرية على شاطىء البحر بين مصر ومدين يقال لها أيله حرم الله عليهم صيد الحيتان وسائر العمل يوم السبت وأمرهم أن يتفرغوا لعبادته ذلك اليوم وذلك فى زمان داود عليه السلام فكان إذا خلا يوم السبت لم يبق حوت فى البحر إلا اجتمع هناك ويخرجن من الماء خراطيمهن حتى لا يرى الماء من كثرتهن حتى إذا مضى السبت تفرقن ولزمن مقر البحر لا يرى منهن إلا القليل فذلك قوله تعالى (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم) الآية

سمعت أبا القاسم ، قال سمعت أبى يقول : سئل الحسن بن الفضيل هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتاً ، والحرام يأتيك جزافاً ؟ قال نعم فى قصة داود عليه السلام وأهل أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم قال فعمد رجال منهم فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا إليها من الأنهار فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج منها لبعدعمقها وقلة الماء فإذا كان يوم الأحد أخذوها

وقيل إنهم كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعـــة ويخرجونها يوم الأحد .

قال وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كثيراً وفى غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد

فأخذ رجل منهم حوتاً وربط فى ذنبه خيطاً ثم ربطه إلى خشبة فى الساحل ثم تركه فى الماء إلى يوم الأحد فأخذه فسواه فوجد جار له ريح الحوت فقال له يا فلان إنى أجد فى بيتك ريح الحوت فأنكره فأطلع الجار فى تنوره فإذا هو فى

بيته فقال له إنى أرى الله سيعذبك ، فلما رأى العذاب لم يأخذه أخذ فى السبت الآخر حوتين فلما رأوا العذاب لا ينزل عليهم أخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا فأثروا وكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة فقست قلوبهم وتجبروا وتجرءوا على الذنب وقالوا ما نرى السبت إلا قد أحل لنا ، وإنما حرم ذلك على آبائنا لأنهم قتلوا أنبياءهم

فلما فعلوا ذلك صار أهل تلك القرية وكانوا نحواً من سبعين ألفاً ثلاثة أصناف صنف امسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه وصنف انتهكوا الحرمة ، فكان الذين نهوا إثنى عشر ألفاً فلما أبى المجرمون قبول النصيحة، قال الناهون المسكون : والله لنخرجن من هذه القرية ولا نساكنكم فى قرية واحدة ، ثم قسموا القرية بينهم بجدار ومكثوا على ذلك سنين فلعنهم الله على لسان داود عليه السلام وغضب عليهم لإصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم والمجرمون لم يفتحوا بابهم ولا خرج منهم أحد فلما أبطئوا تسوروا عليهم الحائط فإذا هم جميعهم قد مسخوا قردة فذلك قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) أى شديد بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين أى صاغرين نظيره قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود)

وروى أبو نصر عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة بعذاب من السماء بعد ما أنزل الله التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التى كانت حاضرة البحر الذين مسخوا قردة ألم تسمع قول الله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب بعد ما أهلكنا القرون الأولى) الآية

(باب فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى الحرث)

قال الله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين)

قال ابن عباس وقتادة : كان الحرث زرعاً ، وقال ابن مسعود وشريح : كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده إذ نفشت فيه غنم القوم رعته ليلا فأفسدته والنفش بالليل والهمل بالنهار وهو جميعا الرعى بلا راعى وكنا لحكمهم شاهدين ولا يخفى علينا منه شىء

قال ابن عباس وقتادة ، إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث فقال صاحب الحرث إن هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئا قال له داود اذهب فإن الغنم لك فأعطاه رقاب الغنم بالحرث فمرا على سليمان فقال لهما كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا فأخبرا بذلك داود فدعاه وقال له كيف كنت تصنع فى القضاء بينهما ؟ قال كنت أدفع الغنم إلى صاحب الحرث سنة فيكون له نسلها وصوفها ومنافعها ويبذر صاحب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم فإذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيئته يوم أكل فيدفع إلى أهله ويأخذ صاحب الغنم غنمه

وقال ابن مسعود وشريح ، إن راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فصار صاحب الكرم من الغد إلى داود فقضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الأغنام وثمن الكرم تفاوت قال فمرا بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة فقال لهما ماقضى بينكما داود فقصا عليه القصة فقال سليمان غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود فأخبراه بذلك فدعا سليمان وقال له بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين فقال سليمان تسلم الأغنام إلى صاحب الكرم لينتفع بنسلها وصوفها ومنافعها ويعمل الراعى فى إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيئته ثم يتسلمه صاحبه وترد الأغنام إلى صاحبها فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك فذلك قوله تعالى (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) قال الحسن كان الحكم ما قضى به سليمان ولم يعنف الله داود فى حكمه قال الأستاذ وهذا يدل على أن لكل مجتهد نصيب

(باب فى قصة استخلاف داود إبنه سليمان عليهما السلام وذكر بدء الخاتم)

قال أبو هريرة رضى الله عنه : أنزل الله تعالى كتاباً من السماء على داود عليه السلام مختوما بخاتم من ذهب فيه ثلاث عشر مسئلة فأوحى الله تعالى إليه أن سل عنها إبنك سليمان فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك قال فدعا داود عليه السلام سبعين قساً وسبعين حبراً وأجلس سليمان بين أيديهم وقال : يابنى الله إن الله تعالى انزل على كتاب من السماء فيه مسائل وأمرنى أن أسالك عنها فإن أخرجتها فأنت الخليفة من بعدى فقال سليمان : ليسألنى نبى الله عما بدا له وما توفيقى إلا بالله .

قال داود يابنى ما أقرب الأشياء وما أبعدها ؟ وما آنس الأشياء وما أوحشها ؛ وما أحسن الأشياء وما أقبحها ، وما أقل الأشياء وما أكثرها ، وما القائمان وما الساعيان ، وما المشتركان وما المتباغضان ، وما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره ، وما الأمر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره ، فقال سليمان عليه السلام أما أقرب الأشياء فالآخرة ، وأما أبعد الأشياء فما فاتك من الدنيا ، وأما آنس الأشياء فجسد فيه روح ، وأما أوحش الأشياء فجسد لاروح فيه ، وأما أحسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر ، وأما أقبح الأشياء فالكفر بعد الإيمان ، وأما أقل الأشياء فاليقين ، وأما أكثر الأشياء فالشك ، وأما القائمان فالسماء والأرض ، وأما الساعيان فالشمس والقمر ، وأما المشتركان فالليل والنهار وأما المتباغضان فالموت والحياة وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره فالحلم عند الغضب وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره فالحقد عند الغضب .

قال ففكوا الخاتم فإذا جواب المسائل سواء على ما نزل من السماء فقال القسيسون والرهبان لانرضى حتى نسأله عن مسألة فإن أخرجها فهو الخليفة من بعدك فقال سليمان [illegible]يه السلام سلونى وماتوفيقى إلا بالله فقالوا له ما الشىء الذى إذا صلح صلح [illegible]ىء من الإنسان وإذا فسد فسد كل شىء من الإنسان فقال هو القلب فقام داود [illegible]عد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال ، إن الله تعالى أمرنى ان استخلف عليكم سليمان قال فضجت بنو إسرائيل وقالوا غلام حديث يستخلف علينا وفينا من هو أفضل منه وأعلم فبلغ ذلك داود عليه السلام فدعا رؤساء أسباط بنى إسرائيل وقال لهم ، إنه قد بلغنى مقالتكم فارونى عصيكم فأى عصا أثمرت فإن

صاحبها ولى هذا الأمر بعدى ،قالوا قد رضينا فجاءوا بعصيهم فقال داود ليكتب كل رجل منكم إسمه على عصاه فكتبوا ، ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها إسمه ثم أدخلت بيتاً واغلق عليها الباب وسد بالأقفال وحرسه رءوس أسباط بنى إسرائيل. فلما اصبح صلى الغداة ثم أقبل ففتح الباب فاخرج عصيهم كما هى وأما عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت قالوا فسلموا الأمر فى ذلك لداود عليه السلام فلما رأى ذلك داود حمد الله وحمل سليمان خلفه ثم سار به فى بنى إسرائيل فقال إن هذا خليفتى عليكم من بعدى ، قال وهب بن منبه لما استخلف داود إبنه سليمان عليهما السلام وعظه فقال ، يابنى إياك والهزال فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوان وإياك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شىء وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شىء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا برآء اقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وإياك وما يتعذر منه القول والفعل وعود نفسك ولسانك الصدق والزم الإحسان فإن استطعت ان يكون يومك خيراً من أمسك فافعل وصل صلاة مودع ولا تجالس السفهاء ولا ترد على عالم ولا تماره فى الدين وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض وتحول من مكانك وارج رحمة الله فإنها وسعت كل شىء

قالوا ثم أن سليمان بعد أن استخلف اخفى أمره وتزوج بامرأة واستتر عن الناس وأقبل على العلم والعبادة ثم ان امرأته قالت له ذات يوم بابى انت وامى ما أكمل خصالك واطيب رائحتك ولا اعلم خصلة اكرها إلا أنك فى مؤنة أبى فلو دخلت السوق فتعرضت لرزق الله لرجوت أن لا يخيبك الله فقال سليمان إنى ما عملت عملا قط ولا أحسنه ثم أنه دخل السوق صبيحة يوم ذلك فلم يقدر على شىء فرجع فاخبرها فقالت غدا يكون إن شاء الله فلما كان اليوم الثانى مضى حتى انتهى إلى ساحل البحر فإذا هو بصياد فقال له هل لك ان أعينك وتعطينى شيئاً قال نعم قال فاعانه فلما فرغ اعطاه الصياد سمكتين فاخذهما وحمد الله تعالى ثم أنه شق بطن أحداهما فاذا هو بخاتم فى بطنها فاخذه وصره فى ثوبه وحمد الله عز وجل واخذ السمكتين وجاء بهما إلى منزله ففرحت امرأته بذلك فاخرج الخاتم ولبسه فى إصبعه فعكف عليه الطير والريح ووقع عليه بهاء الملك ثم لم يلبث أبواه أن مات حمل المرأة واباها إلى اصطخر والله اعلم

(باب فى ذكر وفاة داود عليه السلام)

قال الشيخ أبو زيد ، سمعت الشيخ أباعمر والفارى يروى أن داودعليه السلام كانت له وصيفة تغلق الأبواب كل ليلة تأتيه بالمفاتيح ثم تنام ويقبل داود على ورده فى العبادة ، فاغلقت ذات ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام فرأت رجلا قائما وسط الدار فقالت له ما أدخلك هذه الدار فإن صاحبها رجل غيور خذ حذرك ، فقال لها أنا الذى أدخل الدور على الملوك بغير إذنهم

قال فلما سمع داود ذلك وكان فى المحراب واقفاً يصلى فزع واضطرب وقال لها على به فقال له داود ما أدخلك هذه الدار فى هذا الوقت بغير إذن ، فقال أنا الذى أدخل الدور على الملوك بغير إذن ، فقال له إذا فانت ملك الموت قال نعم قال أفجئت داعياً أم ناعياً ، فقال ناعياً ، فقال داود عليه السلام ، فهلا أرسلت إلى قبل ذلك وآذنتنى لأستعد للموت ، فقال كم أرسلت إليك فلم تنتبه

قال ومن كانت رسلك التى أرسلت إلى ، فقال يا داود أين أبوك إيشا، وأين أمك واين أخوك ، وأين جارك ، وأين قهارمتك ، وأين فلان وفلان ، فقال ماتوا كلهم فقال أما علمت أنهم رسلى إليك وأن التوبة تبلغك

قال الأستاذ رضى الله عنه وفى هذا المعنى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لا يزال المرأ ينعى أخاه حتى يكونه وقد يرجو الرجا فيحول الموت دونه

وقد نظمه بعض الشعراء فقال :

وإذا حملت إلى القبور جنازة   فاعلم بانك بعدها محمول
وإذا وليت أمور قوم مدة   فاعلم بانك عنهم معزول

قال أهل التاريخ كان عمر داود عليه السلام مائة سنة وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقد مضى فى قصة آدم وماوهب لداود من عمره عليهما السلام

مجلس فى قصة سليمان عليه السلام وما يتعلق به

قال الله تعالى « وورث سليمان داود » يعنى نبوته وحكمه وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداود عليه السلام تسعة عشر إبناً .

وقال مقاتل ، كان سليمان عليه السلام أعظم ملكاً من أبيه داود وأقضى منه وكان داود عليه السلام أشد تعبداً من إبنه سليمان ، وكان سليمان حين أتاه الله الملك والحكمة ابن ثلاث عشرة سنة وكان ملكه ما بين الشام إلى اصطخر وقيل إنه ملك الأرض كلها

وروى مجاهد عن ابن عباس ، قال ملك الأرض بعد أربعة . مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان ، فسليمان عليه السلام وذو القرنين ، وأما الكافران فالنمروذ ابن كنعان وبختنصر

(باب فى صفة حليته عليه السلام)

قال وهب بن منبه وكعب الأحبار ، كان سليمان أبيض جسيما وضيئاً جميلا كثير الشعر يلبس من الثياب البيض ، وكان خاشعاً متواضعاً يخالط المساكين ويجالسهم ويقول مسكين يجالس مسكيناً ، وكان أبوه فى أيام ملكه يشاوره فى كثير من أموره مع صغر سنه ووفور عقله وعلمه . صلى الله على نبينا وعليه وسلم .

(باب فيما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام حين ملكه
(من أنواع المناقب والمواهب وغير ذلك)

قال الله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) وقال الله تعالى إخباراً عنه (رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى أنك أنت الوهاب) فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحداً من خلقه قبله ولا بعده فمنها تسخير الله له الريح كما قال عز وجل (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) أى أراد بلغة حمير.

قال محمد بن إسحق وغيره من أصحاب الأخبار ، كان سليمان عليه السلام رجلا غزاء لا يكاد يقعد عن الغزو وكان لا يسمع بملك فى ناحية من الأرض إلا أتاه حتى يذله ويقهره وكان إذا أراد الغزو أمر بعسكره فيضرب له خشب ثم ينصب له على الخشب سرير ثم يحمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف على الريح فيدخل تحت تلك الخشب فيحملها حتى إذا أقلتها أمر الرخاء فمرت به شهرا فى غدوته وروحته إلى حيث أراد كما قال الله تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهراً ورواحها شهراً) .

وقال ابن إسحق ذكر لى أن رجلا نزل منزلا من ناحية الدجلة فوجد فيه كتابا مكتوبا كتبه بعض أصحاب سليمان إما من الجن أو من الإنس نحن نزلنا وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من إصطخر فقلنا ونحن رائحون إن شاء الله تعالى فأتون الشام قال وكان فيما بلغنى تمر بعسكر الريح الرخاء تهوى به إلى حيث أراد إنها لتمر بالمزرعة فلا تحركها .

وأخبرنا الحسن بن محمد بن فنجويه بإسناده عن وهب بن منبه عن أبيه قال أن سليمان عليه السلام ركب الريح يوماً فمرت بحراث فنظر إليهما الحراث وقال لقد أوتى آل داود ملكاً عظيماً فحملت الريح كلامه وألقته فى أذن سليمان عليه السلام فنزل حتى أتى الحراث وقال له لقد سمعت قولك وإنما نزلت إليك لئلا تتمنى

ما لا تقدر عليه أن تسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير مما أوتى آل داود فقال له الحراث أذهب الله همك كما أذهبت همى .

وقال مقاتل ، نسجت الشياطين لسليمان عليه السلام بساطاً فرسخاً فى فرسخ ذهباً فى إبريسم وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاث آلاف كرسى من الذهب والفضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظلهم الطير بأجنحتها لئلا تقع عليهم الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومسيرة شهر من الرواح إلى الصباح .

أخبرنا ابن فنحويه بإسناده عن محمد بن كعب القرظى قال : بلغنى أن عسكر سليمان عليه السلام كان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون منها للجن وخمسة وعشرون منها للوحوش وخمسة وعشرون منها للطيور وكان له ألف بيت من القوارير على الخشب فيها ثلثمائة سرير وسبعمائة امرأة فيأمر الريح العاصفة فتحمله ويأمر الرخاء فتسير به فأوحى الله تعالى إليه وهو سائر بين السماء والأرض إنى قد زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشىء إلا جاءت به الريح إليك فأخبرتك به .

ومنها تعليم الله له كلام الطير حتى النمل كما قال الله تعالى (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) الآية .

قال ابن فنحويه بإسناده عن كعب الأحبار قال : صاح رشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا فقال إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة عند سليمان فقال أتدرون ما تقول ؟ قالوا لا قال إنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاووس فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال إنه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال إنه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال إنه يقول استغفروا الله يا مذنبون فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله قال صاح الطيطوى فقال أتدرون ما يقول ؟

قالوا لا قال إنه يقول كل حى ميت وكل جديد بال ، قال وصاح خطاف فقال : أتدرون مايقول قالوا لا قال إنه يقول قدموا خيرا تجدوه ، فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله وهدرت حمامة فقال أتدرون ماتقول قالوا لا قال إنها تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وملء أرضه ، وصاح قمرى فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال إنه يلعن العشارين ، والحدأة تقول كل شيء هالك إلا وجهه ، والقطا تقول من سكت سلم ، والعنقاء تقول ويل لمن الدنيا همه ، والبازى يقول سبحان ربى الأعلى وبحمده والضفدع يقول سبحان رب القدوس والعصفور يقول سبحان المذكور بكل مكان.

وأخبرنا ابن ميمون بإسناده عن مكحول قال : صاح دارج عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا قال إنه يقول الرحمن على العرش استوى وبإسناده عن صالح المروى عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ « الديك إذا صاح يقول اذكروا الله ياغافلون » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن على عليهم السلام أنه قال إذا صاح النسر يقول ـ يا ابن آدم عش ماشئت فإن آخرك الموت وإذا صاح العقاب قال فى البعد عن الناس أنس ، وإذا صاح القنبر قال اللهم العن مبغض آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدها القارىء .

وقال فرقد السنجى مر سليمان ببلبل فوق شجرة وهو يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال إنه يقول أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء .

قال ومر سليمان بموكبه على نملة فقالت النملة سبحان الله العظيم ما أعظم ما أوتى آل داود فتبسم سليمان من قولها وفسر قولها لجنوده ، ثم قال ألا أنبئكم بخبر هو أعجب من هذه النملة ، قالوا بلى قال تقول اتقوا الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الغضب والرضا .

وروى أن سليمان عليه السلام خرج يوماً يستسقى ومعه الإنس والجن فمر بنملة عرجاء ناشرة جناحيها رافعة يديها وهى تقول اللهم إنا خلق من خلقك لاغنى

لنا عن رزقك فلا تؤاخذنا بذنوب بنى آدم واسقنا ؛ فقال سليمان لمن معه ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وحكى أن نملة دبت على سليمان فحملها ورمى بها فوقعت النملة فقالت ما هذه الصولة وما هذا البطش أما علمت إنى أمة من أنت عبده فغشى على سليمان فلما أفاق قال ائتونى بها فسألها فقالت له جلدى رقيق وبدنى ضعيف وأخذتنى ورميتنى فقال لها سليمان اجعلينى فى حل فإنى لم أقصد ذلك فقالت بشرط أن لا تنظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولا تستغرق فى شهواتك وضحكك ولا يستعين أحد بجاهك إلا بذلته له قال قد فعلت ذلك قالت فأنت فى حل .

ومنها قصة وادى النمل قال الله تعالى (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم (حتى إذا أتوا على وادى النمل) الآية .

قال الشعبي وكعب وغيرهما من أهل الكتب : إن سليمان عليه السلام كان إذا ركب حمل أهله وحشمه وخدمه وكتابه فى موكبه الذى هيأه وقد اتخذ فيه مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد وقدوراً عظاماً يسع كل قدر عشرة من الجزر وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وتجرى الدواب بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى بهم فسار من إصطخر إلى اليمن وتوغل فى البادية فسلك على مدينة الرسول ﷺ فقال سليمان هذه دار هجرة نبى يبعث فى آخر الزمان طوبى لمن آمن به واتبعه ، ثم أتى أرض الحرم فرأى حول البيت أصناماً تعبد من دون الله فجاوز البيت فلما جاوزه سليمان بكى البيت فأوحى الله تعالى إلى البيت ما يبكيك ؟ فقال يارب هذا نبى من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا على فلم يهبطوا بى ولم يصلوا عندى ولم يذكروك بحضرتى وهذه الأصنام تعبد حولى من دونك قال فأوحى الله تعالى إليه : لا تبك فإنى سوف أملؤك وجوها سجداً لى وأنزل فيك قرآنا جديداً وأبعث منك فى آخر الزمان نبيا هو حب الأنبياء إلى وأجعل فيك عباداً من خلقى يعبدوننى وأفرض فى عبادى فريضة يزفون بها إلى البيت زفا مثل زفيف النسور إلى أوكارها ويحنون إليك حنين الناقة

إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان ، ثم أمر الله سليمان عليه السلام أن ينزل عليه ويصلي فيه ويقرب عنده قرباناً ففعل ذلك قال فذبح عند الكعبة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة وقال لمن حضر من أشراف قومه إن هذا المكان يخرج منه نبي عربي ويعطى النصر على جميع من ناوأه ويكون السيف على رقبة من خالفه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء لا تأخذه في الله لومة لائم فطوبى لمن أدركه وصدقه قالوا فكم بيننا وبين خروجه يا نبي الله ؟ قال قريب من ألف عام قال ثم ان سليمان مضى حتى أتى على وادي السدير واد من الطائف فأتى على وادي النمل فقامت نملة تمشي وكانت عرجاء تتكارس وكانت مثل الدب العظيم ، وقال الشعبي كانت ذات جناحين ،

واختلفوا في إسمها ، فأخبرني ابن ميمونة بإسناده عن الضحاك قال — كان إسم نملة سليمان طاخية وقيل حرمي فنادت لما رأت سليمان في موكبه (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وكان لا يتكلم خلق إلا حملته الريح وألقته في مسامع سليمان ، قال مقاتل فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال فتبسم ضاحكاً من قولها وقال (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) الآية .

وفي بعض الأخبار ، أن سليمان لما سمع قولها نزل عليها وقال ائتوني بها فأتوه بها ، فقال لها لم حذرت النمل هل سمعتم إني ظالم ؟ أما علمتم إني نبي عدل فلم قلت لا يحطمنكم سليمان وجنوده ؟ قالت النملة يا نبي الله أما سمعت قولي وهم لا يشعرون مع إني ما أردت حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشيت أن يتمنين ما أعطيت فيفتتن ويشتغلن بالنظر إليك عن التسبيح فقال لها عظيني فقالت له النملة هل علمت لم سمي أبوك داود ؟ قال لا . قالت لأنه داوى جراحه قلبه ثم قالت وهل تدري لم سميت سليمان ؟ قال لا قالت لأنك سليم وكنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك وحق لك أن تلحق بأبيك داود ، ثم قالت أتدري لم سخر الله تعالى لك الريح ؟

قال لا ، قالت ليخبرك أن الدنيا كلها ريح . فتبسم ضاحكا من قولها ، متعجباً وقال (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى) الآية .

أخبرني ابن ميمون بإسناده عن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربعة من الدواب : الهدهد والصرد والنحلة والنملة .

ومنها قصة العنقاء في إثبات القضاء والقدر ، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن جعفر الصادق قال . عاتب سليمان الطير في بعض عتابه فقال لها إنك لتأتين كذا وتفعلين كذا فقالت والله رب السماء والثرى إنا لنحرص على الهدى ولكن قضاء الله يأتي إلى منتهى علمه وقدره ، قال صدقت لا حيلة في القضاء فقالت العنقاء لست أومن بهذا فقال لها سليمان ألا أخبرك بأعجب العجب قالت بلى قال إنه ولد الليلة غلام بالمغرب وجارية بالمشرق هذا ولد ملك كبير وهذه ابنة ملك والجارية والولد يجتمعان في أمتع المواضع بقدرة الله تعالى وأهواها على سماح في جزيرة في وسط البحر فقالت العنقاء يا نبي الله أوقد ولد هذان الولدان المذكوران قال نعم الليلة قالت فهل أخبرت بهما من هما وما اسمهما واسم أبيهما قال بلى إسمهما كذا وكذا واسم أبيهما كذا وكذا فقالت العنقاء يا نبي الله أنا أبطل القدر وأفرق بينهما فقال لها سليمان إنك لا تقدرين على [illegible] لت بلى .

فأشهد سليمان عليها الطير وكفلت [illegible] رمة فمرت العنقاء وكانت في كبر الجمل عظماً ووجهها وجه إنسان ويداها يد إنسان وثدياها ثدى امرأة وأصابعها كذلك فحملت في الهواء حتى أشرفت على الدنيا فأبصرت كل دابة وما فيها وكل إنسان وأبصرت الجارية وهي في مهدها وقد أجلسوها فاختلست الجارية من المهد وطارت بها حتى انتهت إلى جبل شاهق في السماء في جوف البحر وسط جزيرة وفي الجزيرة شجرة عالية لا ينالها طائر إلا بجهد طيرانه ولها أغصان عظيمة تزيد على ألف غصن كل غصن كأعظم ما يكون من شجرة الأرض كثيرة الورق فاتخذت لها وكراً في وسط الشجرة عجيباً واسعاً مضيئاً وطيئاً وأرضعتها وحضنت الجارية تحت جناحها وصارت تأتيها بأنواع الطعام والشراب وتحفظها من البرد والحر وتؤنسها بالليل لا تخبر أحداً بشأنها كي يتم أمرها وهي تغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها فلم

سليمان بذلك ولم يبده لها فبلغ الغلام مبلغ الرجال وصار ملكا من ملوك الدنيا وكان يلهو بالصيد ويحبه ويطلبه فصار لا يقرأ ليلا ولا نهاراً وكان أبوه ملكا عظيماً.

فلما رأى الملك ولده لاهياً بالصيد ولم يزجره عنه حتى نال منه مالا طويلا وأمر عظيماً فقال يوماً لأصحابه كل صيد البر وفلواته ومفازته قد نلت منه فقد ركبت البحر فأنال من صيده فإنه كثير الصيد وكثير العجائب فقال له المشيرون من وزرائه نعم ما رأيت وهو أكثر من خلق الله صيداً وعجائب فأمر الغلمان بتجهيز ما يحتاجون إليه وهيأ السفن وجعل يأخذ من كل شيء يملكه ويأخذ من الوزراء والمشيرين والغلمان والجوارى والطباخين والخبازين والدواب والبزاة والصقور وكلاب الماء وجميع ما يحتاجون إليه مما يريد ويشتهيه من الملاهى وركب السفن ومن فى البحر كذلك يتصيد ويتلذذ بالفرح ولا يعرف شيئاً من غير ذلك حتى سار مسيرة شهر فأرسل الله تعالى على سفينته ريحاً خفيفة فضربتها وساقها حتى قربت من العنقاء والجارية وهى مسيرة خمسين ليلة كل ليلة مسيرة سنة ثم ركدت سفينته بإذن الله تعالى وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة فأخرج رأسه من ناحية ونظر فإذا هو بجبل شاهق فى وسط جزيرة فى البحر فى لون الزعفران طويلة لا يدرى أين منتهاها ولا عرضها وإذا هو بشجرة خضراء فى رأس الجبل ملتفة كثيرة الأغصان والأوراق ورقها فى عرض أذن الفيلة تفوح بريح الأقحوان وليس لها ثمر بيضاء الساق فقال لأصحابه إنى أرى عجباً أرى جبلا شاهقاً فى وسط جزيرة لم أر مثله ولا مثل طوله ولا عرضه وأرى شجرة فيها كل حسن قد أعجبنى منظرها ثم أنه حرك سفينته وجاء بها إلى الجزيرة التى فيها الجبل وأرساها عندها.

وقال لأصحابه ـ أقيموا ههنا حتى أمضى وأبصر هذه الجزيرة وهذا الجبل الذى فى وسطها هل عمارة أو أثر آدمى فى تلك الجزيرة وآتيكم بخبرها ثم إنه نزل من السفينة ورفقته وداروا فى الجزيره فلم يروا فيها أثر عمارة ولا عبر بهـا آدمى قبله ثم إنه صعد إلى رأس الجبل فرأى أصل الشجرة وكانت الجارية قد نظرت إلى السفينة وهى جارية فلم تعرف ماهى لأنها أخذت صغيرة ولم تدر ما السفن فبقيت متعجبة وليس عندها أحد تسأله عن ذلك.

فبينما هى متفكرة فى أمر السفينة إذا حس حديث الآدميين فأخرجت رأسها من الوكر فنظرت يميناً وشمالا فلم تر أحداً فنظرت فى أصل الشجرة فإذا بالغلام ورفقته فتعجبت منهم لما رأت من حسنهم وجمالهم وكيف وصلوا إلى ذلك الموضع وأن الغلام لما بلغ أصل الشجرة نظر يميناً وشمالا متعجباً من عظم تلك الشجرة ورفعها إلى السماء وصار ينظر إلى أغصانها وكانت الجارية قد أخرجت رأسها تنظر إلى السفينة فحانت منه التفاتة إلى أصل الشجرة فوقعت عينها فى عين الغلام فرأى الغلام صورتها ورأى عجباً من عظم جمالها وكثرة شعرها وذوائبها فقال لها الغلام بلسان فصيح أجنية أنت أم إنسية قالت لا والله أنا من خيار الإنس فمن أنت فأفهمها لغته فقالت لا أدرى ما تقول وما أنت إلا أنى أرى وجهك كوجهى وكلامك ككلامى وإنى لا أعرف شيئاً غير العنقاء وهى أمى التى ربتنى وحضنتنى وهى تأتينى كل ليلة وتسمينى بنتها فقال لها الغلام وأين العنقاء فقالت هى فى نوبتها فقال الغلام وما نوبتها قالت تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتقيم عنده إلى الليل ثم تجيئنى وتحدثنى بكل ما يحكم به سليمان وإنه ملك عظيم على ما تصفه أمى العنقاء عن ملكه وإنها تخبرنى إنه أحسن الناس وجهاً وأتم خلقاً منى قال فارتعد الغلام ثم قال عرفته وهو الذى قتل أبى وسبى دولته وإنى لمن طلقائه وممن يؤدى إليه الخراج وقد سخر الله الطير والرياح ثم بكى الغلام ساعة فقالت له الجارية وما يبكيك ؟ قال وجدتك فى مثل هذا الموضع الذى لا إنس فيه ولا أحد وان مثلك فى الدنيا عدد الشجر والدر كلهم فى مقاصير الذهب والفضة والعيش الهنىء والرغد واللذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعمون ويتوالدون والأولاد مثل خلقك وخلقى أرأيت إن هاجت الريح فأزعجتك من وكرك ومن يمنعك ان تقعى فى البحر وإن وقعت فى البحر فمن ذا الذى يخرجك قال ففزعت الجارية من قوله وقالت وكيف يكون معى إنسى مثلك يحدثنى بمثل حديثك ويحفظنى مما ذكرت فقال لها الغلام او لا تعلمين ان الله اتخذ سليمان نبياً وسخر له الريح والطير وهو الذى رحمنى وساقنى إليك لأكون لك إليفاً وصاحباً وإنسياً وإنى لمن أولاد الملوك فقالت له الجارية وكيف تصير لى وأصير إليك وإن العنقاء

هذه تروح وتجيء وتحضنني إلى صدرها بين جناحيها فقال لها الغلام تكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتك هذه فإذا جاءت إليك وقالت ما تحبين وما تريدين وما شأنك فأخبريها بوحدتك فى نهارك ثم انظرى ما يكون من ردها عليك فأخبرينى بذلك ففعلت وإن العنقاء رجعت إليها فوجدتها باكية حزينة ، فقالت لها يا بنية مالك — فقالت الوحدة والوحشة قتلتنى وإنى لمنزعجة على نفسى من ذلك ، فقالت لها يا بنية لا تخافى ولا تحزنى فإنى استأمر سليمان عليه السلام أن آتيه يوماً ويوماً لا آتيه فيكون ذلك أنساً

فلما أصبحت أخبرت الغلام بجوابها . فقال لها أو تصبرين على ذلك لا ولكنى سأنحر دوابى هذا فرساً وأبقر بطنه وأخرج ما فيه وأطيبه بطيب معى وأدخل أنا فى جوفه وألقيه على رأس سفينتى هذه فإذا جاءتك العنقاء تقولين لها أرى عجباً أرى خلقة ملقاة على كوثل هذه السفينة فلو اخطفتيها وحملتيها إلى فكانت معى فى وكرى فانظر إليها وآنس بها كان أحب إلى من كونك عندى نهاراً وإمسا كك عن إخبار سليمان وإخبار المسلمين .

فإذا رجعت العنقاء وجدتها على حالتها وكان سليمان قد شغل عنها فلم تصل إليه فى استئذانها إياه فى المقام يوماً والغدو يوماً ، فقالت لها يا بنية أن نبى الله قد اشتغل عنى اليوم بالحكم بين الآدميين فلم أصل إليه قالت لها إنى لا أريد أن تتخلفى عنه نهاراً لمكان أخبار سليمان وأخبار المسلمين ، وإنى أرى عجباً فى البحر أرى شيئاً مرتفعاً فما هو ؟ قالت له العنقاء هذه سفينة قوم سيارة راكبين فى البحر قالت فما الذى أراه ملقى على رأس هذه السفينة قالت دابة ميتة ألقوها قالت فاحتمليها إلى لأستأنس بها وأنظر إليها فانقضت العنقاء فاختطفت الفرس وكان الغلام فى بطنها فحملتها إلى عشها فقالت الجارية يا أماه ما أحسنه وضحكت ففرحت العنقاء بذلك وقالت يا بنية لو علمت لكنت أتيتك بمثل هذا منذ حين .

ثم إنها طارت إلى نوبتها عند سليمان فخرج الغلام من بطن الفرس فلاعبها ولامسها وافتضها وأحبلها من ساعتها وفرح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به

وكان سليمان عليه السلام قد جاءه الخبر باجتماعهما من قبل الريح وأن العنقاء واحدة
وكان مجلس سليمان يومئذ مجلس الطير وحكمهم فجلس سليمان عليه السلام للطير في
مرتبته ودعا بعرفاء الطير وأمرها أن لا تدع طيراً إلا حشرته إليه فحشرت إليه
جميع الطيور ثم أمر عرفاء الجن أن يحشروا قبائل الجن من سكان البحار وسكان
الجزائر والهواء والمغارات والفلوات والأمصار فحشروا إليه وأمر الشياطين
فأحضرت كذلك ، وكذلك الإنس كهيئتهم ثم كل دابة تدب على وجه الأرض
فاشتد الخوف وقالوا في أنفسهم نشهد بالله أن نبي الله قد أهمه أمر عظيم فأولهم
قد خرج في تقديم الطير سهم الحدأة وكانت الطير لا تقدم إلا بالسهام وكذلك
الجن والشياطين فتقدمت الحدأة تدعى على زوجها وكان قد جحد ولدها فقالت
يا نبي الله إنه سفدني حتى احتضنت بيضي وأخرجت ولدي جحدنيه فقال سليمان
للذكر ما تقول فقال يا نبي الله إنها لا تمنع من الطير وهي تحوم البراري فلا أدري
هل هو مني أو من غيري .

قال ـ فأمر سليمان بولدها فجيء به فوجد الشبه فألحقه بالذكر ثم قال لها
لا تمكنيه من السفاد حتى تشهدي عليه بذلك الطير بالصراخ فإنه لا يجحدك بعدها
ابداً إلى يوم القيامة فهي إذ سفدها ذكرها صاحت وقالت يا طيور سفدني اشهدوا
معاشر الطيور اشهدوا .

ثم يخرج سهم العنقاء فتقدمت إليه فقال سليمان ما قولك في القدر فقالت
يا نبي الله لي من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وأفعل الخير فقال لها سليمان
فأين الشرط الذي بيني وبينك زعمت أنك تفرقين بقوتك واستطاعتك بين الجارية
والغلام فقالت قد فعلت قال سليمان الله أكبر فائتني بها الساعة والخلق شهود لأعلم
صدق قولك ثم أمر عريف الطير أن يكون معها لا يفارقها حتى تأتي بها فرت
العنقاء حتى قربت من الجارية وكانت الجارية إذا قربت منها العنقاء تسمع خفق
أجنحتها فيبادر الغلام ويدخل جوف الفرس .

فلما رأتها البنت قالت لها كالفزعة أن لك شأنا إن رجعت من ساعتك قالت لها
اي لعمري أن لي شانا هذا سليمان قد أمر بإحضارك الساعة لأمر كان بيني وبينه

فى أمرك وإنى لأرجو نصرتى اليوم فيك قالت كيف تحملينى قالت على ظهرى قالت وهل أستقر على ظهرك وإنى أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزال فأسقط وأهلك قالت فى منقارى قالت فكيف أصير فى منقارك قالت لها وكيف أصنع ولا بد لى من إحضارك عند سليمان وهذا عريف الطير معى وقد دعا بكفيلتى البومة .

فقالت لها ادخلى فى جوف هذا الفرخ ثم ترفعيه على ظهرك أو فى منقارك فلا أرى شيئاً ولا أسقط ولا أفزع من شىء قالت أصبت قال فدخلت فى جوف الفرس واجتمعت مع الغلام ، وحملت العنقاء الفرس فى منقارها وطارت حتى وضعت الفرس بين يدى سليمان عليه السلام .

فقالت – يانبى الله الآن فى جوف الفرس فأين الغلام ؟ فتبسم سليمان طويلا ثم قال لها أتؤمنين بقضاء الله وقدره وأنه لاحيلة لأحد فى دفع قضائه وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشر فقالت أومن بالله وأقول إن المشيئة إلى العباد والقوة فمن شاء فليفعل خيراً أو شرا قال سليمان كذبت ماجعل الله من المشيئة للعباد شيئاً ، ولكن من شاء الله أن يكون سعيداً كان سعيداً ومن شاء الله أن يكون كافراً كان كافراً ولا يقدر أحد أن يدفع قضاء الله وقدره بحيله لايفعل ولا يعلم أن الغلام الذى قد ولد بالمغرب مع الجارية التى ولدت بالمشرق وقد اجتمعا الآن فى مكان واحد على سفاح ؛ وقد حملت الجارية من الغلام بولد فقالت العنقاء لاتقل يانبى الله هذا فان الجارية معى فى جوف هذا الفرس فقال سليمان الله أكبر اين البومة المتكافلة بالعنقاء ؟ قالت ها أنا يانبى الله ، قال سليمان أنت على مثل قول العنقاء قالت نعم فقال سليمان قدر الله السابق قبل الخلق أخرجهما على قضائه ومشيئته قال فأمر البومة ففتحت جوف الفرس وأخرجتهما جميعاً من جوف الفرس ، فأما العنقاء ففزعت وطارت وآمنت بالقضاء والقدر ، وهذا ما كان من شأن العنقاء والبومة فى القضاء والقدر والله أعلم بالغيب .

ويروى أن سليمان سار من أرض العراق غادياً فقام بمدينة مرو وصلى العصر بمدينة بلخ تحمله الريح وتظله الطير بخيله وجنوده ثم سار من مدينة بلخ متخللا

بلاد الترك ثم جاوزها إلى أرض الصين ثم عطف يمينه على مطالع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض الهند ثم خرج منها إلى مكران كرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما ثم غدا منها فقام بكسكر ثم رجع إلى الشام وكان مستقره مدينة تدمر وكان قد أمر الشياطين قبل خروجه من الشام إلى العراق أن يبنوا له تدمر فبنوها بالصفائح والعمد والرخام الأبيض والأصفر وفى ذلك يقول الشاعر

وإذكر سليمان إذ قال المليك له   قم فى البرية فاحددها عن الفند
وجيش الجيش إنى قد أبحتهم   بناء تدمر بالأحجار والعمد

قال ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض كسكر أنشأها بعض أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام :

ونحن ولا حول سوى حول ربنا   نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رحنا كان أمر رواحنا   مسيرة شهر والغـــدو لآخر
أناس سروا والله طوع نفوسهم   لنصرة دين النبى المطهر
لهم فى معانى الدين فضل ورأفة   وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى ركبوا الريح المطيعة أسرعت   مبادرة عن شهرها ولم تقصر
تظللهم طـــير صفوفا عليهم   متى رفرفت من فوقهم لم تفتر

(رجعنا إلى القصة) وقال قوم من العلماء - معنى قوله تعالى - فطفق مسحا بالسوق والأعناق - حبسها فى سبيل الله وكوى سوقها بميسم الصدقة وقال الزهرى مسح سوقها وأعناقها من الغبار .

وقال وهى رواية الواقدى عن ابن عباس قال - وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم إن الله امر الملائكة الموكلين بالشمس حتى ردوها على سليمان وصلى العصر فى وقتها .

ومنها تسخير الله تعـــالى له الجن والإنس والطير والوحوش والشياطين يعملون له مايشاء كما قال الله تعالى (ومن الجن ومن يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه عذاب السعير) وذلك أن الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته ، فما عملت له الشياطين بأمره وأحدثوا له الحمامات والطواحين والقوارير والصابون وأشباه كثيرة واحتفروا له نهر الملك والقوا ترابه بين خانقين وقصر شيرين ومما عملوا له الغياصة كما قال الله تعالى (ومن الشياطين من يغوصون له) الآية وقال تعـــالى (والشياطين كل بناء وغواص)وكانوا يغوصون في البحار ويستخرجون أنواع اللآلىء والدر وسائر الجواهر البحرية . وكانوا يستخرجون له اليواقيت والزمرد وأنواع الجواهر الثمينة من المعادن وهم أول من فعل ذلك .

﴿ حديث القبة ﴾

قال وهب بن منبه - بينما سليمان عليه السلام على ساحل البحر والريح من تحته والإنس عن يمينه والجن عن شماله والطير تظله إذ نظر إلى أعظم أمواج البحر فدعته نفسه أن يعلم مافي قعر البحر فأمر الريح فسكنت من تحته ،ثم قعد على كرسي ملكه ثم دعا رأس الغواصين فقال له اختر لي من أصحابك مائة رجل فاختار له مائة رجل فقال له اختر لي من المائة ثلاثين فاختار له ثلاثين فقال اختر لي من الثلاثين عشرة فاختار له عشرة فقال اختر لي من العشرة ثلاثة فاختار له ثلاثة فقال لواحد منهم غص حتى تنظر إلى قاع البحر وتأتيني بالخبر فقال له سمعاً وطاعة لك يانبي الله فغاص في البحر وأبعد ثم خرج فقال له سليمان ماالذي رأيت ؟

قال : يانبي الله ما رأيت إلا أمواجا وحيتانا غير إني رأيت ملكا عظيماً فقال لي أين تريد ؟ فقلت له إن نبي الله سليمان أرسلني أنظر له قعر هذا البحر فقال ارجع إليه فاقرأ عليه مني السلام وقل له إن قوما ركبوا هذا البحر منذ

أربعين عاما فغاب عليهم مركبهم فخرجوا يصلحونه فسقط من أحدهم قدوم فهو يتجلجل فى البحر ولم يبلغ قعره بعد فرجع اليه وأخبره بالخبر فتعجب نبى الله سليمان عليه السلام من ذلك ولها عما كان قصد .

قال - فبينما هو على الشاطىء إذ رأى قبة من زجاج تضربها الأمواج فى لجة البحر فعارضها وقال للغواصين غوصوا فى أثرها فغاصوا فأخرجوها فلما وضعت القبة على ساحل البحر انفتح له بابان بمصراعين وخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن وكان رأسه تقطر ماء فجاء حتى وقف بين يدى سليمان فقال له سليمان يافتى من الجن أنت أم من الإنس ، قال بل من الإنس قال فتعجب سليمان منه ومن زيه ثم قال له ما بلغ بك ما أرى فقال يانبى الله كانت لى والدة وكنت من أبر الناس بها أطعمها وأسقيها بيدى ولا أترك شيئاً من صنائع البر إلا صنعته بها فلما حضرتها الوفاة سألتها أن تدعو لى فرفعت رأسها إلى السماء وقالت - يارب قد عرفت بر ولدى بى فارزقه العبادة فى موضع لا يكون لابليس وجنوده عليه سبيل ثم ماتت فدفنتها فخرجت يوما إلى ساحل البحر فإذا أنا بهذه القبة فدعتنى نفسى أن أدخلها فلما دخلتها انطبقت على أبوابها وتزاخرت الأمواج وكان آخر عهدى يانبى الله

فقال له سليمان فمن أين مطعمك ومشربك ؟ فقال يانبى الله إذا كان الليل جاءنى طائر أبيض فى منقاره شىء أبيض فيدفعه إلى فآكله فهو يقيننى من الطعام والشراب فقال له سليمان - فمن أين تعرف الليل والنهار وأنت فى ظلمة هذا البحر قال يانبى الله فى القبة خيطان خيط أبيض وخيط أسود فإذا رأيت الخيط الأبيض زائداً علمت أنه النهار وإذا رأيت الخيط الأسود زائداً علمت أنه الليل .

فقال له سليمان هل لك فى صحبتنا راغبة ؟ قال لا يانبى الله إن تشأ تأذن لى أن أعود إلى قبتى فأذن له فانطلق ودخلها وانطبق عليه بابها وتزاخرت به الأمواج فكان آخر العهد به

﴿ قصة مدينة سليمان عليه السلام التي كان يسافر بها في الهواء ﴾

ومما عملوا له مدينة من قوارير عشرة آلاف ذراع في عشرة آلاف ذراع فيها ألف سقف ما بين كل سقفين عشرة أذرع في كل سقف جميع ما يحتاج إليه من المساكن والقباب والمرافق أسفلها أغلظ من الحديد وأعلاها أرق من الماء يرى من داخلها ما وراء خارجها من صفائه ونقائه والشمس بالنهار والقمر بالليل وعلى السقف الأعلى قبة بيضاء عليها علم أبيض يستضيء به في الليل الداجي العسكر كله يتلألأ شعاعه مد البصر وبها من الأركان ألف ركن على مناكب الشياطين تحت كل ركن منها عشرة من الشياطين تسع سليمان وجنوده وحشمه وأولياءه علواً وسفلا تحملها الريح إلى حيث يشاء وكانت تلك المدينة له مستقراً يأكل ويشرب وينام ويتمتع بها وفي أسفلها مرابط واصطبلات وأوارى وأواخى لخيله ودوابه ومما عملوا له كرسي ملكه .

﴿ صفة كرسي سليمان عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) يروى أن نبي الله سليمان عليه السلام أمر الشياطين باتخاذ كرسي يقعد عليه للقضاء وأمر أن يعمل بديعاً مهولا بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت فعملوا له كرسياً من أنياب الفيلة وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر وحفوه بأربع نخلات من الذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر على رأس نخلتين منها طاوسان من ذهب وعلى رأس الأخريين نسران من ذهب بعضها مقابل بعض وجعلوا من جانب الكرسي أسدين من ذهب على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر وقد عقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر واتخذوا عناقيد من الياقوت الأحمر بحيث يظل عريش الكروم والنخل الكرسي قالوا وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسي ورجله فيها ويدور دوران الرحى المسرعة وتنشر تلك النسور

والطواويس أجنحتها ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما وكذلك يفعل فى كل درجة يصعدها سليمان فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على الخاتين المسك والعنبر يفتنانهما عليه ثم تتناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسى التوراة ففتحها لسليمان فيقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء ؛ قال وتجلس عظماء بنى إسرائيل على كرسى الذهب والفضة المفصصة بالجواهر وهى ألف كرسى على يمينه وتجىء عظماء الجن يجلسون على كراسى الفضة عن يساره وهى ألف كرسى حافين به جميعاً ثم تظلهم الطير وتتقدم الناس إليه للقضاء فإذا دعا بالبينات وتقدمت الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسى بجميع مافيه وماحوله دون الرحى المسرعة

قال معاوية لوهب بن منبه ما الذى كان يدير ذلك الكرسى ؟ قال بالبلان من ذهب وذلك الكرسى مما عمله صخر الجنى قالوا فإذا دار الكرسى بسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما فتفزع منه الشهود ويداخلهم من رعب شديد فلا يشهدون إلا بالحق ، فهذا شأن كرسى سليمان عليه السلام وعجائب ما كان فيه

فلما توفى سليمان عليه السلام بعث بختنصر فأخذ ذلك الكرسى وحمله إلى أنطاكية فأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا بأحواله فلما وضع قدميه على الدرجة السفلى رفع الأسد يده اليمنى فضرب ساقيه ضربة شديدة دقها ورماه فحمل بختنصر فلم يزل يعرج ويتوجع منها حتى مات وبقى الكرسى بأنطاكية حتى غزاهم ملك من الملوك يسمى كداش بن سداس فهزم خليفة بختنصر ورد الكرسى إلى بيت المقدس فلم يستطع أحـــد من الملوك الجلوس عليه ولا الاستمتاع فوضع تحت الصخرة فغاب ولم يعرف خبره ولا يدرى أين هو والله أعلم ، ومنها بيت المقدس .

﴿ صفة بنيانه وبدء أمره ﴾

قال الله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) الآية وقال تعالى (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) قيل بالمياه والأنهار والثمار وقيل إن كل ماء عذب يخرج من تحت أصل الصخرة التى ببيت المقدس يهبط من السماء إليها ثم يتفرق فى الأرض وذلك قوله تعالى (باركنا فيها للعالمين) .

وروى خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « صخرة بيت المقدس على نخلة من نخيل الجنة وتلك النخلة على نهر من انهار الجنة وعلى ذلك النهر آسية بنت مزاحم ومريم إبنة عمران رضى الله عنهما ينظمان حلى أهل الجنة إلى القيامة » .

وأما بدء بناء بيت المقدس ، وصفة بنائه على ماذكره أهل البصيرة بالسير هو أن الله تعالى بارك فى نسل إبراهيم حتى جعلهم فى الكثرة غاية لا يحصون .

فلما كان زمان داود عليه السلام لبث فيهم مدة مديدة بأرض فلسطين وهم يزدادون كل يوم كثرة فأعجب داود بكثرتهم وأراد أن يعلم عدد بنى إسرائيل كم هم فأمر بعدهم وبعث بذلك عرفاء ونقباء وأمرهم أن يرفعوا إليه مايبلغ من عددهم فكانوا يعدون زماناً من الدهر حتى عجزوا فبعث الله جبريل عليه السلام وأوحى إليه يا داود قد علمت إنى وعدت أباك إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده فصبر وأتم أمرى بأن أبارك له فى ذريته حتى يصيروا بعدد نجوم السماء وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم فأردت أن تعلم عددهم إنه لا يحصى عددهم غيرى وإنى قد أقسمت لأبتلينهم ببلية يقل منهـــا عددهم ويذهب عنك إعجابك بهم وبكثرتهم فاختاروا إما أن ابتليتكم بالجوع والقحط ثلاث سنين أو أسلط عليكم عدوكم ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام فجمع داود بنى إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى وخيرهم فيه فقالوا أنت أعلم بما هو أيسر لنا وأنت نبينا فانظر لنا غير أن الجوع لا صبر

قتلنا عليه وتسليط العدو أمر فاضح فإن كان ولا بد فالموت لأنه بيده لا بيد غيره فأمرهم داود أن يتجهزوا للموت فاغتسلوا وتحنطوا ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد بالذرارى والأهلين وأمرهم أن يضجوا إلى الله تعالى ويتضرعون إليه لعله أن يرحمهم فأرسل إليهم الطاعون فأهلك منهم في يوم وليلة ألوفاً كثيرة لايدرى عددهم ولم يفرغوا من دفنهم إلا بعد موتهم بشهر

فلما أصبحوا في اليوم الثاني خر داود عليه السلام ساجداً لله تعالى يبتهل إلى الله تعالى ويقول يا رب أنا آكل الخل الحامض وبنو إسرائيل يضرسون يعني اذنبت وبنو إسرائيل يعاقبون فما كان من شيء أوفى أنزله واعف عن بني إسرائيل فاستجاب الله دعاءه وكشف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت فرأى داود عليه السلام الملائكة سالين سيوفهم فغمدوها وارتقوا في سلم من ذهب في صخرة بيت المقدس إلى السماء فقال داود لبني إسرائيل إن الله تعالى قد من عليكم ورحمكم فسجدوا له شكراً وقالوا كيف تأمرنا قال آمركم أن تتخذوا في هذا الصعيد الذى رحمكم فيه مسجداً لا يزال فيه منكم ومن بعدكم ذاكر لله تعالى فأخذ داود في بنائه .

فلما أرادوا أن يبتدئوا بالبناء جاء رجل صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم في بنائهم فقال لبني إسرائيل إن لي فيه موضعاً أنا محتاج إليه ولا يحل لكم أن تحجبوني عن حقي فقالوا ياهذا مامن أحد من بني إسرائيل إلا وله في هذا الصعيد حق مثل حقك فلا تكن أبخل الناس ولا تضايقنا فيه فقال أنا أعرف حقي وأنتم لا تعرفون حقكم فقالوا له أما ترضى وتطيب نفسك إلا أخذناه منك كرها فقال لهم أتجدون هذا في حكم الله وحكم داود ، قال فرجع خبره إلى داود عليه السلام فقال أرضوه فقالوا بكم نأخذه منه يانبي الله قال خذوه بمائة فقال الرجل زدني يانبي الله قال داود خذوه بمائة بقرة قال زدني قال بمائة بعير قال زدني يانبي الله فإنما نشتريه لله تعالى والله كريم لا يبخل فقال داود حيث قلت هذا فاحتكم أعطكه قال تشتريه بحائط مثله زيتوناً ونخلا وعنباً قال نعم فقال أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخل قال سل ما شئت قال أكرم على الله مني ولكن ابن لي حوله جداراً مشرفاً ثم تملؤه ذهباً وإن شئت ورقاً قال داود هذا هين فالتفت الرجل إلى بني إسرائيل وقال لهم

هذا هو التائب الخالص ثم قال لداود يا نبي الله لأن يغفر الله لى ذنباً واحداً أحب إلى من كل شىء وهبت لى ولكن كنت اختبرتكم فجدوا فى بناء بيت المقدس، وكان ذلك فيما قيل لإحدى عشر سنة مضت من ملك داود ينقل الحجارة على ظهره وكذلك أخيار بنى إسرائيل حتى رفعوه قامة وعجزوا فأوحى الله تعالى إليه أن هذا بيت مقدس وأنك رجل سفاك للدماء ولست ببانيه ولكن ابن لك أملكه بعدك إسمه سليمان أسلمه من سفك الدماء، وأقضى إتمامه على يديه ويكون صيته وأجره لك باقياً فصلوا فيه زماناً إلى أن توفى داود عليه السلام واستخلفه سليمان فأمره الله تعالى بإتمام بيت المقدس فجمع سليمان الجن والإنس والشياطين وقسم عليهم الأعمال وخص كل طائفة بعمل يصلح لها وأرسل الجن والشياطين فى تحصيل عمل الرخام والبلور الأبيض الصافى من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها إثنى عشر ربضاً لكل ربض منها سبط من الأسباط وكانوا إثنى عشر سبطاً

فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد فوجه الشياطين فرقاً فريق منها يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنه وفريق يغوصون فى البحر ويستخرجون أنواع الدر وفريق يقطعون أنواع الرخام وفريق يغوصون على الجواهر وفريق يأتون المسك والعنبر وأنواع الطيب من أماكنها فأتى بشىء من ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى، ثم أنه أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها وإصلاح تلك الجواهر ونقشها فكانوا يعالجونها فتصوت صوتاً شديداً لصلابتها فكره سليمان تلك الأصوات فدعا الجن وقال لهم هل عندكم حيلة فى نحت هذه الجواهر من غير تصويت فقالوا يانبى الله ليس فى الجن أكثر تجارب ولا أكثر علماً من صخر العفاريت فأرسل إليه من يأتيك به فطبع سليمان بخاتمه طابعاً وكان يطبع للشياطين بالنحاس ولسائر الجن بالحديد وكان إذا طبع بخاتمه لمع ذلك كالبرق الخاطف فكان لا يراه أحد من جن ولا شيطان إلا انقاد إليه بإذن الله تعالى فأرسل الطابع مع عشرة من الجن فأتوه به وهو فى بعض جزائر البحر فأروه الطابع فلما نظر إليه كاد أن يصعق خوفاً فأقبل مسرعاً مع الرسل حتى

دخل على سليمان فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت فى طريقه فقالوا يا نبى الله إنه كان يضحك بعض الأحايين من الناس فقال سليمان ما رضيت بتمردك على وترك المجىء إلى طاعتى صرت تسخر من الناس .

فقال يا نبى الله إنى لست أسخر منهم غير أن ضحكى كان تعجباً مما كنت أسمع وأرى فى طريقى فقال له سليمان وماذاك ، قال مررت على شط نهر فوجدت رجلا ومعه بغلة يريد أن يسقيها وجرة يريد أن يستقى بها فسقى البغلة وملأ الجرة ثم أراد أن يقضى حاجته فشد البغلة بأذن الجرة فنفرت البغلة وكسرت الجرة فضحكت من حمق الرجل حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة ، ومررت برجل آخر وهو جالس عند إسكاف يستعمله فى إصلاح خف له فسمعته يشترط عليه أن يصلحه بحيث يبقى معه أربع سنين ونسى نزول ملك الموت من قبله فضحكت من قلة عقله وجهله .

ومررت بناس قد جلسوا يبتهلون إلى الله ويسألونه الرحمة والمغفرة فمل منهم قوم فقاموا وجاء آخرون فجلسوا فرأيت الرحمة قد نزلت عليهم وأخطأت الذين كانوا من قبل وغشيت الذين جاءوا فضحكت تعجباً للقضاء والقدر فقال له سليمان هل علمت من كثرة تجاربك وجولانك فى البحار شيئاً ينحت لى هذه الجواهر فتلين ويسهل نحتها وثقبها بلا صوت ؟ قال نعم يا نبى الله أعرف حجراً أبيض كاللبن يقال له الساموار غير إنى لا أعرف معدنه الذى هو فيه ، وليس فى الطير شىء أحيل ولا أهدى من العقاب فأمر بفراخه أن تجعل فى صندوق من تلك الجواهر فإنه يأتى بذلك الحجر فيضرب به الصندوق حتى يثقبه ليصل إلى أولاده قال فأمر سليمان بفراخ العقاب أن تضم فى صندوق من حجر منها يوماً وليلة فحجب عن أفراخه فر مسرعاً وجاء بالحجر بعد يوم وليلة فثقب به الصندوق حتى وصل إلى أفراخه فوجه سليمان مع العقاب نفراً من الجن حتى أتوه منه بقدر ما علم أن فيه الكفاية واستعمل ذلك فى أدوات الصناع فسهل عليهم نحتها من غير صوت وهو حجر يستعمل فى نقش الخواتيم وثقب الجواهر إلى اليوم وهو ثمين عزيز قالوا فبنى

سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر وعمده من المها الصافى وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وأنواع الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يوجد يومئذ فى الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضىء فى الليل كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بنى إسرائيل وأعلمهم أنه بناه لله تعالى وكل شىء منه خالص لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذى فرغ منه عيداً لم يتخذ فى الأرض قط أعظم عيد ذلك اليوم ولا أطعمه أكثر منه فذبح فيه من الجزر ألف جزور من البقر خمسة وعشرين ألفاً مملوفة ومن الغنم أربعمائة ألف شاة قالوا ومن عجائب ما اتخذه سليمان ببيت المقدس أنه بنى بيتاً وطين حائطه بالجص وصقله ، فكان إذا دخله البار استبان خياله فى ذلك الحائط أبيض وإذا دخله الفاجر استبان خياله فى ذلك الحائط أسود فارتدع من ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة ونصب فى زاوية من زوايا المسجد عصا أبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم يضره منها شىء ومن مسها من غيرهم احترقت يده.

فلما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس قرب قرباناً على الصخرة ثم قال اللهم أنت وهبت لى هذا الملك مناً منك على وجعلتنى خليفتك فى أرضك وأكرمتنى به من قبل أن أكون شيئاً فلك الحمد ، اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خصالا أن لا يدخله أحد يصلى فيه ركعتين مخلصاً فيهما إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، ولا يدخله مذنب إلا تبت عليه ولا خائف إلا أمنته ولا سقيماً إلا شفيته ولا مجدب إلا أخصبته وأغنيته ، وإذا أجبت دعوتى وأعطيتنى طلبتى فاجعل علامته أن تتقبل قربانى ، قال فنزلت نار من السماء فسدت ما بين الخافقين ثم امتد منها عنق فاحتمل القربان وصعد به إلى السماء .

وكان بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام إلى أن غزا بختنصر بنى إسرائيل فخرب بيت المقدس وألقى فيه الجيف وكبسه بالتراب ونقل جميع ما فيه من الذهب والفضة والجواهر والآنية إلى أرض بابل ، وكان بيت المقدس خراباً إلى أن بناه المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره والله أعلم .

﴿ باب فى قصة بلقيس ملكة سبأ والهدهد وما يتصل به ﴾

قال الله تعالى (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) الآية ، قالت العلماء بأخبار القدماء : إن نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى الحرم فتجهز للمسير واصطحب معه من الناس والجن والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ عسكره مائة فرسخ وأمر الريح الرخاء فحملتهم فلما وافوا الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وقرب القرابين وقضى المناسك وبشر أهله بخروج نبينا محمد ﷺ وأخبرهم أنه سيد الأنبياء وخاتم النبيين وإن ذلك مثبت فى زبورهم .

ثم أحب أن يسير إلى أرض اليمن فخرج من مكة صباحاً وسار نحو اليمن يؤم نجم سهيل فوافا صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً بيضاء حسنة تزهو بخضرتها فأحب النزول بها ليصلى ويتغذى فطلبوا الماء فلم يجدوه وكان الهدهد دليله وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه ، ثم تجىء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب فيستخرجون الماء .

قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق كيف يبصر الماء من تحت الأرض ، ولا يبصر الفخ إذا غطى بقدر أصبع من التراب ؟ قال ويحك إذا جاء القدر عمى البصر .

وروى قتادة عن انس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « انها كم عن قتل الهدهد فإنه كان دليل سليمان على الماء » فطلب سليمان الهدهد فلم يجده فتوعده ثم إن الهدهد لما جا قال « وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم الآية ، وذلك أنه لما نزل سليمان قال الهدهد فى نفسه إن سليمان قد اشتغل بالنزول رتفع إلى نحو السماء ونظر إلى طول الدنيا وعرضها ونظر يميناً وشمالا فرأى بستان بلقيس فمال إلى الخضرة فوقع فيها فإذا هو بهدهد اليمن فهبط عليه وكان إسم

هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عفير فقال عفير ليعفور من أين أقبلت ؟ وإلى أين تريد ؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام ، فقال له الهدهد : ومن سليمان بن داود ؟ قال ملك الجن والإنس والشياطين والوحوش والرياح ، فمن أين أنت ؟ قال أنا من هذه البلاد ، قال ومن ملكها ؟ قال امرأة ، قال فما إسمها ؟ قال يقال لها بلقيس ، وإن لصاحبكم سليمان ملكاً عظيماً ، ولكن ليس ملك بلقيس دونه فإنها ملكة اليمن كله وتحت يدها إثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مائة ألف مقاتل . والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها ؟ قال فإني أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء فقال الهدهد اليماني إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه حتى أتى بلقيس ونظر ملكها ، وما رجع إلى سليمان إلا وقت صلاة العصر ، قال فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت صلاة العصر طلب الهدهد ، وذلك أنه نزل على غير ماء فسأل الإنس عن الماء فقالوا لا نعلم فسأل الجن والشياطين فقالوا لا نعلم فتفقد عند ذلك الهدهد فلم يجده فتوعده .

وروى عن عكرمة عن ابن عباس قال : كل سلطان في القرآن حجة ، قال : دعا العقاب سيد الطيور فقال علي بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التصق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم فنظر يميناً وشمالا فإذا بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده .

فلما رأى الهدهد أن العقاب يريده بسوء ناشده وقال بحق الذي قواك وأقدرك على إلا رحمتني ولا تتعرض لي بسوء ، قال فولى العقاب عنه وقال له ويلك إن نبي الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاهم النسر والطير كله وقالوا له أين غبت في يومك هذا فقد توعدك نبي الله سليمان وأخبروه بما قال ، فقال الهدهد وما استثنى نبي الله قالوا بلى إنه قال أو ليأتيني بسلطان مبين ، فطار الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه ، فقال العقاب قد أتيتك به يا نبي الله ، فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وألقى ذنبه وجناحيه حتى يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان فمد سليمان يده

إلى رأسه فجذبها ، وقال أين كنت ؟ لأعذبنك عذاباً شديداً فقال الهدهد : يا نبي الله أذكر وقوفك بين يدى الله ، فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه .

أخبر الحسين بن محمد الثقفى بإسناده عن عكرمة فقال : إنما صرف سليمان عن ذبح الهدهد بره بوالديه ثم سأله ما الذى أبطأك عنى قال الهدهد ما أخبر الله به ، أحطت بما لم يحط به ، أى علمت ما لم تعلم به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ، واسمها بلقيس بنت البشرخ وهو الهدهاد ، وقيل هى بلعمة بنت شراحيل بن ذى جدن بن البشرخ بن الحارث بن قيس بن صنعاء بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وكان أبو بلقيس الذى يسمى البشرخ ويلقب بالهدهاد ملكاً عظيم الشأن وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحداً منكم كفواً لى وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت الشكر ، وكانت الإنس إذ ذاك ترى الجن وتخالطهم فولدت له بلعمة وهى بلقيس ولم يكن له ولد غيرها ، وتصديق ذلك ما أخبر به ابن ميمونة بإسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال (كان أحد أبوى بلقيس جنياً) قالوا فلما مات أبو بلقيس ولم يخلف ولداً غيرها طلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعوها وتمت المبايعة .

وروى ابن ميمونة بإسناده عن الحسن بن على عن أبى بكر ، قال ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال (لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) قالوا فلما ملكت بلقيس اتخذت قصراً وعرشاً .

﴿ صفة القصر الذى بنته بلقيس ﴾

قال الشعبى : روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر فحمل إليها خمسمائة اسطوانة من رخام طول كل اسطوانة خمسون ذراعاً فأمرت بها فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء وجعلت بين كل اسطوانتين عشرة أذرع ، ثم جعلت فيها سقف منظومة بألواح الرخام وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها

لوح واحد ، ثم بنت فوق ذلك قصرا مربعاً من آجر وجص في كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرفة في الهواء ، وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب وفضة مرصعة بألوان الجواهر المربعة ؛ وجعلت فيه أي في باب ذلك القصر مما يلي المدينة برجاً من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر ، وفي جوانبه حجر لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم .

(صفة عرشها)

كان مقدمه من ذهب مفصص باليواقيت الحمر والزمرد الأخضر ومؤخره من فضة مكلل بالوان الجواهر ، وله أربع قوائم ؛ قائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من زمرد أخضر ، وقائمة من در أصفر وصفائح السرير من الذهب وعليه سبعون بيتاً وعلى كل بيت باب مغلق ، وكان طوله ثمانين ذراعاً في الهواء فذلك قوله عز وجل : وأوتيت من كل شيء ، مما يحتاج إليه في الملك من الأدلة والعدة ، ولها عرش عظيم ، أي سرير ضخم حسن ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وذلك أنها قالت لوزرائها ما كان يعبد آبائي الماضون ؛ قالوا كانوا يعبدون إله السماء ، قالت وأين هو ؟ قالوا في السماء وعلمه في الأرض ، قالت فكيف أعبده وأنا لا أراه ولست أعرف شيئاً أشد من نور الشمس فهي أولى مما ينبغي لنا عبادته فعبدت الشمس من دون الله تعالى وحملت قومها على عبادتها وكانوا يسجدون لها إذا طلعت وإذا غربت .

قال : فلما قال ذلك الهدهد لسليمان قال له سليمان ؛ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؛ ثم أن الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا في الركايا وهي الآبار القلم تطو ببطن كل واد فروى الناس والدواب وكانوا قد عطشوا ثم كتب سليمان كتاباً ؛ من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ ؛

(بسم الله الرحمن الرحيم ؛ السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : أن لا تعلوا علي وائتوني مسلمين) .

قال ابن جريج وغيره ولم يزد سليمان على ما قص الله تعالى فى كتابه شيئاً وكان أبلغ الناس فى كتابه وأقله إملاء ، وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يكتبون جملا ولا يطيلون كتاباً ولا يكثرون ، قالوا فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه ، وقال للهدهد ؛ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم وكن قريباً منهم ؛ فانظر ماذا يرجعون ، أى يردون من الجواب فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام فوافاها فى قصرها ؛ وقد غلقت الأبواب ، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها ومضت إلى فراشها فأتاها الهدهد وهى نائمة مستلقية على ظهرها فألقى الكتاب على نحرها هذا قول قتادة .

وقال وهب بن منبه ؛ كانت لها كوة . يعنى طاقة مستقبلة للشمس تقع الشمس فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد إلى تلك الكوة فسدها بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم فاستبطأت الشمس فقامت تنظرها فرمى الصحيفة فى وجهها قالوا فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة كاتبة عربية من أصل تبع ابن شراحيل الحميرى ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت أن الذى أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكاً منها ، وقالت أن ملكاً تكون رسله الطير لملك عظيم فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد ، ثم أنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم إثنا عشر قيل تحت يد كل قيل منهم مائة مقاتل وكانت تكلمهم من وراء الحجاب فإذا حزبها أمر أسفرت عن وجهها . فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم قالت لهم بلقيس ؛ إنى ألقى إلى كتاب كريم ، أى شريف لشرف صاحبه .

وقال الضحاك ؛ سمته كريماً لأنه كان مختوماً يدل عليه ما أخبرنى به أبو حامد الوراق بإسناده عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال (كرم الكتاب ختمه) وقيل ؛ سمته كريماً لأنه مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم ، فذلك قوله تعالى (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على وائتونى مسلمين) ثم قالت : يا أيها

الملأ أفتونى فى أمرى ، وأشيروا على فيما عرض لى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون أى تحضرون ، فقالوا مجيبين لها ، نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ساعة عند الحرب والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ؛ تجدينا لأمرك طائعين . فقالت لهم بلقيس حين عرضوا أنفسهم للحرب (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أى أهانوا أشرافها وكبراءها لكى يستقيم لهم الأمر . فصدق الله قولها فقال (وكذلك يفعلون) أنشدنى أبو القاسم الجنيد فى هذا المعنى . قال أنشدنى أبى فى معناه :

إن الملوك بلاء حيثما حلوا ... فلا يكن لك فى أكنافهم ظل
ماذا تأمل من قوم إذا غضبوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن مدحتهم خالوك تخدعهم ... واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً ... أن الوقوف على أبوابهم ذل

قال الله تعالى مخبراً عنها (وإنى مرسلة إليهم بهدية) وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد سامت الملأ عن قومها وجربت الأمر وسامته ، وإنى مرسلة إليهم إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه عن ملكى وأختبره بها أملك أم نبى فإن يك ملكاً قبل الهدية والصرف ، وإن يك نبياً لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه ، ثم أهدت إليه وصفاء ووصائف ، قال ابن عباس : ألبستهم لباساً واحداً حتى لا يكون يعرف الذكر من الأنثى ؛ وقال . . . ألبست الغلمان لباس الجوارى ، وألبست الجوارى لباس الغلمان ؛ واختلفوا فى عددهم ؛ فقال الكلبى عشرة جوار وعشر غلمان ، وقال مقاتل مائة وصيف ومائة وصيفة . وقال مجاهد مائتا غلام ومائتا جارية . وقال وهب خمسمائة غلام وخمسمائة جارية وأرسلت إليه أيضاً بصفائح الذهب واختلفوا فى . . . تها وعددها .

أخبرنى ابن ميمونة أيضاً بإسناده عن ثابت . . . انى فى قوله تعالى (وإنى مرسلة إليهم بهدية) قالت أهدت له صفايح من الذهب فى أوعية الديباج ، فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فوهوا له الآجر بالذهب ثم أمر به فالقى فى كل مكان .

فلما جاءوا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان ، قالوا قد جئنا نحمل شيئا نراه هم هنا ملقى لا يلتفت إليه فصغر في أعينهم ما جاءوا به ، وقيل كانت أربع لبنات من ذهب .

وقال وهب بن منبه وغيره من أهل الكتاب عمدت بلقيس إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام فالبست الجوارى لباس الغلمان والأقبيه والمناطق ، وألبست الغلمان لباس الجوارى ، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقا من ذهب وفي آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بانواع الجواهر وحملت الجوارى على خمسمائة فرس والغلمان في خمسمائة برذون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيها من الديباج الملون وبعثت إليه أيضا خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت إليه أيضا بالمسك والعنبر والعود والألنجوج وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزع خرزة مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالا من قومها أصحاب الرأس والعقل وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية وقالت في الكتاب : إن كنت نبيا فميز بين الوصائف والوصفاء واخبرنا بما في الحقة قبل ان تفتحها وثقب الدرة ثقبا مستويا وادخل خيطا في الخرزة ثم امرت بلقيس الغلمان فقالت لهم : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تانيث وتخنيث يشبه كلام النساء وامرت الجوارى ان يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم إنها قالت للرسول : انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظرة غضب فاعلم انه ملك فلا يهولنك منظره فأنا اعز منه ، وإن رأيته رجلا بشاشا لطيفا فاعلم انه نبي مرسل فتفهم كلامه ورد الجواب فانطلق الرسل بالهدايا .

فلما رأى الهدهد ذلك اقبل مسرعا إلى سليمان واخبره بالخبر كله فأمر سليمان الجن ان يصنعوا له لبنا من الذهب والفضة ففعلوا ذلك ، ثم امرهم ان يبسطوا له من موضعه الذى هو فيه إلى تسع فراسخ ميدانا واحداً باللبنات الذهب والفضة وان يجعلوا حول الميدان حيطانا مشرفة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك فقال لهم

كان الدواب احسن مما رأيتم فى البر والبحر فقالوا : يانبى الله إنا رأينا فى بحر كذا دواب مختلفة الوانها لها اجنحة واعراف ونواصى فقال سليمان : على بها الساعة فأتوه بها ، فقال شدوها عن يمين الميدان وعن يساره عن لبنات الذهب والفضة والقوا لها علوفة فيها ، ثم قال للجن على بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره . ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع اربعة آلاف كرسى عن يمينه ومثلها عن يساره ، وامر الشياطين ان يصطفوا صفوفا فراسخ ، وامر الإنس فاصطفوا فراسخ وامر الوحوش والسباع والهوام والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره ، فلما اقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت إليهم انفسهم ورموا بما معهم من الهدايا .

ثم رد سليمان الهدية كلها وقال (اتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون) لأنكم اهل المفاخر والمكاثرة فى الدنيا ولا تعرفون غير ذلك وليست الدنيا من حاجتى لأن الله تعالى قد مكننى منها واعطانى ما لم يعط أحداً من العالمين فيها ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى اكرمنى بالنبوة والحكمة ثم انه قال للمنذر بن عمرو امير القوم (ارجع إليهم بالهدية فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون إن لم يأتونى مسلمين) قالوا فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان واخبروها قالت : والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة ، فبعثت إلى سليمان عليه السلام إنى قادمة بملوك قومى حتى انظر ما امرك وما تدعون إليه من دينك ثم ان بلقيس امرت بعرشها فجعل فى سبعة ابيات بعضها داخل بعض فى آخر قصر من قصورها ثم اغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ثم انها قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكى فلا تخلص إليه احداً ولا يراه حتى آتيك ؛ ثم انها امرت مناديا ينادى فى ارض مملكتها ليؤذنهم بالرحيل ، ثم شخصت إلى سليمان فى إثنى عشر الف قيل من ملوك اليمن ؛ تحت يد كل قيل مائة الف مقاتل ؛ قال ابن عباس وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا لا يبتدىء بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه ؛

على سرير ملكه فرأى رهجا قريبا منه فقال ما هذا
الله قال : أو قد نزلت منا بهذا المكان ؟ قالوا نعم .
باس : وكان ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ فأقبل سليمان على
قال (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) أى طائعين خاضعين .
اختلف العلماء فى السبب الذى لأجله أمر سليمان بإحضار العرش ، فقال
رهم لأن سليمان علم انها إذا اسلمت حرم عليه مالها فأراد ان يأخذ سريرها
ان يحرم عليه أخذه بإسلامها .
وقال قتادة : لأنه أعجبه صفته لما وصفه الهدهد فأراد أن يراه قبل أن يراها وقيل
ليريها قدرة الله تعالى وعظم سلطانه فى معجزة يأتى بها فى عرشها (قال عفريت من الجن)
وهو المارد القوى (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) من اى مجلسك الذى
تقضى فيه ؛ قال ابن عباس كان له غداة كل يوم مجلس يقضى فيه إلى نصف النهار
واختلفوا فى إسمه فقال وهب ؛ إنه كودى ، وقال شعيب ؛ إنه كردان
(وإنى عليه لقوى) اى قوى على حمله (أمين) على ما فيه من الجواهر ؛ فقال
سليمان أريد اسرع من هـذا (فقال الذى عنده علم الكتاب) واختلفوا فيه فقال له
بعضهم هو جبريل عليه السلام وقال آخرون ، ملك من الملائكة أيد الله به نبيه
عليه السلام . وقال آخرون . بل كان رجلا من بنى آدم . ثم اختلفوا فيه
أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا بن شمعيا بن ملكيا وكان صديقا يعلم إسم
الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى .
واختلف العلماء فى الدعاء الذى دعا به آصف بن برخيا عند الإتيان بالعرش
فروى عن عائشة رضى الله عنها وعن ابيها ان الإسم الأعظم الذى دعا به آصف
ابن برخيا . يا حى يا قيوم . وروى عن الزهرى قال . دعا الذى عنده علم من
الكتاب يا إلهنا وإله كل شىء إلها واحـدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها .
وقال مجاهد ياذا الجلال والإكرام .
فلما رأى سليمان العرش مستقراً عنده محمولا إليه من مأرب إلى الشام فى قدر
ارتداد الطرف وهو مدة يسيرة (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر

ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أى لم ينفع بذلك إلا نفسه حيث استوجب شكره لتمام النعمة ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة (ومن كفر فإن ربى غنى) عن شكره (كريم) الأفضال عمن يكفر نعمته فقال سليمان عليه السلام (نكروا لها عرشها) أى زيدوا وأنقصوا منه وجعلوا أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه (ننظر أتهتدى إلى عرشها فتعرفه ، أم تكون من الجاهلين) الذين لا يهتدون إليه أراد أن يختبر عقلها ، وأن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان ويستولدها فتفشى إليه أسرار الجن فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأرادوا أن يزهدوه فيها فأساءوا الثناء عليها وقالوا إن فى عقلها شيئاً وإن رجليها كحافر الحمار فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح فلما جاءت بلقيس (قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو) فشبهته بها وكانت قد تركته خلفها فلم تقر بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها .

قال الحسين بن الفضل فشبهوا عليها فشبهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم ولو قالوا لها هذا عرشك فقالت لهم نعم فقال سليمان وأوتينا العلم بالإتيانها وبجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين خاضعين لله تعالى هذا قول مجاهد وغيره ، وقال بعضهم هو قول بلقيس لما رأت عرشها عند سليمان قالت قد عرفت هذا وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان عليه السلام بالآيات المتقدمة من قبلها أى من قبل هذه الآية ، وكنا مسلمين أى منقادين لك مطيعين لأمرك من قبل أن جئناك ، وذلك أن سليمان لما اقبلت بلقيس تريده أمر الشياطين فبنوا لها صرحا أى قصراً من زجاج كأنه الماء بياضاً وجروا من تحته الماء وألقى فيه السمك ثم وضع سريره فى صدره وجلس عليه وعكفت الطير والجن والإنس .

وإنما أمر ببناء الصرح لأن الشياطين قال بعضهم لبعض قد سخر الله لسليمان ما سخر وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد غلاماً فلا تنفك من العبودية والسخرة أبداً فأرادوا أن يزهدوه فيها فقالوا إن رجليها رجل حمار وأنها شعراء الساقين لأن أمها كانت جنية فأراد سليمان أن يعلم حقيقة ذلك وينظر قدميها وساقيها فأمر ببناء الصرح .

وقال وهب بن منبه : إنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها يواجهها بذلك كما فعلت هى بتوجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكر والأنثى فلما جاءت بلقيس قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وهى معظم الماء فكشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان عليه السلام فإذا هى أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها كانت شعراء الساقين فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها إنه صرح ممرد من قوارير وليس بماء فلما جلست قالت له يا سليمان إنى أريد أن أسألك عن شىء قال سلى ، قالت أسألك عن ماء ليس من الأرض ولا من السماء وكان سليمان إذا جاء شىء لا يعلمه سأل عنه الإنس فإن كان عندهم علم ذلك وإلا سأل الجن فإن علموا وإلا سأل الشياطين فسأل الشياطين عن ذلك فقالوا ما أهون ذلك أؤمر بالخيل أن تجرى ثم املأ الآنية من عرقها فقال لها سليمان عرق الخيل ثم قالت اخبرنى عن كون ربك فوثب سليمان عن سريره وخر ساجداً وصعق فقامت عنه وتفرقت جنوده فجاءه جبريل عليه السلام وقال له يا سليمان يقول لك ربك ما شأنك ؟ قال يا جبريل ربى أعلم بما قالت ، قال فإن الله يأمرك أن ترجع إلى سريرك فترسل إليها وإلى من حضرها من جنودك وجنودها فتسألها وتسألهم عما سألتك عنه ففعل ذلك سليمان فلما دخلوا عليه واستقروا قال عن ماذا سألتينى ؟ قالت سألتك عن ماء ليس من أرض ولا من سماء فأجبت قال أى شىء سألتينى أيضاً قالت ما سألتك عن شىء إلا هذا فسأل الجنود فقالوا مثل قولها وأنساهم الله تعالى ذلك وكفى الله سليمان الجواب ، ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال الهدهد والهدية والرسل والعرش والصرح فأجابت وقالت رب إنى ظلمت نفسى بالكفر وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

واختلف العلماء فى أمرها بعد الإسلام فقال أكثرهم لما أسلمت بلقيس أراد سليمان أن يتزوجها فلما هم بذلك كره لما رأى من شدة كثرة شعر ساقها فسأل الإنس والجن والشياطين ؟ فقالوا لا ندرى فلما ألح عليهم قالوا نحن نحتال لك عليه حتى يكون كالفضة البيضاء فاتخذوا لها النورة والحمام .

قال ابن عباس : إنه أول يوم رؤيت فيها النورة فاستنكحها سليمان عليه السلام أخبرني ابن ميمونة بسنده عن أبي موسى يبلغ به النبي ﷺ قال : أول من اتخذ الحمامات سليمان عليه السلام ، فلما التصق ظهره بالجدار ، قال أواه من عذاب الله تعالى ، قالوا فلما تزوجها سليمان أحبها حباً شديداً وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها بأرض اليمن ثلاث حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً وهي : سلحين وغمدان وبنيون ثم إن سليمان كان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها ويقيم عندها الثلاثة أيام ثم يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام .

وروى محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه ، قال سليمان لبلقيس . لما أسلمت وفرغ من أمرها اختاري رجلا من قومك حتى أزوجك إياه قالت ومثلي ينكح الرجال يا نبي الله وقد كان لي في ملكي وقومي من السلطان ما كان قال نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذاك ، ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لك قالت زوجني إن كان ولا بد من تبع الأكبر ملك همدان فزوجه إياها ثم ردها إلى اليمن وجعل زوجها ذا تبع على اليمن ودعا سليمان زوبعة أمير جن اليمن وقال له أعمل لذي تبع ما استعملك فيه قال فصنع لذي تبع المصانع باليمن ثم لم يزل بها ملكاً يعمل فيها ما أراد حتى مات سليمان عليه السلام . قال فلما حال الحول وبلغ الجن موت سليمان عليه السلام أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجن أن سليمان نبي الله قد مات فارفعوا أيديكم قال فعمدت الشياطين إلى حجرين عظيمين فكتبوا فيهما كتاباً بالمسند يعني خط الحميرية نحن بنينا سلحين وابنيين وبنينا صرواح ومرواح وفنقون وهندة وهنيدة ودلوم وهذه الحصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذي تبع ولولا صارخ بتهامة لما رفعوا أيديهم فانطلقوا وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام والله أعلم .

﴿ باب فى ذكر غزوة سليمان عليه السلام وأبا زوجته الجرادة ﴾
(وخبر الشيطان الذى أخذ خاتمه من يده وسبب زوال ملكه)

قال الله تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) وروى محمد بن إسحق عن بعض العلماء أن سليمان أخبر ان فى جزيرة من جزائر البحر رجلا يقال له صيدون ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه فى البحر وكان الله قد أتى سليمان فى ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شىء فى بر ولا بحر فخرج إلى تلك المدينة فحملته الريح على ظهرها حتى نزل عليها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وسبى ما فيها فاصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسناً وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على يده فى الظاهر على خيفة منه وقلة ثقة فأحبها حباً شديداً لم يحبه أحداً من نسائه وكانت منزلتها عنده منزلة عظيمة وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان فقال لها ويحك ما هذا الحزن الذى لا يذهب والدمع الذى لا يرقأ ، فقالت إنى أذكر أبى وأذكر ملكه وسلطانه وما كان فيه فيحزنى ذلك ، فقال لها سليمان قد أبدلك الله ملكاً هو أعظم من سلطانه وهداك الله إلى الإسلام وهو خير لك من ذلك كله فقالت:

إن ذلك حقاً ولكنى إذا ذكرته أصابنى ما ترى من الحزن ، فلو أنك أمرت الشياطين يصورون لى صورته فى دارى التى أنا فيها أراه بكرة وعشية لرجوت أن يذهب ذلك حزنى ويسلينى عن بعض ما أجد فى نفسى ، فأمر سليمان الشياطين أن يمثلوا لها صورة أبيها فى دارها حتى لا تنكر منه شيئاً فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه فأزرته وقمصته وعممته وردته بمثل ثيابه التى كان يلبسها ثم أنها كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدوا إليه فى ولائدها فتسجد له ويسجدن له معه كما كانت تصنع معه فى ملكه وتروح إليه كل عشية تفعل معه مثل ذلك وسليمان لا يعلم بذلك أربعين صباحاً فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقا وكان لا يرد عن باب سليمان فى أى ساعة أراد

دخول بيته دخل حاضراً أم غائباً فأتاه ، فقال يا نبي الله كبر سني ودق عظمي ونفد عمري وقد حان الذهاب مني وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثني عليهم بعلمي فيه وأعلم الناس بعض ما يجهلون من كثير من أمورهم فقال افعل فجمع سليمان الناس فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه وذكر ما فضلهم الله به حتى انتهى إلى سليمان فقال له ما كان أحكمك في صغرك وأروعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك من كل ما يكره في صغرك ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه من ذلك حتى امتلأ غيظاً فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فلما أتاه قال له : يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيراً في كل أزمانهم وعلى كل حال من أمورهم فا ذكرتني أثنيت على بخير في صغري وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري فما الذي أحدثت في آخر عمري؟ فقال له أن غير الله يعبد في دارك اربعين صباحاً في هوى امرأة ، فقال سليمان في داري قال نعم في دارك فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لقد علمت أنك ما قلت إلا عن شيء بلغك.

ثم إن سليمان رجع إلى داره فكسر ذلك الصنم وعاقب تلك المرأة وولائدها.

ثم إنه أمر بثياب الطهر فأتي بها وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا تمسها امرأة ذات دم ، فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش ثم أقبل تائباً إلى الله تعالى حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللا لله تعالى وتضرعاً إليه يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره ويقول فيما يقول :

رب ما كان ينبغي لآل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقروا في دورهم وأهاليهم عبادة غيرك فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى ثم رجع إلى داره .

وكانت له وليدة يقال لها أمينة كان إذا دخل مذهبه أو أراد قضاء حاجة أو اراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمس خاتمه

إلا وهو متطهر لأن خاتمه كان من ياقوتة خضراء أتاه بها جبريل عليه السلام مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وكان ملكه فى خاتمه فوضعه يوماً من الأيام عندها كما كان يضعه عند دخول مذهبه فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وكان إسمه صخرا فظنته سليمان لأنها لم تنكر منه شيئاً فقال يا أمينة خاتمى فناولته إياه فجعله فى يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان فعكفت عليه الطير والجن والإنس والشياطين .

فخرج سليمان فأتى إلى أمينة وقد تغير من حاله ونفسه ما كان معهوداً منه عند كل من رآه .

فقال يا أمينة خاتمى فقالت ومن أنت ؟ قال سليمان بن داود فقالت كذبت لست سليمان فقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وها هو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن الخطيئة قد أدركته فخرج سليمان وجعل يقف على الدار فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون انظروا إلى هذا المجنون وأى شىء يزعم يقول إنه سليمان .

فلما رأى سليمان ذلك خرج متوجهاً إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر من البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع إحدى السمكتين بأرغفة وشوى الأخرى فيأكلها فمكث كذلك أربعين صباحاً عدة ما كان ذلك الوثن يعبد فى داره .

فأنكر آصف بن برخيا وعلماء بنى إسرائيل حكم عدو الله الشيطان فى تلك الأربعين يوماً ، فقال آصف يا معشر بنى إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان ما رأيت ؟ قالوا نعم فقال أمهلونى حتى أدخل على نسائه فاسألهن هل أنكرن منه فى خاصة أمره ما أنكرناه من عامة أمر الناس وعلانيته فدخل على نسائه فقال لهن ويحكن هل أنكرتن من أمر سليمان بن داود ما أنكرناه فقلن

أشد مايدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة فقال آصف إنا لله وإنا إليه راجعون إن هذا هو البلاء المبين .

ثم إنه خرج إلى بنى إسرائيل فقال ما فى الخاصة أعظم مما فى العامة ، فلما مضت أربعون صباحا زال الشيطان عن مجلسه ، ثم مر فى البحر فقذف الخاتم فيه فابتلعته سمكة فاصطادها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشاء أعطاه السمكتين وكان من جملتهما السمكة التى ابتلعت الخاتم فحمل سليمان سمكتيه فباع التى ليس فى بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد إلى السمكة الأخرى فشقها ليشويها فوجد خاتمه فى جوفها فأخذه فجعله فى يده ووقع ساجداً فعكفت عليه الطير والجن والإنس والشياطين وأقبل على الناس .

وعلم أن الذى دخل عليه لما أحدث فى داره من عبادة الوثن فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه . ثم أمر الشياطين وقال ائتونى بصخر المارد فطلبته الشياطين حتى أتت به وفتحت له صخرة فأدخله فيها ثم سد عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف فى البحر ، فهذا حديث وهب بن منبه .

قال وأقبل سليمان على حالته التى كان فيها حتى انتهى إلى صياد من الصيادين وهو جائع وقد اشتد جوعه فاستطعمهم من صيدهم ، وقال إنى سليمان بن داود فقام إليه بعضهم فضربه بعصاه فشجه فسال دمــه وهو على شاطىء البحر فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه وقالوا له بئسما صنعت حيث ضربته ، فقال إنه زعم أنه سليمان بن داود فاعطوه سمكتين مما ضرب عندهم فلم يشغله ما كان فيه من ألم الضرب حتى قام إلى شاطىء البحر فشق بطنهما وجعل يغسلهما فوجد خاتمه فى بطن إحدهما فأخذه ولبسه فرد الله عليه ملكه وبهاءه وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرفه القوم فجاءوا يعتذرون إليه مما صنعوا ، فقال ما أؤاخذكم على عدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم هذا ما كان لا بد منه ثم جاء حتى أتى ملكه وأمر أن

أتوا بالشيطان الذى أخذ خاتمه فأتى به فجعله فى صندوق من حديد ثم أطبقه أقفل عليه بقفل وختمه بخاتمه ثم أمر به فألقى فى البحر وهو فيه كذلك . لى الساعة .

وفى بعض الروايات : أن سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأخذه سليمان وأعاد عليه فسقط من يده فلما رآه سليمان لا يثبت فى يده أيقن بالفتنة ، فقال آصف لسليمان إنك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك أربعة عشر يوماً ففر إلى الله تائباً من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير فى عملك وأهل بيوتك بسيرك إلى أن يتوب الله عليك ويردك إلى ملكك ففر سليمان هارباً إلى ربه وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت وأن الجسد الذى قال الله تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) هو آصف كاتب سليمان : وكان عنده علم من الكتاب فأقام آصف فى ملك سليمان وعاله يسير بسيرته ويعمل بعمله أربعة عشر يوماً إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى ورد الله عليه ملكه فأقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيه وأعاد الخاتم فى يده فثبت .

وقال الشعبى فى سبب زوال ذلك ولد لسليمان ابن فاجتمعت الشياطين فقال بعضهم لبعض ان عاش له ولد لم تنفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة فسبيلنا ان نقتل ولده أو ان نخبله فعلم سليمان ذلك فأمر السحاب ان تأخذ إبنه وأمر الريح فحملته وغدا إبنه فى السحاب فأمن مضرة الشياطين فعاتبه الله لتخوفه من الشياطين ومات الولد فألقى على كرسيه وهو الجسد الذى قصه الله علينا بقوله (وألقينا على كرسيه جسداً له ثم أناب) والله تعالى أعلم .

(باب فى ذكر وفاة سليمان عليه السلام)

قال الله تعالى (فلما قضينا عليه الموت) الآية ، قال أهل التاريخ : لبث سليمان فى ملكه بعد أن رده الله تعالى عليه تعمل له الجن والشياطين مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك ويعذب من الشياطين من يشاء ويطلق من يشاء ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحب .

قال فتزيا لهم إبليس وهم دائبون فى العمل فقال كيف أنتم ؟ قالوا ما لنا طاقة لما نحن فيه فقال إبليس تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فراغاً لا تحملون شيئاً قالوا نعم ، قال فأنتم فى راحة قال فابلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم أن يحملوا ذاهبين وراجعين فجاءهم إبليس فقال كيف أنتم ؟ فشكوا إليه واخبروه أنهم يحملون ذاهبين وراجعين فقال لهم إبليس أتنامون بالليل ؟ قالوا نعم قال فأنتم فى راحة .

قال فبلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار فتزيا لهم إبليس فشكوا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار وإنهم دائبون فى العمل فقال كيف أنتم : قالوا لا طاقة لنا فيما نحن فيه فقال لهم إبليس وما يشاء فعله قالوا نعم فتوقعوا الفرج وقد بلغ الأمر منتهاه فلم يلبثوا إلا قليلا وقد مات سليمان عليه السلام .

قال ابن عباس وغيره : كان سليمان عليه السلام يحتجب فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل فيه بطعامه وشرابه فدخله فى المرة التى مات فيها وكان بدء أمره فى ذلك أنه لم يكن يوماً يصبح فيه إلا تنبت لله فى بيت المقدس شجرة فيسألها سليمان ما إسمك فتقول الشجرة إسمى كذا وكذا فيقول لأى شىء أنت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع فإن كانت تنبت الغرس كتب عليها غرسها فى مكان كذا وكذا وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا .

فبينما هو يصلى يوماً إذا رأى شجرة نابتة بين يديه فقال لها ما إسمك قالت الخرنوبة قال ولأى شىء نبتك ؟ قالت لخراب هذا المسجد .

فقال سليمان بن داود ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائط له .

ثم قال اللهم عم عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ، وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء وانهم يعلمون ما يكون فى غد .

ثم إن سليمان دخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاه فمات ثم بقى على تلك الحالة ولم يعلم بذلك من الشياطين أحد وهم مع ذلك يعملون ويخافون أن يخرج فيعاقبهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بى فأعلمنى ، قال فأتاه فقال يا سليمان قد أمرت بك وقد بقى لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلى واتكأ على عصاه فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكىء على عصاه .

وفى رواية أخرى أن سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه ـ إن الله تعالى آتانى من الملك ما ترون وما مر على يوم فى ملكى صاف من الكدر ، وقد أحببت ان يكون لى يوم واحد يصفو لى إلى الليل ؛ ولا أغتم فيه ولكن ذلك اليوم غداً فلما كان من الغد دخل قصر له وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ومنع من رفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئاً يسوؤه ثم أخذ العصا بيده ووضعها فوق خصره واتكأ عليها ينظر إلى مماليكه إذ نظر شابا حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب القصر فقال السلام عليك ياسليمان فقال وعليك السلام فكيف دخلت على هذا القصر بغير إذنى ، وقد منعت من دخوله أما منعك البواب والحجاب ، أما هبتنى حين دخلت قصرى بغير إذنى ، فقال أنا الذى لا يحجبنى حاجب ولا يدفعنى البواب ولا أخاف الملوك ولا أقبل منهم الرشا وما كنت لأدخل هذا

القصر بغير إذن ، فقال سليمان فمن أذن لك فى دخوله فقال له ربى ، قال فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت ، فقال له أنا ملك الموت ، قال نعم قال فيم جئت قال لأقبض روحك قال ياملك الموت هذا يوم أردت أن يصفو لى ولا أسمع فيه مايغمنى .

قال يا سليمان إنك أردت يوما يصفو لك فيه عيشك حتى لا ينغصك فيه شيء وذلك يوم لم يخلق فى الدنيا فارض بقضاء ربك فإنه لامرد له ، قال فاقبض كما أمرت فقبض ملك الموت روحه وهو متكيء على عصاه قالوا وكانت الشياطين تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان ، وكان للمحراب بابان باب بين يديه وباب خلفه .

فقال بعض الشياطين لصاحبه إن كنت جليداً فادخل من الباب الذى بين يديه واخرج من الباب الذى خلفه فدخل ذلك البعض ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع فوقف بالبيت فلم يحترق فنظر إلى سليمان وقد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهى العصا بلغة الحبشة قد أكلتها الأرضة فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة ، وكانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك .

وفى رواية ابن مسعود ، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولا كاملا فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون فى ادعائهم علم الغيب فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ولم يلبثوا فى العناء والعذاب سنة يعملون له .

ثم إن الشياطين قالوا للأرضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الماء لسقيناك أعذب الشراب ولكنا ننقل إليك الماء والطين

فشكراً لك فالذى يكون فى جوف الخشب فهو ما تأتيها به الشياطين تسكن إليها فذلك قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) الآية .

قال أهل التاريخ : كان عمر سليمان عليه السلام ثلاثا وخمسين سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة وذلك أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ فى بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه ثم ملك من بعد سليمان ابن له يقال له رحبعم وكان قد استخلفه فنبأه الله وكان نبيا ولم يكن رسولا ، ثم قبض وكان ملكه ثلاثا وستين سنة ، ثم ملك بعد إبنه أسابن آفيا وكان رجلا صالحاً ، وكان أعرج يعتريه عرق النساء فطمع فيه الملوك لضعفه وافترقت ملوك بنى إسرائيل فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له روح الهند فى جمع كثير وقبيلة كبيرة فبعث الله عليهم الملائكة فهزمتهم فقصدوا البحر حتى إذا ركبوا جميعا بعث الله عليهم الرياح والأمواج فضربت سفنهم بعضها فى بعض فتكسرت وغرق روح الهند ومن كان معه واضطربت الأمواج حتى ألقت أثقالهم وأموالهم وسلبهم إلى علة بنى إسرائيل ونودوا أن خذوا ما غنمكم الله تعالى وكونوا من الشاكرين ثم لم تزل تغزوهم الملوك ملك بعد ملك من ملوك العراق وغيرهم فيهلكهم الله تعالى إلى ان ظهر فيهم الظلم والفساد وفشت فيهم المعاصى وعبد بعض ملوك بنى إسرائيل الأصنام من دون الله تعالى فغضب الله عليهم بكفرهم ومعصيتهم وسلط عليهم بختنصر .

(مجلس فى قصة بختنصر وما يتصل به)
وخبر شعياء وأرمياء وعزير
عليهم وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام

قال الله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب) إلى قوله عز وجل (وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) .

﴿ قصة شعياء عليه السلام ﴾

قال محمد بن إسحق وغيره من أهل السير والأخبار : كان فيما أنزل الله تعالى على موسى خبر بنى إسرائيل من أحداثهم وما هم فاعلون بعده كما قال الله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً) إلى قوله (حصيراً) فكانت بنو إسرائيل يركبون الأحداث والذنوب وكان الله تعالى يتجاوز عنهم تعطفا وإحسانا إليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر الله تعالى على لسان موسى عليه السلام بأن ملكا منهم كان يدعى صديق وكان الله تعالى إذا ملك ملكا من ملوك بعث الله له نبيا يسدده ويرشده ويكون واسطة فيما بينه وبين الله تعالى فيما يحدث من أمورهم ولا ينزل عليهم كتابا وإنما يأمرهم أن يأمروا بأحكام التوراة والنهى عن المعاصى والمنكرات والدعاء إلى ما تركوا من الطاعات .

فلما مات ذلك الملك بعث الله تعالى شعياء بن أمضياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى وشعياء هو الذى بشر بيت المقدس حين شكا إليه الخراب فقال أبشر فإنه يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك بنى إسرائيل وبيت المقدس زمانا .

فلما انقضى ملكه فيهم عظمت الأحداث الرديئة وشعياء فيهم فبعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل فنزل هو وجنوده فى ستمائة ألف راية فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض فى ساقه قرحة شديدة فجاء إليه شعياء فقال يا ملك بنى إسرائيل إن سنجاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده فى ستمائة ألف راية وأقبل سائراً حتى نزل بيت المقدس وقد هابهم الناس وتفرقوا عنهم فكبر ذلك على الملك وقال يا نبى الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبعدونا سنجاريب وجنوده فقال النبى لم يأت وحى فبينما هم كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى شعياء عليه السلام أن ائت ملك بنى إسرائيل فأمره أن

يوصى بوصيته ويستخلف على مملكته من يشاء من أهل بيته وعترته فأتى شعياء صديق فقال إن ربك قد أوحى إلى أن آمرك أن توصى بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فإنك ميت ، فلما قال ذلك شعياء لصديق أقبل على الله تعالى وصلى ودعا وبكى وقال فى دعائه وهو يبكى ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص وظن صادق .

اللهم رب الأرباب وإله الآلهة القدوس المقدس يارحمن يا رحيم يا رءوف يا من لا تأخذه سنة ولا نوم أذكرنى بنيتى وفعلى وحسن قضائى فى بنى إسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى وسرى وعلانيتى لك .

ثم إن الله تعالى استجاب دعاءه ورحمه وكان عبداً صالحا ، فأمر الله تعالى إلى شعياء وأمره أن يخبر صديق الملك أن ربه قد استجاب له ورحمه وقبل منه وقد أخر أجله خمس عشرة سنة ، وانجاه الله تعالى من عدوه سنجاريب ملك بابل وجنوده فأتى شعياء وأخبره بذلك ، فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الهزال وخر ساجداً لله تعالى .

يا إلهى وإله آبائى لك سجدت وكبرت وسبحت وعظمت أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى .

فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعياء ، أن قل للملك صديق أن يأمر عبداً من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ففعل ذلك فبرأ فقال الملك لشعياء ، سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا فقال الله لشعياء قل له إنى كفيتك عدوك هذا وأنجيتك منـــه وأنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنجاريب وخمسة نفر من كبرائه وكتابه فلما أصبحوا جاءهم صارخ يصرخ

على باب المدينة يا ملك بنى إسرائيل قد كفاك الله عدوك فاخرج فإن سنجاريب ومن معه هلكوا فلما خرج التمس سنجاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب هو ومن معه فى خمسة نفر من كبرائه فى مغارة أحدهم بختنصر فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم ملك بنى إسرائيل فلما رآهم خر ساجداً لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال ياسنجاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون فقال له سنجاريب قد أتانى خبر ربكم ونصرته إياكم من قبل أن أخرج من بلادى فلا أطلع مرشداً ولم يلقنى فى الشقوة إلا قلة عقلى فلو سمعت وعقلت ماغزوتكم ولكن الشقوة غلبت على وعلى من معى قال : فقال صديق الحمد لله رب العالمين الذى كفانا كما يشاء إن ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك عليه ولكن لتزدادوا شقاوة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة .

ثم أن بنى إسرائيل تنافسوا فى الملك حتى قتل بعضهم بعضا وظهر فيهم البغى والفساد ونبيهم شيعاء فيهم لا يرجعون إليه ولا يقبلون قوله فلما فعلوا ذلك قال الله تعالى لشعياء عليه السلام : قم فى قومك يوح على لسانك ، فلما قام النبى أطلق الله لسانه بالوحى فقال .

يا سماء اسمعى ويا أرض انصتى فإن الله أراد أن يقضى شأن بنى إسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة وهم كالغنم الضائعة التى لا راعى لها فآوى شاردها وجمع ضالها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأسمن هزيلها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضهم بعضا حتى لم يبق منهم عظم صحيح يجبر إليه كسير فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أجاءهم الخير أم الشر وإن البعير يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار يذكر الآرى الذى يشبع عليه فيراجعه وأن الثور يذكر المسرح الذى يسرح فيه فينتابه وأن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير وهم أولوا الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير أنى ضارب لهم مثلا فليسمعوه

قل لهم كيف ترون فى أرض كانت خرابا مواتا فبقيت خرابا زمانا طويلا بلا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوى فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه فاحاط عليها جداراً وشيد فيها قصراً وأجرى نهراً وأنبت عليها غرسا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وأنواع الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه إذا رأى حفيظا قويا أمينا فانتظرها فلما أطلعت جاء طلعها خرنوبا فقال بئس الأرض هذه ترى أن يهدم جدرها وقصرها ويغيض ماء نهرها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت خرابا أول مرة مواتا لا عمران فيها فقال الله تعالى قل لهم أن الجدار ذمتى وأن القصر شريعتى وأن النهر كتابى وان القيم نبيى والغراس هم وان الخرنوب الذى أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وأنى قضيت عليهم لمضاءهم على أنفسهم وأنه مثل ضربه الله لهم فمرهم يتقربوا بذبح البقر والغنم ليس ينالنى اللحم ولا آكله لكن يتقربون إلى بالتقوى والكف عن ذبح النفس التى حرمتها فأيديهم مخضوبة منها وبناتها مزملة بدمها ، ويشيدون إلى البيوت والمساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها فأى حاجة لى إلى تشييد البيوت ولست أسكنها وأى حاجة لى إلى تزويق المساجد ولست أدخلها وإنما أمرت برفعها لأذكر فيها وأسبح ولتكن معلما لمن أراد أن يصلى فيها ويقولون لو كان الله يقدر على ان يجمع ألفتنا لجمعها ، ولو كان الله يقدر ان يفقه قلوبنا لفقهها فاعمدوا إلى عودين يابسين ثم ايتهما وهم فى أجمع ما يكون فقل للعودين إن الله يأمركما ان تكونا عوداً واحداً فلما قال لهما ذلك اختلطا بعضهم فى بعض فصارا عوداً واحداً فقال الله تعالى إنى على كل شىء قدير وأنا الذى صورتهم يقولون ضمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور قلوبنا وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا وإن دعونا بمثل حنين الجمال وبكينا بمثل عواء الذئاب متذللين كل ذلك لا يسمع ولا يستجاب لنا قال الله تعالى فسلهم ما الذى يمنعنى ان استجيب لهم ألست أسمع السامعين وأنظر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين وأن رحمتى وسعت كل شىء إنما يتراحم المتراحمون بفضلى ، أو لست أكرم الأكرمين .

وأنا مفتاح بالخيرات ألست أجود من اعطى وأكرم من سئل ولو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التى تورث فى قلوبهم فتدبروها ولم يشتروا بها الدنيا لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى أعدى العداة لهم، فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بالزور ويقوون عليه بطعمه الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم طاغية تركن إلى من يحاربنى وينتهك محارمى أم كيف تزكو عندى صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم وإنما أجزى عليها أهلها المغصوبين

أم كيف استجيب لهم دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم والعقل من ذلك بعيد إنما استجيب قول المستضعف المسكين وإن من علامة رضاى رضا المسكين ولو رحموا المساكين وقربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم ونصروا المغصوب وعالوا الغائب وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه.

ولو كان ينبغى ان أكلم البشر إذا لكلمتهم وكففت أذاهم وكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وأعمرت أركانهم وكنت قوة أيديهم وأرجلهم وكنت ألسنتهم إلا انهم يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالاتى أنها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتآليف فيما يؤلف السحرة والكهنة وزعموا ان لو يشاءوا أن يأتوا بحديث مثله لفعلوا وان يطلعوا على الغيب بما توحى إليهم الشياطين إذا طلعوا وهم يعلمون انى أعلم غيب السموات والأرض واعلم ما يبدون وما يكتمون وإنى قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء بينته على نفسى وجعلت له أجلا مؤجلا لا بد انه واقع فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبرو لك متى أنفذه وفى اى زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه القدرة التى بها أقضى فإنى مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه الحكمة التى أدبر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين فإنى قضيت يوم خلقت السموات والأرض بأن أجعل

النبوة فى الأحرار وأجعل الملك فى الرعاء وأجعل العز فى الأذلاء والقوة فى الضعفاء والغنى فى الفقراء والثروة فى الأقلاء والمدائن فى الفلوات والآجام فى المفاوز والثرى فى الغيطان والعلم فى الجهلة والحكمة فى الأميين فسلهم ممن هذا ومن المقيم بهذا وعلى يد من أنشئه ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره فإنى باعث لذلك نبياً أمياً لا أعمى من العميان ولا ضالا من الضالين ليس بفظ ولا غليظ ولا بصخاب فى الأسواق ومترى بالفحش ولا قوالا بالخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم اجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوقار طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعـــدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد إسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به الخمالة واشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد الفقر واجمع به بعد الفرقة وأولف به قلوبا مختلفة وأهواء مشتتة وأمما متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآياتى وتوحيدى يصلون قياما وقعوداً وركوعا وسجوداً ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤوس الأشراف ويطهرون لى الوجوه والأطراف ويعقدون الثياب فى الأنصاف قربانهم دماؤهم وقرآنهم فى صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فلما فرغ شعيبا من مقالته غدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخلها ؛ فأدركه الشيطان ، فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها ، حتى قطعوها وقطعوه وهو فى وسطها

﴿ قصة أرمياء عليه السلام ﴾

فاستخلف الله على بنى إسرائيل بعد قتلهم شعياء رجل يقال له ناشئة بن أموس، وبعث الله إليهم الخضر نبياً ليسدده ويأتيه بالخير من الله تعالى واسم الخضر أرمياء بن خليقاء.

وكان من سبط هرون بن عمران وإنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تزهو خضراء قال الله تعالى لأرمياء حين بعثه إلى بنى إسرائيل يا أرمياء من قبل أن أخلقك اخترتك من قبل أن أصورك فى بطن أمك قدستك ومن قبل ان أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل ان تبلغ السعى نبأتك ولأمر عظيم اجتبيتك فذكر قومك نعمى وعرفهم أحداثهم وادعهم إلى. فقال أرمياء إنى ضعيف إن لم تقونى عاجزاً إن لم تنصرنى، فقال الله تعالى أنا ألهمك فقام أرمياء فيهم خطيباً ولم يدر مايقول ؛ فألهمه الله تعالى فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعذاب المعصية ؛ وقال لهم فى آخرها إن الله قال: فإنى أحلف بعزتى وجلالى إن لم ينتهوا لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلطن عليهم جباراً قاسياً ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم.

ثم أوحى الله تعالى إلى أرمياء عليه السلام إنى مهلك بنى إسرائيل بيافث ويافث هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح ؛ فلما سمع أرمياء بكى وصاح وشق ثيابه وحثا الرماد على رأسه ؛ فلما سمع الله تضرع أرمياء وبكاءه ناداه يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت إليك قال نعم يارب أهلكنى قبل ان أرى فى بنى إسرائيل مالا أسربه. فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا اهلك أحداً من بنى إسرائيل حتى يكون الأمر فى ذلك من قبلك ؛ ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال والذى بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بنى إسرائيل ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحاً ففرح واستبشر وقال، إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة وإن يرحمنا فبرحمته

ثم إنهم لبثوا بعد الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا فيها إلا معصية وتماديا فى الشر وذلك حين اقترب هلاكهم وفى الوحى ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا فسلط عليهم بختنصر فخرج فى ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس .

فلم يصل بختنصر سائراً إلى الملك وقد أتى الملك الخبر فقال الملك لأرمياء أنت زعمت أن الله أوحى إليك ، فقال أرمياء إن الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الأجل وأراد هلاكهم بعث إلى أرمياء ملكاً قد تمثل له فى صورة رجل من بنى إسرائيل ؛ فقال له يانبى الله إنى استفتيك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم أزل إليهم محسناً ولا يزيد إكرامى إياهم إلا استخفافاً بى فافتنى فيهم؛ فقال له أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وابشر بخير فانصرف الملك فما مكث إلا أياماً ثم أقبل عليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرمياء أو ماطهرت أخلاقهم بعد ، قال يانبى الله والذى بعثك بالحق نبياً ما أعلم كرامة يأتيها احد من الناس إلا أهل رحمة إلا قدمتها إليهم وأفضل .

قال ارمياء عليه السلام ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم وسل الله الذى يصلح عباده الصالحين او يصلحهم فقام الملك فمكث اياماً وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل وشق عليهم؛ فقال ملكهم لأرمياء يانبى الله أين ماوعدك الله به ؟ قال إن بربى لواثق ثم أقبل الملك على ارمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذى وعد فقعد بين يديه وقال له انا الذى اتيتك فى شأن أهلى مرتين فقال له أرمياء عليه السلام ألم يأن لهم ان ينتهوا من الذى هم فيه فقال له يانبى الله كل شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه واليوم رايتهم فى عمل لايرضى الله تعالى فقال أرمياء عليه السلام على اى عمل رأيتهم : قال على عمل عظيم من سخط الله تعالى فغضبت لذلك وأتيتك لأخبرك ، وإنى اسألك بالله الذى بعثك بالحق نبياً إلا مادعوت الله تعالى عليهم ليهلكهم ، فقال ارمياء ياملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فابقهم وإن كانوا على سخطك وعمل لاترضاه فأهلكهم

قال فما خرجت الكلمة من فم أرمياء تماماً حتى أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابه فلما رأى ذلك ارمياء صاح وبكى وشق ثيابه وحثا الرمال على رأسه وقال : يامالك السموات والأرض أين ميعادك الذى وعــدتنى ؟ فنودى أنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بفتياك ودعائك فاستيقن ارمياء عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول ربه فسار ارمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ثم يقذفه فى بيت المقدس فقذفوا فيه التراب حتى ملئوه ثم انصرفوا إلى بابل واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل وأمرهم ان يجمعوا ما كان فى بيت المقدس فجمعوا كل صغير وكبير من بنى إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي فلما أراد أن يقسم الغنائم فى جنده قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى إسرائيل ففعل ذلك فأصاب كل واحد منهم أربعة غلمان وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وعزازيا وميشايل وسبعة آلاف من أهل بيت داود وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى إبنى يعقوب ومن بقى من بنى إسرائيل جعلهم بختنصر ثلاث فرق فثلثاً أقره بالشام وثلثاً سبى وثلثاً قتل وذهب بأوانى بيت المقدس حتى أقدمها بابل وذهب بالغلمان السبعين ألفاً وسائر السبايا حتى قدم بهم بابل وكانت تلك الوقعة الأولى التى أنزلها الله على بنى إسرائيل بأحداثهم وظلمهم وذلك قوله تعالى (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد) يعنى بختنصر وجنوده ،

وكان بدء أمر بختنصر على ما روى حجاج عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ التوراة حتى إذا بلغ (بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد) بكى وفاضت عيناه وأطلق المصحف ثم انطلق

إلى المسجد وقال يارب أرنى هذا الرجل الذى جعلت هلاك بنى إسرائيل على يديه فأرى فى المنام أنه مسكين ببابل يقال له بختنصر فانطلق بمال وعبد له وكان رجلا موسراً ، فقيل له أين تريد ؟ قال أريد التجارة .

ثم ذهب حتى نزل داراً ببابل فاستكراها ليس فيها أحد غيره ، فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم حتى لا يأتيه أحد مسكين إلا أعطاه ، فقال هل من مساكين غيركم قالوا نعم مسكين بفج آل فرعون مريض يقال له بختنصر ، فقال لغلمانه انطلقوا وانطلق معهم حتى أتاه .

فقال له ما إسمك ؟ قال بختنصر فقال لغلمانه احملوه فنقلوه اليه ومرضه حتى برىء فكساه وأعطا نفقة .

ثم أذن الإسرائيلى فى الرحيل فبكى بختنصر ، فقال الإسرائيلى ما يبكيك ؟ فقال أبكى لأنك فعلت معى مافعلت ولا أجد شيئاً أجازيك به ، فقال جزائى شىء يسير قال وماهو ؟ قال له إن صرت ملكاً وملكت بيت المقدس أتعطينى ما أطلبه فجعل يتبعه ويقول له أتستهزىء بى ولا يمنعه أن يعطيه ما سأله .

قال : فبكى الإسرائيلى وقال قد علمت ما يمنعك أن تعطينى ما سألتك إلا الله تعالى يريد أن ينفذ قضاءه فكتب له كتاباً وضرب الدهر ضرباته فقال يوماً سيحون وهو ملك بابل لو أنا أرسلنا طليعة إلى الشام قالوا ماضرك لو فعلت قال فمن ترون قالوا فلاناً فبعث رجلا وأعطاه مائة ألف فخرج بختنصر فى مطبخه لم يخرج إلا ليأكل فى مطبخه .

فلما قدم إلى الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أهل الأرض فرساناً ورجالاً جلداً فكبر ذلك فى عينه فلم يصل ولم يسألهم عن شىء .

وكان بختنصر دخل الشام ولم يزل يجلس مجلس أهل الشام ويسألهم ويقول لهم مامنعكم ان تغزوا ببابل فلو غزوتموها لنلتم منها شيئاً كثيراً فقالوا إنا لا نحسن

القتال ولا نقاتل حتى تتفقد مجالس أهل الشام وتعرف سرائرهم ثم إن الطليعة رجعوا فأخبرهم ملكهم بما رأوا وكان بختنصر رجع معهم فجعل يقول الفراش الملك لو دعانى الملك لأخبرته غير الذى أخبره فلان وفلان فرفع ذلك إلى الملك فدعاه فأخبره الخبر ، وقال إن فلاناً لما رأى أكثر أهل الأرض كراماً ورجالا جلداً كبر ذلك فى عينه ولم يسألهم عن شىء إنى لم أدع مجلساً بالشام إلا جلست فيه أسأل أهله فقلت لهم كذا وكذا وقالوا كذا وكذا .

قال سعيد بن جبير : قال صاحب الطليعة لبختنصر لك مبلغ مائة ألف دينار وترجع عما قلت . فقال لو أعطيتنى بيت مال بابل مارجعت عما قلت ثم ضرب الدهر ضرباته ؟ فقال الملك لو بعثنا جريدة خيـــل إلى الشام فإن وجدوا مساغاً ساغوا ولا أمسكوا ماقدروا عليه ؟ فقالوا ماضرك لو فعلت ذلك قال فمن ترون قالوا فلاناً قال بل الرجل الذى أخبرنى بما أخبرنى فدعى بختنصر فبعثه ثم انتخب معه أربعة آلاف من فرسانهم فانطلقوا فجاسوا خلال الديار فسبوا ما شاء الله تعالى ولم يخربوا ولم يقتلوا ومات سيحون الملك فقالوا استخلفوا ملكاً قالوا على رسلكم حتى تأتى أصحابكم فإنهم فرسانكم فأمهلوا حتى جاء بختنصر [illegible] فقسمه بين الناس ، فقالوا ما رأينا أحق بالملك منه فهذه القصة [illegible] على أنفسهم .

وقال السدى بإسناده ان رجلا من بنى إسرائيل رأى فى المنام أن خراب بيت المقدس وهلاك بنى إسرائيل على يد غلام يتيم بن أرملة من أهل بابل يدعى بختنصر وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم فأقبل يسأل عنه حتى نزل فى بيت أمه وكان قد ذهب يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ثم قعد فى جانب البيت فكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم وقال له اشتر بها طعاماً وشراباً فاشترى بدرهم لحماً وبدرهم خبزاً وبدرهم خمراً وجاء به فأكلوا وشربوا حتى إذا كان اليوم الثانى فعل به مثل ذلك وفى اليوم الثالث فعل كذلك ثم قال له الإسرائيلى إنى أحب أن تكتب لى أماناً إذا أنت ملكت يوماً من الدهر .

فقال بختنصر أتسخر منى قال لا أسخر منك ولكن ماعليك أن يجعل عندى لك يداً فكلمته أمه فقالت : ماعليك إن كان وإلا لم ينقصك شيئاً فكتب له أماناً .

فقال أرأيت إن جئتك والناس حولك قد حالوا بينى وبينك فاجعل لى علامة تعرفنى بها قال ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك بها فكتب له أماناً وأعطاه إياه ثم إن ملك بنى إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا عليه السلام ويدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع امراً دونه وإن الملك هوى ان يتزوج بنت امرأة له هذا قول السدى .

وقيل كانت بنت أخته لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بعث عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهم السلام فى إثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس وكان فيما نهاهم عنه نكاح بنت الأخت .

قال وكان للملك إبنة أخت تعجبه ويريد أن يتزوجها وكان لها فى كل يوم حاجة يقضيها وذكر الحديث فى مقتل يحيى بن زكريا عليهما السلام .

رجعنا إلى حديث السدى فسأل يحيى عن نكاحها فقال لست أرضاها لك فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوج إبنتها فعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبست إبنتها ثياباً حمراً رقاقاً فاخرة وطيبتها وألبستها من الحلى شيئاً لاقيمة له من غايته وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك وأمرتها ان تسقيه الخمر وان تتعرض له فإن راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته ويكون الذى تسأله ان يأتى برأس يحيى بن زكريا فى طشت ففعلت ذلك وجعلت تسقيه الخمر وتتعرض له فلما أخذ من يدها الشراب راودها عن نفسها فقالت لا أفعل حتى تعطينى ما اسألك قال وما تسألينى ؟ قالت اسألك ان تبعث الى يحيى بن زكريا فتأتينى برأسه فقال ويحك سلينى غير هذا قالت ماأريد غير هذا فلما أبت عليه بعث إلى يحيى فأتى برأسه فجعلت الرأس تتكلم حتى وضعت

بين يديه وهى تقول إنها لا تحل لك ، فلما أصبح الملك وإذا دم يحيى يغلى فأمر بالتراب فألقى عليه فرقى الدم فوق التراب يغلى فألقى عليه ايضاً وارتفع الدم فوقه فلم يزل يلقى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى فبلغ سنجاريب ملك بابل ذلك فنادى فى الناس وأراد أن يبعث لهم جيشا ويؤمر عليهم رجلا فأتاه بختنصر وكلمه وقال إن الذى أرسلت تلك المرة ضعيف وإنى قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعثنى فبعث ..... حتى إذا بلغوا ذلك المكان ورآهم أهله تحصنوا فى مدائنهم فلم يطقهم .

فلما اشتد عليهم المقام وجاع أصحابه وأرادوا الرجوع فخرجت إليهم عجوز من عجائز بنى إسرائيل وقالت أين أمير الجند فأتى به إليها فقالت : لقد بلغنى إنك تريد الرجوع بجنودك قبل ان تفتح هذه المدينة قال نعم قد طال مقامى وجاع اصحابى فلست استطيع المقام فوق الذى كان منى أرأيتك إن دللتك على فتح المدينة تعطينى ما اسألك وتقتل من أمرتك بقتله وتكف عمن آمرك بالكف عنه . قال لها نعم قالت إذا أصبحت فاقسم جندك أربعة أقسام ثم اقسم على كل زاوية ربعاً ثم ارفعوا ايديكم إلى السماء ونادوا ياربنا دلنا على من قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام فإنهم إذا فعلوا تساقط سور المدينة ففعلوا ذلك فتساقط سور المدينة ودخلوا من جوانبها فانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا عليهما السلام وقالت له اقتل على هذا الدم حتى يسكن فقتل عليه سبعين الفاً حتى سكن فلما سكن الدم قالت له كف يدك فإن الله تعالى إذا قتل نبي لا يرضى حتى يقتل من قتله ومن رضى بقتله .

وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته وخرب بيت المقدس وأمر ان تطرح فيه الجيف ، وقال من طرح عليه جيفة فله جزيته فى تلك السنة وأعانه على خرابة الروم من أجل ان بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا فلما خربه بختنصر ذهب بوجوه بنى إسرائيل وسراياهم .

﴿ قصة دانيال عليه الصلاة والسلام ﴾

وذهب دانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت .

فلما قدم بختنصر أرض بابل وجد سنجاريب قد مات فلك مكانه واستقام له الأمر وثبت على ذلك مدة .

ثم إن بختنصر رأى رؤيا عجيبة فأفزعته فسأل عنها السحرة والكهنة فعجزوا عن تفسيرها فبلغ ذلك دانيال وكان في السجن مع أصحابه وقد أحبه صاحب السجن وأعجب به لما رأى من حسن سمته وهدايته ، فقال دانيال لصاحب السجن إنك قد احسنت إلي وان صاحبكم قد رأى رؤيا فدله عليّ لأعبرها له فجاء السجان وأخبر بختنصر بقصة دانيال فقال علي به ، وكان لا يقف بين يديه أحد إلا سجد له فأتوا به فقام بين يديه ولم يسجد له فقال له ما الذي منعك من السجود لي فقال له إن لي رباً آتاني العلم والحكمة وأمرني ان لا أسجد إلا له فخشيت إن سجدت لغيره أن ينزع مني العلم الذي آتاني ويهلكني فاعجب به وقال نعم مافعلت وقد أحسنت حيث وفيت بعهده وأجللت علمه.

ثم قال هل عندك علم بهذه الرؤية وهل لك في تعبيرها قال نعم قال فأخبره برؤياه التي رآها قبل ان يخبره بها ثم عبرها وكانت الرؤيا ما أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن وهب بن منبه يقول : إن بختنصر رأى في منامه صنما رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه من نحاس وفخذه من حديد وساقه من الفخار ثم رأى حجراً من السماء قد وقع عليه قدميه .

ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة أصلها في الأرض وفرعها في السماء ثم رأى رجلا بيده فأس وسمع منادياً ينادى اضرب جذعها ليفرق الطير من فروعها وتفرق الدواب والسباع من تحتها واترك أصلها قائماً فعبرها له دانيال عليه السلام .

أما الصنم الذى رأيت رأسه من الذهب فأنت الرأس الذهب وأنت فضل الملوك وأما الصدر الذى رأيت من فضة فهو إبنك يملك من بعدك .

وأما البطن الذى رأيت من نحاس فملك يكون بعد إبنك .

وأما ما رأيت من الفخذ الذى من حديد فتتفرق فرقتان فى فارس تكون أشد الملوك .

وأما الفخار فآخر ملوكهم يكون الحديد .

وأما الحجر الذى رأيت قد وقع من السماء وربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبي يبعثه الله فى آخر الزمان فيفرق ملكهم كله ويربو حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب .

وأما الشجرة التى رأيت والطير الذى عليها والسباع والدواب التى تحتها وما أمر بقطعها فيذهب ملكك ويردك الله طائراً نسراً عظيما فتملك الطيور ثم يردك الله ثوراً فتملك الدواب ثم يردك الله أسدا فتملك السباع والوحوش وتكون منذ مسخك الله على ما ذكرنا سبع سنين فى ذلك كله وقلبك قلب إنسان حتى تعلم ان الله له ملك السموات والأرض وهو يقدر على الأرض ومن عليها .

وأما ما رأيت من ان اصلها قائم فإن ملكك قائم ، فسئل وهب بن منبه أكان مؤمناً أم لا ؛ فقال وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فى ذلك فنهم من قال مات مؤمناً ، ومنهم من قال مات كافراً لأنه حرق بيت المقدس والكتب التى فيه وقتل الأنبياء وغضب الله عليه غضباً شديدا فلم يقبل منه يومئذ توبة .

قالوا فلما عبر دانيال لبختنصر رؤياه وأخبره بها أكرمه وأكرم أصحابه وجعل يقبل عليه ويستشيره فى أموره حتى كان أكرم الناس عليه وأحبهم إليه فحسده المجوس على ذلك فوشوا به وقصدوا إلى بختنصر فقالوا له إن دانيال وأصحابه مايعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك فدعاهم وسألهم فقالوا أجل إن لنا رباً نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم فأمر بأخدود فخد لهم وألقوا فيه وهم ستة وألقى معهم سبع ضاريا ليأكلهم ثم انطلقوا لنأكل ونشرب فذهبوا وأكلوا وشربوا

ثم إنهم رجعوا فوجدوهم جلوساً والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدش منهم أحداً ولم ينالهم بشيء. ووجدوا معهم رجلا زائداً فعدوهم فوجدوهم سبعة فقالوا: ما بال هذا السابع وإنما كانوا ستة فخرج إليهم السابع وكان ملكا من الملائكة فلطم بختنصر لطمة فصار في الوحوش والسباع ومسخه الله سبع سنين. ثم رد إلى صورته ورد عليه ملكه.

قال السدى: فلما رد الله عليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس أيضاً ووشوا بهم ثانية وقالوا لبختنصر إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم عاراً فجعل لهم بختنصر طعاماً وشراباً فأكلوا وشربوا منه ثم قال للبواب انظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه بالطبرزان فإن قال أنا بختنصر فقل له كذبت إن بختنصر أمرني فحبس الله عن دانيال وأصحابه البول فكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر فقام مدلاه وكان ذلك ليلا فقام يسحب ثيابه فلما رآه البواب شد عليه فقال أنا بختنصر فقال كذبت إن بختنصر أمرني ان أقتل كل من يخرج أولا ثم ضربه فقتله.

وأما محمد بن إسحق فإنه قال في هلاك بختنصر غير ما قال السدى وذلك أنه قال بإسناده: لما أراد الله هلاك بختنصر قال لمن كان في يده من بني إسرائيل أرأيتم هذا البيت الذي خربت وهؤلاء الناس الذين قتلت من هم وما هذا البيت؟ فقالوا هذا بيت الله تعالى ومسجد من مساجده وهؤلاء أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدوا وعصوا فسلط الله عليهم عدوهم بذنوبهم.

قال فاخبروني ما الذي يطلع بي إلى السماء وأطلع عليها وأقتل من فيها وأتخذ ملكا فإني قد فرغت من الأرض وما فيها قالوا مايقدر عليها أحد من الخلق فقال لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم فشكوا إلى الله تعالى وتضرعوا فبعث الله تعالى عليه بقدرته ليريه ضعفه وهو أنه بعوضة دخلت في منخره ثم ساخت فيه حتى عضت بأم دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى يضرب على أم دماغه.

فلما عرف الموت قال لخاصته من أهله . إذا أنا مت فشقوا رأسى وانظروا ما الذى قتلنى ، فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة بأم دماغه ليرى الله العباد قدرته وسلطانه ونجى الله تعالى من كان بقى فى يده من بنى إسرائيل ورحمهم وردهم إلى إيلياء والشام فبنوا فيها وربوا وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه فيزعمون ان الله أحيا المؤمنين الذين قتلوا ولحقوا بهم ثم إنهم لما رجعوا إلى الشام وجدوا بختنصر قد أحرق التوراة وليس معهم عهد من الله فجدد الله توراتهم وردها إليهم على لسان عزير وسنذكر القصة فيه إن شاء الله تعالى .

وكان عمر بختنصر أيام مسخه نيفاً وخمسمائه عام وخمسين يوما - فلما مات بختنصر استخلف ابنه فلسطاس وكانت آنية المقدس التى حملها بختنصر إلى بابل عنده وكان يجسها بلحوم الخنازير وشرب فيها الخمر وأقصى دانيال فلم يقبل منه فاعتزل دانيال .

فبينما فلسطاس قاعد ذات يوم إذ بدت له كف معلقة بغير ساعد فكتبت ثلاثة احرف بمشهده ثم غاب فعجب من ذلك وتحير ولم يدر ماهى فدعا دانيال عليه السلام واعتذر إليه وسأله ان يقرأ له ذلك الكتاب ويخبره بتأويله فقال دانيال .

بسم الله الرحمن الرحيم - وزن فخف ووعد فأنجز وجمع ففرق فقال أما قوله وزن فخف - أى وزن عملك فى الميزان فخف - ووعد فأنجز - أى وعد ملكك بالخراب فأنجز اليوم وجمع ففرق ، أى جمع لك ولوالدك من قبلك ملكا عظيما ثم فرق اليوم فلا يجمع إلى يوم القيامة فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكه الله تعالى وضعف ملكهم وبقى دانيال عليه السلام بأرض بابل إلى ان مات بالسوس والله أعلم .

﴿ خبر وفاة دانيال عليه السلام ﴾

قال أهل الأخبار : لما فتح الله السوس على يد أبى موسى الأشعرى فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتل أبو موسى ملكها سابور واحتوى على المدينة فغنم ما فيها وأخذ أموال سابور وملكها وجعل يدور فى الخزائن فيأخذ ما فيها حتى افضى إلى خزانة مغلقة وقد ختم قفلها بالرصاص فقال أبو موسى الأشعرى لأهل السوس ما فى هذه الخزانة فإنى أراها مختومة بالرصاص - فقالوا له أيها الأمير ليس فيها شىء من حاجتك - فقال لابد لى ان أعلم ما فيها فافتحوا بابها حتى انظر ما فيها فكسروا القفل وفتحوا الباب فدخل أبو موسى الخزانة فنظر فإذا هو بحجر طويل محفور على مثال الحوض وفيه رجل ميت وقد كفن بأكفان منسوجة بالذهب ورأسه مكشوفة. قال فتعجب أبو موسى من طوله وكل من كان معه ثم إنهم شبروا أنفه فإذا هو يزيد على شبر فقال أبو موسى لأهل السوس ويحكم من هذا الرجل ؟ قالوا إن هذا الرجل كان بالعراق وكان أهل العراق إذا حبس عنهم المطر استسقوا به فيسقون فأصابنا من قحط المطر ما كان يصيب أهل العراق فأرسلنا إليهم وسألناهم ان يدفعوه إلينا حتى تستسقى به فأبوا علينا فارسلنا إليهم خمسين رجلا وحملناه إلى بلدنا هذا ثم استسقينا به فسقينا فرأينا من الرأى أن لا نرده إليهم فلم يزل مقيماً عندنا إلى ان أدركه الموت فمات فهذه قصته وحاله .

قال فأقام أبو موسى الأشعرى بالسوس وكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما فتح الله عليهم من مدينة السوس وماوالاها وكتب فى كتابه أمر ذلك الرجل الميت فلما وصل الكتاب وقرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعا أكابر أصحاب رسول الله ﷺ فسألهم عن ذلك فما وجد عند واحد منهم علمه فقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه . إن هذا الرجل دانيال الحكيم وهو نبى غير مرسل كان فى قديم الزمان مع بختنصر ومن كان بعده من الملوك .

وجهل على بن أبى طالب رضى الله عنه يحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قصة دانيال من أولها إلى آخرها إلى وقت وفاته ثم قال اكتب إلى صاحبك وأمره أن يصلى عليه ويدفنه فى موضع لا يقدر عليه أهل السوس فكتب عمر إلى أبى موسى بذلك .

فلما قرأ أبو موسى كتابة عمر أمر أهل السوس أن يكفوا نهرهم إلى موضع آخر ثم أمر بدانيال فكفن بأكفان غير التى كانت عليه ثم صلى عليه هو وجميع من كان معه من المسلمين ثم أمر بقبر فحفر له وسط النهر ثم دفنه وأجرى عليه النهر فيقال إن دانيال عليه السلام فى نهر السوس والماء يجرى عليه إلى يومنا هذا والله أعلم .

قال الأستاذ رضى الله عنه — فهذا الذى ذكرت جميع أمر بختنصر الذى جاء فى التفسير إلى ان رواية من يروى أن بختنصر هو الذى غزا بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى غير صحيح عند أهل السير والأخبار والعلماء بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين وذلك انهم مجمعون على ان بختنصر إنما غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعياء وفى عهد أرمياء عليه السلام وهى الواقعة الأولى التى قال الله تعالى فيها (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار) الآية يعنى بختنصر وجنوده قالوا من عهد أرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستون سنة وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى آخر عمرانه فى عهد كربن ابن حرسو بن شير بن أصهيل ببابل من قبل بهن اسفنديار بن يستاسف سبعين سنة ثم من بعد عمرانه إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس وإحضار ملكها وضمها إلى مملكته ثمان وثمانون سنة ثم من بعد ملكه إلى بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا ثلثمائة وثلاثون سنة — وإنما الصحيح فى ذلك ماذكره محمد بن إسحق بن يسار

قال عمرت بنو إسرائيل بيت المقدس بعد ماعمرت الشام وعاد إليها ملكها بعد خراب بختنصر إياها وسبيهم منها فجعلوا يحدثون الأحداث بعد مهلك عزير

عليه السلام فبعث الله فيهم الانبياء ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتى كان آخر من بعث إليهم من انبيائهم زكريا ويحيي وعيسى عليهم السلام وكانوا من آل داود عليه السلام .

فمات زكريا وقتل يحيي بسبب نهيه الملك عن نكاح المرأة فلما رفع الله عيسى من بين ظهرهم وقتلوا يحيي بن زكريا عليهم السلام بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له (كردوس) فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما دخل عليهم أمر رئيساً من رءوس جنوده يقال له (بنورازادان) صاحب القتل فقال له إنى قد حلفت بإلهى لئن أنا ظهرت وظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى إلا ان لا أجد احداً أقتله فأمره ان يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم .

ثم إن بنورازادان دخل بيت المقدس فأقام فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيهم دماً يغلى فسألهم عنه فقالوا - هذا دم قربان قربناه فلم يقبل منا فدمك هو يغلى كما تراه

ثم قال - يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل ان لا أبقى احداً من قومك فهدأ دم يحيي بن زكريا بإذن الله تعالى ورفع بنو رازادان عنهم القتل

وهى الواقعة الأخيرة التى أنزل الله تعالى فيها قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين) الآيات فكانت الواقعة الأولى لبختنصر وجنوده ثم رد الله لهم الكرة وكانت لهم الديانة والرياسة وكانت الواقعة الأخيرة لكردوس وجنوده فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولا راية وانتقل عن الشام ونواحيها إلى الروم واليونانية إلى ان تناسل بنو إسرائيل وكثروا وانتشروا بعد ذلك وأحدثوا الاحداث واستحلوا المحارم وضيعوا الحدود فسلط عليهم بلطوس بن اسنابوس فخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله تعالى منهم الملك والرياسة وضرب عليهم الذلة فليسوا فى أمة من الأمم إلا وعليهم الصغار والذلة والجزية والملك فى غيرهم وبقى بيت المقدس خراباً إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمره المسلمون بأمره والله أعلم .

﴿ باب فى ذكر الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ﴾

قال الله تعالى (أوكالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) الآية واختلفوا فى ذلك المار من كان فقال عكرمة وقتادة والربيع بن أنس والضحاك والسدى — هو عزير بن شرحياء وقال وهب بن منبه وعبد الله بن حميد وعبيد بن عمير هو أرمياء بن خليقاء وكان من سبط هرون بن عمران وهو الخضر واختلفوا فى القرية التى مر عليها . فقال عكرمة ووهب وقتادة والربيع هى بيت المقدس وقال الضحاك هى الأرض المقدسة وقال السدى هى سلما باد وقال الكلبى هى دير ساير أباد وقيل دير هرقل وقيل هى قرية العنب وهى على فرسخين من بيت المقدس وكان السبب فى ذلك ماروى محمد بن إسحق بن يسار عن وهب بن محمد أن بختنصر لما وطىء النساء وخرب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل وسباهم طار أرمياء حتى خالط الوحوش فلما ولى بختنصر عنهم راجعاً إلى بابل ومعه سبايا بنى إسرائيل قبل أرمياء على حمار له ومعه عصير عنب فى ركوة وسلة تين حتى غشى إيلياء فلما وقف عليها وعاين خرابها قال (أن يحيى هذه الله بعد موتها) ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد وألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح مائة عام ومات حماره وعصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير عن لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة ارسل الله ملكا إلى ملك من ملوك فارس عظيم يقال له « يوشك » فقال له إن الله يأمرك أن تنفر بقومك وتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضها حتى يعودا أعمر ما كانا فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف (١) عامل وجعلوا يعمرونها وأهلك الله تعالى بختنصر ببعوضة دخلت فى دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل ولم يمت منهم جميعاً أحد ببابل وردهم الله تعالى بيت المقدس ونواحيها فعمروها ثلاثين سنه وكثروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه .

---

(١) قوم مع كل قهرمانة ثلثمائة الف الخ كذا بالاصل وهو مما لا يمكن عادة كما لا يخفى اه مصححه .

فلما مضت المائة عام على عزير أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح وسمع صوتاً من السماء ايتها العظام البالية إن الله يأمرك ان تجتمعى فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض ثم نادى ثانية إن الله يأمرك ان تكتسى لحماً وجلداً فكان كذلك ، ثم نادى إن الله يأمرك ان تحيا فقام حماره ينهض بإذن الله تعالى وعمر الله أرمياء فهو الذى يوجد فى الفلوات .

أخبرنى ابن فنجويه الحافظ بإسناده عن وهب قال : ليس فى الجنة كلب ولا حمار إلا كلب أهل الكهف وحمار أرمياء الذى اماته الله مائة عام ثم بعثه وقال الذين قالوا إن المار كان عزيراً إن بختنصر لما خرب بيت المقدس قتل أربعين الف رجل من قراءة التوراة والعلماء بها وقتل فيهم أبا عزير وجسده وكان عزير يومئذ غلاماً قد قرأ التوراة وتقدم فى العلم فأقدمه مع سبع سبايا بنى إسرائيل إلى أرض بابل وهو من ولد هرون وكان معه سبعة آلاف من أهل بيت داود فلما نجا عزير من بابل ارتحل عن حمار له حتى نزل على دير هرقل على شاطىء دجلة فطاف فى القرية فلم ير فيها احداً وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة فى سلة وفضل العصير فى زق فلما رأى خراب القرية وهلاك اهلها قال (أنى يحيى هذه القرية بعد موتها) لم يشك فى البعث ولكن قالها تعجباً ثم ربط حماره بحبل جديد ونام (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له كم لبثت (قال لبثت يوماً أو بعض يوم) وذلك ان الله تعالى أماته ضحى وأحياه آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى ان الشمس قد غربت ثم التفت فرأى بقية الشمس فقال أو بعض يوم فقال له جبريل عليه السلام - بل لبثت مائة عام (فانظر إلى طعامك) يعنى التين وشرابك يعنى عصير العنب لم يتسنه يعنى لم يتغير وانظر إلى حمارك - قال قوم وذلك ان الله تعالى لم يمت حماره فأحيا له الله تعالى رأسه وسائر جسده ميت ثم قال له انظر إلى حمارك فرأى حماره قائماً كهيئته يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرسن فى عنقه جديداً لم يتغير وهذا قول الضحاك وقتادة وتقدير الآية على هذا القول وانظر إلى حمارك

وانظر إلى عظامك كيف ننشرها وقال آخرون أراد به عظام حماره كما قدمنا ذكره فذلك قوله تعالى (ولنجعلك آية للناس) أى عبرة ودلالة على البعث بعد الموت ، وقال الضحاك : هو أنه عاد إلى قريته وأولاد أولاده فوجدهم شيوخاً وعجائز ، وهو أسود الرأس واللحية .

﴿ باب فى ذكر تمام قصة عزير عليه السلام وحاله بعد ما رجع إلى قومه ﴾

قال الله تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله) وروى عطية العوفى عن ابن عباس قال : كان عزير من أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان التابوت فيهم .

فلما رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوها وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فأرسل الله عليهم مرضاً فاستطلقت بطونهم حتى كان الرجل يمس كبده حتى نسوا التوراة وفيهم عزير فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم ، وكان عزير قد أمر علماءهم أن يدعوا الله تعالى فدعا الله هو وإياهم وابتهل أن يرد إليه ما نسخ من صدره .

فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه فعاد إليه الذى كان ذهب من صدره من التوراة فأذن فى قومه وقال : يا قوم قد آتانى الله التوراة وردها إلى فطفق يعلمهم فمكثوا ماشاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم التوراة

ثم إن التابوت نزل بعد ذلك بعد ذهابه منهم ، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله ، فقالوا والله ما أوتى عزير هذا إلا لأنه ابن الله .

قال السدى وابن عباس فى رواية عمار : إنما قالت اليهود هذا لأن العمالقة ظهروا عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهرب علماؤهم الذين بقوا ودفنوا التوراة فى الجبال وغيرها ولحق عزير بالجبال والوحوش وجعل يتعبد فى رءوس الجبال

ولا يخالط الناس ولا ينزل إلا يوم عيد ، وجعل يبكى ويقول يارب تركت بنى إسرائيل بغير عالم وجعل يبكى حتى سقطت أشفار عينيه فنزل مرة إلى العيد فلما رجع فإذا هو بامرأة قد تمثلت له عند قبر من تلك القبور وهى تبكى وتقول يا مطعماه يا مكسياه فقال لها عزير يا هذه اتقى الله واصبرى واحتسبي أما علمت أن الموت سبيل الناس .

ثم قال ويحك من كان يطعمك ويسقيك ويكسوك قبل هذا الرجل يعنى زوجها الذى كانت تندبه ؟ فقالت الله تعالى ، قال فإن الله عز وجل حى لا يموت أبداً .

قلت يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل ؟ قال الله تعالى ، قالت فلم تبكى عليهم وقد علمت أن الموت حق وأن الله حى لا يموت فلما علم عزير أنه قد خصم ولى مدبراً ، فقالت له يا عزير إنى لست امرأة ولكنى الدنيا ، أما إنه سينبع لك فى مصلاك عين وتنبت شجرة فكل من تلك الشجرة واشرب من ماء تلك واغتسل وصلى ركعتين فإنه سيأتيك شيخ ويعطيك شيئاً فما أعطاك فخذ منه .

فلما أصبح نبتت العين فى مصلاه ونبتت شجرة ففعل ما أمر به فجاء شيخ وقال له افتح فاك ففتح فاه فألقى فيه شيئاً كهيئة القوارير ثلاث مرات ثم قال له ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ أملك ، قال فدخل وجعل لا يرفع قدمه إلا زيد فى علمه فرجع وهو من أعلم الناس بالتوراة .

ثم إن رجلا قال : إن أبى حدثنى عن جدى أن التوراة جعلت فى خابية دفنت فى كرم فلان فى موضع كذا فانطلقوا معى حتى احتفروا وأخرجوا الخابية والتوراة فيها فأخذوها وقابلوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منها آية ولا حرفاً فعجبوا وقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل واحد منا بعد ما ذهبت من قلوبنا إنه إبنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله .

﴿ مجلس فى ذكر غزوة بختنصر العرب وقصة يوحنا وخراب حضور ﴾

قال الله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) إلى قوله (حصيداً خامدين) قال هشام محمد بن الكلبي وغيره كان بدء نزول العرب أرض العراق واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلا إن الله تعالى أوحى إلى يوحنا بن برخيا بن رزيابيل بن سنسبل وسنسبل هذا هو أول من اتخذ الطفيشل كان من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر وأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب ويطأ بلادهم ويقتل مقاتلهم ويستبيح أموالهم لكفرهم بى واتخاذ الآلهة دونى وتكذيبهم أنبيائى ورسلى وذلك بعد قتل أهل حضور وهى بلدة باليمن بعث الله فيهم نبياً فاقبل يوحنا حتى قدم على بختنصر ببابل فأخبره بما أوحى الله تعالى إليه وقص عليه ما أمره به وذلك فى زمن معد بن عدنان فأوحى الله تعالى إلى يوحنا إنى قد سلطت بختنصر على أهل قرية عربية لا تنقم منها فعليك بمعد ابن عدنان الذى من ولده النبى محمد ﷺ الذى أخرجه فى آخر الزمان وأختم به النبوة وارفع به من أطاعه فخرج تطوى له الأرض حتى سبق بختنصر فلقى عدنان وقد تلقاه فنظر إلى معد ولمعد يومئذ إثنتا عشرة سنة فحمله يوحنا على البراق وأردفه خلفه فانتهيا إلى أرض نجران من ساعتهما قالوا ووثب بختنصر على من كان فى بلاده من تجار العرب وكانوا يقدمون عليه بالتجارات والامتياز فجمع من ظفر به منهم فبنى لهم ديراً على نجف وحصنه ثم ضمهم فيه فقيدوا ووكل بهم حرساً وحفظة ثم نادى فى الناس بالغزو فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت إليه الطوائف منهم مسالمين مستأنسين فاستشار بختنصر فيهم يوحنا فقال إن خروجهم إليك من بلادهم قبل نهوضك إليهم رجوع منهم عما كانوا عليه فاقبل منهم وأحسن إليهم .

قال فأنزل بختنصر السواد على شاطىء الفرات والتقى بختنصر مع العرب فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر وسار حتى بلغ الحجاز والتقى عدنان فى قومه من العرب وبختنصر بذات عرق فهزمهم ونادى مناد من جوف السماء يالثارات

الأنبياء فأخذتهم السيوف من خلفهم ومن بين أيديهم فندموا على ذنوبهم ونادوا بالويل فذلك قوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أى يسرعون هاربين فأخذتهم السيوف وقالت لهم الملائكة (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم) الآية ، فلما عرفوا أنه واقع بهم أقروا بالذنوب (قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم) فما زالوا يدعون بها حتى هلكوا فذلك قوله تعالى (فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) ثم رجع بختنصر إلى بابل بما جمع من سبايا العرب فألقاهم فى الأنبار فقيل أنبار العرب وانضم إليهم المستأمنون من العرب وخلى بختنصر أهل الدير بعد فراغه من غزو العرب وابتدوا لأنفسهم بلدين فسموا إحداهما الأنبار والأخرى الحيرة وخالطهم بعد ذلك النبط ومات عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً فى حياة بختنصر فلما مات بختنصر رجع معد بن عدنان ومعه أنبياء بنى إسرائيل حتى أتى مكة فأقام أعلامها وحج الأنبياء معه .

﴿ مجلس فى ذكر لقمان الحكيم عليه السلام ﴾
(وذكر بعض مواعظه وحكمته ووصيته لإبنه)

قال الله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) يعنى العقل والعلم والعمل به والإصابة فى الأمور واختلفوا فى نسبه فقال محمد يسار هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام ، وقال وهب كان ابن أخت أيوب عليه السلام ، وقال مقاتل كان ابن خالة أيوب ، وقال الواقدى كان قاضى بنى إسرائيل ، وقال آخرون كان عبداً ، وقال مجاهد كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين .

وروى الأوزاعى عن عبد الرحمن بن حرملة قال جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد بن المسيب لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه قد كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً من سودان مصر ذا مشافر .

حدثنا الإمام أبو منصور الخشاري لفظاً بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان عبداً حبشياً نجاراً .

وأخبرني ابن فتحويه بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان خياطاً ، واتفق العلماء أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة فإنه يقول : إن لقمان كان نبياً تفرد بهذا القول .

وروى نافع عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (حقاً لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً عصمه الله تعالى كثير التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه الله فمن عليه بالحكمة) .

وذلك أنه كان قائماً نصف النهار فجاءه النداء : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ، فأجاب الصوت فقال : إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلوى وإن عزم علي فسمعاً وطاعة فإني أعلم إنه إن فعل بي أعانني وعصمني فقالت الملائكة لم يا لقمان ؟ قال لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب فأرجو أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفاً ، ومن تخير الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا تبقى له الآخرة فتعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه بها .

ثم نودي داود بعده فقبلها ولم يشترط بها ما اشترط لقمان فهم بالخطيئة غير مرة كل ذلك ويعفو الله عنه ، وكان لقمان يوازره بحكمته فقال له داود طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء ، وأعطي داود الخلافة وابتلي بالبلية والفتنة .

﴿ باب فى ذكر بعض ما روى من حكم لقمان ومواعظه المذكورة فى القرآن ﴾

قال الله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) وقال أيضاً (وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) الآيات .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين الدينورى عن عكرمة قال كان لقمان من أهون مملوك على سيده ، قال فبعثه مولاه مع رفقة له إلى بستان له ليأتوه بشىء من ثمره فجاءوا وليس معهم شىء وقد أكلوا الثمرة وأحالوا على لقمان ، فقال لمولاه إنه ذا الوجهين لا يكون عند الله أميناً فاسقنى وإياهم جميعاً ماء ثم ارسلنا لنقذفه ففعل فجعلوا يتقايئون الفاكهة وجعل لقمان يتقايا ماء نقياً فعرف صدقه من كذبهم .

قال فأول ما رؤى من حكمته أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج فأطال فيه الجلوس فناداه لقمان إن طول الجلوس على الخلاء يتجمع منه الكبد ويورث الباسور وتصعد الحرارة إلى الرأس فاجلس هويناً وقم قال فخرج وكتب حكمته على باب الحصن .

قال وسكر مولاه يوماً فخاطر أقواماً على أن يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف ما وقع فيه فدعا لقمان ثم قال له لمثل هذا اليوم كنت خبأتك قال أخرج كرسيك وأباريقك ثم اجمعهم فلما اجتمعوا قال لهم على أى شىء خاطرتمونى قالوا على ماء هذه البحيرة فقال لهم لقمان إن لها مواد فاحبسوا عنها مواد حتى يشربها قالوا وكيف نستطيع أن نحبس موادها فقال لقمان وكيف يستطيع شربها ولها مواد .

أخبرنا ابن فنجويه بإسناده عن خالد الربعى قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له سيده اذبح لنا شاة فذبح له شاة فقال ائتنى بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ، فقال له أما كان فيها شىء أطيب من هذا قال لا فسكت عنه ثم قال له اذبح لنا شاة فقال ائتنى بأخبث مضغتين منها فجاء باللسان والقلب .

فقال له أمرتك أن تأتينى بأطيبها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب وأمرتك أن تأتينى بأخبثها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب فقال له إنه ليس بأطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وأخبرني عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن عجلان قال : قال لقمان الحكيم ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس .

وأخبرنا عبد الله بإسناده عن أبي هريرة قال : مر رجل بلقمان والناس يجتمعون عليه فقال ألست العبد الأسود الذي كنت راعياً بموضع كذا وكذا ؟ قال بلى ، قال فما بلغ بك ما أرى ؟ فقال من صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني .

أخبرني الحسين بن محمد عن أبيه قال ؛ قال لقمان ضرب الوالد لولده كالماء للزرع

وعن عبد الله بن دينار أن لقمان قدم من سفره فتلقاه غلامه في الطريق فقال له ما فعل أبي ؟ قال مات ، قال الحمد لله ملكت أمري ، قال فما فعلت امرأتي ؟ قال ماتت ، قال جددت فراشي ، قال ما فعلت أختي ؟ قال ماتت ، قال سترت عورتي ، قال ما فعل أخي ؟ قال مات ، قال انقطع ظهري .

أخبرنا الحسين بن الحسن بن محمد بإسناده عن شقيق قال قيل للقمان أي الناس أشر ؟ قال الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً

وقيل للقمان ما أقبح وجهك ؟ قال تعيب بهذا على النقش أو على الناقش

وروى الحاربي عن سفيان الثوري قال ، قال لقمان لإبنه إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثيرون فلتكن سفينتك فيها تقوى الله ، وليكن حشوها إيمانك بالله ، وشراعها التوكل على الله فلعلك تنجو وما أظنك ناجياً

يا بني كيف لا يخاف الناس ما يوعدون وهم في كل يوم ينقصون ، يا بني خذ من الدنيا بلغة ولا تدخلن فيها دخولا فتضر فيها بآخرتك ، ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس وصم صياماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك عن الصلاة فإن الصلاة عند الله أعظم من الصوم ، يا بني لا تتعلم العلم لتباهي به العلماء وتماري به السفهاء أو ترائي به في المجالس ولا تترك العلم في زهادة فيه ورغبة في الجهالة

يا بني اختر المجالس على عينك فإن رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس إليهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك ويزيدك علماً وإن تكن متأهلا يعلموك ولعل

الله أن يظالهم برحمته فتعمك معهم ؛ وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس إليهم فإنك إن تكن عالماً لا ينفعهم علمك وإن تكن جاهلا يزيدوك جهلا فلعل الله يطالعهم بالعقوبة فتعمك ؛ يا بنى لا تضع برك إلا عند راعيه كما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك ليس بين البار والفاجر خلة ومن يحب المرأة يشتم ومن يدخل مداخل السوء يتهم ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ومن لا يملك لسانه يندم يا بنى كن عبداً للأخيار ولا تكن خليلا للأشرار يا بنى كن أميناً تكن غنياً ؛ ولا ترى الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك حديثهم ؛ والطف بهم فى السؤال إذا تركوك ولا تعجزهم فيملوك يا بنى لا تطلب من الأمر مدبراً ولا ترفض منه مقبلا فإن ذلك يقل الرأى ويزرى العقل ؛ يا بنى إن تأدبت صغيراً انتفعت كبيراً ؛ يا بنى إذا سافرت فلا تأمن على دابتك فإن ذلك سريع فى إدبارها وليس ذلك من فعل الحكماء إلا أن تكون فى محل يمكنك فيه التمدد وإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك وسر ثم ابدأ بعلفها قبل نفسك وإياك والسفر فى أول الليل وعليك باليقظة والإدلاج من نصف الليل إلى آخره وسافر بسيفك وخفك وعمامتك وكسائك وسقائك وإبرتك وخيوطك ومخرزك وتزود من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك وكن لأصحابك موافقاً موافياً إلا فى معصية الله يا بنى إياك والتقنع فإنه بالنهار شهوة وبالليل ريبة يا بنى لا تأمر الناس بالسير وتنسى نفسك فيكون مثلك مثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه ؛ يا بنى لا تحقرن من الأمور صغاراً إن الصغار غداً تصير كباراً يا بنى إياك والكذب فإنه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك فعند ذلك يذهب حياؤك وبهاؤك وجاهك وتهاون ولا يسمع منك إذا حدثت ولا تصدق إذا قلت ولا خير فى العيش إذا كان هكذا ؛ يا بنى إياك وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر فلا يستقيم لك على هذه الخصال صاحب ولا يزال لك من الناس عليها مجانب والزم نفسك التردد فى أمورك والصبر على مرارات الأحوال وحسن مع جميع الناس خلقك فإن من حسن خلقه أظهره بشره وبسطة حظى عند الأبرار واخيه الأخيار وجانبه الفجار ؛ يا بنى لا تعلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك

بالأحزان وإياك والطمع وارض بالقضاء واقنع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسر نفسك وتستلذ حياتك وإن أردت أن يجمع لك غنى الدنيا فاقطع طمعك عما فى أيدى الناس فإن ما بلغ الأنبياء الصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم عما فى أيدى الناس ، يا بنى إن متاع الدنيا قليل وعمرك فيها قليل من قليل وقد بقى قليل من قليل القليل ، يا بنى اجعل معروفك فى أهله ولا تضعه فى غير أهله فتخسره فى الدنيا وتحرم ثوابه فى الآخرة وكن مقتصداً ولا تكن مبذراً ، ولا تمسك المال تقتيراً ولا تعطه تبذيراً . يا بنى الزم الحكمة تكرم بها ، وأعزها تعز بها ، وسيد أخلاق الحكمة دين الله عز وجل ، يا بنى للحاسد ثلاث علامات يغتاب صاحبه إن غاب ويتملق إذا شهد ويشمت فيه بالمصيبة ، ثم خبر لقمان الحكيم وما وصى لابنه أنعم والله أعلم

﴿ مجلس فى قصة بلوقيا ﴾

أخبرنا أبو محمد بن عبد الله الخزرق بإسناده عن عبد الله بن سلام الإسرائيلى قال كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له أوشيا وكان من علمائهم وكان كثير المال وكان إماماً لبنى إسرائيل وكان قد عرف نعت النبى عليه السلام وأمته فى التوراة فخباه وكتم عنهم وكان له إبن يقال له بلوقيا خليفة أبيه فى بنى إسرائيل وكان ذلك بعد سليمان فلما مات والده أوشيا وبقى بلوقيا والإمامة والقضاء فى يده ففتش خزائن والده فوجد فيها تابوتاً من حديد مقفلا بقفل من حديد فسأل الخزان عن ذلك فقالوا لا ندرى فاحتال على القفل حتى فكه فإذا فيه صندوق من خشب الساج ففكه فإذا فيه أوراق نعت النبى ﷺ وأمته مختومة بالمسك ففكها وقرأها فيها على بنى إسرائيل ثم أنه قال الويل لك يا أبت من الله فما كتبت وكتمت عن الحق عن بنى إسرائيل فرده إلى أهله فقال بنو إسرائيل يا بلوقيا لولا إنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار فقال يا قوم لا ضير إنما اتبع حظ نفسه وخسر دينه ودنياه فالحقوا نعت النبى ﷺ وأمته بالتوراة قال وكانت أم بلوقيا من الأحياء فاستاذنها فى الخروج إلى بلاد الشام وكانوا

يومئذ ببلاد مصر فقالت له وما تصنع بالشام ؟ فقال اسأل عن محمد وأمته فلعل الله تعالى أن يرزقنى الدخول فى دينه فاذنت له فبرز بلوقيا ليدخل بلاد الشام فبينما هو يسير إذ انتهى إلى جزيرة من جزائر البحر فإذا هو بحيات كأمثال الإبل عظماً وفى الطول ما شاء الله وهن يقلن لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما رأينه قلن له أيها الخلق المخلوق من أنت وما إسمك ؟ فقال إسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل ؛ قال فقال لهم بلوقيا أيتها الحيات من أنتن ؟ فقلن نحن من حيات جهنم ونحن نعذب الكفار فيها يوم القيامة فقال بلوقيا وما تصنعن هنا ؟ وكيف تعرفن محمداً ؟ فقلن إن جهنم تفور وتزمر فى كل سنة مرتين فتلقينا إلى هنا ثم نعود إليها فشدة الحر من حرها فى الصيف وشدة البرد من بردها فى الشتاء وليس فى جهنم درك من دركاتها ولا باب من أبوابها ولا سرادق من سرادقتها إلا وقد كتب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ من أجل ذلك عرفنا محمد ﷺ

ثم مضى بلوقيا إلى بلاد الشام فأتى بيت المقدس وكان بها حبر من أحبارهم يسمى عفان الخير فأتاه فسلم عليه فقال له بلوقيا ليس هذا زمان محمد ولا زمان أمته بينك وبينه قرون وسنون ثم ساروا فى السهول والجبال حتى وصلوا إلى جبل ليس بعال ولا متدان ترابه كالمسك علية غمام أبيض وفيه كهف وفى الكهف سرير من ذهب وعلى السرير شاب مستلق على قفاه ذو وفرة واضع يده اليمنى على صدره والشمال على بطنه كالنائم وليس بنائم وهو ميت وعلى رأسه تنين وخاتمه بالشمال ؛ وكان هذا سليمان بن داود عليه السلام ؛ وكان ملكه فى خاتمه . وكان خاتمه من ذهب وفضة من ياقوت أحمر مربع مكتوب عليه أربعة أسطر فى كل سطر إسم الله الأعظم

وكان عند عفان علم من الكتاب فقال بلوقيا من هذا الميت يا عفان ؟ فقال هذا سليمان بن داود نريد أن نأخذ خاتمه ونملك ملكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمداً ﷺ فقال بلوقيا أليس قد سأل ربه فقال رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى فاعطاه إياه على ما سأل ولا ينال ملك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه .

فقال عفان يا بلوقيا اسكت إن الله معنا ومعنا إسم الله الأعظم ولكن أنت يا بلوقيا اقرأ التوراة فتقدم عفان لينزع الخاتم من يد سليمان من إصبعه فقال التنين ما أجرأك على ربك إن غلبتنا بأسماء الله تعالى فنحن نغلبك بقدرة الله تعالى

قال فكلما فتح التنين ذكر بلوقيا إسم الله تعالى فلم تعمل نفخات التنين فيهما شيئاً ودنا عفان من السرير لينزع من أصبعه الخاتم فاشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل عليه السلام من السماء فلما نزل صاح بهما صيحة ارتجت الأرض والجبال وتزلزلت منها فاختلطت مياه البحار وهاجت والتطمت حتى صار كل عذب مالحاً من شدة صيحته وسقط عفان على وجهه وسقط بلوقيا على وجهه ونفخ التنين فخرج من بطنه شعلة كأنها البرق الخاطف واحترق عفان وعادت نفخته فى البحر فامرت النفخة بشيء إلا أحرقته ولا بماء إلا سخنته وأغلته وأن بلوقيا لما رأى العذاب ذكر إسم الله الأعظم فلم يناله مكروه

ثم تراءى جبريل عليه السلام فى صورة رجل فقال له يا ابن آدم ما أجرأك على الله فقال له بلوقيا من أنت يرحمك الله ؟ فقال أنا جبريل أمين رب العالمين فقال بلوقيا يا جبريل إنما خرجت حباً لمحمد ﷺ ودينه ولم أقصد الخطا ولم أتعمده قال فبذلك نجوت

ثم صعد جبريل عليه السلام إلى السماء ومضى بلوقيا فضل الطريق الذى جاء منه وأخذ فى طريق أخرى فسار فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الورس والزعفران وأشجارها الزيتون والنخل والرمان ، فقال بلوقيا ما أشبه ذلك المكان بالجنة على ما وصفت قال فدنا بلوقيا من بعض الشجر فتناول من ثمرها فقالت الشجرة يا خاطيء يا ابن الخاطيء لا تاخذ منى شيئاً فبقى متعجباً وإذا بحذاء الشجرة قوم يتراكضون وبأيديهم سيوف مسلولة وهم يتناوشون بعضهم بعضاً بالضرب والطعن فلما رأوا بلوقيا أحاطوا به وأحدقوا من ورائه وهموا به سوءاً فذكر بلوقيا إسم الله فتعجبوا منه وهابوه وأغمدوا سيوفهم وقالوا بأجمعهم لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم قالوا له من أنت يا عبد الله ؟ فقال أنا من بنى آدم ، فقالو ما إسمك ؟ قال إسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل قالوا نعرف آدم ولا نعرف

إسرائيل فما الذى أوقعك إلينا ؟ فقال إنى خرجت فى طلب نبى يسمى محمدا ﷺ وإنى قد ضللت الطريق الذى أردته ورأيت من الأهوال كذا وكذا فقالوا يا بلوقيا نحن من الجن المؤمنين ونحن مع ملائكة الله فى السماء ، ثم نزلنا إلى الأرض وقاتلنا كفرة الجن ونحن هنا مقيمون نغزوهم ونجاهد إلى يوم القيامة ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت قصير معنا ، فقال بلوقيا لملك الجن وكان إسمه صخر ، يا صخر أخبرنى عن خلق الجن كيف كان ؟ قال ، لما خلق الله تعالى جهنم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسنة ، وخلق منها خلقين خلقاً فى سمائه سماه جبليت وخلقاً فى أرضه سماه تمليت ، فاما جبليت فإنه خلق فى صورة أسد وتمليت فى صورة ذئب وجعل الأسد ذكراً والذئب أنثى وجعل طول كل واحد منهما مسيرة خمسمائة عام وجعل ذنب الذئب بمنزلة ذنب العقرب وذنب الأسد بمنزلة ذنب الحية ، وأمرهما أن ينتفضا فى النار انتفاضة فسقط من ذنب الذئب عقرب ومن ذنب الأسد حية فحيات جهنم وعقاربها من ذلك ثم أمرهما أن يتنا كحا فحملت الذئب من الأسد فولدت سبع بنين وسبع بنات فاوحى إليهم أن يزوجو البنين من البنات كما أمر آدم فستة من البنين أطاعوا وواحد لم يطع ولم يتزوج فلعنه أبوه وهو إبليس وكان إسمه الحارث وكنيته أبو مرة فهذا أول خلق الجان يا بلوقيا وإن دوابنا لا تنبت مع الإنس ولكننى أحمل فرسى وأبرقعه حتى لا يعرف من راكبه وأركب عليه على إسم الله تعالى فإذا انتهيت إلى أقصى أعالى على ساحل بحر كذا وكذا فإذا أنت بشيخ وشاب ومشايخ معهما فإنك ستلقاهما هناك فادفع الفرس إليهما وامش فى حفظ الله رشداً

فركب بلوقيا على ذلك الفرس حتى انتهى إليهم فسلم على الشيخ والشاب ونزل عن الفرس ودفعها إليهما ، وكان قد فصل من عند ملك الجن عند الغداء وبلغ إليهما نصف النهار ، فقال له بلوقيا منذ كم فارقت الملك ؟ قال فارقته من غدوة قالا ما أسرع ما جئت قـــد أتعبت فرسنا فقال بلوقيا ما مددت إليه يداً ولا حركت عليه رجلا ولم أركضه ركضاً ، قال بلى ولكن فرسنا أحسن بك وبمنزلتك وثقلك فطار ما بين السماء والأرض ليريح نفسه منك فكم تراه جاب بك؟

قال خمس فراسخ أو أكثر قال بل جاب بك فى هذه المدة مسيرة مائة وعشرين سنة ، وكان يطير بك ما بين السماء والأرض حول الدنيا دون توقف وأنت لا تعلم

قال فخلوا عنه السرج واللجام والبراقع فإذا العرق يقطر ويسيل من كل شعرة منه وله جناحان انفضا وتكسرا من كثرة الطيران والدوران والإعياء والكلال

قال بلوقيا ، هذا والله لعجيب ، فقالوا عجائب الله لا تنقضى ، ثم سلم عليهما ومضى فركب اليم . فبينما هو يسير إذ رأى ملكا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول ، لا إله إلا الله محمد رسول الله فسلم عليه بلوقيا ، فقال له الملك ، من أنت أيها الخلق المخلوق ؟ قال أنا بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم ، ثم قال له بلوقيا أيها الملك ما إسمك ؟ قال إسمى يوحاييل وأنا ملك موكل بظلمة الليل وضوء النهار ، قال فما بال يديك مبسوطتين ؟ قال فى يدى اليمنى ضوء النهار وفى اليد اليسرى ظلمة الليل ، ولو سبق النهار الليل أضاءت السموات والأرض ، ولم يكن الليل أبداً ، ولو سبقت الظلمة النور لأظلمت السموات والأرض ، ولم يكن ضوءاً أبداً وبين يدى لوح معلق فيه سطران سطر أبيض وسطر أسود ، فإذا رأيت السواد ينقص نقصت الظلمة ، وإذا رأيت السواد يزداد زادت الظلمة ، وإذا رأيت السطر الأبيض يزداد زدت النهار ، وإذا انتقص نقصت ، فلذلك الليـــل فى الشتاء أطول من النهار ، والنهار أقصر ، وفى الصيف النهار أطول والليل أقصر

ثم سلم بلوقيا ومضى ، فإذا هو بملك آخر قائم يده اليمنى فى السماء ، واليسرى فى الأرض ، وقدماه تحت الثرى وهو يقول ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فسلم عليه بلوقيا ، فقال له الملك من أنت ، وما إسمك ؟ قال إسمى بلوقيا ، وانا من بنى إسرائيل ، وإسرائيل من ولد آدم

ثم أن بلوقيا قال أيها الملك ما إسمك ؟ قال مخاييل قال فما بالى أرى يمينك فى السماء وشمالك فى الماء ، قال أحبس الريح بيمينى والماء بشمالى ولو رفعت شمالى عن الماء لزخرت البحار كلها فى ساعة واحـــدة وتلاطمت بإذن الله وأغرقت الدنيا ومن عليها ، ويدى فى الهواء أحبس الريح عن ولد آدم لأن فى السماء

ريحاً تسمى الهائمة ولو أرسلتها لنسفت من فى السماء ومن فى الأرض ، قال فسلم بلوقيا ومضى فإذا هو بأربعة من الملائكة أحدهم رأسه كرأس الثور ؛ والآخر رأسه كرأس النسر ؛ والثالث رأسه كرأس الأسد ؛ والرابع رأسه كرأس الانسان

فأما الملك الذى رأسه كرأس الثـــور ؛ فإنه يقول ، اللهم ارحم البهائم ولا تعذبها ، وادفع عنها برد الشتاء ، وحر الصيف ، واجعل فى قلوب بنى آدم لها الرأفة والرحمة كيلا يكيدوهن ولا يكلفوهن فوق طاقتهن ، واجعلنى من أهل شفاعة سيدنا محمد ﷺ يوم القيامة

وأما الذى رأسه كرأس النسر فيقول . اللهم ارحم الطيور وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة

وأما الذى رأسه كرأس الانسان فانه يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ اللهم ارحم المسلمين ولا تعذبهم ، وادفع عنهم النار ؛ واجعلنى من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة

فسلم عليهم بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى جزيرة فاذا هو بغلام أبيض أمرد بين قبرين فسلم عليه بلوقيا وقال له يا شاب من أنت ؟ وما إسمك ؟

قال إسمى صالح ، قال فما هذان القبران ؟ قال ، أحدهما قبر أبى والآخر قبر أمى ، وكانا صالحين فماتا ههنا وأنا عند قبرهما حتى أموت ، فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى جزيرة أخرى فاذا هو بشجرة عظيمة عليها طائر واقف رأسه من ذهب وعيناه من ياقوت ، ومنقاره من لؤلؤ ، ويداه من زعفران ، وقوائمه من زمرد ؛ وإذا مائدة موضوعة تحت الشجرة وعليها طعام وحوت مشوى ؛ فسلم عليه بلوقيا ؛ فرد الطائر عليه السلام ؛ فقال له بلوقيا ؛ من أنت أيها الطائر ؟

قال أنا من طيور الجنة ، وأن الله تعالى قد بعثنى إلى آدم بهذه المائدة لما أهبط من الجنة ، وإن كنت معه حين لقى حواء ، وأباح الله له الأكل ، وأنا هنا من لدن ذلك الوقت ، فكل غريب وعابر سبيل من عباد الله الصالحين يمر بها يأكل منها ، وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة .

فقال بلوقيا ، ولا تتغير ولا تنقص ، فقال طعام الجنة لا يتغير ولا ينقص .

قال بلوقيا ، أفآكل منها ؟ قال كل فأكل حاجته ، ثم قال له أيها الطائر ، وهل معك أحد ؟ فقال معى أبو العباس يأتينى أحياناً ؛ قال ومن أبو العباس ؟ قال ، الخضر عليه السلام .

فلما ذكر الخضر إذا به أقبل ، وعليه ثياب بيض ، فما خطى خطوة إلا نبت الحشيش تحت قدميه .

قال فسلم على بلوقيا وسأله عن حاله ، فقال بلوقيـــا ؛ طالت غيبتى ، وأريد الرجوع إلى أمى ، فقال الخضر بينك وبين أمك مسيرة خمسمائة عام ، وأنا أردك إليها فى مسيرة خمسمائة شهر ؛ فقال الطائر ، إذا كان بينك وبينها مسيرة خمسمائة سنة ، فأنا أردك إليها فى مسيرة خمسمائة يوم .

فقال الخضر عليه السلام ، فأنا أردك إليها فى ساعة واحدة ، ثم قال غمض عينيك ؛ فغمضها ، ثم قال له افتح عينيك ففتحها ؛ فإذا هو جالس عند أمه ، فسألها من جاء بى إليك ؟ قالت طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض ، فوضعك أمامى .

ثم أن بلوقيا حدث بنى إسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار ، فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هذا ، فهذا ما كان من حديث بلوقيا ، وما رأى من العجائب فى البحر والبر سهلا وجبلا والله أعلم .

(مجلس فى ذكر قصة ذى القرنين عليه السلام)

قال الله تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً) .

(باب فى نسبه ولقبه)

قال أكثر أهل السير : هو الإسكندر بن فيليش بن بطريوش بن هرمس ابن هردوس بن منطون بن رومى بن لطين بن يونان بن يافث ، ويقال نسبه ينتهى إلى العيص بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وزعم بعض القدماء أن الإسكندر هو أخو دار بن دارا ، وذلك أن دارا الأكبر بن بهن ابن اسفنديار بن يستاسف كان زوج أم اسكندر ؛ وكانت بنت ملك الروم ، وكان إسمها ملانة ، وإنها حملت إلى زوجها دارا الأكبر فوجد منها رائحة كريهة فأمر أن يحتال فى زوال ذلك منها ؛ فاجتمع رأى أهل المعرفة فى مداواتها على شجرة يقال لها سندروس فطبخت لهـــا وغسلت بمائها فأذهب ذلك كثيراً من نتنها ومن عرقها ، ولم يذهب ذلك كله فانتهت نفسه عنها لبقية نتنها ، وعافها فردها على أهلها ، وقد علقت منه فولدت له فى أهلها غلاماً ، فسمته باسمه ، وإسم الشجرة التى غسلت بمائها اسكندروس ؛ فهذا أصل إسمه ؛ ثم خففت ، فقيل اسكندر ، وكنى بذى القرنين .

واختلفوا فى سبب تسميته بذلك ، فقال بعضهم سمى بذلك لأنه ملك الروم وفارس وقيل لأنه فى مقدم رأسه شبه القرنين من لحم ؛ وقيل لأنه رأى فى المنام كأنه أخذ بقرنى الشمس ؛ وكان تأويل رؤياه أنه يطوف المشرق والمغرب ؛ وقيل لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن ، ثم دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر ، وقيل لأنه كان له ذؤابان حسنتان ؛ والذؤابة تسمى قرناً . وقيل لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه ؛ وقيل لأنه كان انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى ، وقيل لأنه كان إذا حارب قاتل بيديه وركابه جميعاً ، وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل لأنه دخل النور والظلمة ، والله أعلم .

(باب فى قصة ذكر أمره وسبب استكمال ملكه)

قال الله تعالى (إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً فاتبع سبباً) وقال قوم كان فيلبس اليونانى أبو الإسكندر ملك اليونانيين فلما مات ملك بعده الاسكندر ، وقال آخرون ان الاسكندر أخو دارا الأصغر وكان أبو هلانة جد الاسكندر لأمه ملكاً من ملوك الروم فلما مات صار الملك لابن بنته الاسكندر وكان ملوك الروم يؤدون الإتاوة جميعاً إلى ملوك الفرس ، وكانت الإتاوة التى كان أبو الاسكندر يؤديها إلى ملوك الفرس بيضة من ذهب

فلما ملك الاسكندر وكان رجلا ذا عزيمة وقوة وملك غزا ملوك الروم فقهرهم واستجمع له ملك الروم ، ثم غزا بعض ملوك العرب فظفر بهم فأنس بذلك من نفسه القوة فاستعصى على دارا الأصغر ملك فارس فامتنع عن حمل ما كان ابوه يحمله إليه من الخراج والإتاوة عن نفسه وعن ملك الروم فكتب إليه دارا ابن دارا بقصة الخراج والإتاوة عن نفسه وعن ملك الروم فأجابه الاسكندر إنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض ذلك البيض وأكلت لحمها

فلما وصل إليه الكتاب بذلك سخط عليه وكتب إليه يؤنبه بسوء صنيعه فى امتناعه عن حمل الخراج إليه وبعث إليه بصولجان وكرة وقفيزى سمسم ، وأعلمه فيما كتب به إليه أنك صبى وينبغى لك ان تلعب بالصولجان والكرة التى بعثت بهما إليك ولا تتقلد الملك ولا تتلبس به ، ولا تستعصى وإلا بعثت إليك من يأتى بك فى وثاق ولو كانت جنودك بعدد السمسم الذى بعثت به إليك

فبعث إليه الاسكندر فى جواب ذلك ، إنى قد فهمت ما كتبت وقد نظرت ما ذكرت فى كتابك من إرسال الصولجان والكرة وضمت الكرة إلى الصولجان وشبهت الكرة بأرض وإنى محتو على ملكك وأضيفه إلى ملكى وأضيف بلادك

إلى بلادى وانى نظرت إلى السمسم الذى بعثته إلى كنظرى إلى الصولجان والكرة وبعث إن دارا مع كتابه صرة من خردل وأعلمه فى الجواب وإنما بعثت اليك بذلك لأن جنودى مثل ذلك

فلما وصل إلى دارا بن دارا جواب الاسكندر جمع جنوده وتأهب لمحاربة الاسكندر ، وان الاسكندر ايضاً تأهب للقائه ، ونادى فى عسكره بالرحيل ؛ وسار نحو بلاد دارا ، فالتقيا بناحية خراسان مما يلى الخزر ، واقتتلا أشد القتال وصارت الدائرة على جند دارا ، فعرض له فارسان من قرابته وأهل بيته وثقته ؛ وقيل ان أحدهما كان صنيعته ، فطعناه فأردناه من مركبه ، وأراد يطعنهما إياه الحظوة عند الاسكندر والوسيلة اليه ؛ وان الاسكندر نادى أن يؤخذ دار أسيرا ولا يقتل

فاخبر بشان دار فاسرع حتى وقف عليه ؛ فرآه يجود بنفسه ، فنزل اليه وجلس عند رأسه ، وأخبره انه لم يهم قط بقتله ؛ وان الذى أصابه لم يكن قط برأيه وإنما غدر به ثقاته

ثم قال له سلنى عما بدا لك فاسعفك به فقال له دارا أن لى اليك حاجتين أحداهما ان تنتقم لى من الرجلين اللذين فتكابى ، وسماهما وبلادهما ؛ والثانية أن تتزوج ابنتى روشنك فاجابه إلى الحاجتين . وأمر بصلب الرجلين ، وان ينادى عليهما . هذا جزاء من اجترأ على ملكه وغش اهل بلده ، وتزوج ابنته ، وكان ملك دارا اربع عشرة سنة

فلما قتل اجتمع ملك الروم ، وكان قبل الاسكندر متفرقاً ، وتفرق ملك فارس ؛ وكان قبل الاسكندر مجتمعاً

﴿ باب فى ذكر الحوادث التى كانت فى أيام ذى القرنين بعد قتل دارا ﴾
(ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق)

قالت العلماء بأخبار القدماء ، لما قتل الاسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد فهدم ما كان فى بلاد الفرس من بيوت النيران وما كان بأرض الهند من بيوت الأوثان وقتل الموابذة وحرق كتبهم ودعا الناس إلى الإسلام والتوحيد .

قال المرتضى فى سبب إحراق كتبهم ، إن المجوس جعلوا حروف كتبهم من الذهب المضرب بمسامير الذهب على جلود النيران فبلغ عددها إثنى عشر ألفا فأحرقوها لحصول ذلك الذهب وبنى اثنتى عشرة مدينة منها ثلاث مدائن بخراسان هراه ومرور وسمرقند ومدينة بارض أصفهان بنيت على مثال الجنة ومدينة بارض اليونان يقال لها هيلاقوس ومدينة بارض بابل لزوجته روشنك بنت دارا ومدينة الاسكندرية ثم انه رأى فى منامه انه أخذ بقرنى الشمس ورأى فى منامه انه يسير إلى آفاق الأرض شرقاً وغرباً .

واختلف العلماء فى نبوته فروى عن النبى ﷺ انه قال « لا أدرى أكان ذو القرنين نبياً أم لا » . فلو صح الحدث لكان الخوض فى هذه المسئلة تكلفاً ثم اختلفوا بعد فيه فقال قوم لم يكن نبياً وإنما كان عبداً صالحاً وملكا عادلا فاضلا وقال آخرون بل كان نبيا غير مرسل . والصحيح ان شاء الله انه كان نبيا غير مرسل لما روى وهب وغيره من أهل الكتب قالوا كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان إسمه الاسكندر ويقال كان اسمه عياساً وكان عبداً صالحا .

فلما استحكم ملكه واجتمع امره أوحى الله تعالى اليه ياذا القرنين أنى قد بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقين وجعلتك حجتى عليهم وهذا تاويل رؤياك وأنى باعثك إلى أمم الارض كلهم وهم سبع أمم مختلفة ألسنتهم ، منهم أمتان بينهما عرض

الأرض وأمتان بينهما طول الأرض وثلاث أمم فى وسط الأرض وهم الإنس والجن ويأجوج ومأجوج فأما الأمتان اللتان بينهما طول الأرض فامة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك وأمة أخرى بحيالها يقال لها منسك عند مطلع الشمس واما الأمتان التى بينهما عرض الأرض فامة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل والأخرى بحيالها فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل فلما قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين إلهى إنك قد ندبتنى إلى أمر عظيم لا يقدر عليه إلا أنت فاخبرنى عن هذه الأمم التى قد بعثتنى اليها باى قوة أكابرهم وباى جمع وحيلة أكاثرهم وباى صبر أقاسيهم وباى لسان أناطقهم وكيف لى بان أفقه لغاتهم وباى سمع اسمع أقوالهم وباى بصر انقدهم وباى حجة اخاصمهم وباى عقل أعقل عنهم وباى قلب وحكمة أدبر أمرهم ، وباى قسط اعدل بينهم وباى حلم أصابرهم وباى معرفة أفصل بينهم وباى علم أتقن أمورهم وباى يد أسطو عليهم وباى رجل أطؤهم وباى طاقة احصيهم وباى جند اقاتلهم وباى رفق اؤلفهم وليس عندى يا إلهى شىء مما ذكرت يقوم لهم ويقوينى عليهم وانت الرءوف الرحيم لا تكلف نفساً إلا وسعها ولا تحملها فوق طاقتها ولا تشقيها بل انت ترحمها .

قال الله تعالى . ساطوقك ما حملتك واشرح لك سمعك وصدرك فتسمع وتعى كل شىء واشرح لك فهمك فتفقه كل شىء وابسط لك لسانك فتنطق بكل شىء وافتح لك بصرك فتنقد كل شىء واحصى لك قوتك فلا يفوتك شىء واشد لك عضدك فلا يهولنك شىء واشد لك ركنك فلا يغلبنك شىء واشد لك قلبك فلا يفزعنك شىء واشد لك يديك فتسطو على كل شىء واشد لك وطأتك فتهلك كل شىء والبسك الهيبة فلا يروعنك شىء واسخر لك النور والظلمة واجعلهما جنداً من جنودك يهديك النور من امامك وتحوط بك الظلمة من ورائك .

فلما قيل له ذلك حدثته نفسه بالمسير والح عليه قومه بالمقام فلم يفعل وقال لابد من طاعة الله تعالى ثم امرهم ان يبنوا له مسجداً وان يجعلوا طول المسجد

اربعمائة ذراع وعرضه مائتى ذراع وعرض اساس حائطه اربعة وعشرون ذراعاً وطوله فى السماء مائة ذراع وأمرهم ان ينصبوا فيه السوارى .

قالوا كيف نصنع ؟ قال إذا فرغتم من شان الحيطان فاكبسوها بالتراب حتى يستوى الكبس مع حائط المسجد فإذا فرغتم فرضتم من الذهب على الموسر قدره وعلى المقتر قدره وقطعتموه مثل قلامة الظفر ثم خلطتموه بذلك الكبس وجعلتم خشباً من نحاس ووتداً من نحاس وصفائح من نحاس تذيبون ذلك وأنتم ممكنون من العمل كيف شئتم على أرض مستوية وجعلتم طول كل خشبة مائة ذراع وأربعة وعشرين ذراع ومائتى ذراع فيما بين الحيطان لكل حائط اثنا عشر ذراعا ثم تدعون المساكين لنقل التراب فيسارعون اليه لما فيه من الذهب والفضة فمن حمل شيئاً فهو له ففعلوا ذلك فاخرج المساكين ذلك التراب واستقر السقف بما عليه واستغنى المساكين

فكان جندهم أربعين الفا فجعلهم أربعة أجناد فى كل جند عشره آلاف ثم عرض جنده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف منهم من جنده ثمانمائة ألف ومن جند دارا ستمائة الف ومن المساكين أربعون الفاً ، ثم انطلق يؤم الأمة التى عند مغرب الشمس فذلك قوله تعالى (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى ذات حمأ : ومن قرأ حامية بالف من غير همزة فمعناه حاره .

أخبرنا عبد الله بن حامد الاصفهانى بإسناده عن ابن عباس قال اقرأنيها أبى ابن كعب كما أقرأه رسول الله ﷺ فى عين حمئة

وقال ابن عباس كنت جالسا عند معاوية إذ قرأ هذه الآية وجدها تغرب فى عين حامية فقلت وما نقرؤها إلا حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرؤها قال اقرؤها كما قرأتها يا امير المؤمنين قال ابن عباس فاطلت الجدال معها فارسل معاوية إلى كعب فجاءه فقال له أين تجد الشمس تغرب فى التوراة يا كعب ؟

قال : أما العربية فانتم اعلم بها منى ، وأما الشمس فإنى أجدها فى التوراة تغرب فى ماء وطين ، وأنشدك ما تزداد به تبصراً وهو قول تبع :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها فى ذى خلب وثأط حرمد

قال معاوية وما الخلب يا كعب ؟ فقلت الطين بكلامهم قال فما الثأط ؟ قلت الحمأة قال وما الحرمد ؟ قلت الأسود فدعا رجلا فقال اكتب مايقول .

فلما بلغ مغرب الشمس وجد عندها جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا الله تعالى وقوة وبأساً لا يطيقه إلا الله تعالى ورأى السنة مختلفة وأهواء مشتبهة فذلك قوله تعالى (وجد عندها قوماً) يعنى ناساً فلما رأى ذلك كاثرهم بالظلمة فضرب حولهم ثلاث عساكر منها فاحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم فى مكان واحد ثم أخذ عليهم بالنور ودعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه فعمد إلى الذين تولوا عنه فادخل عليهم الظلمة فدخلت فى أفواههم وانوفهم وآذانهم وأجوافهم ودخلت فى بيوتهم ودورهم وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب فلما خوفوا صاحوا وتحيروا فلما أشفقوا ان يهلكوا ضجوا بصوت واحد فكشفها عنهم وأخذهم عنوة فدخلوا فى دعوته فجاء من اهل المغرب أمم عظيمة فجعلهم جنداً واحداً ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم من خلفهم وتحرسهم والنور أمامه يقوده ويدله وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى وهو يريد الأمة التى فى قطر الأرض اليمين يقال لها هاويل ؛ وسخر الله له قلبه ويده ورأيه وعقله ونظره فلا يخطىء إذا عمل عملا فانطلق يقود تلك الامم وهى تتبعه حتى إذا انتهى إلى بحر او مخاضة هيأ سفناً من ألواح صغار مثل النعال فيحملها فى ساعة ثم يحمل فيها جميع ما معه من تلك الأمم تلك الجنود وإذا بلغ البحار والأنهار فتقها ثم يدفع إلى كل رجل منهم لوحاً فلا يكترث بحمله فلم يزل كذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل

ففعل فيها كفعله فى ناسك فلما فرغ منها مضى على وجهه فى ناحية الأرض اليمنى، حتى انتهى إلى منسك عند طلوع الشمس وجدها تطلع على قوم ففعل فيها وجند فيها جنوداً كفعله فى الأمتين اللتين قبلها ثم كر مقبلا حتى أتى ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تأويل وهى الأمة التى بحيال هاويل وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كله فلما بلغها عمل فيها وجند جنوداً كفعله فيما قبلها فذلك قوله تعالى (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) وذلك أنهم كانوا فى مكان لا يستقر عليه بناء وكانوا يسكنون فى أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم والله أعلم .

﴿ باب فى صفة سد ذى القرنين وما يتعلق به ﴾

قال الله تعالى (حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا) .

قالت العلماء بأخبار القدماء : لما فرغ ذو القرنين من أمر الأمم الذين هم فى أطراف الأرض ، وطاف المشرق والمغرب عطف منها على الأمم التى فى وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج ومأجوج فلما كان فى بعض الطريق مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : ياذا القرنين أن بين هذين الجبلين خلقاً من خلق الله ليس فيهم مشابهة من الإنس وهم أشباه البهائم يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب وكل ذى روح مما خلق الله فى الأرض وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم . فإن أنت اطلعت على ماينمو من نمائهم وزيادتهم فلا تشك أنهم سيملأون الأرض ويخرجون أهلها منها ويظهرون عليها ويفسدون فيها وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقع أن يطلع علينا أولهم من بين هذين الجبلين فهل نجعل لك خرجا أى جعلا وأجراً على أن تجعل

بيننا وبينهم سداً حاجزا فلا يصلون إلينا ، فقال لهم ذو القرنين ما مكنى فيه ربى أى قوانى عليه خير من خراجكم فاعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما حاجزا كالحائط .

قالوا وما تلك القوة ؟ قال فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة ، قالوا وما تلك الآلة ؟ قال آتونى زبر الحديد أى قطعة واحدتها زبرة وآتونى النحاس فقالوا من أين لنا من الحديد والنحاس ما يسع هذا العمل ، قال سأدلكم على معادنهما قالوا فبأى قوة تقطع الحديد والنحاس فاستخرج لهم معدنا يقال له السامون وهو أشد ما خلق الله فى الأرض بياضا وهو الذى قطع به سليمان أساطين بيت المقدس وصخوره وجواهره .

ثم أنه قاس ما بين الجبلين ثم أوقد على ما جمع من الحديد والنحاس والنار وصنع منها زبرا مثل الصخور العظام ثم أذاب النحاس فجعله كالطين والملاط لتلك الصخور التى هى من الحديد ثم بنى وكيفية بنائه على ما ذكر أهل السير أنه لما قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة فرسخ .

فلما انشأ فى عمله حفر له الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخ ثم وضع الحطب بين الجبلين ثم نسج عليه الحديد ثم نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب حتى ساوى بين الصدفين وهما الجبلان ثم أمر بالنار فارسلت فيه ، قال انفخوا حتى جعل يفرغ القطر فيه وهو النحاس المذاب فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس فصار كأنه برد حبرة من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد وغبرته ، فصار سدا طويلا عظيما حصينا قال الله تعالى (فما استطاعوا ان يظهروه) أى يعلوه ، وما استطاعوا له نقبا .

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال يانبى الله قد رأيت سد ياجوج وماجوج قال انعته لى ، قال كالبرد الحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء فقال له قد رأيته

ويقال أن موضع السد وراء الخزرد بقرب مشرق الأرض بينه وبين الخزرد مسيرة إثنين وسبعين يوماً .

وذكر أن الواثق بالله أمير المؤمنين رأى فى المنام ان السد مفتوح فوجه سلاماً الترجمان فى خمسين رجلا وأعطاه خمسة آلاف دينار وأعطى كل رجل من الخمسين خمسين الف درهم ورزق سنة ، اعطاه مائتى بغلة تحمل الزاد والماء وخرج من سر من رأى بكتاب الواثق بالله إسحق بن إسماعيل صاحب أرمينية وكان بتفليس وكتب له إسحق إلى صاحب السرير وكتب له صاحب السرير إلى ملك اللان وكتب له ملك اللان إلى الأزالى طلجند فى بلاد شاه ملك الخزر .

فأقام عنده حتى أخذ معه خمسين رجلا أدلاء فساروا خمسة وعشرين يوماً حتى انتهوا إلى أرض سوداء منتنة الريح ، وكانو قد حملوا معهم شيئاً يشمونه من الرائحة الزكية ، فساروا تسعة وعشرين يوماً ثم سألوا عن سبب نتن الريح ما هو فقالوا مات هينا قوم .

ثم ساروا فى مدن خراب عشرين يوما فساروا عن تلك المدن فقالوا قد ظهر فيها يأجوج ومأجوج فخربوها .

ثم ساروا إلى حصون بالقرب من الجبل يتكلمون بالعربية والفارسية يقرءون القرآن ولهم مكاتب ومساجد فقالوا لنا من هؤلاء القوم ، قلنا رسل أمير المؤمنين فقالوا وما هو أمير المؤمنين قلنا من أولاد العباس ملك بالعراق فتعجبوا منه وقالوا : شيخ أو شاب وزعموا انهم لم يبلغهم خبره

ثم فارقوهم وساروا إلى جبل أملس ليس عليه خضرة وإذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا وعضادتاه مبنيتان مقابلتا الجبل وعرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا مبنية بلبن من حديد مركبة فى نحاس فى سمك

خمسين ذراعا وإذا وتد من حديد طرفاه على عضادتين طوله مائة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين علو كل واحد مقدار عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع فوق ذلك اللبن الحديد المغيب فى النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر ؛ وفوق ذلك شرف من حديد فى طرف كل شرافة قرنان مبنى بعضها إلى بعض منظومة كل واحدة فى صاحبتها فإذا باب له مصراعان منصوبان من حديد عرض كل باب خمسون ذراعا فى ارتفاع خمسين ذراعا قائمتاهما فى دورهما على قدر الدربند

وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ ذراع وارتفاع القفل من الأرض خمسة وخمسون ذراعا وفوق القفل مقدار خمسة أذرع غلق وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف معلق فى سلسلة طولها ثمانية أذرع فى استدارة أربعة أشبار والحلقة التى فى السلسله مثل حلقة المنجنيق وعرض عتبة الباب عشرة أذرع فى طوله مائة ذراع سوى ما فى العضادتين والظاهر منها خمسة أذرع ، وهذا كله بذراع السواد ورئيس تلك الحصون يركب كل جمعة فى عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد وزن كل واحد خمسون منا فيضرب القفل بالمرزبات كل يوم ثلاث ضربات ليسمع من وراء الباب الصوت فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا فى البـــــاب حدثا فإذا ضربوا أصغوا إليه آذانهم فيسمعون من داخل دويا

وبالقرب من هذا الجبل حصن كبير عظيم عشرة فراسخ فى مسيرة مائة فرسخ لأنها عشرة فى عشرة ومع الباب حصنان طول كل واحد منها مائتا ذراع فى مائتى ذراع وعلى باب هذين الحصنين شجرتان وبين الحصنين ماء عين عذب فى أحد الحصنين آلة البناء التى بها السد من قدور الحديد ومغارف من حديد وهناك بعض اللبن من الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدأ واللبنة ذراع ونصف فى عرض شبر

وسألنا هل وراء ذلك أحد من أهل ياجوج وماجوج ، فذكروا أنهم رأوا منهم عدة فوق الشرف فهبت ريح سوداء فالقتهم إلى جانبهم وكان مقدار الرجل في رأى العين شبراً ونصفاً

قال فلما انصرفنا أخذ بنا الأدلاء على نواحى خراسان فعدلنا إليها فوقعنا إلى القرب من سمرقند على سبعة فراسخ وكان أصحاب الحصن ثم زودناهم الطعام

ثم سرنا إلى عبد الله بن طاهر فوصلنا بمائة ألف درهم ووصل كل رجل كان معى بخمسمائة درهم ، وأجرى على كل فارس خمسة دراهم وعلى كل راجل ثلاثة دراهم كل يوم حتى صرنا إلى الرى ورجعنا إلى سر من رأى بعد ثمانية وعشرين شهرا والله أعلم .

﴿ باب فى دخول ذى القرنين الظلمات مما يلى القطب الشمالى لطلب عين الحياة ﴾

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال ، كان ذوالقرنين قد ملك ما بين المشرق والمغرب وكان له خليل من الملائكة إسمه رفائيل يأتيه ويزوره ، فبينما هما ذات يوم يتحدثان إذ قال له ذو القرنين يا رفائيل حدثنى عن عبادتكم فى السماء فبكى وقال ياذا القرنين وما عبادتكم عند عبادتنا إذ فى السماء من الملائكة من هو قائم لا يجلس أبدا ، ومن هو ساجد لا يرفع رأسه أبدا ، ومن هو راكع لا يستوى قائما أبدا يقول سبحان القدوس رب الملائكة والروح ربنا ماعبدناك حق عبادتك ، فبكى ذو القرنين بكاء شديدا ، ثم قال إنى أحب أن أعيش فابلغ من عبادة ربى حق عبادته . فقال رفائيل أو تحب ذلك ياذا القرنين ، قال نعم

قال رفائيل فإن لله عيناً فى الأرض تسمى عين الحياة فا من الله عز وجل أن من يشرب منها شربة لا يموت أبدا حتى يكون هو الذى يسأل ربه الموت ، فقال له ذو القرنين هل تعلمون أنتم موضع تلك العين ، فقال لا غير أنا نتحدث فى

السماء أن لله فى الأرض ظلمة لايطؤها إنس ولا جان فنحن نظن أن تلك العين فى تلك الظلمة فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة فقال لهم أخبرونى هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله تعالى وما جاءكم من الأحاديث وسالتم من كان قبلكم من العلماء أن الله وضع فى الأرض عينا سماها عين الحياة ، فقالت العلماء لا ، فقال عالم من العلماء إنى قرأت وصية آدم عليه السلام فوجدت فيها أن الله خلق فى الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان ووضع فيها عين الخلد .

فقال ذو القرنين أين وجدتها قال وجدتها فى الأرض التى على قرن الشمس فبعث الله إليها ذو القرنين وحشد إليها الفقهاء والأشراف من الناس والملوك ، وصار يطلب مغرب الشمس فسار إثنتى عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظلمة فإذا هى مثل الدخان وليست كظلمة الليل فعسكر هناك ثم جمع علماء عسكره ، فقال إنى أريد ان أسالكم عن هذه الظلمة فقالت العلماء أيها الملك إن من كان قبلك من الملوك والأنبياء لم يطئوا هذه الأرض فلا تطأها فإنا نخاف ان ينفتح عليك أمر تكرهه ويكون فيه فساد الأرض ومن عليها ، فقال لابد من أن أسلكها فقالوا أيها الملك كف عن هذه الظلمة ولا تطلبها فإنا لو نعلم أنك طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط الله علينا لاتبعناك ولكنا نخاف من الله تعالى فسادا فى الأرض ومن عليها

فقال ذو القرنين لابد من ان أسلكها فقالت العلماء شانك بهما فقال ذو القرنين أى الدواب بالليل أبصر قالوا الخيل قال وأى الخيل بالليل أبصر ، قال الإناث قال وأى الإناث أبصر قالوا البكارى

قال فارسل ذو القرنين فجمع له ستة آلاف فرس أنثى أبكارا ثم انتخب من عسكره أهل القوى والجلد ستة آلاف رجل فدفع لكل رجل منهم فرساً وعقد

راية الخضر عليه السلام وجعل مقدمته ألفين وبقى ذو القرنين فى أربعة آلاف رجل وقال ذو القرنين لبقية عسكره لاتبرحوا من معسكركم هذا إلى اثنتى عشرة سنة فإن نحن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى دياركم فقال الخضر أيها الملك إنا نسلك الظلمة ولا ندرى كم السير فيها ولا يبصر بعضنا بعضا وكيف نصنع بالضلال إذا أصابنا : فدفع ذو القرنين إلى الخضر خرزة حمراء وقال له حيث يصيبكم الضلال فاطرح هذه فى الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها بأهل الضلال أين صاحت .

قال فسار الخضر بين يدى ذى القرنين يرتحل الخضر ويحط ذو القرنين .

فبينما الخضر عليه السلام يسير إذا عرض له واد فظن الخضر أن العين فى الوادى وألقى فى قلبه ذلك ، فقام على شفير الوادى ومكث طويلا ثم أجابته الخرزة فطلب صوتها فانتهى إليها فإذا هى على جانب العين فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين فإذاماؤها أشد بياضا من اللبن وأحلى من الشهد فشرب واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه ثم أنه رمى الخرزة نحو أصحابه فوقعت وصاحت فرجع الخضر إلى صوتها وإلى أصحابه فركب وقال لأصحابه سيروا على إسم الله .

وإن ذا القرنين مر فأخطأ الوادى فسلكوا تلك الظلمة فى أربعين يوما ثم إنهم خرجوا إلى ضوء ليس كضوء شمس ولا قمر والأرض حمراء رملة خشخاشية فإذا هم بقصر مبنى فى تلك الأرض طوله فرسخ فى فرسخ عليه باب فنزل ذو القرنين بعسكره ثم إنه خرج وحده حتى دخل القصر فإذا حديدة قد وضعا طرفاها على جانب القصر من ههنا وإذا طائر أسود يشبه الخطاف مزموما بأنفه إلى الحديد معلقا بين السماء والارض فلما سمع الطائر خشخشة ذى القرنين قال من هذا ، قال أنا ذو القرنين ، فقال الطائر ياذا القرنين ما كفاك ماوراءى حتى وصلت إلى .

ثم قال ياذا القرنين حدثنى فقال سل ، فقل هل كثر بناء الجص والآجر فى الأرض ؟ قال نعم فانتفض الطائر انتفاضة ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديدة ثم قال يا ذا القرنين هل كثرت شهادة الزور فى الأرض ؟ قال نعم فانتفض الطائر ثم انتفخ حتى ملأ الحديدة وسد مابين جدران القصر بحيث رأى ذو القرنين ذلك ففزق فزقاً شديداً ، فقال الطائر لاتخف حدثنى، قال سل قال أهل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله بعد ؟ قال فانضم الطائر إلى ثلثه ، ثم قال ياذا القرنين هل ترك الناس غسل الجنابة بعد ؟ قال لا . فعاد الطائر كما كان ثم ياذا القرنين أسلك هذه الدرج درجة درجة إلى أعلى القصر فسلكها ذو القرنين وهو خائف . جعل لايدرى على مايهجم حتى استوى على صدر الدرج فإذا سطح ممدود عليه صورة رجل شاب قائم وعليه ثياب بيض رافعاً وجهه إلى السماء واضعاً يده على فيه ، فلما سمع خشخشة ذى القرنين قال من هذا ؟ قال أنا ذو القرنين . قال ياذا القرنين إن الساعة قد قربت وأنى منتظر أمر ربى يأمرنى أن أنفخ فى الصور .

ثم أن صاحب الصور أخذ شيئاً من بين يديه كأنه حجر فقال ياذا القرنين خذ هذا فإن شبع هذا شبعت وإن جاع هذا جعت فأخذ ذو القرنين الحجر ونزل حتى أتى إلى أصحابه فحدثهم بأمر الطائر وما قاله وما أورد عليه وما قال له صاحب الصور ثم عمل على جمع عسكره ، وقال أخبرونى ما هذا الحجر وما أمره ؟ فقالوا أيها الملك أخبرنا ما قال لك صاحب الصور . فقال ذو القرنين أنه قال : إن شبع هذا شبعت ، وإن جاع جعت ، فوضعت العلماء ذلك الحجر فى كفة الميزان وأخذوا حجراً مثله ووضعوه فى الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فإذا الذى جاء به ذو القرنين أثقل فوضعوا معه آخر ورفعوا الميزان فإذا الذى جاء به ذو القرنين أثقل فلم يزالوا يضعوا حجراً بعد حجر حتى وضعوا ألف حجر ثم رفعوا الميزان فمال بالألف جميعاً فقالت العلماء انقطع علمنا دون هذا لانعرف أسحر هذا أم علم لا نعلمه، فقال الخضر عليه السلام وكان واقفاً ، أنا أعلم علمه فأخذ الخضر عليه السلام الميزان بيده ثم أخذ الحجر الذى جاء به ذو القرنين فوضعه فى إحدى الكفتين وأخذ حجراً من

تلك الحجارة فوضعه فى الكفة الأخرى ثم أخذ كفاً من تراب فوضعه على الحجر الذى جاء به ذو القرنين ثم رفع الميزان فاستوى فخرت العلماء سجداً لله تعالى وقالوا سبحان الله هذا علم لم يبلغه علمنا والله قد وضعنا معه ألف حجر فما استقل به فقال الخضر عليه السلام أيها الملك إن سلطان الله عز وجل قاهر لخلقه وأمره نافذ فيهم وحكمه جار عليهم وأن الله ابتلى خلقه بعضهم ببعض فابتلى العالم بالعالم والجاهل بالجاهل والجاهل بالعالم والعالم بالجاهل وأنه ابتلانى بك وابتلاك بى، فقال ذو القرنين صدقت فأخبرنى ما هذا الحجر ؟ فقال الخضر أيها الملك هذا مثل ضربه لك صاحب الصور إن الله تعالى مكن لك فى الأرض فأعطاك منها مالم يعط أحدا من خلقه وأوطأك منها ما لم يوطىء لأحد من خلقه فلم تشبع وآتيت نفسك شرها حتى بلغت من سلطان الله مالم يطاه إنس ولا جان فهذا مثل ضربه لك صاحب الصور ابن آدم لا يشبع أبدا حتى يحثى عليه التراب ولا يملأ جوفه إلا التراب . فبكى ذو القرنين ، ثم قال صدقت ياخضر فى ضرب هذا المثل لا جرم لا طلبت أثرا فى البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت .

ثم إنه انصرف راجعاً حتى إذا كان فى وسط الظلمة وطىء الوادى الذى فيه الزبرجد فقال من معه لما سمعوا خشخشة تحت حوافر واديهم ماهذا الذى تحتنا أيها الملك فقال ذو القرنين خذوا منه فإن من أخذ منه ندم ومن تركه ندم فمنهم من أخذ منه شيئاً ومنهم من تركه فلما خرجوا من الظلمة ونظروه إذا هو زبرجد فندم الآخذ والتارك قال : قال رسول الله ﷺ رحم الله أخى ذا القرنين لو ظفر بوادى الزبرجد فى مبدأ أمره ما ترك منه شيئاً حتى كان يخرجه إلى الناس لأنه كان راغباً فى الدنيا ولكنه ظفر وهو زاهد فى الدنيا لاحاجة له فيها . ثم أنه رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف كلها ومات فى طريقه قبل وصوله بشهر

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه إنه رجع إلى دومة الجندل وكانت منزله فاقام بها حتى مات قالوا وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وكان ملكه سبع عشرة سنة وكان قبل دارا فى أول السنة الثالثة من ملكه فلما مات حمل إلى أمه بالاسكندرية

ودفن هناك ؛ قالوا فلما مات الإسكندر عرض الملك على إبنه إسكندروس من بعده فأبى واختار النسك والعبادة فملكت اليونانية عليهم فيما قبل بطليموس بن لوسوع وكان ملكه ثمانية وثلاثين سنة ؛ وكانت المملكة فى حياة الإسكندر وبعد وفاته إلى أن تحول الملك والمضاض واليونانية ولبنى إسرائيل ببيت المقدس ونواحيها الديانة والرياسة على غير وجه الملك إلى أن خرب بلادهم الفرس والروم وطردوهم عنها بعد قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام .

(مجلس فى قصة زكريا وإبنه يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام)

وهو مجلس يشتمل على أبواب كثيرة قال محمد بن إسحق وغيره من أهل الأخبار عمرت بنو إسرائيل بعد مرجعهم من أرض بابل إلى بيت المقدس وبلاد الشام وانتظام أمورهم ولم يزالوا يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم بفضله ورحمته ويبعث فيهم الرسل ؛ ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون كما قال الله تعالى (حتى كان ممن بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى وكانوا من آل بيت داود عليه السلام).

(نسب زكريا عليه السلام)

هو زكريا بن يحيى بن يوحنا بن آدن بن مسلم بن صدوق بن بحسان بن داود ابن سليمان بن مسلم بن صديقة بن ناخور بن سلوم بن شهفا ساط بن أبيا بن رحبعم ابن سليمان بن داود عليه السلام .

(باب فى ذكر مولد مريم عليهما السلام وخبر تحريرها)

قال الله تعالى (إذ قالت امرأة عمران ربى إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً) الآيات ، وقال المفسرون هى حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام وعمران .

قال ابن عباس هو عمران بن ماثان وليس بعمران أبى موسى إذ بينهما ألف وثمانمائة سنة ، وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم.

وقال ابن إسحق هو عمران بن ساهم بن أمور بن ميشان بن حزقيل بن أحريف ابن يوم بن عزازيل بن امصيا بن تاوس بن نوثا بن بارعن بن يهوشافاط بن أبيا ابن رحبعم بن سليمان بن داود عليه السلام ؛ وكانت القصة فى ذلك أن زكريا

ابن يوحنا وعمران بن ماثان كانا متزوجين بأختين إحداهما عند زكريا يوحنا وهي إيشاع بنت فاقوذ أم يحيى وكانت الأخرى عند عمران وهي حنة بنت فاقوذ أم مريم وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وعجزت وكانوا أهل بيت من الله بمون فبينما هي في ظل شجرة إذا نظرت طائراً يطعم فرخاً فتحركت عند ذلك شهوتها للكالد ودعت الله تعالى أن يهب لها ولداً وقالت اللهم لك علي إن رزقتني أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه نذراً وشكراً فحملت بمريم عليها السلام فحررت مافي بطنها ولم تعلم ما هو فقالت (رب إني نذرت مافي بطني محرراً) أي عتيقاً من الدنيا وأشغالها خالصاً لله تعالى وخادماً لبيتك المقدس حبساً عليه مفرغ لعبادة الله ولخدمته فتقبل مني السكائن إنك أنت السميع العليم .

قالوا وكان المحرر إذا حرر ونذر جعل المحرر والمنذور في الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرح عنها حتى يبلغ الحلم فإذا بلغ خير بين أن يقيم وبين أن يذهب حيث شاء ، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير استأذن رفقاءه من السدنة ليكون خروجه على علم منهم ولم يكن أحد من بني إسرائيل وعلمائهم إلا من في نسله محرر لبيت المقدس ولم يكن محرراً إلا الغلمان . وكانت الجارية لا تكاف ذلك ولا تصلح لما يصيبها من الحيض والأذى فحررت أم مريم مافي بطنها فلما فعلت ذلك قال لها زوجها عمران : ويحك ما صنعت ؟ أرأيت إن كان مافي بطنك أنثى والأنثى عورة لا تصلح لذلك فوقع جميعاً في هم من ذلك فهلك عمران وحنة حامل بمريم فلما وضعتها إذ هي جارية فقالت حنة وكانت ترجو أن يكون غلاماً اعتذاراً إلى الله تعالى «رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى» أي في خدمة الكنيسة والعبادة فيها لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس والأذى «وإني سميتها مريم» وهي بلغتهم العابدة والخادمة وكانت مريم عليها السلام أجمل النساء وأمثلهن في وقتها .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «حسبك من نساء العالمين أربع : مريم ابنة عمران وآسيا امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ «وإني أعيذها» أي أجيرها وأمنعها «بك وذريتها من الشيطان

الرجيم » أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده وأخبرنا أبو سهل وأحمد بن محمد بن هرون بإسناده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم « وإني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم » .

وأخبرنا شعيب بن محمد بإسناده عن قتادة قال: كل آدمي يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلا عيسى عليهما السلام جعل بينهما حجاب وأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليهما منه شيء قال : وذكر أنهما كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بني آدم قال الله تعالى « فتقبلها ربها بقبول حسن » الهاء راجعة إلى النذيرة أي فتقبل الله النذيرة أي مريم من حنة « وأنبتها نباتاً حسناً » يعني سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت في المدة اليسيرة كما ينبت المولود في المدة الطويلة وقال ابن جريج . وأنبتها ربها في غدائها ورقها نباتاً حسناً حتى تمت امرأة بالغة .

قالوا فلما ولدت مريم أخذتها أمها حنة فلفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم يومئذ ثلاثون في بيت المقدس كما يلي الحجبة أمر الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا أنا أحق بها منكم لأن عندي خالتها فقالت له الأحبار لا نفعل ذلك فإنها لو تركت لأحق الناس وأقربهم إليها لتركت لأمها التي ولدتها . ولكننا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه فاتفقوا على ذلك ثم انطلقوا وكانوا تسعة عشر رجلا إلا نهر جار . قال السدي هو نهر الأردن فألقوا أي سهامهم وقيل أقلامهم ورسبت في الماء قال ابن إسحق وجماعة وقال السدي . بل ثبت قلم زكريا فوق الماء وكأنه في طين وجرت أقلامهم مع جريان الماء فذهب الماء بها فسهمهم وقرعهم زكريا عليه السلام . وكان رأس الأحبار ونبيهم فذلك قوله تعالى (وكفلها زكريا) ضمها إلى نفسه وقام بأمرها وقال ابن إسحق. فلما كفلها زكريا ضمها إلى خالتها أم يحيى واسترضع لها حتى نشأت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محراباً أي غرفة في المسجد وجعل بابه إلى وسطها لا يرقى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة فلا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها في كل يوم . وكان زكريا عليه السلام إذ

خرج أغلق عليها بابها فإذا دخل عليها غرفتها وجد عندها رزقاً أى فاكهة فى غير حينها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فيقول لها ، أنى لك هذا ، فتقول هو من عند الله من قطف الجنة . قال الحسن يجد عندها قوتها وكان رزقها يأتيها من الجنة فيقول لها زكريا من أين لك هذا ؟ فتقول من عند الله . قال الحسن . وكانت وهى صغيرة يأتيها رزقها .

وقال محمد بن إسحق ثم أصابت بنى إسرائيل أزمة وهى على ذلك من حالها ثم ضعف زكريا عن حملها فخرج إلى بنى إسرائيل وقال يابنى إسرائيل تعلمون والله إنى لقد كبرت وضعفت عن حمل إبنة عمران فأيكم يكفلها بعدى ؟ فقالوا والله لقد جهدنا وأصابنا من الجلد ماترى فتدافعوا بينهم ثم لايجدون من يحملها فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم على رجل صالح نجار من بنى إسرائيل يقال له يوسف ابن يعقوب بن ماثان وكان ابن عم مريم لحملها . قال فعرفت مريم فى وجهه شدة مؤنة ذلك عليه فقالت له يا يوسف أحسن الظن بالله فإن الله سيرزقنا ، فحمل يوسف إليها مما رزقه الله فيأتيها الله كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها وهى فى الكنيسة أنماه الله تعالى وكثره فيدخل إليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف فيقول لها (يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

أخبرنا عبدالله بن حامد بإسناده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يصب فى بيت أحد منهن شيئاً فأتى فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنية هل عندك شىء آكل فإنى جائع ، فقالت لا والله بأبى أنت وأمى . فلما خرج رسول الله ﷺ من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم فأخذته منها ووضعته فى جفنة وغطت عليه وقالت لأوثرن بها رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة من طعام فبعثت حسناً وحسيناً إلى جدهما رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت بأبى أنت وأمى يارسول الله قد أتانا الله بشىء فخبأته لك فهلم به فأتى به فكشف عن

الجفنة فإذا هى مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرته بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام من أين لك هذا يا بنية (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فحمد الله رسول الله ﷺ وقال الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله رزقاً حسناً فسئلت عنه (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فبعث رسول الله ﷺ إلى على رضى الله عنه فأتى فأكل الرسول وعلى وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبى ﷺ ورضى الله عنهم جميعاً حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هى قالت فاطمة رضى الله عنها وأوسعت منها على جميع جيرانى وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً ، وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة والباقى بركة من الله تعالى

﴿ باب فى مولد يحيى بن زكريا عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم الفاكهة فى غير حينها قال إن الله الذى قدر على أن يؤتى مريم بالفاكهة من غير حينها من غير سبب ولا فعل أحد لقادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولداً على الكبر فطمع فى الولد وكان أهل بيته قد انقرضوا وزكريا قد شاخ وآيس من الولد فهنالك أى فعند ذلك دعا زكريا ربه (قال رب هب لى) أى اعطنى (من لدنك ذرية طيبة) نسلا نقياً صالحاً رضياً (إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة) يعنى جبريل وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذى يقرب القربان ويفتح باب المذبح فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول، فبينما هو فى محرابه عند المذبح قائم يصلى والناس ينتظرون أن يأذن لهم بالدخول إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ؛ ففزع منه فناداه وهو جبريل عليه السلام (يا زكريا إن الله يبشرك بيحيى) واختلفوا لم سمى يحيى .

قال ابن عباس لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه ، وقال قتادة وغيره لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة ؛ وقال الحسن بن الفضل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة

حتى لم يتغير ولم يهم بمعصية . دليله ماأخبرنى به الحسن بن فنحويه بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ « مامن أحد يلقى الله عز وجل إلا وقد هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهم ولم يعمل » .

قال الأستاذ وكان شيخنا أبو القاسم الجنيد يقول سمى بذلك لأنه استشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، قال النبي ﷺ (من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة) قال وسمعت أبا منصور الخشاوى يقول ، قال عمر بن عبد الله القدسى أوحى الله إلى إبراهيم الخليل عليه السلام أن قل ليسارة وكان إسمها كذلك أنى مخرج منكما عبداً لايهم بمعصيتى إسمه حى فهب له من إسمك حرفاً فوهبت أول حرف من حروف إسمها الياء فصار يحيى وسار إسمها سارة مصدقاً بكلمة من الله يعنى عيسى عليه السلام فسمى كلمة لأن الله تعالى قال له من غير أب كن فكان فوقع عليه إسم الكلمة لأنه بها وجد ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه ، وذلك أن أمه كانت حاملة به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى ، قالت لها أم يحيى يا مريم أحامل أنت ، فقالت لماذا تقولين هذا ، قالت إنى أرى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك تصديقه له وإيمانه به ، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى إلى السماء وسنذكره ، قال سعيد بن المسيب « وسيداً » السيد الفقيه العالم . وقال سعيد بن جبير السيد الذى يطيع ربه عز وجل ، وقال الضحاك السيد الحسن الخلق وقال عكرمة الذى لايغضب ، وقال سفيان الذى لايحسد (وحصوراً) قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما هو الذى لايأتى النساء ولا يقربهن فعول بمعنى فاعل يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات ، وقال ابن المسيب والضحاك هو العنين الذى لاباءة له ودليل هذا التأويل ما أخبرنى به ابن فنحويه بإسناده عن صالح عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً حصوراً ونبياً من الصالحين ثم أومأ النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها قال وكان ذكره مثل هذه القذاة » وقال المدنى . الحصور الذى لايدخل فى اللهو ولا الأباطيل

قالوا . فلما نادى زكريا بالبشارة قال رب أى ياسيدى ، قاله لجبريل هذا قول أكثر المفسرين وقاله الحسن بن الفضل إنما قال زكريا يارب لا لجبريل أنى يكون لى غلام من أين يكون لى ولد وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر لا تلد عقيم قال الكلبى كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنين وتسعين سنة .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال كان زكريا ابن عشرين ومائة سنة وكانت مرأته بنت ثمان وتسعين سنة فأجيب (كذلك يفعل الله مايشاء) فإن قيل لم أنكر زكريا ذلك وسأل الآية بعد ما بشرته الملائكة أكان ذلك شكا فى وحيه أم إنكاراً لقدرته وهذا لايجوز أن يوصف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء فالجواب عندما قاله عكرمة والسدى أن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان . فقال يازكريا إن الصوت الذى سمعت ليس من الله وإنما هو صوت الشيطان يسخر بك ولو كان من الله لأوحاه إليك خفية كما ناديته خفية وكما يوحى إليك فى سائر الأمور فقال ذلك دفعاً للوسوسة وفيه جواب آخر وهو أنه لم يشك فى الولد وإنما شك فى كيفيته والوجه الذى يكون منه الولد فقال أنى يكون لى ولد ، أى كيف يكون لى ولد أتجعلنى وامرأتى شابين أم نرزقه كذا على كبرنا أم ترزقنى من امرأة غيرها من النساء فقال ذلك مستخبرا لا منكرا وهذا قول الحسن (قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام) وتقبل بكليتك على عبادتى وطاعتى لو أنه حبس لسانه عن الكلام ولكنه نهى عنه يدل عليه قوله تعالى (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار) هذا قول قوم من أهل العلم ، وقال آخرون عقل لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مناقشته الملائكة إياه ولم يقدر على الكلام ثلاثة أيام إلا رمزاً أى إشارة وعلى هذا أكثر المفسرين . قال عطاء ، أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزا ، فولد يحيى بن زكريا عليه السلام .

وفى بعض الأخبار أنه لما ولد يحيى رفع إلى السماء فتغذى بأنهار الجنة حتى فطم ثم أنزل إلى أبيه وكان يضىء البيت لنوره وحسن وجهه وجماله .

﴿ باب فى صفته وحليته عليه السلام ﴾

قال كعب الأحبار : كان يحيى بن زكريا نبياً حسن الوجه والصورة لين الجناح قليل الشعر قصير الأصابع طويل الأنف مقرون الحاجبين رقيق الصوت كثير العبرة قوياً فى طاعة الله تعالى ، وقد ساد الناس فى عبادة الله وطاعته .

(فصل فى نبوته وسيرته وذكر زهده وجهده)

قال الله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً) قيل إن يحيى قال له أترابه من الصبيان يا يحيى اذهب بنا لنلعب ، فقال لهم ماللعب خلقت وقال آخرون إنه نبىء صغيراً فكان يعظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم وجمعهم ويدعوهم إلى الله تعالى ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس ولما بعثه الله تعالى إلى بنى إسرائيل وأمره أن يأمرهم بخمس خصال وضرب لكل خصلة منها مثلا أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وقال مثل الشرك كمثل رجل اشترى عبيداً من خالص ماله ثم أسكنهم داراً له ودفع لهم مالا يتجرون فيه ويأكل كل واحد منهم مايكفيه ثم يؤدون إليه فضل الربح فدفعوه إلى عدو سيدهم وأمرهم بالصلاة فقال إن مثل المصلى كمثل رجل استأذن على ملك فأذن له ودخل عليه فاقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضى حاجته فلما دخل عليه الرجل التفت يميناً وشمالا ولم يهتم بحاجته فاعرض الملك عنه ولم يقض حاجته وأمرهم بالصدقة وقال مثلها كمثل رجل أسره العدو فاشترى منه نفسه بثمن معلوم فجعل يعمل فى بلادهم ويؤدى إليهم من كسبه القليل والكثير حتى أوفى ثمنه فاعتق ، وأمرهم بذكره عز وجل وقال مثل الذكر مثل قوم لهم حصن ولهم عدو فإذا أقبل عليهم عدوهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم كذلك من ذكر الله تعالى لايقدر عليه الشيطان وأمرهم بالصيام وقال مثله كمثل الجنة لاتدع عدوه يصل إليه ويستره .

وأما سيرته فروى عن رسول الله ﷺ أنه قال كان من زهد يحيى أنه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والرهبان وعليهم مدرع الشعر والصوف وبرانس الصوف وإذا هم قد خرقوا تراقيهم وسلكوا فيها السلاسل وشدوا بها

إلى سوارى المسجد فلما نظر إلى ذلك أتى أمه فقال يا أماه انسجى لى مدرعة من شعر وبرنساً من صوف حتى آتى إلى بيت المقدس وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان ، فقالت له أمه حتى يأتى نبى الله زكريا عليه السلام فاوامره فى ذلك فلما دخل زكريا أخبرته بما قال ، فقال له زكريا يابنى ما يدعوك إلى هذا وإنما أنت صبى صغير فقال له : رأيت من هو صغر منى ذاق الموت قال بلى فقال لأمه انسجى له مدرعة من الشعر وبرنساً من الصوف ففعلت فتدرع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس وأقبل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه فنظر ذات يوم إلى ما قد نحل من جسمه فبكى فأوحى الله تعالى إليه يايحيى أتبكى على ما قد نحل من جسمك وعزتى وجلالى لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدارع الحديد فضلا عن المسوح .

فبكى يحيى حتى أكل الدمع لحم خديه وبدت للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه وأقبل زكريا واجتمع الأحبار والرهبان فقال زكريا لإبنه يحيى مايدعوك لها يا بنى إنما سألت ربى أن يهبك لتقربك عينى ؛ فقالت أنت أمرتنى بذلك يا أبت ؛ قال ومتى ، قال ألسعه القائل إن بين الجنة والنار عقبة كئود لا يقطعها إلا الباكون من خشية الله تعالى قال بلى قال فجد واجتهد وقام فنفض مدرعته فأخذته أمه فقالت أتأذن لى يا بنى ان أتخذلك قطعتين من لبد يواريان أضراسك وينشفان دموعك فقال لها شأنك فاتخذت له قطعتى لبد يواريان أضراسه وينشفان دموعه فبكى حتى ابتلتا من دموع عينيه ثم أخذهما فعصرهما فتحدرت الدموع من بين أصابعه فنظر زكريا إلى إبنه وإلى دموعه فرفع رأسه إلى السماء وقال اللهم إن هذا إبنى وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الراحمين وكان زكريا إذا أراد أن يعظ بنى إسرائيل التفت يميناً وشمالا فإذا رأى يحيى لم يذكر جنة ولا نارا فجلس يوماً يعظ بنى إسرائيل وأقبل يحيى وقد لف رأسه بعباءة وجلس فى غمار القوم فالتفت زكريا يميناً وشمالا فلم ير يحيى فأنشأ يقول حدثنى حبيبى جبريل عن الله عز وجل أن فى جهنم جبلا يقال له السكران فى أصل ذلك الجبل واد يقال له الغضبان خلق لغضب الرحمن تبارك وتعالى فى ذلك الوادى جب قامته مائة عام فى ذلك الجب

توابيت وصناديق من نار وثياب من نار وأغلال من نار فرفع يحي رأسه وقال واغفلتاه عن السكران وعن غضب الرحمن .

ثم خرج هائماً على وجهه فقام زكريا من مجلسه ودخل على أم يحي فقال لها قومى فاطلبي يحيى فإنى قد تخوفت أن لا أراه إلا وقدذاق الموت فقامت وخرجت فى طلبه فمرت بفتيان من بنى إسرائيل فقالوا لها يا أم يحي أين تريدين . قالت أطلب ولدى يحي ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه فمضت أم يحي والفتيان معها حتى مرت براعى غنم فقالت ياراعى هل رأيت شاباً من صفته كذا وكذا قال لعلك تطلبين يحيى بن زكرياقالت نعم دلت ولدى ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه فقال تركته الساعة على عقبه ناقعاً قدميه فى الماء رافعا بصره إلى السماء يقول وعزتك يامولاى لا أذوق بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلتى منك فاقبلت أمه فلما رأته دنت منه فاخذت برأسه فوضعته بين يديها وناشدته بالله أن ينطلق معها إلى المنزل فانطلق معها إلى المنزل فقالت له هل لك أن تخلع مدرعتك الشعر وتلبس مدرعتك الصوف فإنه ألين ففعل ثم إنها طبخت له عدسا فاكل واستوفى فذهبت به النوم فلم يقم لصلاته فنودى فى منامه يايحى أردت داراً خيرامن دارى وجوراً خيراً من جوارى فاستيقظ وقام وقال رب أقل عثرتى وعزتك لا أستظل بظل سوى بيت المقدس . ثم قال لأمه ناولينى مدرعة الشعر فقد علمت أنكما ستورداني للمهالك . فتقدمت إليه أمه ودفعت إليه المدرعة وتعلقت به فقال لها زكريا يا أم يحي دعيه فإن ولدى قد كشف له عن قناع غفلته . لن ينتفع بالعيش فقام يحي فلبس مدرعة ووضع البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس فجعل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان والله أعلم .

(باب فى مقتله عليه السلام)

اختلف العلماء فى سبب قتله فقال كان يحيى عليه السلام فى زمن ملك من ملوك بنى إسرائيل وكان له امرأة وهى إبنة ملك صيدا وكانت قتالة للأنبياء والصالحين وكانت عاهرة تبرز للناس وكان يحيى يزجرها عن ذلك ويقول لها لا تبرزى كاشفة

وجهك ، وكان كثيراً ما يقول لها مكتوب فى التوراة إن الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف فأمرت بيحيى فسجن وكان قد حبس رجل من أبناء الملوك وكان كثيراً ما يختلف إليها بالليل فعلم بها وبه يحيى فزجره فبلغ ذلك امرأة الملك فحملت بنتاً لها واستقبلت بها زوجها فقال لها لم فعلت ذلك؟ فقالت وجب لها عليك حق ، فقال سلى ماشئت. فقالت البنت استوهبت منك أهل الحبس اصنع بهم ماشئت فظن أبوها أنها ترحمهم وتستروحهم فقال أبوها قد فعلت فأمرت أمها أهل السجن فعرضوا عليها . فلما مر بها يحيى أمرت به فذبح وأخذت رأسه فى طشت ثم حملت الطشت إلى أبيها بأمر أمها وقالت أيها الملك إنى قد ذبحت لك ذبيحة من أعظم ماوجدته ولو كان مثله ألف لذبحتهم لك قال وماهو ؟ قالت يحيى بن زكريا فقال هلكت وأهلكت أبويك ، فغير الله مابهم من النعم وسلط عليهم عدوا فذبح البنت وأبويها وسلط عليهم الكلاب حتى أكلتهم .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ، كان عيسى بن مريم ويحى بن زكريا فى إثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ؛ قال وكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ وكان لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها وكان له فى كل يوم حاجة عنده يقضيها لها فلما بلغ أمها أنه ينهى عن نكاح بنت الأخ قالت لابنتها إذا دخلت على الملك وسألك عن حاجتك فقولى حاجتى ان تذبح يحى بن زكريا فلما دخلت عليه سألها عن حاجتها فقالت حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا فقال سلى غير هذا فقالت ما اسألك إلا هذا فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعا بطشت فذبحه فيه فنبذت من دمه قطرة فلم تزل تغلى حتى بعث الله عز وجل بختنصر عليهم . فجاءت عجوز من بنى إسرائيل فدلته على ذلك الدم فألقى الله فى قلبه أن يقتل على ذلك الدم سبعين ألفا منهم فقتل فيهم بختنصر ليسكن فقتلهم فسكن .

وقال السدى بإسناده : كان ملك بنى إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمراً دونه وإنه هوى أن يتزوج إبنة امرأة له فسأل عن ذلك يحيى فنهاه وقال لست أرضاها لك ، فبلغ ذلك أمها فحقدت على

يحيى حين نهاه أن يتزوج إبنتها فعمدت إلى ابنتها حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثياباً رقاقا حمراً وطيبتها وأرسلتها إلى الملك . وأمرتها أن تسقيه وأن تتعرض له فإذا راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله . فإذا أعطاها ذلك سألته أن يأتيها برأس يحيى بن زكريا فى طشت ففعلت ذلك وجعلت تسقيه وتتعرض له فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها فقالت لا أفعل حتى تعطينى ما اسألك قال وما تسأليني ؟ قالت أن تبعث إلى براس يحيى بن زكريا فى هذا الطشت قال ويحك سليني غير هذا . فلما أبت عليه بعث إليه فأتى برأسه والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول لا تحل لك ، فلما أصبح إذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فارتفع الدم فوقه فلم يزل يغلى ويلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى وذكر الحديث الطويل الذى فى قصة سنجاريب وبختنصر كما قدمنا ذكره فى أخبار بختنصر .

قال كعب الاحبار : كان يحيى من أجمل الناس وجها وأحسنهم فى زمانه حبا شديداً فأرسلت اليه تراوده عن نفسه فأرسل اليها إنه لا علم له بالنساء والملك أحق أن يطأ فراشه ، فلما انتهى إليها الرسول غضبت غضبا شديداً وقالت كيف لى أن أقتله ولا يخبر الناس إنى قد راودته فلم تزل بالملك حتى وهب لها يحيى بن زكريا فأرسلت اليه وهو قائم يصلى فى بيت المقدس فى محراب داود من يضرب عنقه ويأخذ رأسه . فلما اخذوا رأس يحيى خسف الله بها وبأهلها الأرض عقوبة لها بقتلها يحيى عليه السلام .

﴿ ذكر مقتل زكريا عليه السلام ﴾

قال كعب الاحبار : فلما سمع زكريا أن إبنه يحيى قتل وخسف بالقوم انطلق هاربا فى الأرض حتى دخل بستاناً عند بيت المقدس فيه الأشجار فنادته شجرة يانبي الله إلى ههنا فلما اتاها انفتقت له الشجرة ودخل زكريا فى وسطها فانطلق إبليس لعنه الله حتى اخذ بطرف ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا اخبرهم بوجوده ، فلذلك تصنع اليهود الخيوط فى أطراف أرديتهم .

وقد أخذ الملك وأهله يلتمسون زكريا فاستقبلهم إبليس لعنة الله تعالى فقال لهم ماتلتمسون ؟ قالوا نلتمس زكريا فقال إبليس إنه دخل فى هذه الشجرة . قالوا لانصدقك قال فإنى إن أريتكم علامة تصدقونى بها ؟ قالوا فأرنا إياها فأراهم طرف ردائه فأخذوا المناشير وضربوا الشجرة فنشروها نصفين فسلط عليهم أخبث أهل الأرض علجاً مجوسياً فانتقم الله من بنى إسرائيل بدم يحيى وزكريا فقتل عظماء بنى إسرائيل وسبى منهم مائة وسبعين ألفاً .

وقيل أن السبب فى قتل زكريا أن إبليس جاء إلى مجالس بنى إسرائيل فقذف مريم زكريا وقال ما أحبلها أحد غير زكريا وهو الذى كان يدخل عليها فطلبوا زكريا فهرب واتبعه سفهاؤهم وأشرارهم فسلك وادياً كثير الأشجار فتشبه له الشيطان فى صورة راع فقال يا زكريا قد أدركوك فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة ففعل ذلك فانفتحت له ودخل فيها وأخرج إبليس هدب ردائه منها فمرت بنو إسرائيل بالشيطان فقالوا يا راعى هل رأيت رجلا ههنا من صفته كذا وكذا قال نعم سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها وهذا هدب ردائه فقطعوا الشجرة مع زكريا وفلقوها فلقتين بالمنشار طولا فبعث الله الملائكة فغسلوا زكريا وصلوا عليه ودفنوه ، وفى الخبر أن الشمس بكت على يحيى أربعين صباحا وكان بكاؤها إن طلعت وغربت حمراء ويروى أن يحيى سيد شهداء يوم القيامة وقائدهم إلى الجنة والله أعلم .

(مجلس فى مولد عيسى عليه السلام وفى حمل مريم بعيسى عليهما السلام وما يتصل به)

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً) قالت العلماء بأخبار الأنبياء ، لما مضى من حمل عيسى عليه السلام ثلاثة أيام . ومريم يومئذ بنت خمسة عشر سنة وقيل بنت ثلاث عشرة سنة وكان مع مريم فى المسجد من المحررين ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكان رجلا حاذقا نجاراً يتصدق بعمل يديه وكان يوسف ومريم يليان خدمة الكنيسة وكانت مريم إذا نفذ ماؤها وماء يوسف أخذ كل واحد منهما قلته وانطلق إلى المغارة التى فيها الماء

فيستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة ، فلما كان اليوم الذى لقيها فيه جبريل عليه السلام وكان أطول يوم فى السنة وأشد حراً نفد ماؤها ، فقالت ألا تذهب بنا يا يوسف فنستقى فقال إن عندى لفضلا من ماء اكتفى به يومى هذا إلى غد قالت ولكنى والله ماعندى ماء ، فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت عندها جبريل عليه السلام وقد مثله بشراً سويا فقال لها يامريم إن الله قد بعثنى إليك لأهب لك غلاما زكيا قالت (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) أى مؤمنا مطيعاً وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه علمت ان التقى ذو رحمه وخشية وهى تحسبه رجلا من بنى آدم . قال عكرمة وكان جبريل عرض لها فى صورة رجل شاب أمرد مضىء الوجه جعد الشعر سوى الخلق قالت الحكماء إنما أرسله الله تعالى فى صورة البشر لتثبت مريم عليه وتقدر على استماع كلامه ، فلما استعاذت منه مريم (قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا قالت أن يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو على هين)الآية فلما قال لها ذلك استسلمت لقضاء الله فنفخ فى جيب درعها وكانت قد وضعته عنها ، فلما انصرفت عنها لبست مريم درعها فحملت بعيسى عليه السلام ثم ملأت قلتها وانصرفت إلى المسجد .

وقال السدى وعكرمة . أن مريم عليها السلام كانت تكون فى المسجد مادامت طاهرة فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هى تغتسل من الحيض وقد اتخذت مكاناً شرقياً أى مشرقا لأنه كان فى الشتاء فى أقصر يوم فى السنة .

قال الحسن إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة لأن مريم انتبذت مكاناً شرقياً فاتخذت فضربت من دونهم حجابا أى سترا ، وقال مقاتل جعلت الجبل بينها وبين قومها فبينما هى كذلك فى تلك الحالة إذ عرض لها جبريل وبشرها بعيسى ونفخ فى جيب درعها ، قال وهب فلما اشتملت على عيسى كان معها ذو قرابة لها يقال له يوسف النجار وكان منطلقين إلى المسجد الذى عند جبل صهيون وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم ، وكانت مريم ويوسف النجار يخدمان ذلك المسجد

وكان لخدمته فضل عظيم وكان يليان معالجته بأنفسهما وتجميره وتطهيره وكان لا يعلم في زمانهما أشد اجتهادا وعبادة منهما وكان أول من أنكر حملها ابن عمها وصاحبها يوسف النجار ، فلما رأى الذى بها استعظمه واستفظعه ولم يدر ماذا يصنع من أمرها وكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وإنها لم تغب عنه ساعة واحدة وإذا أراد أن يبرئها رأى ماظهر بها من الحمل فلما اشتد ذلك عليه كلمها فكان أول كلامه إياها إن قال إنه وقع فى نفسى من أمرك شىء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبنى ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى فقالت له قل قولا جميلا قال لها اخبرينى يا مريم هل نبت زرع بغير بذر؟ قالت نعم ، قال فهل نبتت شجرة بغير غيث ؟ قالت نعم قال فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت ألم تعلم أن الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر إنما يكون من الزرع الذى أنبته من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجرة بعد ماخلق الله كل واحد منهما على حدة أو تقول ان الله لا يقدر ان ينبت الشجر حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته قال يوسف لها هذا ولكنى أقول ان الله تعالى يقدر على مايشاء يقول للشىء كن فيكون فقالت له مريم ألم تعلم ان الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا انثى قال بلى . فلما قالت له ذلك وقع فى نفسه ان الذى بها شىء من امر الله وإنه لا يسعه ان يسألها عنه وذلك لما رأى كتمانها لذلك ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها ونتو بطنها وضعف قوتها وكان جبل صهيون على باب بيت المقدس

وسمعت من الثقات : ان قبر داود عليه السلام فيه وثم كنيسة مشرفة على عين السلوان وسألت بعض الرهبان فقال هذا صهيون والكنيسة التى خدمت فيها مريم ويوسف هذا وقد أفصح فيها عيسى ودعا الخلق إلى الله تعالى ثم نقل من هذه إلى القيامة وهى كنيسة عظيمة داخل بيت المقدس ويدعون ان عيسى عليه السلام لما قتل دفن فيها وبعد ثلاثة أيام عرج به إلى السماء فلا ينقطع أبد الدهر منها وإنه ينزل فيها والله أعلم .

(باب فى ذكر ميلاده عليه السلام)

قالوا فلما اثقلت مريم ودنا نفاسها أوحى الله تعالى اليها أن مسجد بيت المقدس بيت من بيوت الله تعالى الذى طهر ورفع ليذكر فيه إسمه فابرزى إلى موضع تأوين فيه فتحولت مريم إلى بيت خالتها أخت أمها أم يحيى فلما دخلت عليها قامت أم يحيى واستقبلتها فالتزمتها ، فقالت امرأة زكريا يا مريم اشعرت إنى حبلى ؟ قالت مريم وأنت أيضاً أشعرت إنى حبلى؟ قالت امرأة زكريا فانى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى (مصدقا بكلمة من الله) فلما وافت بيت خالتها اوحى الله اليها إنك إن ولدت بين اظهر قومك عيروك وقذفوك وقتلوك وولدك فاطلعى من عندهم أى فاخرجى ـ وقال الكلبى قيل لإبن عمها يوسف إن مريم حملت من الزنا الآن يقتلها الملك وكانت قد سميت له فهرب بها يوسف فاحتملها على حمار له فانطلق بها يوسف حتى إذا كان قريبا من أرض مصر فى منقطع بلاد قومها أدرك مريم النفاس فالجأها إلى أصل نخلة يابسة وذلك فى زمان الشتاء.

قال الكلبى لما كان يوسف ببعض الطريق أراد قتلها فأتاه جبريل عليه السلام فقال إنه من روح القدس فلا تقتلها ـ واختلف العلماء فى مدة حمل مريم عليها السلام ووقت وضعها عيسى عليه السلام فقال بعضهم كان مقدار حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل ثمانية أشهر وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية اشهر غير عيسى وقيل ستة اشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة واحدة ـ قال ابن عباس ; ماهو إلا ان حملت ووضعت ولم يكن بين الحمل والوضع والانتباذ إلا ساعة واحدة لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا قال الله عز وجل (فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً) أى بعيداً من قومها وقال مقاتل حملته أمه فى ساعة وصور فى ساعة واحدة ووضع فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشرين سنة وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى قالوا فلما اشتد بها المخاض التجأت إلى النخلة وكانت نخلة يابسة ليس لها سعف ولا كرانيف ولا عروق فيحتوشتها الملائكة وكانوا صفوفا محدقين بها أى محيطين بها وكانت تلك النخلة فى موضع يقال له بيت لحم فقالت حين اشتد الأمر (ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً)

أى جيفة ملقاة فنوديت أن لاتحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ـ فذلك قوله تعالى (فناداها من تحتها أن لاتحزنى) من قرأ بكسر الميم والتاء فهو جبريل عليه السلام ناداها من سفح الجبل ومن قرأ بفتح الميم والتاء فهو عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه ناداها وكلها بإذن الله تعالى قالوا فلما ولدت عيسى أجرى الله لها نهراً من ماء عذب بارد إذا شربت منه وفاترا إذا استعملته فذلك قوله تعالى (قد جعل ربك تحتك سريا) وهو النهر الصغير

قال ابن عباس ضرب عيسى وقيل جبريل عليه السلام برجله الأرض فظهر الماء وحييت تلك النخلة بعد يبسها فتدلت غصونها وأورقت وأثمرت وأرطبت وقيل لها هزى إليك بجذع النخلة أى حركيه تساقط عليك رطبا جنيا غضا طريا) قال الربيع بن خيثم ماللنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وقال عمرو بن ميمون ماأدرى للمرأة إذا عسرت عليها ولادتها خيراً من الرطب وقرأ هذه الآية ـ قالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ يمضغ التمر ويحنك به أولاد الصحابة حين يولدون ـ وقال بعض البلغاء فى وصف النخلة الصغير ونهلة الكبير قالوا ثم إن يوسف النجار عمد إلى حطب فجعله كالحظيرة حواليها بالقرب منها إذ قد أضربها البرد ثم أشعل لها نارا لتصطلى بها ثم كسر لها سبع جوزات كانت فى خرجه فأطعمها إياها فمن أجل ذلك توقد النصارى النار ليلة الميلاد وتلعب بالجوز.

قال وهب . فلما ولد عليه السلام أصبحت الاصنام كلها بكل أرض منكوسة على رءوسها ففزعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك فساروا مسرعين حتى جاءوا إلى إبليس لعنه الله وغضب عليه وهو على عرش له فى لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء فأتوه وقد خلت ست ساعات من النهار فلما رأى إبليس اجتماعهم فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرقهم قبل تلك الساعة وإنما كان يراهم أشتاتا فسألهم فأخبروه انه حدث فى الأرض حدث فأصبحت كالأصنام كلها منكوسة على رؤسها ولم يكن شىء أهون على هلاك بنى آدم منها لانهم كانوا يدخلون فى أجوافهم فتكلمهم وتدبر امرهم فيظنون أنها هى التى تكلمهم ـ فلما أصابها هذا الحدث صغرها فى أعين الناس وأذلها وقد خشينا أن لايعبدوها بعد هذا : واعلم انا لم نأتيك حتى أحصينا

الأرض وقلبنا البحار وكل شيء فلم تزدد بما أردنا إلا جهلا فقال لهم إبليس فما يكون إلا أمر عظيم فكونوا مكانكم فطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات فمر فيهن بالمكان الذي ولد فيه عيسى فلما رأى الملائكة محدقين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث فيه فأراد إبليس لعنه الله أن يأتيه من فوقه ، قال فإذا رءوس الملائكة ومناكبهم إلى السماء ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدام الملائكة راسية فأراد أن يدخل من بينهم فنحوه من ذلك يدل عليه حديث النبي ﷺ « كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد إلا عيسى بن مريم عليه السلام حجبه الله تعالى عنه فذهب يطعن فطعن في الحجاب » .

قال وهب فذهب إبليس لعنه الله إلى أصحابه فقال لهم : ما جئتكم حتى أحصيت الأرض كلها مشرقها ومغربها برها وبحرها والخافقين والجو الأعلى وكل هذا بلغته في ثلاث ساعات ثم أخبرهم بمولد عيسى وقال ما اشتمت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمي ولا وضعته إلا وأنا حاضرها ، وإني لأرجو أن يضل به أكثر ممن يهتدي به ؛ وما كان نبي الله أشد على وعليكم من هذا المولود ؛ ثم أنه خرج قوم في تلك الليلة يؤمونه من أجل نجم طلع كانوا من قبل يتحدثون أنه مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبان فمروا بملك من ملوك الشام فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بذلك ، قال فما بال المر والذهب واللبان أهديتموه بهذه الأشياء ؟ قالوا تلك أمثاله لأن الذهب سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبي ﷺ سيد أهل زمانه ولأن المر يجبر به الكسر والجرح وكذلك هذا النبي ﷺ يشفي به كل سقيم ومريض ولأن اللبان دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره ؛ وكذلك هذا النبي ﷺ يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع في زمانه أحد غيره فلما قالوا ذلك أخذ الملك يحدث نفسه بقتله فقال لهم اذهبوا فإذا علمتم بمكانه أعلموني بذلك فإني راغب في مثل مارغبتم فيه من أمره فانطلقوا حتى قدموا على مريم ودفعوا ما كان معهم من الهدية إليها عليهما السلام وأرادوا أن يرجعوا إلى ذلك الملك ليعلموه بمكانه فلقيهم ملك وقال لهم

لا ترجعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فإنه إنسا أراد قتله فانصرفوا فى طريق آخر .
وقال مجاهد قالت مريم عليها السلام كنت إذا خلوت مع عيسى عليه السلام حدثنى وحدثته فإذا شغلنى عنه إنسان سبح فى بطنى وأنا أسمع والله أعلم .

(باب فى رجوع مريم بإبنها عيسى بعد ولادتها إياه)
(إلى جماعة قومها من بيت لحم)

قال ثم أن جماعة من قومها لما هيأ الله تعالى لأمة مريم عليها السلام أمرها ويسر الله لها أسباب ولادتها ، قال كلى يا مريم من الرطب واشربى من الماء العذب وقرى عيناً وطيبى نفساً فإما ترين من البشر أحداً فسألك عن ولدك أو لامك عليه فقولى (إنى نذرت للرحمن صوماً) أى صمتاً ؛ وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود وأنس وذلك أنهم كانوا إذا صاموا أمسكوا عن الطعام والشراب والكلام « فلن أكلم اليوم إنسياً فأتت به قومها تحمله » قال الكلبى احتمل يوسف النجار مريم وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يوماً حتى تعالت من نفاسها ثم جاء بها فأتت مريم تحمله بعد أربعين يوماً فكلمها عيسى فى الطريق فقال يا أماه أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين فقالوا (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً) فظيماً عظيما (يا أخت هرون) قال قتادة كان هرون رجلا صالحاً من أغنياء بنى إسرائيل وليس بهرون أخى موسى وذكر أنه اتبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً من بنى إسرائيل كلهم يسمون هرون وقال وهب: كان هرون من أفسق بنى إسرائيل وأظهرهم فساداً فشبهوها به (ما كان أبوك) عمران (امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) أى زانية فمن أين لك هذا الولد ؟ فأشارت لهم مرتين إلى عيسى أن كلموه فغضبوا وقالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ قال وهب : فأتاها زكريا عليه السلام عند مناظرتها اليهود وقال لعيسى انطق بحجتك إن كنت أمرت بها ؛ فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوماً (إنى عبدالله آتانى الكتاب) الآية فأقر على نفسه بالعبودية أول ما تكلم تكذيباً للنصارى وإلزاماً للحجة عليهم قال عمرو ابن ميمونة إن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرجموها فلما تكلم عيسى تركوها قالوا لم تتكلم بشىء بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان والله أعلم

﴿ باب فى ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر ﴾

قال الله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قالوا كان مولد عيسى بعد مضى إثنين وأربعين سنة من مولد أغسطوس وإحدى وخمسون سنة مضت من الأشكانيين ملوك الطوائف وكانت المملكة فى ذلك الوقت لملوك الطوائف وكانت الرياسة فى الشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وكان الملك عليها من قبل قيصر هردوس ، فلما عرف هردوس ملك بنى إسرائيل خبر المسيح قصد قتله وذلك أنهم نظروا إلى نجم قد طلع فعرفوا ذلك بحساب عندهم فى كتاب لهم فبعث الله ملكاً إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد هردوس وأمره أن يهرب بالغلام وأمه إلى مصر ، وأوحى الله إلى مريم أن الحقى بمصر فإن هردوس إذا ظفر بإبنك قتله فإذا مات هردوس فارجعى إلى بلادك فاحتمل يوسف مريم وإبنها على حمار له حتى ورد أرض مصر وهى الربوة التى قال الله تعالى (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) .

وذكر أبو إسحق الثعلبى فى التفسير (ذات قرار ومعين) قال عبد الله بن سلام هى دمشق ، وقال أبو هريرة هى الرملة ، وقال قتادة وكعب هى بيت المقدس ، وقال كعب هى أقرب الأرض إلى السماء ، وقال أبو زيد هى مصر ، وقال الضحاك هى غوطة دمشق ، وقال أبو العالية هى إيلياء ، وقال القزاز الأرض المستوية ، والمعين الماء الطاهر فأقامت مريم بمصر إثنى عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تلتقط السنبل والمهد فى منكبها والوعاء الذى فيه السنبل فى أثر منكبها الآخر حتى تم لعيسى إثنتا عشرة سنة .

وروى عن محمد بن الباقر رضى الله عنه أنه قال : لما ولد عيسى كان ابن يوم كأنه ابن شهر فلما كان ابن تسعة أشهر أخذت والدته بيده وجاء إلى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب فقال له المؤدب : قل بسم الله الرحمن الرحيم فقالها عيسى فقال المؤدب قل أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال له هل تدرى ما أبجد فعلاه بالقضيب ليضربه فقال له يا مؤدب لم تضربنى إن كنت لا تدرى فاسألنى حتى أفسر

لك فقال له المؤدب فسره لى ، فقال الألف لا إله إلا الله والباء بهجة الله والجيم جلال الله والدال دين الله ، هوز : الهاء هى جهنم وهى الهاوية والواو ويل لأهل النار ، والزاى زفير أهل جهنم ، حطى : حطت الخطايا عن المستغفرين ، كلمن : كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لكلماته ، سعفص : صاع بصاع والجزاء بالجزاء ، قرشت : نقرشهم حين تحشرهم أى تجمعهم ، فقال المؤدب لأمه : أيتها المرأة خذى إبنك فقد علم ولا حاجة به إلى المؤدب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين المفسر بإسناده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « إن عيسى أرسلته أمه ليتعلم فقال له المعلم قل بسم الله فقال عيسى وما باسم الله ، قال المعلم ما أدرى ؟ قال عيسى الباء بهاء والسين سناء الله والميم مملكته جل وعلا » والله أعلم .

﴿ باب فى صفة عيسى وحليته عليه السلام ﴾

قال كعب الأحبار : كان عيسى بن مريم رجلا أحمر مائلا إلى البياض ما هو سبط الرأس ولم يدهن رأسه قط ، وكان عيسى يمشى حافياً ولم يتخذ بيتاً ولا حلية ولا متاعاً ولا ثياباً ولا رزقاً إلا قوت يومه ، وكان حيثما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح وكان يبرىء الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ويخبر قومه بما يأكلون فى بيوتهم ، وما يدخرون لغد ، وكان يمشى على وجه الماء فى البحر ، وكان أشعث الرأس صغير الوجه زاهداً فى الدنيا راغباً فيها حريصاً على عبادة الله ، وكان سياحاً فى الأرض حتى طلبته اليهود ، وأرادوا قتله فرفعه الله إلى السماء والله أعلم

﴿ باب فى ذكر الآيات والمعجزات التى ظهرت لعيسى عليه السلام ﴾
(فى صباه إلى أن نبىء)

قال وهب : كان أول آية رآها الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان من أرض مصر أنزلها يوسف النجار حين ذهب بها إلى مصر وكانت دار ذلك الدهقان تأوى إليها المساكين فسرق للدهقان مال من خزانته فلم يتهم المساكين فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان ، فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها قال لها يا أماه أتحبين أن أدله على ماله ؟ قالت نعم يا بنى قال لها قولى له يجمع لى المساكين فى داره فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع له المساكين فلما اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له قم به فقال الأعمى أنا أضعف عن ذلك ، فقال له عيسى كيف قويت على ذلك البارحة ؟ فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام فلما استقل قائماً هوى المقعد إلى ركوة الخزانة فقال عيسى للدهقان هكذا احتال على مالك البارحة لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينيه فقال الأعمى صدق والله فردا على الدهقان ماله كله فأخذه الدهقان ووضعه فى خزانته وقال يا مريم خذى نصفه فقالت إنى لم أخلق لذلك ، قال الدهقان فأعطيه لابنك ، قالت هو أعظم منى شأناً ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس لابن له فصنع له عيداً فجمع عليه أهل مصر كلهم فكان يطعمهم شهرين فلما انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتاً من بيوت الدهقان فيه صفان من جرار فوضع عيسى يده على أفواهها وهو يمشى فكلما وضع يده على جرة امتلأت شراباً حتى أتى عيسى على آخرها وهو يومئذ ابن إثنتى عشرة سنة .

آية أخرى : قال السدى كان عيسى عليه السلام إذا كان فى الكتاب يحدث الصبيان بما صنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا وهم يأكلون كذا وكذا فينطلق الصبى إلى أهله يبكى لهم حتى يعطوه ذلك الشىء فيقولون له من أخبرك بهذا ؟ فيقول عيسى فحبسوا عن صبيانهم وقالوا لا تلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم فى بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا له ليسوا هنا فقال لهم فما فى

هذا البيت ؟ قالوا خنازير قال كذلك يكون ففتح عنهم فإذا هم خنازير ففشا ذلك فى الناس فهمت بنو إسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر

آية أخرى . قال السدى : لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسيحان فى الأرض إذ تركا بنى إسرائيل ونزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان ملك ذلك الوقت جباراً عنيداً فجاء ذلك الرجل يوماً مهتماً حزيناً فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم ما شأن زوجك أراه حزيناً ؟ فقالت لها لا تسأليني ، فقالت أخبريني لعل الله يفرج كربته على يدى ؟ فقالت : أن لنا ملكاً يجعل على كل منا نوبة يطعمه ويسقيه الخمر هو وجنوده فإن لم يفعل عاقبه واليوم يومنا وليس عندنا سعة قالت فقولى له لا يهتم بشىء فإنه قد أحسن إلينا وإنى آمرة بنى أن يدعو له فيكفى ذلك ثم قالت مريم لعيسى فقال إن فعلت ذلك يقع شر قالت فلا تبالى لأنه أحسن إلينا وأكرمنا ، قال عيسى فقولى له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمنى ففعل ذلك ، فدعا عيسى فتحول ماء القدور لحماً ومرقاً ، وماء الخوابى خمراً لم ير الناس مثله قط ، فلما جاء الملك أكل فلما شرب سأل من أين هذا الخمر ؟ قال له من أرض كذا وكذا قال الملك فإن خمرى قد أتى بها من تلك الأرض وليست مثل هذه فقال له من أرض أخرى فلما خلط على الملك وشبه عليه قال أخبرونى عن الحق ، قال فأنا أخبرك ؟ عندى غلام ما سأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه وإنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمراً ، وكان للملك إبن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام ، وكان أحب الخلق إليه ، فقال الملك رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمراً ليستجاب له حتى يحيى إبنى فدعا عيسى وكلمه فى ذلك فقال له عيسى لا تفعل لأنه إن دعا وقع شر فقال الملك لا أبالى بعد أن أراه فقال له عيسى إن أحييته تتركونى أنا وأمى نذهب حيث نشاء ؟ قال نعم فدعا الله تعالى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف إبنه علينا فأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتتلوا وذهب أبوه فاقتتلوا ، وذهب عيسى وأمه .

آية أخرى ، قال وهب : بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام وصبى فوكزه برجله فقتله فألقاه بين يدى عيسى وهو ملطخ بالدم فأطلع الناس عليه فاتهموه

به وأخذوه وانطلقوا به إلى قاضى مصر فقالوا له هذا قتل هذا فسأله القاضى فقال عيسى لا أدرى من قتله وما أنا بصاحبه فأرادوا أن يبطشوا بعيسى عليه السلام، فقال لهم ائتونى بالغلام فقالوا له ماذا تريد منه؟ قال أريد أن أسأله من قتله قالوا وكيف يكلمك وهو ميت؟ فأخذوه وأتوا به إلى مقتل الغلام فأقبل عيسى على الدعاء فأحياه الله تعالى فقال عيسى من قتلك؟ قال قتلنى فلان على الذى قتله فقال بنو إسرائيل من هذا؟ قال عيسى بن مريم. قالوا فمن هذا الذى معه قالوا قاضى بنى إسرائيل ثم مات الغلام من ساعته فرجع عيسى إلى أمه وتبعه خلق كثير من الناس فقالت له أمه يا بنى ألم أنهك عن هذا فقال لها إن الله حافظنا وهو أرحم الراحمين.

آية أخرى، قال عطاء: سلمت مريم عيسى بعد ما أخرجته من الكتاب إلى أعمال شتى فكان آخر ما دفعته إلى الصباغين فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب مختلفات فعرض للرجل سفر فقال لعيسى إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج فى سفر لا أرجع إلى عشرة أيام. وهذه ثياب مختلفات الألوان وقد علمت كل واحدة منها على اللون الذى يصبغ به فأحب أن تكون فارغاً منها وقت قدومى ثم خرج فطبخ عيسى عليه السلام جباً واحداً على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال لها كونى بإذن الله تعالى على ما أريد منك فقدم الصباغ وجدها كلها فى جب واحد فقال يا عيسى ما فعلت؟ قال فرغت منها قال أين هى؟ قال فى الجب فقال نعم قال كيف تكون كلها فى جب واحد؟ لقد أفسدت تلك الثياب، قال قم فانظر فقام فأخرج عيسى ثوباً أصفر وثوباً أخضر وثوباً أحمر إلى أن أخرجها على الألوان التى أرادها فجعل الصباغ يتعجب وعلم أن ذلك من الله عز وجل فقال الصباغ انظروا إلى ما فعل عيسى عليه السلام فآمن به هو وأصحابه وهم الحواريون والله عز وجل أعلم.

﴿ باب فى ذكرى رجوع مريم وعيسى عليهما السلام ﴾
(إلى بلادهما بعد موت هردوس)

قال وهب : لما مات هردوس الملك بعد إثنى عشرة سنة من مولد عيسى عليه السلام أوحى الله تعالى إلى مريم يخبرها بموت هردوس ويأمرها بالرجوع مع ابن عمها يوسف النجار إلى الشام فرجع عيسى وأمه عليهما السلام وسكن فى جبل الخليل فى قرية يقال لها ناصرة وبها سميت النصارى ، وكان عيسى يتعلم فى الساعة علم يوم وفى اليوم علم شهر وفى الشهر علم سنة فلما تم له ثلاثون سنة أوحى الله تعالى إليه أن يبرز للناس ويدعوهم إلى الله ويضرب لهم الأمثال ويداوى المرضى والزمنى والعميان والمجانين ويقمع الشياطين ويزجرهم ويذلهم وكانوا يموتون من خوفه ففعل ما أمره به فأحبه الناس ومالوا إليه واستأنسوا به وكثرت أتباعه وعلا ذكره وربما اجتمع عليه من المرضى والزمنى فى الساعة الواحدة خمسون ألفاً فمن أطاق منهم أن يمشى إليه مشى إليه ومن لم يطق وصل إليه عيسى عليه السلام وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ، ودعاؤه الذى كان يشفى به المرضى ويحيي به الموتى (اللهم أنت إله من فى السماء وإله من فى الأرض لا إله فيهما غيرك وأنت جبار من فى السموات وجبار من فى الأرض لا جبار فيهما غيرك وأنت ملك من فى السموات وملك من فى الأرض لا ملك فيهما غيرك وأنت حكم من فى السموات وحكم من فى الأرض لا حكم فيهما غيرك قدرتك فى الأرض كقدرتك فى السماء وسلطانك فى الأرض كسلطانك فى السماء أسألك بأسمائك الكرام إنك على كل شىء قدير)

﴿ باب فى قصة الحواريون عليهم السلام ﴾

قال الله تعالى (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد أنا مسلمون) وقال الله عز وجل (وإذا أوحيت إلى الحواريين) أى ألهمتهم ووفقتهم (أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون) أعلم بأن الحواريين كانوا أصفياء عيسى بن مريم وأولياءه وأرضياءه وأنصاره ووزراءه وكانوا إثنى عشر رجلا وأسماؤهم : شمعون الصفار المسمى بطرس وأندراوس أخوه ويعقوب بن زبدى ويحيى أخوه

وفيلبس وبرتولوماس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفا وليبا الذى يدعى تداوس وشمعون القنانى ويهوذا الاسخريوطى عليهم السلام .

واختلف العلماء فيهم لما سموا بذلك ، قال ابن عباس، كانوا صيادين يصطادون السمك فربهم عيسى فقال لهم ماتصنعون ؟ فقالوا نصطاد السمك قال لهم ألا تمشون معى حتى نصطاد الناس قالوا وكيف ذلك ، قالوا تدعو إلى الله قالوا ومن أنت ؟ قال أنا عيسى بن مريم عبدالله ورسوله قالوا فهل يكون أحد من الانبياء فوقك ؟ قال نعم النبى العربى ، فأتبعه أولئك وآمنوا به وانطلقوا معه .

وقال السدى : كانوا ملاحين ، وقال ابن أرطأة كانوا قصارين وسموا بذلك لانهم كانوا يحورون الثياب أى يبيضونها .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن مصعب قال الحواريون إثنا عشر رجلا اتبعوا عيسى فكانوا إذا جاعوا قالوا يا روح الله جعنا فيضرب بيده الارض سهلا كان أو جبلا فيخرج لكل إنسان رغيفاً فيأكلها ، وإذا عطشوا قالوا يا روح الله عطشنا فيضرب الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج الماء فيشربون ، فقالوا ياروح الله من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا وإذا شئنا أسقيتنا وآمنا بك واتبعناك ؟

قال أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه .

قالوا فصاروا يعملون الثياب بالكراء ، قال ابن عون صنع ملك من الملوك طعاماً فدعا الناس إليه ، وكان عيسى على قصعة فكانت القصعة لا تنقص فقال له الملك من أنت ؟ فقال أنا عيسى بن مريم ، قال الملك إنى أترك ملكى واتبعك فانطلق بمن اتبعه منهم وهم الحواريون ، وقيل هو الصباغ وأصحابه انتهت القصة

قال الضحاك : سموا حواريين لصفاء قلوبهم ، وقال عبد الله المبارك : سموا حواريين لانهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة ونورها وبياضها وبهاؤها ، وأصل الحور عند العرب شدة البياض ، ومنه الأحور والحور ، وقال الحسن : الحواريون الأنصار ، وقال قتادة : هم الذين تصلح لهم الخلافة ، وقال النضر بن شميل : الحوارى خاصة الرجل ومن يستعين به فيما ينويه .

ومنه قول النبي ﷺ : لكل نبي حواري وحواري الزبير ، فهؤلاء حواريو عيسى بن مريم عليه السلام ، فأما حواريو هذه الأمة ، فأخبرنا الحسين بن محمد الدينوري بإسناده عن سفيان بن معمر أن قتادة قال ، أن الحواريون كلهم من قريش ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وجعفر وأبو عبيده بن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم أجمعين.

(ذكر خصائص عيسى عليه السلام والمعجزات التي ظهرت على يديه)

(وبعد مبعثه إلى أن رفع صلوات الله وسلامه عليه)

منها تأييد الله إياه بروح القدس ، قال عز من قائل (وأيدناه بروح القدس) ونظيرها سورة المائدة (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) .

واختلفوا فيه فقال الربيع بن أنس هو الروح الذي نفخ فيه الروح أضافه سبحانه إلى نفسه تكريماً وتخصيصاً نحو بيت الله وناقة الله والقدس هو الله تعالى يدل عليه قوله تعالى : روح منه ، فنفخنا فيه من روحنا ، قال آخرون ، أراد بالقدس الطهارة أي الروح الطاهرة ، وسمى عيسى عليه السلام روحاً لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث إنما كان أمراً من الله تعالى .

قال السدي وكعب روح القدس جبريل وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان قرينه ورفيقه يعينه ويسير معه حيثما سار إلى أن صعد به إلى السماء وقال سعيد بن جبير وعقيد بن عمر هو إسم الله الأعظم وبه كان يحيي الموتى ويري الناس تلك العجائب ، ومنها تعليم الله إياه الإنجيل والتوراة ، وكان يقرؤهما من حفظه كما قال الله تعالى (وإذا علمتك الكتاب) أي الخط ، قيل الخط عشرة أجزاء فقسمة منها لعيسى والحكمة والتوراة والإنجيل .

ومنها خلقه الطير من الطين كما قال الله تعالى مخبراً عنه (إني جئتكم بآية من ربكم أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) وقال تعالى (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني) فكان يصور من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ

فيه فيكون طيراً بإذن الله ولم يخلق غير الخفاش وإنما خص بالخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً فيكون أبلغ فى القدرة لأن له ثدياً وأسناناً ويحيض ويطير .

قال وهب ؛ كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عنهم سقط ميتاً ليتميز فعل الخلق عن فعل الله تعالى وليعلم أن الكمال لله عز وجل .

ومنها إبراء الأكمه والأبرص قال الله (وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى) ، والأبرص الذى به وضح والأكمه الذى ولد أعمى ولم ير ضوءاً قط ولم يكن فى الإسلام أكمه غير قتادة وإنما خص هذين لأنهما أعييا الأطباء وكان الغالب على زمان عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك .

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بدير فيه عميان فقال ماهؤلاء ؟ فقيل هؤلاء قوم طلبوا القضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم فقال مادعاكم إلى هذا ؟ قالوا خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى فقال أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا باسم الله ففعلوا ذلك فإذا هم جميعاً قيام ينظرون .

ومنها إحياؤه الموتى بإذن الله تعالى « وإذ تخرج الموتى بإذنى » .وأحيا منهم أمواتاً منهم العاذر وكان صديقاً له فأرسلت أخته إلى عيسى أن أخاك العاذر يموت فأنه وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قدمات منذ ثلاثة أيام فقالوا لأخته انطلقى بنا إلى قبره فانطلقت معهم إلى قبره وهو فى صخرة مطبقة فقال عيسى ؛ اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتنى إلى بنى إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرتهم أنى أحيي الموتى بإذنك فأحي العاذر فقام العاذر وخرج من قبره وبقى وولد له .

ومنها ابن العجوز ، وكانت القصة فيه أن عيسى مر فى سياحته ومعه الحواريون بمدينة فقال أن فى هذه المدينة كنزاً فمن يذهب يستخرجه لنا فقالوا ياروح الله لايدخل هذه القرية أحد غريب إلا قتلوه فقال لهم عيسى مكانكم فمضى حتى دخل المدينة فوقف على باب فقال السلام عليكم يا أهل الدار غريب أطعموه فقالت له امرأة عجوز ؛ أما ترضى أن أدعك لأذهب بك إلى الوالى حتى تقول أطعمونى فبينما عيسى بالباب إذ أقبل الفتى ابن العجوز فقال له عيسى أضفنى ليلتك هذه فقال له الفتى مثل مقالة

العجوز فقال له عيسى أما إنك لو فعلت ذلك زوجتك بنت الملك فقال له الفتى ؛ إما أن تكون مجنوناً وإما أن تكون عيسى بن مريم ؟ فقال أنا عيسى فأضافه وبات عنده فلما أصبح قال له أعد وادخل على الملك وقل له جئت؛ أخطب إبنتك فإنه سيأمر بضربك وإخراجك فمضى الفتى حتى دخل على الملك فقال له جئت إليك أخطب إبنتك فأمر بضربه وأخرج فرجع الفتى إلى عيسى فأخبره بالخبر فقال إن كان غداً فاذهب إليه واخطب إبنته فإنه ينالك بدون ذلك ففعل الفتى ما أمره عيسى فضربه دون ذلك الضرب الأول فرجع إلى عيسى فأخبره فقال ارجع إليه فإنه سوف يقول لك أنا أزوجك إياها على حكمي وحكمي قصر من ذهب وفضة وما فيه من ذهب وفضة وزبرجد فقال له افعل ذلك فإذا بعث معك أحد فاخرج به فإنك سوف تجده فلا تحدث فيه شيئاً ثم إنه دخل على الملك فخطب فقال تصدقها بحكمي فقال وما حكمك؟ فحكم بالذي سماه عيسى فقال نعم رضيت أبعث من يقبض ذلك فبعث معه رجلا فسلم إليهم ما سأله الملك فتعجب الفتى من ذلك وقال يا روح الله تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحالة فقال له عيسى إني آثرت ما يبقى على ما يفنى فقال الفتى أنا أيضاً أدعه وأصحبك فتخلى عن الدنيا واتبع عيسى فأخذ عيسى بيده وأتى به إلى أصحابه وقال لهم هذا الكنز الذي قلت لكم فكان معه ابن العجوز إلى أن مات ومر به وهو ميت على سريره فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل من أعلى أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له .

ومنها إبنة العشار رجل كان يأخذ العشر ؛ قال له أتحييها وقد ماتت بالأمس فدعا الله عز وجل فعاشت وبقيت وولد لها .

ومنها سام بن نوح قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح ؛ لو بعثت لنا من شهد السفينة فينعت لنا ذلك فقام وأتى تلا فضرب بيده وأخذ قبة من تراب وقال هذا قبر سام بن نوح إن شئتم أحييته لكم قالوا نعم فدعا الله باسمه الأعظم وضرب التل بعصاه وقال احي بإذن الله فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب نصف رأسه فقال أو قد قامت القيامة ؛ قال لا ولكني دعوتك باسم الله الأعظم فقال ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان . وكان سام قد عاش خمسمائة سنة وهو شاب

ثم أخبرهم بخبر السفينة وقال له عيسى مت قال بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت فدعا الله عيسى ففعل ذلك ، وقد ذكر هذا الخبر في قصة نوح عليه السلام

ومنها عزير عليه السلام ، قالوا لعيسى عليه السلام أحيه وإلا أحرقناك بالنار . وجمعوا حطباً كثيراً من حطب الكرم وكانوا في ذلك الوقت يدفنون موتاهم في صناديق من حجارة مطبقة فوجدوا قبر عزير مكتوباً على ظهره إسمه فعالجوه ليفتحوه فلم يقدروا أن يخرجوه من قبره فرجعوا إلى عيسى فأخبره فناولهم إناء فيه ماء وقال لهم انضحوا قبره بهذا الماء ففعلوا فانفتح الطبق فأتوا به إلى عيسى وهو في أكفانه والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ثم أنه نزع ثيابه عنه ثم جعل ينضح على جسده الماء ولحمه وشعره ينبت ثم قال احي يا عزير بإذن الله تعالى فإذا هو جالس وكل ذلك تراه أعينهم فقالوا يا عزير ماتشهد لهذا الرجل يعنون عيسى فقال أشهد أنه عبدالله ورسوله فقالوا ياعيسى ادع لنا ربك يبقيه لنا ليكون بين أظهرنا حياً فقال عيسى ردوه إلى قبره فردوه إلى قبره فعاد ميتاً فآمن بعيسى بن مريم من آمن وعاند من عاند قال الكلبي كان عيسى يحي الموتى بياحي ياقيوم ؛ ومنها إخباره عليه السلام عن الغيوب قال الله عز وجل إخباراً عنه (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) . قال الكلبي لما أبرأ عيسى الأكمة والأبرص وأحيا الموتى قالوا هذا ساحر ولكن أخبرنا بما نأكل وبما ندخر فكان يخبر الرجل بما يأكل في غذائه وبما يأكل في عشائه

ومنها مشيه عليه السلام على الماء ، ويروى أنه خرج في بعض سياحته ومعه رجل من أصحابه قصير وكثير اللزوم لعيسى فلما انتهى عيسى إلى البحر قال بسم الله بصحة ويقين فمشى على وجه الماء فقال الرجل القصير بسم الله بصحة ويقين فمشى على وجه الماء فداخله العجب فقال هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء قال فانغمس في الماء فاستغاث بعيسى فتناوله عيسى من الماء وأخرجه وقال له ما قلت ياقصير فأخبره بما خامر خاطره فقال له عيسى لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ماقلت فتب إلى الله مما قلت فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها فاتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً .

وحدثنى الإمام أبو منصور الخشاوى بإسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال (لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذى ليس بعده جهل وما بلغ ذلك أحد قط قال ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا قالوا يارسول الله قد بلغنا أن عيسى بن مريم مشى على الماء ؟ قال نعم ولو ازداد خوفاً ويقيناً لمشى على الهواء قالوا يارسول الله ما كنا نرى أن الرسل تقصر ، فقال إن الله تعالى أبلغ شأناً من أن يبلغ أحد شأنه

(ذكر حديث جامع هذا الباب)

قال وهب : خرج عيسى عليه السلام يسيح فى الأرض فصحبه يهودى وكان مع ذلك اليهودى رغيفان ومع عيسى رغيف فقال له عيسى تشاركنى فى طعامك قال اليهودى نعم فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف واحد ندم فقام عيسى إلى الصلاة فذهب صاحبه وأكل رغيف فلما قضى عيسى صلاته قدما طعامهما فقال لصاحبه أين الرغيف الآخر ؟ فقال ما كان إلا رغيف واحد فأكل عيسى رغيفاً وصاحبه رغيفاً ثم انطلقا فجاءا إلى شجرة فقال عيسى لصاحبه لو أنا بتنا تحت هذه الشجرة حتى نصبح فقال افعل فباتا ثم أصبحا منطلقين فلقيا أعمى فقال له أرأيته إن أنا عالجتك حتى يرد الله عليك بصرك فهل تشكره ؛ قال نعم فمس عيسى بصره ودعا الله تعالى فإذا هو صحيح فقال عيسى لليهودى بالذى أراك الأعمى بصيراً كم كان معك من رغيف ؟ فقال والله ما كان إلا رغيف واحد فسكت عيسى عنه ومرا فإذا هو بمقعد فقال له عيسى : أرأيت إن عالجتك فعافاك الله فهل تشكره ؟ قال نعم فدعا الله تعالى عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه فقال صاحب عيسى مارأيت مثل هذا قط فقال له عيسى بالذى أراك الأعمى بصيراً والمقعد صحيحاً أين الرغيف الثانى ؟ فحلف له أنه ما كان معه إلا رغيفاً واحداً فسكت عيسى عنه ، فانطلقا حتى انتهيا إلى بحر عجاج فقال له عيسى لا أرى جسراً ولا سفينة فخذ بحجابى من ورائى وضع قدمك موضع قدمى ففعل فمشيا على الماء فقال له عيسى بالذى أراك الأعمى والمقعد وسخر لك الماء من صاحب الرغيف الثالث فقال والله ما كان إلا رغيف واحد فسكت عيسى ثم انطلقا فإذا هما بظباء ترعى فدعى عيسى بظبى فذبحه وشوى منه بعضاً وأكلاه ثم ضرب عيسى بقية الظبى بعصاه وقال قم بإذن الله عز وجل فإذا الظبى يعدو

فقال سبحان الله فقال عيسى بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الآخر ؟ فقال ما كان إلا رغيف واحد فمر بصاحب بقر فنادى عيسى ياصاحب البقر اجزر لنا من بقرك هذا عجلان فقال ابعث صاحبك اليهودى يأخذه فانطلق اليهودى فجاء به وذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر إليه فقال عيسى كل ولا تكسر عظماً فلما فرغ قذف بعظامه فى جلده ثم ضربه بعصاه وقال له قم بإذن الله فقام العجل وله خوار فقال له عيسى ياصاحب البقر خذ عجلك قال ويحك من أنت ؟ قال أنا عيسى بن مريم قال عيسى السحار ثم فر منه فقال عيسى لصاحبه بالذى أحيا العجل كم كان معك من رغيف ؟ فقال ما كان معى إلا رغيف واحد فسكت ومشيا حتى دخلا قرية فنزل عيسى فى أسفلها واليهودى فى أعلاها فأخذ اليهودى عصا عيسى وقال له أنا الآن أبرىء المرضى وأحيى الموتى قال وكان ملك لك القرية مريضاً مدنفاً فانطلق اليهودى ونادى من يبتغى طبيبا حتى أتى باب الملك فأخبر بوجعه فقال ادخلونى عليه فأنا أبرئه وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه فقيل له إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك وليس من طبيب يداويه ولا يشفيه إلا صلبه فقال أدخلونى عليه فأدخل عليه فضرب الملك بعصاه فمات فجعل يضرب الملك بالعصا وهو ميت ويقول له قم بإذن الله فلم يقم فأخذ ليصلب فبلغ ذلك عيسى فأقبل عليه وقد رفع على الخشبة فقال لهم عيسى أرأيتم لو أحييت لكم الملك هل تتركون لى صاحبى ؟ قالوا نعم فدعا الله عز وجل فأحياه وقام فأنزل اليهودى من على الخشبة فقال يا عيسى أنت أعظم الناس على منة والله لا أفارقك أبداً فقال له عيسى أنشدك الله الذى أحيا الظبى والعجل بعدما أكلناهما وأحيا هذا بعد ما مات وأنزلك من على الجذع بعدما صلبك كم كان معك من رغيف؟ قال فحلف بهذا كله وقال والله ما كان معى إلا رغيف واحد فقال عيسى لا بأس فانطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خربة فيها كنز ثلاث لبنات من ذهب قد حفرتها السباع والدواب فقال الرجل لعيسى هذا المال لك فقال عيسى أجل واحدة لى وواحدة لك وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث ، فقال اليهودى لعيسى أنا صاحب الرغيف الثالث أكلته وأنت تصلى فقال عيسى هى لك كلها ؛ فانطلق عيسى وتركه ينظر وهو لا يستطيع أن يحمل منهن واحدة لثقلها عليه فقال له عيسى دعه فإن له أهلا

يهلكون عليه فجعلت نفس اليهودى تتطلع إلى المال و يكره أن يعصى عيسى و يعجزه حمل المال فانطلق مع عيسى ، فبينما هو كذلك إذ مر بالمال ثلاثة نفر فأتوا عليه فقال اثنان منهما لصاحبهما الثالث انطلق إلى بعض القرى فائتنا بطعام وشراب ودواب نحمل عليها هذا المال فلما ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر هل لك أن تقتله إذا رجع و تقسم المال بيننا ؟ قال نعم وقال الذى ذهب فى نفسه أنا أجعل فى الطعام سما فإذا أكلاه ماتا و يصير المال كله لى ففعل ذلك فلما رجع إليهما ووصل قتلاه ثم أكلا الطعام الذى جاء به إليهما فماتا وأن عيسى عليه السلام مر بهم وهم حوله مقتولين فقال ؛ لا إله إلا الله هكذا تصنع الدنيا بأهلها ثم إن عيسى أحياهم بإذن الله تعالى فاعتبروا و ساروا ولم يأخذوا من المال شيئا فتطلعت نفس اليهودى صاحب عيسى إلى المال فقال اعطانى المال فقال عيسى خذه لك فهو حظك فى الدنيا والآخرة فلما ذهب ليأخذه خسف به الأرض فانطلق عيسى عليه السلام و منها نزول المائدة قال الله تعالى (إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) الآية .

واختلف العلماء فى صفة نزول المائدة وكيفيتها وما كان عليها فروى قتادة عن جابر عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال (نزلت المائدة عليها خبز ولحم وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه ولا ينفد قال فقال لهم إنى فاعل ذلك وإنها مقيمة لكم مالم تخبئوا أوتخونوا فإن فعلتم ذلك عذبتم ، قال فما مضى يومهم حتى خانوا وخبئوا ؛ وفى بعض الروايات أن بعضهم سرق منها وقال لعلها لاتنزل أبداً فوقعت ومسخوا قردة وخنازير ؛ قال ابن عباس قال عيسى لبنى إسرائيل صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطيكموه فصاموا ثلاثين يوما فلما فرغوا قالوا يا عيسى إنا إن عملنا لأحد أقضينا عمله أطعمنا طعاما وإنا إن صمنا وجعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء فلبس عيسى المسوح وافترش الرماد ثم دعا الله تعالى فقال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) الآية فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها ٧ أرغفة و٧ أحوات ووضعتها بين أيديهم فأكل منها آخرهم كما أكل أولهم وروى عطاء بن السائب وغيره أنه كانت بالمائدة إذا وضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليها الأيدى فيها كل الطعام إلا اللحم ؛ وقال عطية العوفى نزلت سمكة من السماء فيها

طعم كل شيء ؛ وقال قتادة كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة وكانت تنزل عليهم بكرة وعشية حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل .

وقال وهب أنزل الله أقرصة من شعير وحيتانا فقيل لوهب ما كان ذلك يغنى عنهم من شيء قال بلى ولكن الله ضاعف لهم البركة فكانوا قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم وقال كعب الأحبار نزلت مائدة من السماء منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم وقال مقاتل والكلبي استجاب الله لعيسى عليه السلام فقال إني منزلها عليكم كما سألتني فمن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة وعبرة لمن بعدهم قالوا قد رضينا فدعا شمعون الصفار وكان أفضل الحواريين فقال هل معك طعام ؟ فقال معي سمكتان صغيرتان وستة أرغفة فقال علي بها فقطعها عيسى قطعا وقال اقعدوا في روضة وترافقوا رفاقا كل رفقة عشرة ثم قام عيسى ودعا الله تعالى فاستجاب له وأنزل فيها البركة فصار خبزا صحاحا وسمكا صحاحا ثم قام عيسى يمشي فجعل يلقي في كل رفقة ما حملت أصابعه ثم قال كلوا باسم الله فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم فأكلوا ماشاء الله وفضل الناس خمسة آلاف ونيف وقال الناس جميعا شهدنا أنك عبد الله ورسوله ثم سألوه مرة أخرى فأنزل الله خمسة أرغفة وسمكتين فصنع ما صنع في المرة الأولى فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقال ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا قردة وخنازير وليس منهم صبي ولا امرأة فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ويشربوا وكذلك كل ممسوخ ويروى عن عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي أنه قال والله ماتبع عيسى من المساوى ولا انتهر يتيما ولا قهقه ضحكا ولا ذب ذبابا عن وجهه ولا أخذ على أنفه من تين شيئا قط ولا عبث قط

ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم الموائد صنوفا قال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) الآية وارزقنا عليها طعاما نأكل (وأنت خير الرازقين) فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوى منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى وقال اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم

اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة وهم ينظرون إليها فنظروا إلى شيء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحا أطيب من رائحة ذلك فقال عيسى لهم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله ويأكل منها فقال شمعون الصفار رأس الحواريين أنت أولى بذلك منا فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيراً ثم كشف المنديل عنها وقال باسم الله خير الرازقين فإذا هو بسمكة مشوية ليس عليها فلوس ولا شوك فيها تسيل سيلانا من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحواليها من أنواع البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا م من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام ليس ما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكن افتعله الله بالقدرة الغالية كلوا مما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله قالوا يا روح الله لو رأيتنا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال عيسى يا سمكة احيي بإذن الله فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ففزعوا منها فقال عيسى ما لكم تسألون أشياء إذا أعطيتموها كرهتموها ، ثم قال فما أخوفني عليكم أن تعذبوا يا سمكة عودي كما كنت بإذن الله فعادت السمكة مشوية كما قالوا يا روح الله كن أول من يأكل منها ثم نأكل نحن فقال عيسى معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمبتلين وقال كلوا من رزق الله ولكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير وزمن ومريض ومبتلي كلهم شبعان يتجشأ ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء ، ثم طارت المائدة صعداً وهم ينظرون إليها حتى توارت منهم فلم يأكل منها يومئذ مريض إلا برىء ولا زمن إلا صح ولا مبتلي إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيا حتى مات وندم الحواريون ومن لم يأكل وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدحمون عليها فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعداً وهم ينظرون حتى تغيب عنهم وكانت تنزل غباً تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة ثمود فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل

مائدتي ورزق للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها فقالوا أترون المائدة تنزل من السماء حقا فقال لهم عيسى هلكتم فشمروا لعذاب الله فأوحى الله تعالى إلى عيسى إنى شرطت على المكذبين شرطين أن من كفر بعد نزولها عذبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين فقال عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثون رجلا باتوا من ليلتهم على الفرش مع نسائهم فى ديارهم فاصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون القاذورات والحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى بن مريم فبكوا وبكى على الممسوخين أهلوهم فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف فجعل عيسى يدعوهم باسمائهم واحداً واحداً فيبكون ويشيرون برءوسهم لا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاث أيام وهلكوا

ومنها ما روى أن عيسى عليه السلام مر على رجل جالس عند قبر وكان يكثر المرور فيجده جالسا فقال ياعبد الله أراك تكثر الجلوس عند هذا القبر فقال ياروح الله هذه امرأة كان لى من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولى عندها وديعة قال أفتحب أن أدعو الله فيحييها لك ؟ قال نعم فتوضأ عيسى وصلى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جذع محترق فقال له من انت ؟ فقال يارسول الله أنا رجل فى عذاب منذ أربعين سنة فلما كنت فى هذه الساعة قيل لى اجب فاجبت ثم قال يا رسول الله مر على من ألم العذاب ما إن ردنى الله إلى الدنيا أعطيته عهداً أن لا أعصيه أبداً فادع الله لى فرق له قلب عيسى عليه السلام ودعا الله عز وجل ثم قال له امضى فمضى فقال له صاحب القبر يارسول الله لقد غلطت بالقبر إنما قبرها هذا فدعا الله عيسى عليه السلام فخرجت من ذلك القبر امرأة شابة جميلة فقال له عيسى أتعرفها ؟ قال نعم هذه امرأتى فدعا الله عيسى حتى ردها عليه فاخذ الرجل بيدها حتى انتهيا إلى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه فى حجرها فمر بها ابن الملك فنظرها ونظرت إليه وأعجب كل واحد منهما بصاحبه فاشار إليها فوضعت رأس زوجها عن حجرها واتبعت الفتى فاستيقظ زوجها فتفقدها فلم يجدها فطلبها فدل عليها فتعلق بها وقال امرأتى فقال الفتى هى جاريتى فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى عليه السلام

فقال الرجل هذا عيسى ثم قص عليه القصة فقال لها عيسى ما تقولين ؟ قالت أنا جارية هذا ولا أعرف هذا فقال لها عيسى ردى علينا ما أعطيناك قالت فملت فسقطت مكانها ميتة فقال عيسى هل رأيتم أعجب من هذا رجل أماته الله كافراً ثم بعثه فآمن وهل رأيتم امرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت ، ومنها رفعه إلى السماء إذ قال الله (ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا) الآية ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) إلى قوله تعالى (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما) .

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا ؛ قد جاء الساحر ابن الساحر الفاعل بن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما رأى ذلك عيسى دعا عليهم فقال اللهم أنت ربى وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقت ولم آتهم من تلقاء نفسى اللهم العن من سبنى وسب أمى فاستجاب الله دعاءه ومسخ الذين سبوه وأمه خنازير فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى فاجتمعوا عليه ذات يوم وجعلوا يسألونه فقال يا معشر اليهود إن الله يبغضكم فغضبوا من مقالته غضبا شديداً وثاروا عليه ليقتلوه فبعث الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فادخله خوخة وواراه فى سقفها ورفعه الله تعالى من روزنته فامر رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له فلطيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله فلما دخل فلطيانوس لم ير عيسى فابطا عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فالقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه وقال وهب إن عيسى لما أعلمه الله تعالى أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما وقال احضرونى الليلة فلى إليكم حاجة فلما اجتمعوا إليه من الليل غشاهم وقام بخدمتهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضيهم ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال ألا من رد عليه شيئا مما أصنع فليس منى ولا أنا منه فاقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال لهم ؛ أنا ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام غسلت أيديكم بيدى إلا ليكون لكم بى أسوة إنكم ترون إنى خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم نفسه

البعض كما بذلت نفسي لكم ؛ أما الحاجة التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن تؤخروا أجلي فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا يجتهدوا أرسل الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول سبحان الله ماتصبرون في ليلة واحدة وتعينوني فيها ؟ فقالوا والله ماندري مالنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وماتطيق الليلة سمراً وماتريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال يذهب الراعي وتبقى الغنم وجعل يأتي بكلام مثل هذا يعني نفسه ثم ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذ شمعون أحد الحواريين فقالوا أهذا من أصحابه فجحد وقال ماأنا من أصحابه فتركوه ثم أخذ آخر فجحده كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه ذلك فلما أصبح دعا أحد الحواريين أولئك اليهود فقال ماتجعلون لي إن دللتكم عليه؟ فجعلوا له ٣٠ درهما فأخذها ودلهم عليه وكان شبه لهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون أنت كنت تحيي الموتى وتبرىء الأكمة والأبرص أفلا تفك نفسك من هذا الحبل ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك ثم إنهم نصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فلما أتوا به الخشبة ليصلبوه أظلمت الأرض وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبين عيسى وألقى شبه عيسى على الذين دلهم عليه واسمه يهودا فصلبوه مكانه وهم يظنون أنه عيسى وتوفى الله عيسى ثلاث ساعات ثم رفعه إلى السماء فذلك قوله تعالى (إني متوفيك ورافعك ومطهرك من الذين كفروا) فلما صلب الذي هو شبه عيسى جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها وأبرأها من الجنون يبكيان عند المصلوب فأتاهما عيسى وقال على من تبكيان ؟ فقالتا عليك فقال إن الله تعالى رفعني فلم يصبني إلا خيراً وإن هذا شخص شبه لهم

وقال مقاتل : إن اليهود وكلوا بعيسى رجلا يكون عليه رقيبا يدور معه حيثما دار فصعد عيسى الجبل فجاء الملك فرفعه إلى السماء وألقى الله تعالى شبه عيسى على الرقيب فظن اليهود أنه عيسى فأخذوه وكان يقول لهم إني لست عيسى إني فلان بن فلان فلم يصدقوه وقتلوه وصلبوه فقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله عيسى قال لأصحابه أيكم يقذف عليكم شبهي فإنه مقتول فقال رجل من القوم أنا يا نبي الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه إليه وقيل إن الذي شبه بعيسى وصلب مكانه رجل إسرائيلي يسمى أشيوع بن قيديرا والله أعلم.

(ذكر نزول عيسى من السماء بعد رفعه بسبعة أيام)

قال وهب وغيره من أهل الكتاب ، لما رفع الله عيسى عليه السلام لبث السماء سبعة أيام ثم قال الله له إن أعداءك اليهود أعجلوك من العهد إلى أصحابك فانزل عليهم وأوصهم واهبط على مريم المجدلانية فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها فانزل عليها وأخبرها أنها أول من تلحق بك وأمرها أن تجمع الحواريين فتبثهم فى الأرض دعاة إلى الله تعالى .

وكانت قصة مريم المجدلانية أنها كانت من بنى إسرائيل فى قرية من قرى أنطاكية يقال لها مجدلان ، وكانت امرأة صالحة وكانت تستحاض فلا تطهر فخطبها أشراف بنى إسرائيل فامتنعت فظنوا أنها رفعت بنفسها عنهم ولم يكن ذلك ترفعها وإنما أرادت إخفاء علتها عنهم ، فلما سمعت بمجىء عيسى عليه السلام ربما كان يشفى الله على يديه من المرضى الزمنى أقبلت إليه رجاء الشفاء ، فلما رأت عيسى وما ألبسه الله من الهيبة استحيت وانصرفت إلى ورائه ووضعت يدها على ظهره فقال عيسى لقد مسنى ذو عاهة بذية حسنة ولقد أعطاه الله ما رجاه وطهره بطهارتى فاذهب الله عنها ما بها وبرأت وطهرت فلما أمر الله عيسى بالنزول عليها سبعة أيام من رفعه هبط عليها فاشتعل الجبل حين هبط نور فجمعت له الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله ثم رفعه الله وكساه الريش وألبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب فهو يطير مع الملائكة حول العرش فكان إنسيا ملكيا أرضيا سماويا وتفرق الحواريون حيث أمرهم تلك الليلة التى أهبط فيها هى الليلة التى تزخرفها النصارى قالوا فوجه بطرس رومية وأندراوس ومتى إلى الأرض التى يأكل أهلها الناس وتوما وليا إلى أرض المشرق وفيلبس ويهوذا إلى القيروان وإفريقيه ويحى إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف واليعقوبيين إلى أورشليم وهى إيلياء أرض بيت المقدس وبرتولوماوس إلى الإعرابيه رضر الحجاز وشمعون إلى أرض بربر فاصبح كل واحد من الحواريين الذين بعثهم يحدث بلغة من أرسله عيسى إليهم .

قال ابن إسحق ، ثم عمد اليهود إلى بقية الحواريين أصحاب عيسى يشمسونهم ويعذبونهم ويطوفون بهم فسمع ذلك ملك الروم وكان صاحب وثن فقيل له إن

رجلا كان فى هؤلاء الناس الذين تحت يدك من بنى إسرائيل عدوا عليه فقتلوه ؛ وكان يخبرهم أنه رسول الله وقد أحيا لهم الموتى وأبرأ لهم الأسقام وخلق لهم من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طائراً بإذن الله وأخبرهم بالغيب وأراهم العجائب فقال ملك الروم فما منعكم أن تذكروا لى من أمره فوالله لو علمت لخليت بينه وبينهم ثم إنه بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم فلما أتوه سألهم عن دين عيسى فأخبروه خبره فبايعهم على دينه واستنزل شبه عيسى والخشبة التى صلب عليها فأكرمها وصانها لما مسها منه وغزا بنى إسرائيل فقتل منهم خلقا كثيراً فمن هناك كانت أصل النصرانية فى الروم .

وقال أهل التوراة ؛ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورشليم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على بابل ولإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الإسكانين أوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه من بيت المقدس إليه ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين والله أعلم

(ذكر وفاة مريم إبنة عمران عليهما السلام)

قال وهب ؛ لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام آخى بين الحواريين فأمر رجلين منهم يقال لأحدهما شمعون الصفار والآخر يحيا أن يلتزما أمه ولا يفارقاها فانطلقا ومعهما مريم إلى ماروت ملك الروم يدعونه إلى الله تعالى وقد بعث الله تعالى إليه قبل ذلك بولس عليه السلام فلما أتوه أمر بشمعون وأندراوس فقتلا وصلبا منكسين وهربت مريم ويحيى حتى إذا كانا فى بعض الطريق لحقهما الطلب خافا فانشقت لهما الأرض فغابا فيها وأقبل ماروت ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا فردوا التراب على حاله وعلموا أنه أمر من الله تعالى فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأخبروه فأسلم كما ذكرنا والله أعلم .

﴿ ذكر نزول عيسى عليه السلام من السماء فى المرة الثانية فى آخر الزمان ﴾

قال الله تعالى (وإنه لعلم للساعة فلا تمترون بها) الآية وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول عيسى عليه السلام فى القرآن ؟ قال نعم قوله « وكهلا » وهو لم يكتهل فى الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء .

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمد البيهقى بإسناده عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى بن مريم عليهما السلام لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ويوشك أن ينزل فيكم ابن مريم عـــدلاً حكماً وإنه نازل على أمتى وخليفتى عليهم فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن رأسه تقطر ولم يصبه بلل ينزل بين ممصرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويقبض المال ويهل من الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ملبياً بهما جميعاً ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك فى زمانه الملل كلها غير الإسلام وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين ويهلك الله فى زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضاً ثم يلبث فى الأرض أربعين سنة ويتزوج ويولد له ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه فى المدينة بجنب عمر واقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) أى قبل موت عيسى يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات .

وأخبرنا محمد بن القاسم الفارسى بإسناده عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (إذا أهبط الله المسيح عيسى يعيش فى هذه الأمة ما يعيش ثم يموت فى مدينتى هذه ويدفن إلى جانب قبر عمر فطوبى لأبى بكر وعمر يحشران بين نبيين .

وأخبرنى أبى قال حدثنى الحسين بن أحمد بن محمد على بإسناده عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ (كيف يهلك الله أمة انا فى أولها وعيسى فى آخرها والمهدى من أهل بيتى فى وسطها) .

﴿ باب فى قصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليه السلام إلى أنطاكية ﴾
﴿ وذلك فى أيام ملوك الطوائف ﴾

قال الله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) يعنى رسل عيسى عليه السلام (إذ أرسلنا إليهم اثنين) واختلفوا فى إسمهما) فقال ابن إسحق فاروض وروماض ، وقال وهب ويحيى ويونس وقال مقاتل يومان و وقال كعب صادق وصدوق (فكذبوهما فعززنا بثالث) أى فقويناهما بثالث وهو شمعون القصار رأس الحواريين فى قول أكثر المفسرين وقال كعب إسمه شلوم وقال مقاتل سمعان .

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية ، فلما قربا من المدينة أتيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسلما عليه فقال من أنتم ؟ قالا رسولا عيسى عليه السلام ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن قال أمعكما آية ؟ قالا نعم نحن نبرىء المريض ونشفى الأكمة والأبرص بإذن الله ، فقال الشيخ أن لى إبناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين ، فلما نظرا إلى ولد الشيخ قربا إليه ودعوا له ومسحا بيديهما فقام فى الوقت بإذن الله ، وشفى الله على يديهما كثيراً من المرضى ، وكان فى مدينة أنطاكية فرعون من الفراعنة يعبد الأصنام يقال له سلاحين .

وقال وهب : إسمه بطيحيس وكان من ملوك الروم قالوا فانتهى الخبر إلى الملك فدعاهما إليه وقال لهما من أنتما ؟ قالا رسولا عيسى قال وما آيتكما ؟ قالا نبرىء الأكمة والأبرص ونشفى المرضى بإذن الله تعالى ، قال وفيم جئتما ؟ قال جئناك ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر قال الملك : أو لنا إله سوى آلهتنا ؟ قال نعم ، قال من ؟ قالا من أوجدك بعد عدمك : قال قوما حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما فى السوق .

وقال وهب : بعث عيسى بهذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما ، فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله تعالى فغضب الملك فأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائة جلدة قالوا فلما كذب الرسولان وضربا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفار على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضى عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم أيها الملك إنه قد بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتهما حين دعوك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما ؟ فقال حال الغضب بينى وبين ذلك ، قال فإن رأى الملك دعاهما ، فدعاهما الملك فلما حضرا قال شمعون لهما من أرسلكما إلى هنا ؟ قالا الذى خلق كل شىء فإنه يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ، قال شمعون وما آيتكما ؟ قالا ما نتمناه نبرىء الأكمة والأبرص ونشفى المرضى والزمنى بإذن الله ، قال فأمر الملك فجىء بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقيتين من الطين فوضعاهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فانشرح الملك فقال شمعون للملك إن أنت سألت إلهك حتى يصنع لك صنيعاً مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلهك فقال الملك ليس لى عنك سر اعلم أن إلهنا الذى نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع فقال الملك للرسولين إن الحكم الذى تعبدانه يقدر على إحياء الميت ؟ قالا إلهنا يقدر على كل شىء فقال الملك إن ههنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن الدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاءوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو سراً فقام الميت وقال لهم إنى قدمت منذ سبعة أيام مشركاً فأدخلت فى سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله ثم قال إن أبواب السماء فتحت لى فرأيت شاباً حسن الوجه يتشفع لهؤلاء الثلاثة فقال الملك ومن الثلاثة ؟ فقال شمعون هذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك فلما علم شمعون أن قوله قد أثر فى الملك أخبر بالحال ودعاه فآمن قوم وكان الملك ممن آمن وكفر آخرون .

وقال كعب ووهب ، بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيب بن مرى صاحب يس ، وقال ابن عباس ومقاتل واسمه حبيب بن إسرائيل النجار قال وهب ، وكان سقيما قد أقر فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب من أبواب مدينة أنطاكية وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمضى فيقسمه نصفين يطعم عياله نصفاً ويتصدق بالنصف الآخر فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل الرسل جاءهم وكان قبل ذلك يكتم إيمانه ويعبد ربه فى غار ، فلما أتاه خبر الرسل أظهر دينه وذكر قومه ودعاهم إلى طاعة المرسلين كما أخبر الله تعالى فى كتابه ، وذلك قوله تعالى (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) إلى قوله مهتدون فقال له قومه أو أنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم ؟ فقال : (ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) إلى قوله (إنى آمنت بربكم فاسمعون) فلما قال لهم ذلك وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن أحد يدفع عنه .

وقال الحسن : خرقوا خرقاً فى حلقه وعلقوه فى سور المدينة ودفنوه فى سوق أنطاكية فأوجب الله له الجنة فذلك قوله تعالى (قيل ادخل الجنة) فلما أفضى إلى جنة الله وكرامته (قال ياليت قومى يعلمون بما غفرلى ربى وجعلنى من المكرمين) قالوا فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة وأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم فذلك قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) على غيرهم من كفار الأمم (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) أى ميتون .

أخبرنا أبو بكر الخشاوى بإسناده عن أبى ليلى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ (سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار مؤمن آل يس ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو أفضلهم

﴿ قصة يونس بن متى عليه السلام ﴾

متى أمه ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس متى عليهما السلام وهو الذى قال رسول الله ﷺ فيه (لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) قال الله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً) الآيات.

قالت العلماء بأخبار القدماء : كان يونس رجلا صالحاً يتعبد فى جبل وكان فى قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى وكان قومه يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهى عن الكفر والأمر بالتوحيد وكان يونس عليه السلام رجلا صالحاً لا يصبر على الناس فلحق بالجبل يعبد الله تعالى فيه وكان حسن القراءة يستمع إلى قراءته الوحش كما كان لداود فى زمانه وكان يعتريه حدة ولذلك نهى رسول الله ﷺ أن يكون مثله لخفة وعجلة ظهرت منه قال الله تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) وقال تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) لأنه كان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم ، قال رسول الله ﷺ (كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ؛ ولذلك السبب ذهب مغاضباً) .

واختلف العلماء فى صفة مغاضبته وسبب ذلك ووقته ، فقال قوم ذهب مغاضباً لقومه وهى رواية الضحاك والعوفى عن ابن عباس قال : كان يونس بن متى وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقى سبطان ونصف وكانوا إثنى عشر سبطاً فيهم النبوة والملك فأوحى الله تعالى إلى شعياء النبى أن سر إلى حزقيا الملك وقل له يوجه نبياً قوياً أميناً فإنى ألقى الخوف فى قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل فقال الملك فما ترى؟ وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء فقال إن يونس فإنه قوى أمين فدعاه الملك وأمره أن يخرج فقال له يونس هل أمرك الله بإخراجى ؟ قال لا قال هل سمانى لك ؟ قال لا فقال ههنا غيرى أنبياء أقوياء أمناء فألحوا عليه فخرج مغاضباً للنبى وللملك ولقومه فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان

وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال أتى جبريل يونس فقال له انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم إن لم يتوبوا ، قال له التمس دابة

قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة فكان من أمره ما كان فعلى هذه الأقوال كانت رسالة يونس بعد نجاته من بطن الحوت .

قال ابن عباس إنما كانت رسالة يونس بعد أن نبذه الحوت ودليل هذا القول أن الله تعالى ذكر قصة يونس فى سورة الصافات ثم عقبها بقوله (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وقال آخرون : بل كانت قصة الحوت بعد دعاء قومه وتبليغه الرسالة وإنما ذهب عن قومه مغاضباً لربه إذ كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم به وذلك أنه كره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب والخلف فيما أوعدهم بل ولم يعلم السبب الذى رفع عنهم العذاب والهلاك فخرج مغاضباً قال والله لا أرجع إليهم كذاباً أبداً أوعدتهم العذاب فى يوم ولم يأتهم .

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : بعث الله يونس بن متى إلى قومه وهو ابن ٣٠ سنة فأقام فيهم يدعوهم إلى الله تعالى ٣٣ سنة فلم يؤمن به إلا رجلان أحدهما روبيل وكان عالماً حكيماً والآخر تنوخا وكان عابداً زاهداً .

قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : لما أيس من إيمان قومه دعا عليهم فقيل له ما أسرع مادعوت على قومك ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى فإن أجابوك وإلا فإنى مرسل عليهم العذاب فرجع ودعاهم ٣٧ ليلة فلم يجيبوه فقام خطيباً فيهم وقال إنى محذركم العذاب إلى ٣ أيام إن لم تؤمنوا ثم قال لهم إن آية ذلك تغير ألوانكم فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم فقالوا لبعضهم قد نزل بكم ماقال يونس وإنا لم نجرب عليه كذباً فانظروا فإن بات الليلة فآمنوا من العذاب وإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم فخرج من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب .

قال سعيد بن جبير كما يغشى التراب القبر إذا دخل فيه صاحبه وقال مقاتل كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل وقال ابن عباس قدر ثلثى ميل وقال وهب اغيمت السماء غيما أسود هائلا تدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك والعذاب فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه

فقذف الله فى قلوبهم التوبة وألهمهم الرجوع إليه فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة لله وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام فحن بعضها إلى بعض وعلت أصواتهم واختلط حنينهم وتضرعوا إلى الله وقالوا آمنا بما جاء به يونس فرحمهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم وذلك يوم عاشوراء وقيل كان يوم الأربعاء للنصف من شوال .

وروى صالح المروى عن عمران الجونى عن أبى خالد قال لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ قالوا يا حى حين لا حى ياحى حين تحيى الموتى لا إله إلا أنت فقالوا كشف الله عنهم العذاب ومتعوا إلى حين كما قال الله تعالى فلولا كانت قرية آمنت أى فلم تكن قرية آمنت وضع التحضيض موضع النفى لأن فيه ضرباً من الجحد (فنفعها إيمانها) فى وقت اليأس عند معاينة العذاب (إلا قوم يونس لما آمنوا) نفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت لما علم الله من صدقهم (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) .

قال يونس كيف أرجع إلى قومى وقد كذبتهم فانطلق معاتباً ربه مغاضبا قومه فأتى البحر كما قال الله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) أى أن لن نقضى عليه العقوبة تقول العرب قدر الله الشىء يقدره تقديراً وقدره يقدره قدراً وقد قرىء بهما جميعاً فى قوله تعالى (نحن قدرنا بينكم الموت) وقوله تعالى (والذى قدر فهدى) هذا قول أكثر المفسرين ، وقال عطاء معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس فن قول الله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى ويضيق ، وقوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه) .

قال ابن زيد : هو استفهام معناه فظن أن لن نقدر عليه ، وقال الحسن معناه فظن أن يعجز ربه فلا يقدر عليه ، قال وبلغنى أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضباً ربه فاستنزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه الشيطان فلما أتى يونس البحر إذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغير

أجرة فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت والسفن تسير يميناً وشمالا فقال الملاحون أفيها عبداً آبقاً من سيده وهذا رسم السفينة إن كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس فقال أنا الآبق فقالوا تلقى فى الماء فاقترعوا ثانياً وثالثاً فخرجت القرعة على يونس فزج نفسه فى الماء فذلك قوله تعالى (فساهم فكان من المدحضين) فلما وقع فى الماء وكل الله به حوتاً فابتلعه وأوحى الله تعالى إلى الحوت إنى لم أجعله لك رزقاً بل جعلناك له حرزاً ومسكناً فخذه ولا تكسر له عظماً ولا تخدش له لحماً فاهوى به إلى مسكنه فى البحر وقد انطلق من ذلك المكان حتى مر به على الأبله ثم مر به على دجلة ثم انطلق به إلى نينوى ، ويقال إن الله تعالى رقق له جلد الحوت حتى كاد يرى جميع ما فى البحر فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس صوتاً فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه وهو فى بطن الحوت أن هذا تسبيح دواب البحر فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً معروفاً بأرض مجهولة ؟ قال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بدن الحوت فى البحر قال فشفعوا له عند ذلك وهو قوله (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت) قال ابن عباس ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

وروى سعيد بن المسيب عن سعد بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إسم الله الذى إذا دعا به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى فقلت يا رسول الله هى ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ فقال هى ليونس خاصة ولجماعة المسلمين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قوله تعالى (فنادى فى الظلمات) إلى قوله (وكذلك ننجى المؤمنين) فلما دعا به يونس وشفعت له الملائكة أمر الله الحوت فقذفه إلى ساحل نينوى كما قال الله تعالى (فنبذناه بالعراء) أى بوجه الأرض (سقيم) أى عليل ضعيف كالفرخ الممعط .

واختلفوا فى مدة مكث يونس فى بطن الحوت فقال مقاتل ٣ أيام وقال عطاء ٧ أيام ، وقال الضحاك ٢٠ يوماً وقال السدى والكلبى ٤٠ يوماً فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين وهو القرع فجعل يستظل بها فذلك

قوله تعالى (وأنبتنا عليه) أى عنده (شجرة من يقطين) قالوا فيبست الشجرة فبكى عليها فأوحى الله إليه : أتبكى على شجرة يبست ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم .

ثم ذهب يونس فإذا هو بغلام يرعى غنما فقال من أين أنت يا غلام ؟ قال أنا من قوم يونس ، فقال له إذا رجعت فقل لهم إنك لقيت يونس فقال الغلام : إن كنت يونس فأنت تعلم أنه إن لم يكن لى بينة قتلت فمن يشهد لى ؟ فقال يونس تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة وهذه الشاة ، وأشار إلى شاة من غنمه فقال له الغلام فرهم ؟ قال لهم يونس إذا جاءكم هذا الغلام فاشهدوا له ؟ قالوا نعم .

فرجع الغلام إلى قومه ثم قال للملك إنى قد لقيت يونس وإنه يقرأ عليكم السلام فأمر الملك بقتله وقال كذبت فقال إن لى بينة فأرسلوا معى أحدا يشهد فأرسلوا معه رجالا فأتى البقعة والشجرة والشاة وقال أنشدكم بالله هل أشهدكم يونس ؟ قالوا نعم فرجع القوم مذعورين فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه فى مجلسه وقال : أنت أحق بهذا المكان منى ، قال فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة ثم خرجوا يلتمسون يونس فوجدوه ففرحوا به وآمنوا به فأقام لهم أمرهم .

يروى أن يونس عليه السلام مضى من عندهم فنزل قرية ليلا فأضافه رجل وكان ذلك الرجل قد عمل كثيراً من الفخار . فأوحى الله إليه يايونس مر صاحب هذا الفخار أن يكسر تلك الفخارات فقال له يونس ذلك فلما سمع ذلك منه شتمه وقال شىء عملته بيدى أعيش منه وأتمتع بثمنه أنا وعيالى تأمرنى بكسره فبكى يونس فأوحى الله إليه : هذا عمل فخاراً من طين لم تطب نفسه بكسره وأنت طبت نفساً ووطنتها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادى فمضى يونس وهبط واديا .

قال فلما شهدت الشجرة والأرض والشاة والغلام وكانت الشاة التى كانت مع الغلام قالت لهم إن أردتم يونس فاهبطوا الوادى فهبطوا فإذا هم بيونس فسألوه أن يدخل معهم المدينة ، فقال لا حاجة لى فى مدينتكم وألحوا عليه فأبى عليهم فمكث مع أهله وولده أربعين ليله ثم خرج سائحا وخرج الملك معه وصبر الغلام الراعى ملكا لتلك المدينة كما ذكرنا فلم يزالا سائحين يعبدان الله تعالى حتى ماتا عليهما السلام، وكانت نبوة يونس فى زمان ملوك الطوائف والله أعلم .

﴿ باب فى قصة أصحاب الكهف ﴾

قال الله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) اختلف العلماء فى الرقيم . قال النعمان بن بشير الأنصارى : سمعت رسول الله ﷺ يذكر الرقيم قال « إن ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهليهم فبينما هم يمشون إذا أصابتهم السماء فآووا إلى الكهف فانحطت صخرة من الجبل عليهم فانطبقت على باب الكهف فأوصدته عليهم فقال قائل منهم كل منكم يذكر أحسن عمل عمله فلعل الله يرحمنا فقال رجل منهم قد عملت مرة حسنه : كان لى أجراء يعملون عملا لى فاستأجرت كل رجل منهم بأجرة معلومة فجاء رجل منهم ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشطر أصحابه فعمل فى بقية نهاره كعمل رجل منهم نهاره كله فرأيت على من الإكرام أن لا أنقصه شيئاً مما استأجرت به أصحابه لما اجتهد فى عمله فقال رجل منهم ، أتعطى هذا مثل ما أعطيتنى ولم يعمل إلا نصف النهار؟ فقلت له يا عبد الله ألم أبخسك شيئاً من شرطك إنما هو مالى أحكم فيه بما شئت . قال فغضب وذهب وترك أجرته فوضعت حقه فى جانب من البيت ماشاء الله ثم مر بى بعد ذلك بقر فاشتريت به فنميته فبلغت ماشاء الله ، فمر بى بعد ذلك شيخ ضعيف لا أعرفه فقال لى ن لى عندك حقاً فقلت له اذكره لى حتى أعرفه قال فذكره فقلت له إياك أبغى وهذا حقك وعرضتها عليه فقال يا عبد الله لاتسخر بى إن لم تتصدق على فاعطنى حقى فقلت له ما أسخر إن هذا لحقك ومالى فيه شىء فدفعتها إليه ، اللهم إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء .

وقال الآخر : قد عملت حسنة مرة كان لى فضل مال وأصاب الناس شدة فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا ، فقلت والله ماهو دون نفسك فأبت على وذهبت ثم إنها رجعت فذكرتنى بالله فأبيت عليها وقلت والله ماهو دون نفسك فأبت على وذهبت ثم إنها رجعت إلى تنشدنى بالله فأبيت عليها وقلت والله ماهو دون نفسك فلما رأت ذلك أسلمت إلى نفسها فلما كشفتها ارتعدت فقلت لها ماشأنك ؟ فقالت ، إنى أخاف الله رب العالمين ، فقلت لها خفتيه فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء فتركتها وأعطيتها ماتحب اللهم إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا تصدع الجبل حتى تعارفنا .

وقال الآخر ، لقد عملت حسنة مرة كان لى أبوان كبيران ، وكان لى غنم فكنت أطعم أبوى وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمى، قال فأصابنى يوماغيث فحبسنى حتى أمسيت فأتيت إلى أهلى وأخذت محلبى فحلبت غنمى وتركتها قائمة ومضيت إلى أبوى فوجدتهما قد ناما فشق على ان أوقظهما وشق على ان اترك غنمى فما برحت جالساً ومحلبى فى يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا مانحن فيه ، وقال النعمان لكأنى أسمع من رسول الله ﷺ قال (كأن الجبل طبق ففرج الله عنهم فخرجوا) .

وقال ابن عباس ، الرقيم واد بين غطفان وأيلة دون فلسطين وهو الوادى الذى فيه أصحاب الكهف قال كعب هى قريتهم .

وقال سعيد بن جبير وغيره من أئمة الأخبار والرقيم لوح من حجارة ، وقيل من رصاص وكتبوا فيه أسماء أهل الكهف وقصتهم ثم جعلوه فى صندوق ووضعوه على باب الكهف ثم ذكر الله خبر أصحاب الكهف فقال (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة (قال أهل التفسير وأصحاب التواريخ) كان أمر أصحاب الكهف فى أيام ملوك الطوائف بين عيسى ومحمد عليهما السلام .

وأما قصتهم . فيقال لما ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة أتاه قوم من احبار اليهود فقالوا ياعمر أنت ولى الأمر بعد محمد ﷺ وصاحبه وإنا نريد ان نسألك عن خصال إن أخبرتنا بها علمنا ان الإسلام حق وان محمدا كان نبياً وإن لم تخبرنا علمنا أن الإسلام باطل وأن محمداً لم يكن نبياً فقال عمر ، سلوا عما بدا لكم ؟ قالوا أخبرنا عن أقفال السموات ماهى ؟ وعن مفاتيح السموات ماهى ؟ واخبرنا عن قبر سار بصاحبه ماهو ؟ وأخبرنا عن خمسة أنبياء مشوا على وجه الأرض ولم يخلقوا فى الأرحام ؟ واخبرنا عما يقول الدارج فى صياحه ؟ ومايقول الديك فى صراخه ؟ وما يقول الفرس فى صهيله ؟ وما يقول الضفدع فى نقيقه ؟ ومايقول الحمار فى نهيقه ؟ ومايقول القنبر فى صفيره ؟

قال فنكس عمر رأسه فى الأرض ثم قال لاعيب بعمر إذا سئل عما لا يعلم ان يقول لا اعلم وان يسأل عما يعلم فوثب اليهود وقالوا . نشهد ان محمداً لم يكن

نبيا وأن الإسلام باطل فوثب سلمان الفارسى وقال لليهود قفوا قليلا ثم توجه نحو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حتى دخل عليه فقال يا أبا الحسن أغث الإسلام فقال وما ذاك ؟ فأخبره الخبر فأقبل يرفل فى بردة رسول الله ﷺ فلما نظر إليه عمر وثب قائما فاعتنقه وقال يا أبا الحسن أنت لكل معضلة وشدة تدعى فدعا على كرم الله وجهه اليهود فقال سلوا عما بدا لكم فإن النبى ﷺ علمنى ألف باب من العلم فتشعب لى من كل باب ألف باب فسألوه عنها فقال على كرم الله وجهه . إن لى عليكم شريطة إذ أخبرتكم كما فى توراتكم دخلتم فى ديننا وآمنتم قالوا نعم ؛ فقال سلوا عن خصلة خصلة قالوا أخبرنا عن أقفال السموات ماهى ؟ قال أقفال السموات الشرك لأن العبد والأمة إذا كانا مشركين لم يرتفع لهما عمل .

قالوا أخبرنا عن مفاتيح السموات ماهى ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . قال فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويقولون صدق الفتى :

قال أخبرنا عن قبر سار بصاحبه ؟ قال الحوت الذى التقم يونس بن متى فسار به فى البحار السبعة ، فقالوا ، أخبرنا عمن أنذر قومه لاهو من الجن ولا من الإنس ؟ قال هى نملة سليمان بن داود قالت « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » قالوا أخبرنا عن خمسة مشوا فى الأرض ولم يخلقوا فى الأرحام ؟ قال ذلكم آدم وحواء وناقة صالح وكبش إبراهيم وعصا موسى ، قالوا أخبرنا ما يقول الدارج فى صياحه ؟ قال يقول الرحمن على العرش استوى ، قالوا أخبرنا ما يقول الديك فى صراخه ؟ قال يقول اذكروا الله ياغافلون . قالوا أخبرنا ما يقول الفرس فى صهيله ؟ قال يقول إذا مشى المؤمنون إلى الكافرين للجهاد اللهم انصر عبادك المؤمنين على الكافرين ، قالوا فأخبرنا ما يقول الحمار فى نهيقه ؟ قال يقول لعن الله العشار وينهق فى أعين الشياطين ، قالوا فأخبرنا ما يقول الضفدع فى نقيقه ، قال يقول سبحان ربى المعبود المسبح فى لجج البحار ، قالوا فأخبرنا ما يقول القنبر فى صفيره ؟ قال يقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد ، وكان اليهود ثلاثة نفر قال اثنان منهم نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ووثب الحبر الثالث فقال يا على لقد وقع فى قلوب أصحابى ما وقع من الإيمان والتصديق وقد بقى خصلة

واحدة اسألك عنها فقال سل ما بدا لك ، فقال أخبرنى عن قوم فى أول الزمان ماتوا ثلثمائة وتسع سنين ثم أحياهم الله فما كان من قصتهم ؟ قال على رضى الله عنه يا يهودى، هؤلاء أصحاب الكهف وقد أنزل الله على نبينا قرآناً فيه قصتهم وإن شئت قرأت، عليك قصتهم فقال ما أكثر ما قد سمعنا قراءتكم إن كنت عالماً فأخبرنى بأسمائهم، وأسماء آبائهم وأسماء مدينتهم واسم مليكهم واسم كلبهم واسم جبلهم واسم كهفهم وقصتهم من أولها إلى آخرها فاحتبى على كرم الله وجهه ببردة رسول الله ﷺ ثم قال : يا أخا العرب حدثنى حبيبى ﷺ انه كان بأرض رومية مدينة يقال لها أفسوس ويقال هى طرسوس وكان إسمها فى الجاهلية أفسوس فلما جاء الإسلام، سموها طرسوس قال وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم وانتشر أمرهم فسمع ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس وكان جباراً كافراً فأقبل فى عساكره حتى دخل أفسوس فاتخذها دار ملكه وبنى فيها قصراً فوثب اليهودى وقال : إن كنت عالماً فصف لى ذلك القصر ومجالسه فقال يا أخا اليهود ابتنى فيها قصراً من الرخام طوله فرسخ فى عرض فرسخ واتخذ فيه اربعة آلاف اسطوانة من الذهب وألف قنديل من الذهب لها سلاسل من اللجين تسرج فى كل ليلة بالأدهان الطيبة واتخذ لشرقى المجلس مائة وثمانين كوة ولغربيه كذلك وكانت الشمس من حين تطلع إلى حين تغيب تدور فى المجلس كيفما دارت واتخذ فيه سريراً من الذهب طوله ثمانون ذراعاً فى عرض أربعين ذراعاً مرصعاً بالجواهر . ونصب على يمين السرير ثمانين كرسياً من الذهب فأجلس عليها بطارقته واتخذ ايضاً ثمانين كرسياً من الذهب عن يساره فأجلس عليه هراقلته ثم جلس هو على السرير ووضع التاج على رأسه فوثب اليهودى، وقال : يا على إن كنت عالماً فأخبرنى مما كان تاجه ؟ فقال يا أخا اليهود كان تاجه من الذهب السبيك له تسعة أركان على كل ركن لؤلؤة تضىء كما يضىء المصباح فى الليلة الظلماء واتخذ خمسين غلاماً من أبناء البطارقة فنطقهم بمناطق من الديباج الأحمر وسرولهم بسراويل من القز الأخضر وزينهم وتوجهم ودملجهم وأعطاهم عمد الذهب واقامهم على رأسه واصطنع ستة غلمة من أولاد العلماء وجعلهم وراءه فما يقطع أمرا دونهم وأقام منهم ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن يساره فوثب اليهودى وقال،

يا علي إن كنت صادقاً فأخبرني ما كانت أسماء الستة ؟ فقال علي كرم الله وجهه :
حدثني حبيبي محمد ﷺ إن الذين كانوا عن يمينه أسماؤهم تمليخا ومكسلمينا ومحسلمينا
وأما الذين كانوا عن يساره فرطليوس وكشطوس وسادنيوس وكان يستشيرهم
في جميع أموره وكان إذا جلس كل يوم في صحن داره واجتمع الناس عنده دخل
من باب الدار ثلاثة غلمة في يد أحدهم جام من الذهب مملوء من المسك وفي يد الثاني
جام من فضة مملوء من ماء الورد وعلى يد الثالث طائر فيصيح فيطير الطائر حتى يقع
في جام ماء الورد فيتمرغ فيه فينشف ما فيه بريشه وجناحيه ثم يصيح به الثالث
فيطير فيقع على تاج الملك فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بما فيه من المسك
وماء الورد فمكث الملك في ملكه ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداع ولا وجع
ولا حمى ولا لعاب ولا بصاق ولا مخاط فلما رأى ذلك من نفسه عتا وطغا وتجبر
واستعصى وادعى الربوبية من دون الله تعالى ودعا إليه وجوه قومه فكل من أجابه
أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه ومن لم يجبه ويتابعه قتله فأجابوه بأجمعهم فأقاموا
في ملكه زماناً يعبدونه من دون الله تعالى فبينما هو ذات يوم جالس في عيد له على
سريره والتاج على رأسه إذا أتى بعض بطارقته فأخبره ان عساكر الفرس قد غشيته
يريدون قتاله فاغتم لذلك غماً شديداً حتى سقط التاج عن رأسه وسقط هو عن سريره
فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه إلى ذلك وكان عاقلا يقال له تمليخا فتفكر
وتذكر في نفسه وقال لو كان دقيانوس هذا إلهاً كما يزعم لما حزن ولما كان ينام ولما كان
يبول ويتغوط وليست هذه الأفعال من صفات الإله وكانت الفتية الستة يكونون
كل يوم عند واحد منهم ، وكان ذلك اليوم نوبة تمليخا فاجتمعوا عنده فأكلوا
وشربوا ولم يأكل تمليخا ولم يشرب ، فقالوا يا تمليخا مالك لا تأكل ولا تشرب ؟ فقال
يا إخواني وقع في قلبي شيء منعني عن الطعام والشراب والمنام فقالوا وما هو يا تمليخا
فقال أطلت فكري في هذه السماء فقلت من رفعها سقفاً محفوظاً بلا علاقة من فوقها
ولا دعامة من تحتها ومن أجرى فيها شمسها وقمرها ومن زينها بالنجوم ثم أطلت
فكري في هذه الأرض ومن سطحها على ظهر اليم الزاخر ومن حبسها وربطها بالجبال
الرواسي لئلا تميد ثم أطلت فكري في نفسي فقلت من أخرجني جنيناً من بطن أمي

من غذائى وربانى إن هذا صانعاً ومدبراً سوى دقيانوس الملك فانكبت الفتية على رجليه يقبلونها وقالوا يا تمليخا لقد وقع فى قلوبنا ما وقع فى قلبك فأشر علينا فقال إنى يا إخوانى ما أجد لى ولكم حيلة إلا الهرب من هذا الجبار إلى ملك السموات والأرض فقالوا الرأى ما رأيت فوثب تمليخا فابتاع تمراً بثلاثة دراهم وصرها فى ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا فلما ساروا قدر ثلاثة أميال من المدينة قال لهم تمليخا يا إخوتاه قد ذهب عنا ملك الدنيا وزال عنا أمره فانزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم لعل يجعل لكم من أمركم فرجاً ومخرجاً فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبعة فراسخ حتى صارت أرجلهم تقطر دماً لأنهم لم يعتادوا المشى على أقدامهم فاستقبلهم رجل راع فقالوا ايها الراعى أعندك شربة ماء أو لبن؟ فقال عندى ما تحبون ولكنى أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم إلا هراباً؟ فاخبرونى بقصتكم فقالوا ياهذا إنا دخلنا فى دين لا يحل لنا الكذب أفينجينا الصدق؟ قال نعم فاخبره بقصتهم فانكب الراعى على أرجلهم يقبلها ويقول قد وقع فى قلبى ما وقع فى قلوبكم فقفوا لى ههنا حتى أرد الأغنام إلى أربابها وأعود إليكم فوقفوا له فردها وأقبل يسعى فتبعه كلب له فوثب اليهودى قائماً وقال يا على إن كنت عالماً فاخبرنى ما كان لون الكلب واسمه فقال يا أخا اليهود حدثنى حبيبى محمد ﷺ أن الكلب كان أبلق بسواد وكان إسمه قطمير .

قال الأستاذ : اختلف العلماء فى لون كلب أصحاب الكهف فقال ابن عباس كان أنمر وقال مقاتل كان أصفر وقال محمد بن كعب كان من شدة حمرته وصفرته يضرب إلى الحمرة وقال الكلبى لأنه كالثلج وقيل لون الهرة وقيل لون السماء . واختلفوا فى إسمه ايضاً فروى عن على كرم الله وجهه أن إسمه ريان وقال ابن عباس كان إسمه قطميرى وهى إحدى الروايات عن على وقال شعيب الجبائى كان إسمه حمرا وقال الأوزاعى نتوى وقال مجاهد قنطوريا وقال عبدالله بن سلام بسيط وقال كعب أصهب واسمه تفنى وأخبرنا ابن فنجويه بإسناده عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ان إسم كلبهم كان قطمور وقيل قطفير .

أخبرنى أبو على الزهرى بإسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (ما يعلمهم إلا قليل) قال أنا من أولئك القليل وهم مكسلمينا وتمليخا ومرطليوس وبينوس وساونوس

وداانوس وكشطرس وهو الراعى والكلب إسمه قطمير كلب أنمر فوق القلطى ودون الكركى . وقال محمد بن إسحق القلطى الصغير وكتبه أبو عمرو الجبرى .

رجعنا إلى الحديث قال : فلما نظرت الفتية إلى الكلب قال بعضهم لبعض إنا نخاف ان يفضحنا هذا الكلب بنبيحه فألحوا عليه طرداً بالحجارة فلما نظر إليهم الكلب وتمطى وقال بلسان طلق ذلق ياقوم لم تطردونى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له دعونى أحرسكم من عدوكم وأتقرب بذلك إلى الله سبحانه وتعالى فتركوه ومضوا فصعد بهم الراعى جبلا وانحط بهم على كهف. فوثب اليهودى وقال : ياعلى ما إسم ذلك الجبل وما إسم الكهف قال أمير المؤمنين : ياأخا اليهود إسم الجبل تاجلوس وإسم الكهف الوصيد وقيل خيرم .

قال ابن عباس : كانوا يقلبون فى السنة مرة لئلا تأكل الأرض لحومهم ويقال إن يوم عاشوراء كان يوم تقلبهم قال أبو هريرة ، كان لهم فى كل سنة تقليبتان .

رجعنا إلى الحديث قال: وأوحى الله تعالى إلى الشمس فكانت « تزاور عن كهفهم ذات اليمين إذا طلعت وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال » فلما رجع الملك دقيانوس من عيده سأل عن الفتية فقيل له إنهم اتخذوا إلها غيرك وخرجوا هاربين منك فركب فى ثمانين ألف فارس وجعل يقفوا آثارهم حتى صعد الجبل وشارف الكهف فنظر إليهم مضطجعين فظن أنهم نيام فقال لأصحابه لو أردت ان أعاقبهم بشىء ماعاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم فائتونى بالبنائين فأتى بهم فرموا عليهم باب الكهف بالجبس والحجارة ثم قال لأصحابه قولوا لهم يقولون لإلههم الذى فى السماء إن كانوا صادقين يخرجهم من هذا الموضع فمكثوا ثلثمائة وتسع سنين فنفخ الله فيهم الروح وهبوا من رقدتهم لما بزغت الشمس فقال بعضهم لبعض لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله تعالى فقوموا بنا إلى العين فإذا بالعين قد غارت والأشجار قد جفت فقال بعضهم لبعض إن أمرنا هذا لفى عجب مثل هذه العين قد غارت فى ليلة واحدة ، ومثل هذه الأشجار قد جفت فى ليلة واحدة .

فألقى عليهم الجوع فقالوا أيكم يذهب بورقكم هذه إلى المدينة فليأتنا بطعام منها ولينظر أن لا يكون من الطعام الذى يعجن بشحم الخنازير وذلك قوله تعالى (فابعثوا احدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً) اى أحل وأجود وأطيب فقال لهم تمليخا يا إخوتى لا ياتيكم أحد بالطعام غيرى ولكن أيها الراعى ادفع إلى ثيابك وخذ ثيابى فلبس ثياب الراعى ومر وكان يمر بمواضع لا يعرفها وطرق ينكرها حتى أتى على باب المدينة فإذا عليه علم أخضر مكتوب عليه لا إله إلا الله عيسى روح الله صلى الله على نبينا وعليه وسلم فطفق الفتى ينظر إليه ويمسح عينيه ويقول أرانى نائماً .

فلما طال عليه ذلك دخل المدينة فمر باقوام يقرءون الإنجيل واستقبله أقوام لا يعرفهم حتى انتهى إلى السوق فإذا هو بخباز فقال له ياخباز ما إسم مدينتكم هذه قال أفسوس قال وما إسم ملككم ؟ قال عبد الرحمن قال تمليخا إن كنت صادقاً فإن أمرى عجيب ادفع إلى بهذه الدراهم طعاماً وكانت دراهم ذلك الزمان الأول ثقالا كباراً فعجب الخباز من تلك الدراهم فوثب اليهودى وقال : ياعلى إن كنت عالماً فاخبرنى كم كان وزن الدرهم منها ؟ فقال يا أخا اليهود أخبرنى حبيبى محمد ﷺ أن وزن كل درهم منها عشرة دراهم وثلثا درهم ؛ فقال له الخباز ياهذا إنك قد أصبت كنزاً فاعطنى بعضه وإلا ذهبت بك إلى الملك فقال تمليخا ما أصبت كنزاً وإنما هذا من ثمن تمر بعته بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام وقال ألا ترضى إن اصبت كنزاً ان نعطيني بعضه حتى تذكر رجلا جباراً كان يدعى الربوبية قد مات منذ ثلثمائة سنه وتسخر بى ثم أمسكه واجتمع الناس ثم إنهم أتوا به إلى الملك وكان عاقلا عادلا فقال لهم ماقصة هــــذا الفتى ؟ قالوا أصاب كنزا فقال له الملك لا تخف فإن نبينا عيسى عليه السلام أمرنا ان لا ناخذ من الكنوز إلا خمسها فادفع إلى خمس هذا الكنز وامض سالما فقال أيها الملك تثبت فى امرى ما اصبت كنزا وإنما انا من أهل هذه المدينة فقال له انت من اهلها ؟ قال نعم قال اتعرف احداً ، قال نعم قال فسمى لنا فسمى له نحواً من مائة رجل فلم يعرفوا منهم رجلا واحداً

قالوا ياهذا ما نعرف من هذه الأسماء وليست هى من أسماء أهل زماننا ولكن هل لك فى هذه المدينة داراً ؟ فقال نعم هذه دارى .

ثم قرع الباب فخرج لهم شيخ كبير قد استرخى حاجباه من الكبر على عينيه فقال أيها الناس ما بالكم ؟ فقال له رسول الملك إن هذا الغلام يزعم أن هذه الدار داره فغضب الشيخ والتفت إلى تمليخا وتبينه وقال ما إسمك ؟ قال تمليخا بن فلسطين فقال الشيخ أعد على فأعاد عليه فانكب الشيخ على يديه ورجليه يقبلهما وقال هذا جدى ورب الكعبة وهو أحد الفتية الذين هربوا من دقيانوس الملك الجبار إلى جبار السموات والأرض ولقد كان عيسى عليه السلام أخبرنا بقصتهم وأنهم سيحيون .

فأنهى ذلك إلى الملك وأتى إليهم وحضرهم .

فلما رأى الملك تمليخا نزل عن فرسه وحمل تمليخا على عاتقه فجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويقولون يا تمليخا مافعل بأصحابك فأخبرهم أنهم فى الكهف وكانت المدينة قد وليها رجلان رجل مسلم وملك نصرانى فركبا فى أصحابهما وأخذا تمليخا فلما صاروا قريباً من الكهف قال تمليخا ياقوم إنى أخاف ان إخوتى يحسون بوقع حوافر الخيل والدواب وصلصلة اللجم فقفوا قليلا حتى أدخل إليهم فأخبرهم فوقف الناس ودخل عليهم تمليخا فوثب إليه الفتية واعتنقوه وقالوا الحمد لله الذى نجاك من دقيانوس . فقال دعونى منكم ومن دقيانوس (كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) قال بل لبثتم ثلثمائة وتسع سنين وقد مات دقيانوس وانقرض قرن بعد قرن وآمن أهل المدينة بالله العظيم وقد جاءوكم فقالوا له يا تمليخا تريد ان تصيرنا فتنة للعالمين قال فماذا تريدون . قالوا ارفع يديك ونرفع أيدينا فرفعوا أيديهم وقالوا اللهم بحق ما أريتنا من العجائب فى أنفسنا إلا قبضت أرواحنا ولم يطلع علينا حـ [illegible] الوت فقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف وأقبل يطوفان حول الكهف سبعة أيام فلا يجدان له باباً ولا منفذا ولا مسلكا فأيقنا حينئذ بلطيف صنع الله الكريم وان أحوالهم كانت عبرة أراهم الله إياها فقالة

المسلم على ديني ماتوا أنا أبني على باب الكهف مسجدا وقال النصراني قل ماتوا على ديني فأنا أبني على باب الكهف ديرا فاقتتل الملكان فغلب المسلم النصراني فبني على باب الكهف مسجدا فذلك قوله تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) وذلك يا يهودي ما كان من قصتهم .

ثم قال علي كرم الله وجهه لليهودي سألتك بالله يا يهودي أوافق هذا ما في توراتكم فقال اليهودي مازدت حرفاً ولا نقصت حرفاً يا أبا الحسن لا تسمني يهودياً فإني اشهد ان لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإنك أعلم هذه الأمة .

وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتياناً مطوقين مسورين ذوي ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيدلهم عظيم في زي موكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله فقذف الله في قلوبهم الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد منهم الإيمان عن صاحبه فقالوا في أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض نخرج من بن أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنا عقاب بجرمهم

فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم عن صاحبه إيمانه مخافة على نفسه ثم قالوا لبعضهم ليخرج كل فتيين منكم فيخلوا ثم ليفش كل واحد منكم أمره إلى صاحبه ، فخرج فتيان منهم فتوافقا ثم تكلما فذكر كل واحد منهما امره لصاحبه فاقبلا وهما مستبشران إلى أصحابهما فقالا ؛ قد اتفقنا على أمر واحد وإذا هم جميعاً على الإيمان وإذا كهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً) فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلثمائة سنة وتسع سنين قال وفقدهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فلما لم يقدروا عليهم كتموا اسمائهم وأنسابهم وكتبوا في لوح فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في يوم كذا في شهر كذا من سنة كذا في مملكة فلان بن فلان ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا ليكونن لهذا شأن ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن .

وقال وهب بن منبه ، جاء حوارى من اصحاب عيسى عليه السلام إلى مدينة اصحاب الكهف فأراد ان يدخلها فقيل له ان على بابها صنما لا يدخلها أحد إلا سجد له فكره ان يدخلها فأتى إلى حمام قريب من تلك المدينة وأجر نفسه من الحمامى وكان يعمل فيه فرأى صاحب الحمام فى حمامه البركة ودر عليه الرزق فجعل يقوم عليه وتعلق به فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه ، وكان يقول ان الليل لى لا يحول بينى وبينه أحد فيصلى فكان على ذلك الحال حتى أتى ابن الملك الحمام بامرأة فدخل بها الحمام فعيره بها الحوارى وقالوا له انت ابن الملك وتدخل مع هذه فاستحيا ابن الملك بعد أن سبه وانتهره ولم يلتفت إليهم ثم إنهما دخلا معاً فماتا جميعاً فى الحمام فأتى الملك وقيل له قتل صاحب الحمام إبنك فالتمس فلم يقدر عليه فقال من كان بصحبته فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم فى زرع وهو على مثل إيمانهم فذكروا أنهم التمسوا فانطلق معهم ومعه كلبه حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوا وقالوا نبيت ههنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم فخرج الملك فى أصحابه يطلبونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف وكان كلما أراد الرجل منهم أن يدخل الكهف أرعب فلم يطق ان أحد يدخله فقال قائل أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم ، قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتوا عطشاً وجوعا ففعل ذلك ومضى زمان بعد زمان ثم ان راعيا أدركه المطر عند باب الكهف فقال لو فتحت باب هذا الكهف فادخلت فيه غنمى من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتح الباب ورد الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا .

وقال محمد بن إسحق . مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله تعالى وتوحيده فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك الروم يقال له دقيانوس كان عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه فى ذلك ممن أقام على دين المسيح وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحدا بدين المسيح إلا

بقتله حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهى أفسوس فلما نزلها كبر ذ على أهل الإيمان فاستخفوا وهربوا فى كل ناحية ودقيانوس قد أمر حين دخلها ان يتبع أهل الإيمان فيجمعوا إليه واتخذوا شرطاً من كفار أهلها وجعلوا يتبعون أهل الإيمان فى أماكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس فيقدمهم إلى الجامع الذى يذبح فيه للطواغيت فيخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان والذبح للطواغيت فمن القوم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى ان يعبد الله سبحانه وتعالى فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الإيمان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون.

فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزناً شديداً فقاموا وصلوا واشتغلوا بالتسبيح والتقديس والدعاء وكانوا من أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر فبكوا وتضرعوا وجعلوا يقولون (ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا) ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك .

فبينما هم على ذلك إذ أدركهم الشرط وكانوا قد دخلوا فى مصلى لهم فوجدوهم سجوداً على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى ويسألونه ان ينجيهم من دقيانوس وفتنته فلما رآهم أولئك الكفرة قالوا لهم : ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه ثم خرجوا من عندهم ورفعوا أمرهم إلى دقيانوس فقالوا تجمع الجميع وهؤلاء الفتية أهل بيتك يسخرون منك ويعصونك فلما سمع ذلك خيرهم إما ان يذبحوا لآلهتهم كما ذبح غيرهم من الناس وإما ان يقتلهم الملك مكسلمينا وكان أكبرهم إن لنا إلهاً ملأ السموات والأرض عظمة لن ندعو من دونه إلهاً أبدا ولن نقر بهذا الذى تدعو إليه ابداً ولكننا نعبد ربنا الذى له التحميد والتكبير والتسبيح والتقديس من أنفسنا خالصاً أبدا وإياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا فاصنع بنا ما بدا لك . ثم قال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال له قالوا فلما قالوا له ذلك أمر بهم فنزع ملبوساً كان عليهم

من ملبوس عظمائهم ثم قال لهم إنكم إذا فعلتم ما فعلتم سأؤخركم وأتفرغ لكم ما وعدتكم من العقوبة ما ينبغي ان أعجل لكم ذلك لأني أراكم شباباً حديثة أسنانكم فلا احب ان أهلككم حتى اجعل لكم ذلك أجلا فتراجعوا فيه عقولكم ثم امر بحلية كانت معهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم ثم أمر بهم فأخرجوهم من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم التي هم بها قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية ان دقيانوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم ان يذكرهم فأتمروا ان يأخذ رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة يقال له بانجلوس فيسكنون فيه ويعبدون الله تعالى حتى إذا قدم دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه وأخذ نفقة فتصدقوا منها وانطلقوا بما بقى معهم من نفقتهم واتبعهم كلب كان لأحدهم حتى اتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه .

رجعنا إلى حديث ابن إسحق . فلبثوا فى ذلك الكهف ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم من المدينة طعامهم سراً وكان من اجلدهم وأجملهم فكان تمليخا يصنع ذلك فإذا دخل المدينة يصنع ثياباً كانت عليه حساناً ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يستطعمون فيه ثم يأخذ درهما فينطلق إلى المدينة فيشترى طعاماً وشراباً ويتسمع ويتجسس لهم الخبر هل يذكرونهم بشىء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا كذلك ما لبثوا . ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان . وكان تمليخا بالمدينة يشترى طعاماً فرجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام فأخبرهم ان دقيانوس دخل المدينة وانهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيت فلما أخبرهم بذلك فزعوا ووقعوا سجدا يدعون الله تعالى ويتضرعون إليه ويتعوذون به من الفتنة .

ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضاً فبينما هم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف فأصابه ما أصابهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض قومه لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا يحسبون إنى غضبان عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمرى فإنى لا أغضب عليهم إذا تابوا وعبدوا آلهتى فقال عظماء المدينة ماأنت بحقيق أن ترحم قوما مردة عصاة مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا فى ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا .

فلما قالوا له ذلك غضب غضباً شديدا ثم أرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم وقال اخبرونى عن ابنائكم المردة الذين عصونى فقالوا له أما نحن فلم نعصك ولم تقتلنا بقوم مردة إنهم خالفونا وانطلقوا إلى جبل يسمى ناجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لايدرى مايصنع بالفتية فألقى الله فى نفسه ان يأمر بالكهف فيسد عليهم وأراد الله تعالى ان يكرمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف بعدهم وأن يبين لهم , أن الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من فى القبور ، فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى الكهف يموتون جوعا وعطشا ولكن كهفهم الذى اختاروه قبراً لهم وهو يظن انهم أيقاظ يعلمون مايصنع بهم وقد توفى الله ارواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف وقد غشيه ماغشيهم يقلبون ذات اليمين وذات الشمال ، قال ثم إن رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما إسم أحدهما تندروس والآخر روباس ائتمرا ان يكتبا شأن الفتية وأنسابهم واسمائهم وخبرهم فى لوح من رصاص ويجعلاه فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقال لعل الله ان يطلع على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليه خبرهم حين يقرأ هذا اللوح ففعلا ذلك وبنيا عليه فبقى دقيانوس ما بقى ومات قومه ومات قرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك .

ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وثمانين سنة فتحزب الناس فى ملكه أحزاباً منهم من أومن بالله العظيم ويعلم ان الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فشكا إلى الله وتضرع إليه وحزن حزناً شديداً لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق وإنهم يقولون لا حياة إلا الحياة الدنيا وإنما نبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد وأما الجسد فيأكله التراب ونسوا ما فى الكتاب .

فلما رأى الملك الصالح ذلك دخل بيته فأغلقه عليه ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله ويبكى مما يرى فيه الناس ويقول أى ربى قد ترى اختلاف هؤلاء ؟ فابعث لهم آية ثم ان الرحمن الرحيم جل وعز الذى يكره اختلاف العباد أراد ان يظهر الفتية اصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم فيجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا ان الساعة آتية لاريب فيها وأنه يستجيب لعبده الصالح تندوسيس ان يتم نعمته عليه ولا ينزع منه ملكه ولا الايمان الذى أعطاه وان لايعبد إلا الله ولا يشرك به شيئاً وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى به الكهف وكان إسم ذلك الرجل أولياس ان يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر عاملين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا عليهم باب الكهف وحجبهم الله عن الناس فيزعمون ان اشجع من يريد ان ينظر إليهم يدخل من باب الكهف ثم يتقدم حتى يرى كلبهم نائماً .

فلما نزعت الحجارة وفتح باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والعظمة والسلطان محيى الموتى للفتية ان يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض حتى كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون بها .

ثم إنهم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون لايرون فى وجوههم ولا أبصارهم ولا ألوانهم شيئاً ينكرونه إنما هم كهيئتهم حين رقدوا يرون أن ملكهم

دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم ، بين لنا ما الذى قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل لهم انهم قد ناموا كأطول ما كانوا ينامون فى الليلة التى أصبحوا بها حتى تساءلوا بينهم قالوا بعضهم لبعض « وكم لبثتم .قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » وكل ذلك فى أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم فى المدينة لتذبحوا للطواغيت أو تقتلوا قالوا فما شاء الله بعد ذلك فعل . فقال مكسلمينا . يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله تكفروا به بعد إيمانكم إذا دعاكم غداً .

ثم قالوا يا تمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال عنا بها اليوم وتلطف ولا تشعرن بك احداً وابتع لنا طعاما وائتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به أمس فإنه كان قليلا وقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها ثم أخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى حجارة منزوعة عن باب الكهف فتعجب منها ثم مر حتى أتى باب المدينة مستخفيا بعيداً عن الطريق تخوفا ان يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب به إلى دقيانوس الجبار ولا يشعر العبد الصالح ان دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك ثلثمائة سنة ، فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق الباب علامة لأهل الإيمان فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيا فنظر يميناً وشمالا ثم إنه ترك ذلك الباب وتحول إلى باب آخر من أبوابها فنظر فرأى مثل فجعل يتخيل له ان المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكونوا قبل ذلك فجعل يمشى بين بين أظهر أهل سوقها وهو يسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى انه حيران فقام مسنداً ظهره إلى جدران المدينة وهو يقول فى نفسه هذه ليست بالمدينة التى أعرفها فإنى اسمع كلام اهلها ولا أعرف واحداً منهم والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ولا يتوجها وجها ، ثم إنه لقى ف

أهل المدينة فقال له ما إسم هذه المدينة يافتى ؟ فقال أفسوس فى نفسه لعل بى مساً او أمرا اذهب عقلى والله يحق على أن أبادر الخروج منها قبل أن يصيبنى شر فأهلك هذا ما يحدث به تمليخا أصحابه حتى يبين لهم ما فيه ، ثم افاق وقال والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بى فكان اكيس لى فدنا من الذين يبيعون الطعام.

ثم أخرج الورقة التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال يا عبد الله بعنى بهذه طعاما فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فتعجب منها ثم طرحها إلى رجل من اصحابه فنظر إليها ، ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل فيتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد أصاب كنزاً فى الأرض من زمان طويل فلما رآهم يتشاورون من أجله فرق فرقاً شديداً فجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وإنهم يريدون ان يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس قال وجعل أناس آخرون يأتونه ويتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق اتفصلوا قد أخذتم ورقى فأمسكتموها فلا حاجة لى فى طعامكم فقالوا يافتى فمن انت وما شأنك ؟ فلما سمع قولهم عجب فى نفسه ثم قال قد وقعت فى كل شىء أحذر منه ثم قالوا والله يافتى إنك لاتستطيع ان تكتم ما وجدت ولا تظن فى نفسك ان تستخفى عليك فتحير فى نفسه وليس يدرى ما يقول لهم وما يرجع إليهم وفرق حتى ما يخبرهم بشىء فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه فى عنقه ثم جعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلا حتى سمع به من فيها وقيل أخذ رجل عنده كنزاً فاجتمع عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجعلوا ينظرون إليه ويقولون والله ما هذا الفتى من أهل المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه فجعل تمليخا وما يدرى ما يقول لهم مع ما يسمع منهم فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق ولم يتكلم ولو قال إنه من أهل المدينة لم يصدق وكان مستيقناً أن أباه وإخوته فى المدينة وان حسبه فى أهل المدينة من عظماء اهلها وانه لا يعرف اليوم من أهلها أحدا فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض اهله فيخاصه من أيديهم ، فبينما هو كذلك إذ

قد اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسى المدينة ومديريها وهما رجلان صالحان إسم احدهما ارموس والآخر اسطيوس .

فلما انطلقوا به ظن تمليخا انهم انطلقوا به إلى دقيانوس الملك فجعل يلتفت يميناً وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والحيران فجعل تمليخا يبكى ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السموات والأرض أفرغ على اليوم صبراً وأولج معى روحاً منك تؤيدنى به عند هذا الجبار وجعل يبكى ويقول فى نفسه فرق بينى وبين إخوتى ياليتهم يعلمون مالقيت فيأتون فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فإنا كنا قد توافقنا لنكونن معاً لا نكفر بالله ولا نفترق فى موت ولا فى حياة أبدا حتى انتهى إلى الرجلين الصالحين ارموس واسطيوس .

فلما علم تمليخا انه لم يذهب إلى دقيانوس أفاق وسكن ما به فأخذ أرموس واسطيوس الورق ونظرا إليهما وعجبا منها ثم قال أحـــدهما أين الكنز الذى وجدت يافتى ؛ فقال ما وجدت كنز وإنما هذه الورق ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ماشأنى وما أدرى ما أقول لكم فقال احدهما من انت ؟ فقال له تمليخا قال فمن أبوك ومن يعرفك بها ؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه فقال له أحدهما انت رجل كذاب لاتنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا مايقول غيره ثم انه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حضر : هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمداً لكى ينفلت منكم فقام احدهما ونظر إليه نظراً شديدا وقال له اتظن أنا رسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ولضرب هذه الورق ونقشها أكثر من ثلثمائة سنة أنت غلام شاب تظن ان تأفكنا وتسخر بنا ونحن سمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلد بايدنا وليس عندنا من هذا الضراب درهم ولا دينار لأعذبنك عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعرفنى هذا الكنز الذى وجدت ، فلما قال له ذلك قال تمليخا انبئونى عمن اسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عما عندى فقالوا

سل لا نكتمك شيئاً قال ما فعل بالملك دقيانوس ؟ فقال له تمليخا فوالله ما أجد من الناس أحدا يصدقني على ما أقول لقد كنا فتية وإن الملك دقيانوس أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فبتنا فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابي طعاماً وأتجسس الأخبار فإذا كما ترون فانطلقوا معي إلى الكهف الذى فى جبل ناجلوس أريكم اصحابي .

فلما سمع أرموس ما يقول تمليخا قال : ياقوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم عبرة على يد الفتى فانطلقوا معه يرينا اصحابه فانطلق معه أرموس وأسطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو اصحاب الكهف لينظروا اليهم وكان الفتية اصحاب الكهف ظنوا ان تمليخا قد احتبس عنهم لأنه لم يأتهم بطعامهم وشرابهم فى القدر الذى كان يأتى فيه فظنوا انه قد أخذ وذهب به إلى دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا انهم رسل الجبار وأنه بعث إليهم ليؤتى بهم فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الفلاة وسلم بعضهم على بعض ثم قالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدى دقيانوس ينتظر متى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهرانى الكهف ولم يشعروا إلا وأرموس واصحابه وقوف على باب الكهف وقد سبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم إنهم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم الحديث كله فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا أرموس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ، ثم دعا رجالا من عظماء اهل المدينة ففتحوا التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيهما إن مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وداسيوس وتكريوس وبطيونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة ان يفتنهم فدخلوا هذا الكهف فلما علم مكانهم ملكهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم إن عثر عليهم

فلما قرأوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوساً مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أرموس وأصحابه سجوداً وحمدوا الله الذى أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضاً وأنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ثم أن أرموس وأصحابه بعثوا إلى ملكهم الصالح تندوسيس فاعجل لعلك تنظر آية من آيات الله تعالى قد أظهرها الله فى ملكك فاعجل إلى فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الخبر قام من السدة التى كان عليها وقال: أحمدك اللهم رب السموات والأرض تطولت على ورحمتنى برحمتك فلم تطفىء النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح قسطيطوس الملك فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا الكهف .

فلما رأى الفتية تندوسيس الملك ومن معه فرحوا به وخروا سجداً لله على وجوههم وقام تندوسيس قدامهم ثم أعتقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه ثم إن الفتية قالت لتندوسيس نستودعك الله ونقرأ عليك السلام وحفظك الله وحفظ ملكك وأعاذك من شر الجن والإنس فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أرواحهم قام الملك إليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل رجل منهم تابوت من ذهب فلما أمسوا أتوه فى المنام فقالوا إنا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه فأمر الملك حينئذ بتوابيت من ساج فجعلوا فيها وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجداً يصلى فيه وجعل لهم عيداً عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة ، وقيل إنهم لما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى أدخل على أصحابى فأبشرهم فدخل وقبض الله روحه وأرواحهم وعمى عليهم مكانهم فلم يهتدوا إليه كما ذكر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فهذا خبر أصحاب الكهف .

﴿ مجلس فى ذكر جرجيس عليه السلام ﴾

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن عبد الله الضبي بإسناده عن وهب بن منبه اليمانى قال كان فى الموصل ملك يقال له زنانة، وكان ملك الشام كلها ودان له أهلها، وكان جبارا غاشيا وكان يعبد صنما يقال له أفلون ؛ وكان جرجيس عبدا صالحا من أهل فلسطين قد أدرك بقايا من حوارى عيسى بن مريم عليه السلام وكان تاجرا كثير المال عظيم الصدقة ؛ وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه فخرج يوما يريد ملك الموصل ومعه مال يريد ان يهديه إليه لئلا يجعل لأحد من تلك الملوك سلطانا عليه دونه فجاء وقد برز فى مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنصب والناس يعرضون عليه وهو يعذب من خالفه بأنواع العذاب وقد أوقد نارا عظيمة .

فلما رأى جرجيس عليه السلام فزع منه وهاله فعمد إلى المال الذى أراد أن يهديه له فقسمه على أهل ملته حتى لم يبق منه شيء وكره ان يجاهده بالمال فأقبل عليه ، وقال له اعلم أنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئاً ولا لغيرك وأن لك ربا هو الذى يملكك وغيرك وهو الذى خلقك ورزقك ويحييك ويميتك ويضرك وينفعك ؛ وإذا قال لشيء كن فيكون وإنك إنما عمدت إلى خلق من خلقه أصم لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً من الله فزينته بالذهب والفضة وجعلته فتنة الناس ثم عبدته من دون الله ، فقال الملك له ان سأله عن حاله وأمره ومن هو ومن أين هو ، فقال جرجيس أنا عبدالله وابن عبده وابن أذل عباده من التراب خلقت وإليه أصير ،فقال له الملك لو كان ربك الذى تزعم كما تقول لرؤى أثره عليك كما رؤى أثرى على من حولى ومن هو فى طاعتى فأجابه جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره ؛ ثم قال أتعدل أفلون الاصم الابكم الذى لا يغنى عنك شيئا برب العالمين الذين قامت السموات والارض بأمره أم تعدل طوفليا وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بما نال إلياس من ولاية الله تعالى فإن إلياس كان فى بدء امره آدميا يأكل الطعام ، ويمشى فى الاسواق فأكرمه الله تعالى حتى أنبت له الريش وكساه النور فصار

إنسيا سماويا أرضيا يطير مع الملائكة أم تعدل مخاطيس وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فإن الله تعالى فضله على رجال العالمين وجعله وأمه آية للمعتبرين ، أم تعدل هذه الروح الطيبة التى اختارها بكلمته وفضلها على إمائه وما نالت بولاية الله بأربيل وما نالت بولايتك حتى اقتحمت الكلاب بيتها فانتهشت لحمها وولغت فى دمها وقطعت الضباع أوصالها فقال له الملك إنك لتحدثنا بشىء ليس لنا به علم فائتنا بالرجلين اللذين ذكرتهما قال لن تراهما ولن يزياك إلا أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما فقال له الملك أما نحن فقد أعذرنا إليك وتبين لنا كذبك لأنك فخرت بأمور عجزت عنها ولم تأت بتصديقها ، ثم إن الملك خير جرجيس بين العذاب وبين السجود لأفلون فقال له جرجيس إن كان أفلون هو الذى رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبت ونصحت لى وإلا فاخسأ أيها النجس الملعون فلما سمعها الملك غضب وشتمه وسب إلهه وأمر بخشبة فنصبت له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدش بها جسده حتى تقطع لحمه وجلده وعروقه ونضح عليه خلال ذلك بالخل والخردل فحفظه الله من ذلك الألم والهلاك .

فلما رأى الملك أن ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد فأحميت حتى جعلته نارا فسمر بها رأسه حتى سال دماغه فحفظ من الألم والهلاك فلما رأى ذلك انه لم يقتله امر بحوض من نحاس فاوقد عليه حتى إذا جعله نارا امر به فادخل فى جوفه واطبق عليه فلم يدل فيه حتى برد حره فلما رأى ذلك لم يقتله دعا به فقال له جرجيس ألم تجد ألم هذا العذاب الذى تعذب به ، فقال إن ربى الذى أخبرتك به حمل العذاب عنى وصبرنى لأحتج عليك فلما قال له ذلك أيقن بالشر وخاف على نفسه وملكه وأجمع رأيه على ان يخلده فى السجن فقال له الملأ من قومه إنك إن تركته طليقا فى السجن يكلم الناس اوشك ان يميل بهم عليك ولكن مر له بعذاب فى السجن فيشغله عن كلام الناس فأمر به فبطح على وجهه ثم أوتده فى يديه ورجليه أربعة اوتاد من حديد وامر باسطوانه من رخام فوضعت على ظهره ثم إنه حمل تلك الأسطوانة ثمانية عشر رجلا فظل يومه موتدا تحت الحجر فلما ادركه الليل ارسل

الله تعالى إليه ملكا وذلك اول ما ايده الله تعالى بالملائكة واول ماجاء الوحى فقلع عنه الحجر ونزع عنه الأوتاد من يديه ورجليه وأطعمه وسقاه وبشره بالنصر .

فلما اصبح أخرجه من السجن ثم قال له الحق بعدوك فجاهده فى الله حق جهاده ، فإن الله يقول لك اصبر وابشر فإنى قد ابتليتك بعدوى هذا سبع سنين يعذبك ويقتلك فيهن اربع مرات وفى كل ذلك أرد إليك روحك فإذا كان فى القتلة الرابعة نقلت روحك وأوفيتك اجرك فلم يشعروا إلا وقد وقف جرجيس على رءوسهم يدعوهم إلى الله تعالى فقال له الملك يا جرجيس من أخرجك من السجن فقال أخرجنى الذى سلطانه فوق سلطانك فلما قال له ذلك ملىء غيظا ودعا بأصناف العذاب وقال لهم الملك مدوه بين خشبتين فمدوه ثم انهم وضعوا سيفا على مفرق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار جزءين ثم عمدوا إلى أجزائه فقطعوها قطعا ودعوا له سبعة أسود ضارية كانت له فى جب وكانت صنفا من اصناف عذابه فرموا بجسده إليها فلما هوى نحوها امر الله عز وجل فخضعت برءوسها وأعناقها وقامت على براثنها تقيــــه الألم فظل يومه ذلك ميتا وكانت أول موتة ماتها ، فلما ادركه الليل جمع الله جسده الذى قطعوه وضم بعضه إلى بعض حتى سواه ثم رد الله إليه روحه وأرسل إليه ملكا فاخرجه من الجب فأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ، فلما أصبحوا قال له الملك يا جرجيس قال ابيك قال له : اعلم ان القدرة التى خلق الله بها آدم هى التى اخرجتك من الجب اخرج فالحق بعدوك وجاهده فى الله حق جهاده ومت موت الصابرين ، فلم يشعر الملك واصحابه الآخرون إلا وقد أقبل جرجيس وهم عجوف على عيد لهم قد صنعوه فرحا بموت جرجيس ، فلما نظروا إلى جرجيس مقبلا قال الملك ما اشبه هذا الرجل بجرجيس فقالوا كأنه هو ، فقال الملك ليس هو حقا ألا ترون إلى سكون ريحه وقلة هيبته فقال جرجيس بلى هو فبئس القوم انتم قتلتم ومثلتم فاحيانى الله تعالى بقدرته فهلموا إلى الرب العظيم الذى اراكم ما اراكم فلما قال لهم ذلك اقبل بعضهم إلى بعض وقالوا ساحر سحر اعينكم فجمعوا له من كان ببلاد الملك من

السحرة فلما جاء السحرة قال الملك لكبيرهم أعرض على من كبير سحرك مايسر عيني فقال ادع لى بثور من البقر فلما اتى به نفث فى إحدى اذنيه فانشقت اثنتين ثم نفخ فى الأذن الأخرى فإذا هو ثوران ، ثم دعا ببذر فحرث وبذر ونبت الزرع وحصد ثم درس وذرى وطحن وعجن وخبز كل ذلك فى ساعة واحدة وهم يرون . فقال له الملك هل تقدر ان تمسخ لى جرجيس دابة ، فقال الساحر ادع لى بقدح من ماء ، فلما أتى بالقدح نفث فيه الساحر ثم قال للملك اعزم عليه ان يشرب به فشرب به جرجيس حتى اتى على آخره ؛ فلما فرغ منه قال له الساحر ماذا تجد ، قال ما اجد إلاخيرا كنت قـــد عطشت فعطف الله لى بهذا الشراب وقوانى به عليكم فلما قال ذلك اقبل الساحر على الملك وقال له ؛ اعلم ايها الملك انك كنت تقايس رجلا مثلك . إذا لكنت غلبته ، ولكنك تقايس جبار السموات والأرض وهو الملك الذى لايرام .

وقد كانت امرأة مسكينة من أهل الشام قد سمعت بجرجيس وما يصنع من الأعاجيب فأتته فقالت له ياجرجيس أنا امرأة مسكينة ولم يكن لى مال إلا ثوران كنت أحرث عليهما فماتا فجئتك لترحمنى وتدعو الله أن يحيى لى ثورى فلما سمع كلامها ذرفت عيناه ثم دعا الله ان يحيى لها ثوريها ثم إنه أعطاها عصا وقال لها اذهبى إلى ثوريك فاقرعيهما بهذه العصا وقولى لهما احييا بإذن الله تعالى فقالت ياجرجيس إن ثورى قد ماتا منذ سبعة أيام ومزقتهما السباع وبينى وبينهما أيام فقال لها لو لم تجدى منهما إلاشيئا يسيرا وقرعتيه بالعصا فإنهما يقومان بإذن الله تعالى فانطلقت المرأة حتى اتت مصرعهما وكان أول شىء بدا لها من ثوريها ذقن احدهما وشعر أذنى الآخر فجمعت احدهما إلى الآخر وقرعتهما بالعصا وقالت كما امرها فقام الثوران بإذن الله تعالى ؛ قال رجل من اصحاب الملك وكان أعظمهم عند الملك إنكم قدوضعتم أمرهذا الرجل على السحر وإنكم قد عذبتموه فلم يصل إليه عذابكم وقتلتموه فلم يمت فهل رأيتم ساحرا يدرأ عن نفسه الموت أو أحيا ميتا قطفقالوا إن كلامك بكلام رجل صبا إليه فلعله استهواك إليـــه

قال آمنت بالله واشهد أنى برىء مما تعتقدون فقام إليه الملك واصحابه فالخناجر فقتلوه .

فلما رأى القوم ذلك اتبع جرجيس اربعة آلاف آمنوا فعمد إليهم الملك فلم يزل يعذبهم بألوان العذاب حتى افناهم فلما فرغ منهم قال لجرجيس هلا دعوت ربك فاحيا لك اصحابك هؤلاء الذين قتلوا بجريرتك فقال جرجيس ماخلى بينى وبينهم حتى حانت آجالهم فقال لهم رجل من عظمائهم يقال له مخليطاش إنك زعمت يا جرجيس إن إلهك هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ؛ وإنى سائلك أمرا إن فعلته آمنت بك وصدقتك وكفيتك ؛ نحن قوم حولنا اربعة عشر كرسيا وهذه مائدة بيننا عليها أقداح وصحاف من اشجار شتى فادع ربك ينشىء هذه الكراسى والاوانى كما بدأها اول مرة تعود خضراء فيعرف كل عود منها انبوبته ورقه وزهره فقال له جرجيس : إنه على الله لهين فدعا الله عز وجل فما برحوا من مكانهم حتى اخضرت تلك الكراسى والأوانى كلها وأورقت وازهرت واثمرت فلما نظروا إلى ذلك انتدب لهم مخليطاش الذى تمنى عليه ماتمنى فقال انا اعذب لكم هذا الساحر عذابا يبطل به كيده ثم إنه عمد إلى نحاس فصنع منه صورة ثور له جوف واسع ثم حشاها نفطا ورصاصا وكبريتا وزرنيخا ثم ادخل جرجيس مع الحشو فى جوفه ثم اوقد على الصورة حتى التهب وذاب كل شىء فيها وجرجيس فى جوفها ؛

فلما مات جرجيس أرسل الله ريحا عاصفا فملأت السماء سحابا أسود فيه رعد وبرق وصواعق وأرسل الله إعصارا ملأت بلادهم عجاجا وقتاما ، وأرسل الله ميكائيل فاحتمل الصورة التى فيها جرجيس حتى إذا أقلها ضرب بها الأرض ففزع من روعها اهل الشام فخرجوا لوجوههم صاعقين وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيا . فلما وقف يكلمهم انكشفت الظلمة واسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم فقال له رجل يقال له طلوفليا لا ندرى ياجرجيس إن كنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربك . فإن كان ربك هو الذى يصنع فادعه يحيى لنا موتانا التى فى القبور فإن فيها اموانا منهم من نعرفه

ومنهم من لا نعرفه فقال له جرجيس لقد علمت أن ما صفح الله عنكم هذا الصفح ويريكم هذه الأعاجيب ثم إنه أمر بالقبور فنبشت وهى عظام رفات وأقبل جرجيس على الدعاء فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعة عشر إنسانا تسعة رجال وخمس نسوة وثلاثة صبية وإذا فيهم شيخ كبير فقال له جرجيس ياشيخ ما إسمك ، فقال ياجرجيس إسمى توبيل قال متى مت ، قال فى زمان كذا وكذا فحسبوه فاذا هو مات منذ أربعمائة عام ، فلما نظر الملك وأصحابه إلى مافعل قالوا ما بقى من أصناف العذاب شىء إلا وقد عذبتموه إلا الجوع والعطش فعذبوه بهما فعمد إلى بيت عجوز كبيرة فقيرة كان لها ابن أعمى أصم أبكم مقعد فحضروه فى بيتها وكانوا لا يوصلون له من عند أحد طعاماً ولا شراباً فلما بلغ به الجوع قال للعجوز هل عندك من طعام أو شراب فقالت لا ما عهدنا الطعام منذ كذا وكذا وسأخرج ألتمس لك شيئاً فقال لها جرجيس هل تعرفين الله تعالى ، قالت نعم . قال إياه تعبدين ؛ قالت لا ، فدعاها إلى الله فصدقته ، ثم إنها انطلقت تطلب لها شيئاً وكان فى بيتها دعامة من خشب يابسة تحمل خشب البيت فأقبل على الدعاء فأحضرت تلك الدعامة وأنبتت له كل فاكهة تؤكل أو تعرف حتى كان مما أنبتت اللوبيا والليان وهو مثل البردى ، فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رغدا فلما رأت الذى حدث فى بيتها من بعدها قالت آمنت بالذى أطعمك فى بيت الجوع فادع هذا الرب العظيم أن يشفى إبنى فقال لها أدنيه منى فأدنته فبصق فى عينيه فأبصر ونفث فى أذنيه فسمع فقالت له أطلق لسانه ورجليه رحمك الله قال لها أخريه فان له يوما عظيما .

وكان الملك قد خرج يوماً فى مدينته إذ وقع بصره على شجرة فقالوا له إن تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذى أردت ان تعذبه بالجوع فهو فيما يشاء يأكل وقد شبع منها وأشبع العجوز الكبيرة الفقيرة وردها كما كانت أول مرة فتركوها وأمر بجرجيس فبطح على وجهه وأوتدله أربعة أوتاد وأمر بعجل فأوقد اسطوانة وجعل فى أسفل العجل خناجر وشفار ثم أمر بأربعين ثوراً فنهضت بالعجل

بيضة واحدة وجرجيس تحتها فانقطع ثلاث قطع فأمر بقطعة أن تحرق فألقيت فى النار حتى عادت رماداً فبعث بذلك الرماد وبعث معه رجالا فذروه فى البحر فما برحوا عن مكانهم حتى سمعوا صوتاً من السماء : يابحر إن الله يأمرك أن تحفظ مافيك من الجسد الطيب فانى أريد أن أعيده كما كان ، ثم أرسل الله الرياح فأخرجته من البحر ثم جمعته حتى صار الرماد صرة واحدة كهيئته قبل أن يذرى فخرج معه جرجيس مغبرا ينفض رأسه فرجعوا ورجع جرجيس وأخبروا الملك فقال له الملك ياجرجيس هل لك فيما هو خير لى ولك ومما نحن فيه ولولا أن يقول الناس إنك غلبتنى وقهرتنى لاتبعتك وآمنت بك ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة وأذبح له شاة واحدة ثم إنى أفعل لك مايسرك فقال له نعم مهما شئت فعلت فأدخلنى فى صنمك ففرح الملك بقوله أن تظل هذا اليوم ولاتبيت هذه الليلة إلا فى بيتى وعلى فراشى وكرامتى حتى تستريح فأخلى له بيته فظل فيه جرجيس حتى إذا أدركه الليل قام يصلى ويقرأ الزبور وكان أحسن الناس صوتاً فلما سمعته امرأة الملك استجابت له فلم يشعر إلا وهى خلفه تبكى فدعاها جرجيس إلى الإيمان فآمنت به وأمرها فكتمت إيمانها فلما أن أصبح الصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها فلما سمعت العجوز بذلك خرجت تحمل إبنها على عاتقها توبخ جرجيس والناس مشتغلون عنها .

فلما دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظروا وإذا بالعجوز وإبنها على عاتقها أقرب الناس إليه مقاما فلما رآها جرجيس دعا ابن العجوز باسمه فنطق وأجابه ولم يتكلم قبل ذلك قط ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشى على رجليه ولم يكن يطأ الأرض قبل ذلك بقدميه قط ، فلما وقف بين يدى جرجيس قال له اذهب فادع لى هذه الأصنام وهى يومئذ سبعون صنما على منابر من ذهب وهم يعبدونها ويعبدون معها الشمس والقمر فقال له الغلام كيف أدعوا الأصنام فقال له قل لها ان جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذى خلقك إلا ما أجبتيه فلما قال لها الغلام ذلك أقبلت تتدحرج إلى جرجيس فما انتهت إليه ركض الأرض

برجله فخسف بها وبمنابرها وخرج إبليس لعنه الله من جوف صنم منها هاربا من الخسف فلما مر بجرجيس أخذ بناصيته فخضع له وكلمه جرجيس فقال أخبرنى أيها الروح النجسة والخلق الملعون ما الذى يحملك على أن تهلك الناس معك وأنت تعلم أنك وجندك تصيرون إلى جهنم ، فقال له إبليس لعنه الله لو خيرت بين ما أشرقت عليه الشمس و بين ما أظلم عليه الليل و بين هلكة واحد من بنى آدم وضلالته لاخترت هلكته على ذلك كله وإنه ليقع فى من الشهوة واللذة فى ذلك جميع ما يتلذذ به جميع الخلق ألم تعلم ياجرجيس أن الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا كلهم وامتنعت من السجود وقلت أنا خير منه ؛ قال فلما قال هذا خلى سبيله جرجيس .

قال الملك ياجرجيس غررتنى وخدعتنى وأهلكت آلهتى فقال جرجيس إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لدافعت عن نفسها وإنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلا ما ملكنى ربى .

فلما قال هذا جرجيس أقبلت امرأة الملك وكلمتهم وكشفت لهم عن إيمانها وقالت لهم ما تنتظرون من هذا الرجل إلا دعوة فيخسف بكم الأرض كما خسفه بأصنامكم اتقوا الله أيها القوم فى أنفسكم ، فقال الملك ويحك يااسكندرة ماأسرع ماأضلك هذا الساحر فى ليلة واحدة فقالت أما رأيت الله كيف يظفره بك ويسلطه عليك فيكون له الفلاح والحجة فى كل موطن .

فلما سمع كلامها أمر بها الملك عند ذلك فحملت على خشبة جرجيس التى كان علق عليها وجعلت عليه الأمشاط التى جعلت على جرجيس ؛ فلما آلمها قالت : ادع ربك يا جرجيس فيخفف عنى فانى قد آلمنى العذاب فقال لها انظرى فوقك فلما نظرت ضحكت فقال لها الملك ما يضحكك ، قالت أرى ملكين فوقى ومعهما تاج من حلى الجنة ينتظرون خروج روحى ؛ فلما خرجت روحها زيناها بذلك التاج ثم صعدا بها إلى الجنة . فلما قبض الله روحها أقبل جرجيس على الدعاء وقال اللهم انت أكرمتنى بهذا البلاء لتعطينى منازل الشهداء فهذا آخر أيامى الذى كنت

وعدتني فيه الراحة من بلاء الدنيا . اللهم إني أسألك أن لا تقبض روحي ولا أزول من مكاني هذا حتى تنزل بهؤلاء المتكبرين من سطواتك ونقمتك ، إلا قبلهم به حتى تشفي به صدري وتقر به عيني فإنهم ظلموني وعذبوني فيك . اللهم إني أسألك أن لا يدعو بعدي داع في بلاء وكرب فيذكرني ويشدك باسمي إلا فرجت عنه ورحمته وأجبته وشفعتني فيه فلما فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا فلما رأوا ذلك عمدوا إليه فضربوه بالسيوف غيظا من شدة الحريق ليعطيه الله بالقتلة الرابعة ما وعده ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رمادا فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها ، وكان جميع من آمن بجرجيس قد قتل وقتل معه أربعة وثلاثين ألفا وامرأة الملك ، وقال الأستاذ وكانت قصة جرجيس في أيام ملوك الطوائف والله أعلم .

(باب في قصة شمسون النبي عليه السلام)

أخبرنا عبد الله الضبي بإسناده عن وهب بن منبه ، ان رجلا من أهل قرية من قرى الروم يقال له شمسون بن مسوح كان فيهم مسلما من أهل الإنجيل وكانت أمه قد جعلته نذيرا وكان قومه أهل أوثان يعبدونها من دون الله وكان منزله منها على خمسة أميال وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم في الله فيقتل منهم ويسبي ويصيب الأموال فتعب وعطش انفجر له من الحجر ماء عذب فيشرب منه حتى يروى وكان قد أعطى قوة في البطش وكان لا يوثقه حديد ولا غيره فجاهدهم في الله ألف شهر يصيب منهم حاجته فاحتالوا عليه وقالوا لا نأتيه إلا من قبل امرأته فجعلوا لها جعلا على ذلك فأجابتهم وقالت أنا أوثقه لكم فأعطوها حبلا وثيقا . وقالوا لها إذا نام فأوثقي يديه إلى عنقه حتى تأتيه فتأخذه فلما نام أوثقت يديه إلى عنقه بذلك الحبل ، فلما انتبه من نومه جذبه بيديه فوقع من عنقه فقال لها لم فعلت ذلك فقالت له أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط فارسلت إليهم وقالت لهم إني قد ربطته بالحبل فلم يغن عنه شيئا فارسلوا إليها بجامعة من حديد وقالوا لها إذا نام فاجعليها في عنقه فلما نام جعلتها في عنقه ثم أحكمتها . فلما هب جذبها

فوقعت من عنقه ويده فقال لها لم فعلت هذا قالت أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط فهل فى الأرض شىء يغلبك قال لا إلا شىء واحد قالت وماهو . قال ما أنا بمخبرك به فلم تزل تسأله حتى قال لها ويحك إن أمى كانت أخبرتنى أن لا يغلبنى شىء أبدا ولا يغيظنى إلا شعرى فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه فأوقفه ذلك فبعثت إليهم فجاءوا وأخذوه فجدعوا أنفه وأذنيه وفقئوا عينيه وأوقفوه بين ظهرانى المدينة وكان ملكهم قد أشرف عليها هو والناس لينظروا إلى شمسون ومايصنع به فدعا الله شمسون حين مثلوا به وأوقفوه على الناس أن يسلطه عليهم فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة التى عليها الملك والناس معه فيجذبهما جميعاً فجذبهما فانهارت المدينة بمن فيها فهلكوا فيها هدما وهلكت ايضا امرأته معهم ورد الله تعالى عليه بصره وماأصابوا من جسده تاما وعاد كما كان وكانت قصة شمسون فى أيام ملوك الطوائف والله أعلم .

﴿ باب فى قصة أصحاب الأخدود ﴾

قال الله تعالى (قتل اصحاب الأخدود النار ذات الوقود) الآيات وروى عن عطاء عن ابن عباس انه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس ابن سرحيل فى الفترة قبل مولد النبى ﷺ بسبعين سنة وكان له ساحر حاذق فلما كبر قال للملك إنى قد كبرت . فابعث لى غلاما اعلمه السحر فبعث إليه غلاما يقال له عبد الله بن السامر يعلمه السحر فكره الغلام ذلك فجعل يتخلف عن الساحر وكان فى طريقه راهب حسن القراءة وحسن الصوت فقعد الغلام عنده وسمع كلامه فاعجبه وكان يبطىء عند الراهب ويأتى المعلم فيضربه ويقول له ما أبطاك . فشكا الغلام ذلك إلى الراهب فقال له الراهب إذا أتيت المعلم فقل حبسنى أبى وكان فى تلك البلاد حية عظيمة قد قطعت الطريق على الناس فمر بها الغلام ورماها بحجر وقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتلها فلما رماها قتلها فأتى الراهب وأخبره فقال الراهب أنت قتلتها ؟ قال نعم قال إن لك لشأناً

وقد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإذا ابتليت فلا تدل على فكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص ويشفى المرضى .

وكان للملك ابن عم مكفوف البصر فسمع بالغلام وقتله الحية ، فجاءه مع قائد وقال له . أنت قتلت الحية ؟ قال لا . قال فمن قتلها ؟ قال الله تعالى ، قال فمن الله قال رب السموات والأرض وما بينهما ورب الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة ، قال إن كنت صادقاً فادع الله أن يرد على بصرى فقال له الغلام أرأيت إن رد الله عليك بصرك تؤمن بالله . قال اللهم إن كان صادقاً فاردد عليه بصره فرجع إلى منزله بلا قائد ثم دخل على الملك فلما رآه تعجب منه وقال له من فعل هذا بك فقال الله قال ومن الله ؟ قال رب السموات والأرض فقال له الملك أخبرنى من علمك هذا ؟ فأبى فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فجىء بالغلام فقال له الملك يابنى قد بلغ من سحرك هذا ، فقال له الغلام إنى لا أشفى أحدا وإنما يشفى الله فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب فجىء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى ثم جىء بابن عم الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسهم فشقهم ثم التفت إلى الغلام وقال له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فذهبوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وهلكوا ثم جاء الغلام يمشى إلى الملك فقال له الملك مافعل أصحابك بك فقال كفانيهم الله فغاظ الملك ذلك فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال لهم اذهبوا به فى قرقور وهى السفينة واطرحوه فى البحر ولججوا به فيه فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فى البحر وأغرقوه فذهبوا به إلى البحر ، فقال الغلام اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك مافعل أصحابك، قال كفانيهم الله ، فقال له الملك اقتلاه بالسيف فنبا السيف عنه ، وفشا خبره فى الأرض وعرفه الناس وعظموه وعلموا أنه وأصحابه على الحق ثم إن الغلام قال للملك إنك لاتقدر على قتلى إلا ان تفعل ما آمرك به فقال وما هو ، قال تجمع

أهل مملكتك وأنت على سريرك فتصلبني على جذع وترميني بسهم وتقول باسم الله رب الغلام ، ففعل الملك ذلك ثم رماه وقال باسم الله فأصابه فى صدغه فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس لا إله إلا الله آمنا بدين عبد الله بن السامرى ولا دين إلا دينه ، فلما آمن الناس برب العالمين رب الغلام قيل للملك قد والله نزل بك ما كنت تحذر فغضب الملك وأغلق أبواب المدينة وأخذ أفواه السكك وخد أخدودا وملأه نارا ثم عرض الناس عليه رجلا رجلا فمن رجع عن الإسلام تركه ومن لم يرجع ألقاه فى الأخدود فاحترق وكانت امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أولاد أحدهم رضيع فقال لها الملك أترجعين عن دينك وإلا ألقيتك أنت وأولادك فى النار فأبت فأخذ إبنها الأكبر والأوسط فألقى فى النار ثم أخذ الرضيع وقال لها ارجعى فأبت فأمر بإلقائه فى النار فهمت المرأة بالرجوع فقال لها الصبى الصغير يا أماه لا ترجعى عن الاسلام فإنك على الحق ولا بأس عليك فألقى الصبى فى النار وأمه على أثره وقد روى هذا بنحو ماذكرناه مرفوعا عن رسول الله ﷺ .

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين بن جعفر المذكور بإسناده عن صهيب عن رسول الله ﷺ بمثل معناه « وقد تكلم ستة فى المهد شاهد يوسف الصديق عليه السلام وابن ماشطة بنت فرعون ويحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب وصاحب الأخدود »

وقال سعيد بن المسيب : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ ورد عليه كتاب أنهم وجدوا ذلك الغلام بنجران وهو واضع يده على صدغه فكلما مد يده عادت إلى الصدغ فكتب إليهم عمر واروه حيث وجدتموه وقال مقاتل كان أصحاب الأخاديد ثلاثة ، واحد بنجران اليمن وآخر بالشام وآخر بفارس حرقوا بالنار أما الذى بالشام فانطياخوش الرومى أحرق قوما من المؤمنين وأما بفارس فهو بختنصر ، وكانت قصته ما أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن أروى قال لما هزم المسلمون أهل الاسفندهار وانصرفوا جاءهم نعى عمر . فاجتمعوا وقالوا أى شىء تجرى على المجوس من الأحكام فإنهم ليسوا بأهل كتاب وليسوا من مشركى

العرب ، فقال على كرم الله وجهه : بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمرة قد أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبت على عقله فتناول أخته فوقع عليها فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها ويحك ماهذا الذى أتيت به وما المخرج منه ؟ فقالت المخرج منه أنك تخطب الناس فتقول : أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات إذا ذهب هذا فى الناس تناسوا ما حرمته عليهم ، فقام فيهم خطيبا فقال : أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات ، فقال الناس بأجمعهم : معاذ الله أن نؤمن بهذا ما جاءنا بهذا نبى ولا أنزل علينا فى كتاب فرجع إلى أخته وقال ويحك إن الناس قد أبوا على فقالت ابسط فيهم السوط فأبوا أن يقربوا له فقال لها إن الناس قد أبوا فقالت جرد فيهم السيف فأبوا أن يقروا فقالت خذ لهم الأخدود ثم اعرضهم عليه فمن تابعك حل عنه ومن أبى فاقذفه فى النار فأخذ الأخدود وأوقد فيه النيران وعرض أهل مملكته على ذلك فمن أبى قذفه فى النار ومن أجاب خلى سبيله فأنزل الله تعالى فيهم (قتل أصحاب الأخدود) إلى قوله تعالى (عذاب الحريق) وأما الذى فى اليمن فهو يوسف ذو نواس بن شراحبيل بن تبع بن يشرخ الحميرى ، وقال مقاتل إنما قذف فى النار يومئذ سبعة وسبعين إنسانا ، وقال الكلبى كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا فلما قذفوا المؤمنين فى النار خرجت النار إلى أعلى شفير الأخدود فأحرقتهم وارتفعت النار فوقهم إثنتا عشر ذراعا ونجا ذو نواس فسلط الله عليهم أرياطا الحبشى حتى غلب على اليمن فخرج هاربا فاقتحم البحر فأغرقه الله فيه ، وفيه يقول عمرو بن معديكرب :

أتوعدنى كأنك ذو رعين … بأنعم عيشة أو ذو نواس
وما قد كان قبلك فى نعيم … وملك ثابت فى الناس راسى
فقدتم عهد من عهد عاد … عظيم قاهر الجبروت قاسى
فأمسى أهله بادوا وأمسى … ينقل فى أناس من أناس

﴿ باب فى قصة أصحاب الفيل وبيان ما فيها من الفضل ﴾
(والشرف لنبينا محمد ﷺ)

قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) قال محمد بن إسحق بن يشار كان من حديث أصحاب الفيل ما ذكر بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وعمن بقى من علماء اليمن وغيرهم أن ملكا من ملوك حمير يقال له زرعة ذو نواس كان قد تهود واجتمعت معه حمير على ذلك إلا ما كان من أهل نجران فإنهم كانوا على دين النصرانية على حكم الإنجيل ولهم رأس يقال له عبد الله بن السامر فدعاهم إلى اليهودية فأبوا فخيرهم فاختاروا القتل فمنهم من قتل صبراً ، ومنهم من ألقى فى النار إلا رجلا من أهل سبأ يقال له دوس بن ثعلبان فذهب على فرس له يركض حتى أعجزهم فى الرمل فأتى قيصر فذكر له ما بلغ منهم واستنصره فقال له بعدت بلادك عنا ولكنى أكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على دينك قيصرك فكتب له وبعث معه رجلا من الحبشة يقال له إرياط فلما بعثه قال له إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها واخرب ثلث بلادها وابعث إلى بثلث سباياها فلما دخلها ناوشهم القتال فتفرقوا عن ذى نواس واقتحم به فرسه فاستعرض به البحر فهلكا جميعا فكان آخر العهد به ، ودخلها إرياط فعمل بما أمره النجاشى ، فقال ذو جدن الحميرى فيما أصاب أهل اليمن :

دعينى لا أبالك لم تطيقى	لحاك الله قد أنزفت ريقى
بذا عزف القيان إذا انتشا	إذا تسقى من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس على عار	إذا لم يشكنى فيها رفيقى
وإن الموت لا ينهاه ناه	ولو شرب الشفاء من النشوق
ولا مترهب فى اسطوان	يناطح جلده بيض الأنوق
وغمدان الذى نبئت عنه	بنوه مسكا فى رأس نيق
لمتهمه وأسفله حروث	وجر الموحل اللثق الزليق
مصابيح السليط يلحن فيه	إذا يمسى كومضان البروق

فأصبح بعـــد جدته رماداً ‏ وغير حســـنه لهب الحريق
ونخلتـــه التى غرست إليه ‏ يكاد اليسر يهصر بالعذوق
وأسلم ذو نواس مستبيناً ‏ وحذر قومك ضنك المضيق

قال : فأقام إرياط باليمن وكتب إليه النجاشي أن اثبت بجندك ومن معك حيناً ثم أن أبرهة بن الصباح ساخطه فى أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين فكانت معه طائفة ومع أبرهة طائفة ثم تزاحفا فلما دنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى إرياط وكان إرياط جسيما عظيما وسيما فى يده حربة ، وكان أبرهة رجلا قصيراً حاذراً لحيما وكان ذا دين فى النصرانية وكان خلف أبرهة وزيراً يقال له عتودة فلما دنوا رفع أرياط الحربة فضرب بها رأس أبرهة فوقعت على جنبيه فشرمت عينيه وجبينه وأنفه وشفته فلذلك سمى أبرهة الأشرم ، فلما رأى عتودة ذلك حمل على أرياط فقتله فاجتمع الجيش على أبرهة فبلغ النجاشى ما صنع أبرهة فغضب عليه وحلف لا يدع أبرهة حتى يجز ناصيته ويطأ بلاده ، ثم إنه كتب إلى أبرهة إنك عدوت على أميرى فقتلته بغير أمرى ، وكان أبرهة رجلا مارداً ، فلما بلغه قول النجاشى حلق رأسه وملأ جرابا من تراب أرضه وكتب إلى النجاشى : أيها الملك إنما كان إرياط عبدك وأنا عبدك اختلفنا فى أمرك وكنت أعلم بأرض الحبشة وأسوس لها وكنت أردته أن يعتزل بى فقتلته ، وقد بلغنى الذى حلف عليه الملك وقد حلقت رأسى وبعثت به إليك وملأت جرابا من تراب أرضى وبعثته إليك ليطأه الملك ليبر قسمه فلما انتهى إليه ذلك رضى عنه وأقره على عمله وكتب إليه بأن اثبت بمن معك من الجند ، ثم أن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء يقال لها القليس ، ثم كتب إلى النجاشى إنى قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن الملك مثلها قط لست منتهيا حتى أصرف إليها حج العرب فسمع بذلك رجل من بنى مالك بن كنانة فخرج إلى القليس ، فدخلها ليلا فقذر فيها تهونا بها وتغضبا للكعبة فبلغ ذلك أبرهة ، ويقال إنه أتاها ناظراً إليها فدخلها فوجد القذرة فيها ، فقال من اجترأ على هذا ؟ فقيل فعل هذا رجل من العرب من أهل ذلك البيت الذى يحجونه سمع بالذى قلت فصنع هذا فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها ،

فخرج سائراً من الحبشة إلى مكة وأخرج معه الفيل ، فبلغ ذلك العرب فأعظموه ورأوا جهاده حقا عليهم فخرج ملك من ملوك حمير يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه فهزمه وأخذ ذو نفر فأتى به إلى أبرهة فقال له أيها الملك لا تقتلنى فإن استبقاءك لى خير لك من قتلى ، فاستحياه وأوثقه وكان أبرهة رجلا حليما ثم خرج سائراً حتى إذ دنا من ديار خثعم خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم وهما شهران وناهش ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا أسيراً فقال أيها الملك إنى دليلك بأرض العرب فلا تقتلنى فاستبقاه وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث الثقفى فى رجال من ثقيف وقال له : أيها الملك إنما نحن عبيدك فإن كنت تريد البيت الذى بمكة فنحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا أبا رغال مولاهم فخرجوا حتى إذا كانوا بالمغمس مات أبو رغال فهو الذى ترجم قبره العرب وبعث أبرهة من المغمس رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على مقدمة خيله فجمع إليه أموالا وأصاب لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ مائتى بعير ثم أن أبرهة بعث حناطة الحميرى إلى أهل مكة سفيرا فقال له سل من شريفها ثم أبلغه إنى لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت فانطلق حناطة حتى دخل مكة فلقى عبد المطلب بن هاشم فقال له : إن الملك أرسلنى إليك لأخبرك أنه لم يأت للقتال إلا أن تقاتلوه إنما أتى لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم فقال عبد المطلب سنخلى بينه وبين ما جاء له فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وإن يخل بينه وبين ذلك فهو كذلك فوالله ما لنا به قوة قال فانطلق معى إلى الملك .

زعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة وكان راكبا عليها وركب معه بعض بنيه حتى قام المعسكر وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال له ياذو نفر هل عندك من غناء فيما نزل فقال له ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية لكن سأبعث لك أنيس سائس الفيل فإنه صديق لى فاسأله أن يصنع لك عنده عند الملك ما استطاع إليه من الخير ويعظم منزلتك وحظك عنده فأرسل إلى أنيس

فأتاه ، فقال له إن هذا سيد قريش صاحب عير مكة يعطى ويطعم الناس من السهل،
والجبل والوحوش والطير فى رءوس الجبال ، وقد أصاب الملك مائتى بعير ، فإنه
استطعت أن تنفعه عنده فهو صديق لى وإنى أحب ما يصل إليه من الخير ، ثم أنه
أنيسا دخل على أبرهة هو وعبد المطلب وقال له : أيها الملك هذا سيد قريش،
وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والجبل والطير والوحش فى رءوس
الجبال ، وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك فأذن له ، فلما دخل عليه وجلس بين يديه
فآواه وأجلسه معه على السرير ، ثم قال الترجمانه قل له ما حاجتك ؟ فقال له الترجمان
ذلك فقال له عبد المطلب حاجتى أن يرد على مائتى بعير أصابها لى فقال أبرهة
لترجمانه قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ولقد زهدت فيك الآن فقال له ولم ؟
قال حيث جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك لأهدمه لم تكلمنى فيه وتكلمنى
فى مائة بعير أصبتها فقال له عبد المطلب قل له أنا رب هذه الإبل ولهذا البيت رب
سيمنعه منك قال ما كان ليمنعه منى فقال له أنت وذاك ثم أمر له بإبله فردت عليه.

قال محمد بن إسحق وكان فيما يزعم بعض أهل العلم أن عبد المطلب قد ذهب
إلى أبرهة بعمرو بن معدى كرب بن الديل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة وهو
يومئذ سيد بنى كنانة وخويلد بن واثلة الهذلى وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا
على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى أن يرجع قال
فلما ردت الإبل على عبد المطلب رجع فأخبر قريشا الخبر وأمرهم أن يتفرقوا فى
الشعاب ويتحرزوا فى رءوس الجبال تخوفا عليهم من معرة الجيش إذا دخل
ففعلوا ذلك ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة فأخذ حلقة الباب وجعل يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   فامنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضا : لا هم أن المرء يمنـ   ـع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـ   ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم   ومحالهم أبداً محالك

عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بدالك

ثم أن عبد المطلب توجه فى بعض الوجوه مع قومه ، وأصبح أبرهة بالمغمش وقد تهيأ لدخول مكة وعبىء جيشه وهيا فيله ، وكان إسم الفيل محموداً وكان من قبل النجاشى بعثه إلى أبرهة وكان فيلا لم ير مثله فى الأرض عظما وقوة وجسما وقال الكلبى لم يكن عندهم إلا ذلك الفيل الواحد فلذلك قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) قال الضحاك : كانت الفيلة كثيرة . ويقال فإن معه إثنا عشر فيلا ، وإنما وحده (١) على هذا التأويل لوفاق رءوس الآى ، ويقال نسبهم إلى الفيل الأعظم ، قال فاقبل الفيل الأعظم فاخذ باذنه وقال : ابرك وقال ابرك محموداً أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فابى أن يقوم فضربوه بالمعول فى رأســـه فادخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه ورفعوه ليقوم فابى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ثم وجهوه لى الشام ففعل مثل ذلك ثم وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم ثم أن نفيلا خرج من عندهم وصعد إلى الجبل وأرسل الله تعالى طيراً من البحر كامثال الخطاطيف مع كل طير منهم ثلاثة أحجار حجران فى رجليه وحجر فى منقاره أمثال الحمص والعدس فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك وليس كل القوم أصابت فذلك قوله تعالى (طيراً ابابيل) أى متفرقة من ههنا وههنا ، قال ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطيور ، واكف كاكف الكلاب ورءوس كرءوس السباع ولم تر قبل ذلك ولا بعده ، وقال ابو الجوزاء : انشاها الله فى الهواء فى ذلك الوقت (ترميهم بحجارة من سجيل) اى سنك كل(٢) قال ابن مسعود صاحت الطير ورمتهم

---

(١) قوله : وإنما وحده الخ : المراد ان الإفراد فى الآية على هذا القول لوفاق رءوس الآى .

(٢) قوله : اى سنك كل : لفظ معربه سجيل .

بالحجارة ، وبعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها قوة فما وقع منها حجر على جنب رجل إلا خرج من الجنب الآخر ، وإذا وقع على رأس رجل خرج من دبره (فجعلهم كعصف مأكول) أي كزرع قد أكل حبه وبقي تبنه ، فلما رأت الحبشة ذلك خرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاءوا منه ويسألون عن نفيل ابن حبيب ليدلهم على الطريق فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمة .

اين المفر والإله الطالب   والأشرم المغلوب غير الغالب

وقال أيضا في ذلك

الا حييت عنا يا ردينا   نعمنا كم من الاصباح عيونا
ردينة لو رأيت ولم تريه   لدى جنب المحصب ما رأينا
إذا لعذرتني وحمدت امري   ولم تأسى على ما فات بيننا
حمدت الله إذ عاينت طيرا   وخفت حجارة ترمى علينا
وكل القوم يسألون عن نفيل   كأن على للحبشان دينا

وذكر زياد عن عبد الله بن عمر أن طير الأبابيل كانوا ابلوا من قبل البحر كرجال الهند ترميهم بحجارة اصغرها مثل رءوس الرجال واكبرها كالإبل الهزلة ما رمت اصابت وما اصابت قتلت ، وبعث الله تعالى على ابرهة داء في جسده فجعل تتساقط انامله كلما سقطت انملة اتبعتها انملة وقيح ودم فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيما بقي من اصحابه فما مات حتى تصدع صدره عن قلبه ، ثم هلك وزعم مقاتل بن سليمان ان السبب الذي جر حديث اصحاب الفيل هو أن فئة من قريش خرجوا تجارا إلى ارض النجاشي فساروا حتى دنوا من ساحل البحر وفي سندها حقف من احقافها بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل ويسميها النجاشي وأهل أرضه الماسرخسان فنزل القوم في سندها فجمعوا حطبا واججوا نارا واشتووا لحما ، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم صائف فهجت الرياح فاضطرم الهيكل نارا وانطلق الصريخ إلى النجاشي فاخبروه فاسف عند ذلك غضبا للبيعة فبعث ابرهة لهدم الكعبة وكان بمكة يومئذ ابو مسعود الثقفي ، وكان

مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتى بمكة ، وكان رجلا نبيها عليلا ، وكان لعبد المطلب خليلا فقال عبد المطلب يا أبا مسعود ؛ هذا يوم لا نستغنى فيه عن رايك فما رأيك ؟ فقال ابو مسعود لعبد المطلب اعمد إلى مائة من الإبل فاجعلها هدية لله تعالى وقلدها نعلا واثبتها فى الحرم لعل بعض هؤلاء السودان يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال ابو مسعود ؛ إن لهذا البيت ربا سيمنعه ، فقد نزل تبع ملك اليمن بصحراء هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه واظلم عليه ثلاثة ايام فلما رأى ذلك تبع كساه القباطى البيض وعظمه ونحر له جزورا .

ثم قال ابو مسعود لعبد المطلب انظر إلى بحر اليمن هل ترى شيئا ؟ فقال أرى طيرا بيضا نشأت من جانب البحر وحلقت على رءوسنا فقال له هل تعرفها ؟ فقال عبد المطلب والله ما اعرفها ما هى بنجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية ، وإنها تطير بارضنا غير مؤنسة قال ما قدرها ؟ قال امثال اليعاسيب فى مناقيرها حصى كانها حصى الحذف قد أقبلت كالليل المظلم ، فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركدت فوق رءوسهم فلما توافت الرجال كلها بخيالهم اهلت الطير فى مناقيره على من تحتها مكتوب على كل حجر إسم صاحبه ثم إنها رجعت من حيث جاءت فلما اصبح عبد المطلب وابو مسعود انحطا من ذروة الجبل فمشيا فلم يسمعا حسا فقال لبعضهما بات القوم سامدين فاصبحوا نياما فلما دنوا من معسكر الفيل فإذا هم خامدون وكان الحجر ينزل على بيضة احدهم فيفجرها ويقطع فى دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر فى الأرض من شدة وقعه .

ثم إن عبد المطلب أخذ فأسا وحفر حتى اعمق فى الأرض فملأها من الذهب الأحمر والجوهر الجيد ثم حفر لصاحبه حفرة فملأها ثم قال لأبى مسعود هات خاتمك فاختر فإن شئت اخذت حفرتى وإن شئت أخذت حفرتك وإن شئت فهما لك معا فقال له ابو مسعود اختر لى على نفسك فقال عبد المطلب إنى جعلت اجود المتاع فى حفرتى فهو لك .

ثم جلس كل واحد منهما على حفرته ونادى عبد المطلب بذلك على قريش، وأعطته الرياسة فلم يزل أبو مسعود وعبد المطلب غنيين من ذلك المال إلى أن ماتا.
وقال الواقدى بإسناده : غزا النجاشى إرياط فى أربعة آلاف إلى اليمن فغلب عليها فأكره الملوك واستذل الفقراء فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبو يكسوم فدعا إلى طاعته فأجابوه فقتل إرياط وغلب على اليمن فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج ، فسأل أين تذهب الناس ؟ فقيل يحجون بيت الله بمكة قال فما هو ؟ قالوا من حجر ، قال فما كسوته ؟ قالوا ما يأتى من ههنا من الوسائل فقال والمسيح لأبنين خيراً منه فبنى لهم بيتاً من الرخام الأبيض والأسود والأحمر والأصفر وحلاه بالذهب والفضة وحفه بالجواهر وجعل له أبواباً عليها صفائح الذهب ، وكان يوقدله بالمندل ويلطخ جدرانه بالمسك حتى تغيب الجواهر ، وأمر الناس بحجه فحجه كثير من قبائل العرب سنين ، ومكث فيه رجال يتعبدون ويتنسكون فأمهل نفيل الخثعمى حتى كان ليلة من الليالى لم ير أحداً يتحرك فجاء بعذر فلطخ بها قبلته وألقى فيه الجيف فأخبر أبرهة بذلك فغضب غضباً شديداً ، وقال إنما فعلت العرب ذلك غيظاً لأجل بيتهم ثم إنه قال لأنقضه حجراً حجراً ، ثم إنه كتب إلى النجاشى يخبره بذلك ويسأله أن يبعث إليه بفيله محمود وكان فيله لم ير مثله فى الأرض عظماً وجسما وقوه فبعثه إليه فغزا البيت كما ذكرنا إلى أن قال أقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار حجران فى رجليه وحجر فى منقاره فقذفت الحجارة عليهم لا تصيب شيئاً إلا هشمته وبعث الله سيلا أتى عليهم فذهب بهم إلى البحر فألقاهم فيه وولى أبرهة ومن معه هرباً فجعل أبرهة يسقط عضواً عضواً حتى مات وأما محمود النجاشى فربض ولم يشجع على الحرم فنجا ، وأما الفيلة الأخر فتشجعت فحصبت وهلكت ، وهو أول وقته رؤى عليه الجدرى والحصبة ، وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك :

إن آيات ربنا بينات ما يمارى بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

حوله من رجال كندة فتيان   مصاليت فى الحروب صقور
غادروه وقد تولوا سراعاً   كلهم عظم ساقه مكسور

وقال الكلبي : لما أهلكهم الله بالحجارة لم يفلت منهم إلا أبرهة الأشرم بن يكسوم فسار طائر يطير فوقه ولم يشعر به حتى دخل على النجاشي فأخبره بما أصابهم فما استتم كلامه حتى رماه طائر فسقط ميتاً فأرى الله النجاشي كيف كان هلاك أصحابه

وقال الواقدي : كان أبرهة جد النجاشي الذى كان فى زمن النبي ﷺ وآمن به واختلفوا فى تاريخ عام الفيل ، فقال مقاتل : كان أمر الفيل قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة ، وقال عبيد بن عمير الكلبي كان قبل مولده بثلاث وعشرين سنة ، وقال آخرون كانت قصة الفيل قبل العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وعلى هذا أكثر العلماء وهو الصحيح يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الجوزقي قال : سمعت عبد العزيز بن أبي ثابت الزبير ، حدثنا ابن موسى عن أبي الجوزاء قال : سمعت الملك بن مروان يقول لغياث بن أسيم الكناني يا غياث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ فقال إن رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا أسن منه .

ولد رسول الله ﷺ عام الفيل . ووقعت بي أمي على روث الفيل .

ويدل عليه أيضاً ما روى أن عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

فلما كفى الله أمر أصحاب الفيل عظمت العرب قريشاً وقالوا : هم أهل الله ، وإن الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم ، والله عز وجل أعلم وأحكم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه آمين ؟

(تم الكتاب)

فهرس قصص الأنبياء

(المسمى عرائس المجالس)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تمت)





